مجلة مجمع اللغة العربية بالشارقة

العدد الثّامن عشر - أكتوبر 2025 م

التّحليل الصّرفي الآليّ
ماهيَّته وأهميَّتُه

جماليّاتُ الخِطابِ الوَصفيِّ
في مَطالِع التَّشبيب

حكاية اللُّغة العربيَّة
في جامعة هانكوك للدِّراسات الأجنبيَّة

سيول - كوريا الجنوبيّة



سيول - (كوريا)

رمز الاستجابة السريعة للنسخة الرقمـيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ
ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾

[فصلت ٤٤]

صدق الله العظيم

بين يدي العدد

حينَ تَنتقِلُ اللُّغة من موطِنها الأوَّل إلى بيئاتٍ أبعد وثقافات أُخر، فإنَّها تصحب معها رؤيتها للعالم وأنماط تفكير أهلها، فتغدو تجربةُ تعليمِها دراسةً في الثَّقافة بقدر ما هي تدريبٌ على اللِّسان. والعربيَّة، بما تمتاز به من نظامٍ صرفيٍّ اشتقاقيٍّ دقيق، وبنيةٍ دلاليَّةٍ شديدة التَّرابط بين اللَّفظ والمعنى، تملك من المقوِّمات ما يجعلها لغةً قادرة على تمثيل حضارةٍ كاملة، ومن هنا، نجدُ أنَّ تعليم العربيَّة للنّاطقين بغيرها هو ميدان تتقاطع فيه المعرفة اللُّغويَّة بالوعي الثَّقافيّ، لأنَّ اللُّغة لا تُكتَسب بوصفها رموزًا صوتيَّة فحسب، بل بوصفها مدخلاً إلى منظومةٍ من القيم والمعارف والتَّصوُّرات.

وفي هذا الإطار، يُسلِّط هذا العددُ الضَّوء على تجربة أخرى استـثنائيَّة في تعليم اللُّغة العربيَّة وتعلُّمها في جامعة هانكوك للدِّراسات الأجنبيَّة في كوريا الجنوبيَّة، إذ تمثِّل أُنموذجًا أكاديميًّا ناجحًا لتعليم العربيَّة في سياقٍ ثقافيٍّ مُغاير، يجمعُ بين الوعي اللُّغويِّ والانفتاح الثَّقافيّ، ويُبرهِنُ على أنَّ العربيَّة تملك من المرونة والتَّماسك ما يجعلها لغةً قابلة للتَّعليم والتَّفاعل والتَّجذُّر في بيئاتٍ غير عربيَّة.

وانطلاقًا من هذا التَّصوُّر للُّغة بوصفها كيانًا ثقافيًّا حيًّا، يمضي هذا العدد في محاورِها المختلفة ليقدِّمَ رؤى علميَّة وأدبيَّة تتنوَّع في موضوعها وتتكامل في غايَتِها مكتوبة بأقلام نخبة من العلماء والدّارسين. ففي باب نظراتٍ في البيان القرآنيّ، يقدِّم الأستاذ الدُّكتور حميد مجول النّعيمي دراسةً لغويَّة علميَّة بعنوان: «ارتباط الشَّمس والقمر لفظيًّا وظاهراتهما الفيزيائيَّة الفلكيَّة بالنِّسبة إلى الأرض في القرآن الكريم»، يربط فيها بين اللُّغة والعلم، مبيّنًا كيف يجتمع البيان القرآنيُّ والدِّقَّة الكونيَّة في منظومةٍ واحدة من التَّعبير والمعنى.

وفي باب لغويّات، يتناول العدد بحثًا في «التَّحليل الصرفيّ الآليّ» مبرزًا التَّطبيق التّقنيّ في معالجة اللُّغة حاسوبيًّا. أمّا باب معجميّات فيضمُّ دراسةً بعنوان «المفارقة بين معجمات اللُّغة والحياة الاجتماعيَّة»، تحاول الكشف عن التَّطوُّر الدّلاليّ نتيجة تغيّرات الاستعمال في واقع النّاس، مؤكّدةً أنَّ اللُّغة كائنٌ اجتماعيّ يتغيّر بتغيّر الحياة.

كما يُسلِّط العددُ الضَّوءَ على عددٍ من الكتب والدِّراسات القيِّمة في الأدب واللُّغة، تعكس ثراء النِّتاج العربيِّ وتنوُّع مدارسه الفكريَّة، وعلى عددٍ من أعلام العربيَّة الذين أسهموا في ازدهارِها وتجديدها، من بينهم إيليا أبو ماضي وابن عصفور الأندلسيّ، وغيرهما من الرُّموز الذين تركوا أثرًا خالدًا في الوعي اللُّغويِّ والأدبيّ.

ويمتدُّ هذا التَّنويع ليشمل موضوعاتٍ متنوِّعة في الأدب والنَّقد واللُّغة، تُظهِر كيف تظلُّ العربيَّة في علومها وآدابها فضاءً خصبًا للحوار بين الفكر والجمال، وبين الأصالة والتَّجديد.

وعودًا على ما يجيء في ملف هذا العدد، فإنَّ تعليم العربيَّة للأمم الأخرى ليس مشروعًا لغويًّا ضيّق الحدود، بل هو فعلٌ حضاريٌّ يسعى إلى بناء فهم متبادلٍ بين الشُّعوب عبر اللُّغة بوصفها حاملاً للثَّقافة ووسيطًا للمعنى. فكلُّ دارسٍ للعربيَّة يُضيفُ إلى رصيدها منظورًا جديدًا، وكلُّ تجربةٍ تعليميَّةٍ ناجحة خارج موطنها تؤكِّد أنَّ اللُّغات تزداد حياةً بقدر ما تُدرَّس، وتزداد أثرًا بقدر ما تُفهَم في ضوء ثقافتها ومجتمعها. وهكذا تمضي العربيَّة، في هذا العدد كما في مسيرتها، من فضاء اللِّسان إلى فضاء الإنسان.

هيئة التّحرير

مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

مجلّة أدبيّة لغويّة تصدر عن

حكومة الشّارقة Government of Sharjah

مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السّنة الثّالثة – العدد الثامن عشر – أكتوبر 2025 م

مجلّة أدبيّة لغويّة تُعنى بقضايا اللّغة العربيّة وآدابها

المراسلات

هاتف : 400 60 51 6 971+

فاكس : 401 60 51 6 971+

ص.ب : الشارقة ، 1973

shj_ala www.alashj.ae

Sharjah.ala info@alashj.ae

مجمع اللغة العربية بالشارقة

امسح الرمز لزيارة موقع مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

لمشاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التّواصل على البريد الإلكترونيّ

Magazine@alashj.ae



8

حكاية اللّغة العربيّة في جامعة هانكوك للدّراسات الأجنبيّة

مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة



36

الكِنَايَةُ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ ومَفْهُومُ الاخْتِيَارِ الحِجَاجِيِّ

يُعنى هذا البحث ببَيان استراتيجيَّة خطابيَّة هي جزء من نسَق التَّفكير البلاغيّ العربيّ القديم.



44

الإشْكَالُ النَّحْوِيُّ وسُلْطَتُه في تَشْكِيلِ المَعْنى قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾

هَذه مسألةٌ نحويّةٌ مشكلةٌ، فورُودُ المضارِع المُعْتَلِّ المَرْفُوع ﴿يَسْرِ﴾ (بحذف الياء) دون جَازم، إشْكَاليَّةٌ نَحْويّةٌ تَسْتَدْعي الوُقُوفَ عندَها طويلًا؛ بَحْثًا عَن علَّةِ الحَذْفِ الذي وَقَعَ دونَ عَاملٍ.

المحتويات

نظراتٌ في البيانِ القرآنيّ

18 ارْتِبَـاطُ الشَّـمْسِ وَالقَمَـرِ لَفْظِيّـا وَظَاهِرَاتُهُمَـا الفِيزيائِيَّـةُ الفَلَكِيَّـةُ بِالنِّسْبَةِ إِلـى الأَرْضِ فِـي القُـرْآنِ الكَرِيـم

26 الرَّوابِطُ والتّقْنِيّاتُ الحِجاجِيَّةُ في سُورَةِ هودٍ بين نوحٍ عليْهِ السَّلامُ وَقَوْمِه

لغويّات

46 التَّحْلِيلُ الصَّرْفِيُّ الآليُّ ماهيّتُه وأهمّيّتُه

50 الجُمْلَـةُ العَرَبِيّـةُ فـي النَّحْـوِ الوَظيفِـيّ مِـنَ التّركيـبِ إلـى السِّـيَاقِ التَّدَاوُلِـيّ

مُعجَميّات

56 المُفَارَقَـةُ بَيْـنَ مَعَاجِــمِ اللُّغَـةِ والحَيَـاة الاجْتِمَاعِيَّـةِ: لَفْظَتَـا (المُؤَامَـرَة، والاسْـتِمَارَة) أُنْمُوذَجًـا.

60 رحلـة مـع الجـذر (أ د ب)

70 الـمَنْجَنِيق بيـن الأَصْـل اللُّغَـويّ والاسـتِعْمَال الحَرْبِـيّ.

كُتُبٌ ودِراساتٌ

80 عـرض كتـاب: «تَـوْظِـيفُ التُّـرَاثِ فـي أَدَبِ الأَطْفَـالِ»

84 وقفـةٌ مَـع كِتـاب: همـزة الاسـتفهامِ فـي القُـرآن الكريـم

96 وصيـة الشـيخ محمـد الطاهـر ابـن عاشـور بمكتبتـه

مِن أعْلامِ العَرَبِيّة

102 ابنُ عُصفورٍ الأَنْدَلُسِـيّ أُستـاذُ العَـرَبِيَّة

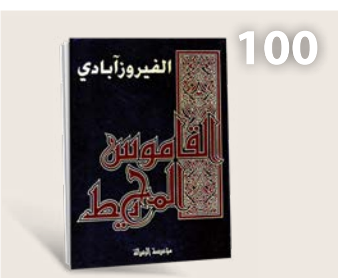


مجمع اللّغة العربيّة يُعزّز المهارات اللّغويّة لـ51 مـوظفًا مـن «اقـتـصـاديّة الشـارقـة»



الإيجَـازُ لِمَقَاصِـدِ القُـرْآنِ فـي أُمِّ الكِتَـاب

سورةُ الفاتحة هي تَكثيفٌ إعْجَازيٌّ وبَيَانيٌّ في غايَة الإحكام، فقدْ شَمَلَتْ في آياتها السَّبْع مَقاصدَ القرآن الكريم في وحدانيّة الله وتفرُّده وفي الدَّعوة للعبادة وطريق الحقّ.



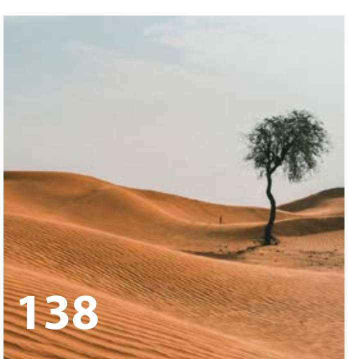
شَرْحُ (القَامُوس المُحِيط) بِحَاضِرَةِ سِجِلْمَاسَةَ العَالِمَة

بعْد طُول نظرٍ في خُطبة الزَّبيديّ، لحظْنا أنَّ المَقاصد الثاويَة وراء خطابه تتمثّل في تدبُّر القاموس المحيط بوصْفه صناعةً أو على الأقل بوصْفه فنًّا من فنون العلم



هِجَاءُ الكِبَارِ أَقْصَرُ الطُّرُقِ إِلَى الشُّهْرَة

يُعَدُّ الهجاءُ أحَدَ الأغراض المَركزيّة في الشِّعر العَربيِّ القَديم، يَسعَى فيه الشّاعرُ إلى النَّيل مِنَ المَهجوِّ بطَريقةٍ تَضَعُهُ وتُعَدِّدُ مَساوئَه.



الصَّحْـرَاءُ فِـي شِعْرِ ذِي الرُّمَّـة

لا يصدُقُ في غَيْلان ذي الرُّمَة وصفٌ مناسبٌ ما صدقَ فيه وصْفُه لنفسه بأنّه «أخو تنائف»، لقد عرَف الرّجلُ نفسَه وعرَفها بهذا التّعبير الدّقيق.

فـي رحـاب العـربيّة (2)

تَعَلُّمُ العربيّة دينٌ، والتَّفَقُّهُ في علومها عبادة

متى تكونُ الفُصحى لغةً شفويّةً يتحدَّثُها النّاسُ، كلٌّ في مجال عمله وتخصّصه، كما يكتُبُ بها الكتّابُ المُجيدون وينظِمُ بها الشّعراء قصائدهم على اختلاف مشاربهم ومواردهم؟ متى تعودُ إلى العربيّة نضارتُها وبهاؤها؟ وتَرْتدُّ إليها بهجتُها ورُواؤها؟

لا يخفى على ذي بصر ولا يلتبسُ على ذي بصيرة أنَّ العربيّة هي حارسةٌ لعلوم الأمّة الإسلاميّة وفنونها، وحافظةٌ للشّريعة المطهّرة، وحاملةٌ للوحي المقدّس، ولا يختلفُ اثنان، ولا يمتري عاقلٌ أنَّ موقعَ اللّسان العربيّ من علوم الشّريعة هو موقعُ اللّسان من جوارح الإنسان؛ فهي التي تُبينُ عنها، وتَعْرِضُها، وتُحبّبُ النّاس فيها، وتُقرّبُ معانيها إلى القارئين والمُستنبطين، وتنشرُ حُبَّ الشرع في القلوب.

العربيّة لسانُ الإسلام الرّسميّ، والنّاطقُ المُعبِّر عن علومه وفنونه، والحافظةُ لتاريخ الأمّة العربيّة، وأيّامها، وأدبائها ومفكّريها وحكّامها وأولي الشأن فيها...



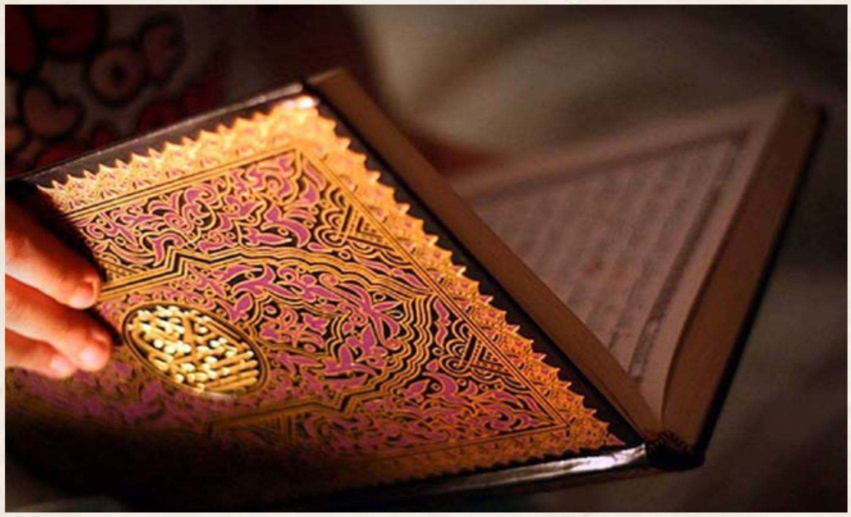
د.امحمد المستغانمي
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

إذا أصاب العربيّةَ الوهْنُ، وسرى في جسمها الضَّعْف، صَعُبَ على المسلمين وعلى أبناء العروبة فَهْمُ كتاب الله العزيز، وشقَّ عليهم إدراكُ أغراض حديث النّبيّ المُجتبى صلّى الله عليه وسلّم، وإذا استعْجَمَ فَهْمُ الكتاب على النّاس، وكلّت القرائحُ وقصُرَت عن إدراك معانيه، وأوصِدَت الأبوابُ دون التّدبّر في ألفاظه وآياته، فإنّ النتيجة تكونُ وخيمة، وتُقامُ سُدودٌ بين النّاس وبين فَهْم شؤون دينهم، وترتدُّ أبصارهم كليلة حسيرة عن العيش في رحابه والتّفيُّؤ بنسيم ظلاله، والابتهاج بجمال رياضه، وعِطْر رياحينه، وأريج أزاهيره.

ثمّ إنّه من الطّبيعيّ أن تموت الفضائلُ في نفوس أبناء الجيل، وتُنتَهَك حرماتُ الأخلاق، وتروجَ سوقُ الشّهوات والنّزوات.

بنظرة سريعة في تاريخ الحضارة الإسلاميّة في أيّام عِزّها وفترة مجدها، يجِدُ النّاظر أنَّ تلك الحضارةَ الشّامخة وذلك الازدهار المُتألّق ما كان ليتحقّقَ لولا ارتباط الأمّة بكتاب ربّها سبحانه وسُنّة نبيّها صلّى الله عليه وسلّم من خلال جسر اللغة العربيّة. والعكسُ صحيح، فإنّ فترات الرّكود وعهود الجمود التي عاشها أبناءُ الأمّة وكثيرٌ من أجيال الانغلاق الفكريّ، سادت فيها العُجمة، وشاع فيها اللّحنُ، وتفشّى في أبناء العروبة الجهل بالعربيّة وأساليب الإبانة والتّبيين فيها، وتبِعَ ذلك جهلٌ بأحكام الإسلام، وبُعدٌ عن منهجه الحضاريّ القائم على الاعتدال والتّسامُح، وولّد ذلك أيضا ميلا عن سنّة خير بني عدنان وعُزوفا عن معالم حياته المستنيرة الوضّاءة.

أقول: طلَبُ العربيّة والجِدُّ في تعلّمها دينٌ وتعبّدٌ بين يدي ربّ العالمين، وقد علِمَ أبناءُ الجيل الأوّل من آبائنا وأسلافنا أنَّ ما لا يتمُّ الواجبُ



> **العربيّة لسانُ الإسلام الرّسميّ، والنّاطقُ المُعَبِّر عن علومه وفنونه، والحافظةُ لتاريخ الأمّة العربيّة، وأيّامها، وأدبائها ومفكّريها وحكّامها وأولي الشأن فيها.**

> **إنّ مقام العربيّة من علوم الشّريعة هو مقامُ القلب من الجسم، وماء الحياة من الفكر العربيّ، وموضعُ المفتاح من الباب، ولولاها ما علا للعرب شأن، ولا قامت للمسلمين سوق، ولا ارتفع لهم بُنيان.**

إلا به فهو واجب، فانْبَرَوْا إلى تعلّمها، وطلبوها ودرسوها، وأتقنوا علومها وفنونها، وجمعوا شواردها وأوابدَها، وجلائلها ودقائقها، ويكفيك أخي القارئ أن تعْلَمَ أنَّ قواعدها ما دُوِّنَت إلا لحفظ الكتاب العزيز من اللّحن حين رأى الغيورون من أبنائها تفَشِّيَ اللّحن والخطإ في ألسنة المُوَلّدين.

وبعد أن وطّدَ النّحاةُ الأوائلُ أساسات بناء النّحو، وشيّدوا أركانه، سارع البيانيّون البلاغيّون والمفسّرون المقتدرون إلى تشييد أركان صَرْح البلاغة العظيم، وظهرت كتبُ إعجاز القرآن تترى على أيدي فطاحلة البيان وجهابذة التّفسير والدّراسات القرآنيّة من أمثال الرّمّاني (ت 483 هـ)، والخطّابي (ت 883 هـ)، والجُرجاني (ت 174 هـ) وغيرهم، ثمّ انهمرت سيولُ الإبداع تسقي العقول والقرائح، وتروي النّفوس الظّمأى بماء بلاغات القرآن المبين.

ومن أراد مزيدا من الدّلائل على أنّ موقع العربيّة من علوم الشّريعة هو موقعُ الرّوح من الجسد، أو موقعُ القلب من جوارح الإنسان، فما عليه إلا أن يتأمّلَ في عدد من العلوم المهمّة في بناء صرح الشّريعة...ولينظرْ على أيّ شيء تقوم أساساتها ويرتفعُ بنيانُها؟

الجواب: كلّ علوم الشّريعة تقوم على آيات القرآن الكريم ونصوص الحديث النّبويّ وأسس الاعتقاد السليم. والسّؤال الذي يتبادرُ إلى ذهن كلّ عاقل مُستبصر: ما السّبيلُ الأنجع والمَهْيَعُ الأسلم الأنفع الذي يقودُ القارئ والباحث إلى فَهْمٍ سليم للمصدرين العظيمين: القرآن والسّنّة الصّحيحة؟

ومن أين للباحث العاقل والدّارس المُستبصر أن يَسْبُرَ أغوارَ علوم الشّريعة ويستخرج دُرَرَها وجواهِرَها إذا كان خِلوًا من علوم الآلة؟ أين هو من دراسة نصوص الشّرع والاستنباط القويم إذا لم يكن مصاحبا لعلوم النحو والصّرف والبلاغة والعروض والإملاء وغيرها من علوم الآلة الضروريّة لكل فهم؟ ويُضيفُ إليها ما وَسِعه تعلُّمُهُ وحِفظُهُ من مباحث أصول الفقه وقواعد التفسير وعلوم الحديث والقراءات والنّاسخ والمنسوخ وبقيّة العلوم التي تُمكّنُه من البحث والقراءة في نصوص الشرع على دراية وبصيرة؟

كيفَ تقفُ أيّها القارئُ الكريمُ

على معاني الذّكر الحكيم، وتَفْهَمُ دلالات ألفاظه، وتستنبط ما يفيض به المنطوق، وما يُوحي به المفهوم إذا ضربَ الجهل بينك وبين علوم العربيّة سدّا منيعا وحِجْرًا محجورا؟

ما السّبيلُ إلى فهم المعنى العامّ للآية والغرض الذي تروم تحقيقه في أذهان المُتلقّين إذا كان القارئُ لا يُميّزُ بين ما حقّهُ الرّفعُ وما حقّه النّصبُ وما حقّه الجرّ وغير ذلك من علامات الإعراب الدّالّات على المعاني؟

وهَبْ أنّك علِمتَ بعض أساسيّات النّحو العربيّ، فكيف السّبيلُ لِتَفْقَهَ عبارةً مثل قوله تعالى {فلمّا سُقِطَ في أيديهم}، أو جملة مثل قوله سبحانه: {واشتعل الرّأس شيبا}، وهل رأسُ الإنسان يشتعلُ على الحقيقة أو على المجاز، وما الاستعارة، وما نوعها، وما الغرض من استعمالها في هذا التّعبير؟

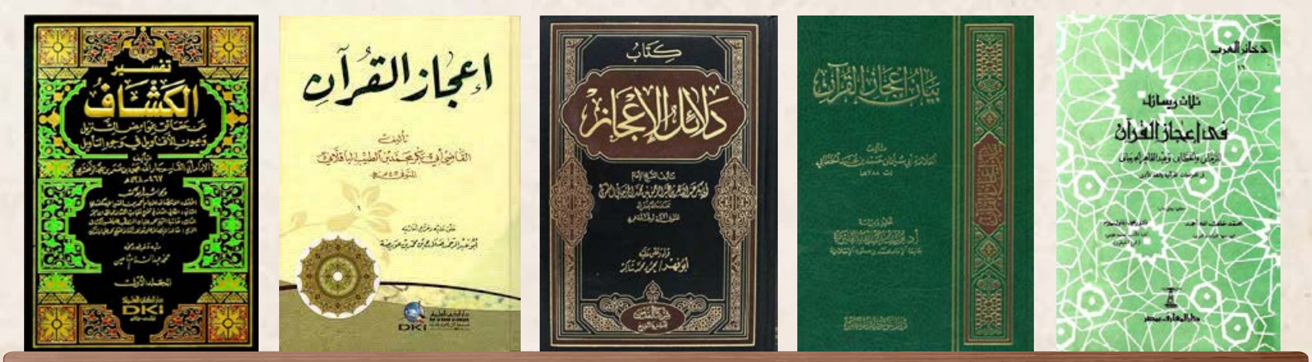
ومن أين لتالي الذّكر الحكيم الرّاغب في التّدبّر في معاني ألفاظه وآياته أن يَفْقَهَ حقيقة معنى العبارات القرآنيّة الكنائيّة اللطيفة مثل: {فلمّا تغشّاها}، {من قبل أن تمسّوهنّ}، {فلمّا أثقلت}، {أو لامستم النّساء}، {وقد أفضى بعضكم إلى بعض}... وغيرها من العبارات المليحة الرّشيقة الأنيقة في مظهرها المُعبّرة عن المعاني والدلالات المرصودة لها؟ من أين لك، بربّك، أن تفقه معاني هذه التّعابير لو أنّك لم تدرس مبحث الكنايات ولمْ تَشُمَّ رائحتها العاطرة السّاحرة النّاضرة؟؟ وكيف تقفُ وقفاتٍ تدبّريّةً سليمة إذا كنت بعيدا كلّ البعد عن مباحث البلاغة التي هي مفاتيحُ فَهْم النّظم القرآنيّ وفقه أسراره؟

لا ريبَ أنّه لا يتخالجُ العاقلَ شكٌّ ولا يرتابُهُ ريبٌ أنَّ مَنْ دخلَ حِمى المُصحف الشّريف يتلوه ويتدبّرُهُ، وهو خِلْوٌ من علوم العربيّة، فإنّه لا نظير يُشبِهُهُ، ولا مثيلَ يُضاهيه في عالم الأحياء إلا غِرٌّ ساذجٌ غبيّ أبله أبصرَ جمالَ البحر الطّمطام، وقال في نفسه: لا بأسَ أن أُجرّب الغَوْصَ، وهو لا يعرفُ من فنّ السّباحة نقيرا ولا قطميرا، فغاص فكان من المُدْحَضين، ولا شكّ أنّ هذا من الانتحار المُحَرّم شرعا.

قال المفسّر النِّحرير والبلاغيّ الألمعيّ محمود جار الله الزَّمخشريّ (٥٣٨ هـ) في مقدّمة مُفَصّله: « من لم يتَّقِ الله في تنزيله، فاجترأ على تعاطي تأويله، وهو غَيْرُ مُعْرِب، فقد ركِبَ عمياءَ، وخَبَطَ خَبْط عشواء، وقال ما هو تَقُوّلٌ وافتراءٌ وهُراءٌ، وكلامُ الله منه بَراء، وهو المِرقاة المنصوبة إلى علم البيان، المُطلع على نُكت نظم القرآن، الكافل بإبراز محاسنه، الموكّل بإثارة معادنه، فالصّادُّ عنه كالسَّادِّ لطُرق الخير كيلا تُسْلَك، والمُريد بموارده أن تُعاف وتُترك».

جملة القول: إنّ مقام العربيّة من علوم الشّريعة هو مقامُ القلب من الجسم، وماء الحياة من الفكر العربيّ، وموضعُ المفتاح من الباب، ولولاها ما علا للعرب شأن، ولا قامت للمسلمين سوق، ولا ارتفع لهم بُنيان.

هذه صيحتي في أبناء أمّتنا إذا أرادوا شرفًا جديدًا وسُؤددًا مجيدًا، فهل من مُجيب؟ وللحديث بقيّة في العاجل القريب، ودُمتم أوفياء للعربيّة.





أخبار المجامع

- حكاية اللّغة العربيّة في جامعة هانكوك للدّراسات الأجنبيّة (سيول-كوريا الجنوبيَّة)

- مجمع اللّغة العربيّة يُعزّز المهارات اللّغويّة لـ51 موظفًا من «اقتصاديّة الشارقة»

حكاية اللّغة العربيّة

في جامعة هانكوك للدّراسات الأجنبيّة

سيول - كوريا الجنوبية



أ.د. يون أون كيونغ
رئيسة قسم اللّغة العربيّة
بجامعة هانكوك

اللّغة العربيّة من أهم لغات المجموعة الساميّة وإحدى أكثر اللّغات انتشارًا في العالم إذ يستخدمها أكثر من أربعمئة مليون نسمة في 22 دولة عربيّة. كما تعدّ اللّغة العربيّة من أهم لغات العالم لأنها لغة القرآن الكريم ولغة الصلاة لكل المسلمين وكُتبت بها كثير من أهمّ الأعمال الدينيّة والفكريّة في العصور الوسطى، لذا فإن اللّغة العربيّة كانت وما زالت لها صدارة اللغات السامية الأخرى، فاللّغة العربيّة بالنسبة إلى عدد المتكلمين بها وإلى مدى تأثيرها عالمياً تُعدّ أعظم اللغات السامية اليوم، فهي من اللغات التي تحظى بمكانة خاصة على المستوى الدولي، وهي من اللغات القليلة التي بقيت بأصواتها وتراكيبها وسيلة للتواصل والتفاهم منذ أكثر من ستة عشر قرنًا من الزمان. وللغة العربيّة تأثير مباشر وغير مباشر في كثير من اللغات الأخرى. كما تحتل اللّغة العربيّة مكانة مرتفعة في العصر الحديث لكونها إحدى اللغات الرسميّة الست لمنظّمة الأمم المتحدة وعدد من الهيئات الدولية. إذ تُعلّم اللّغة العربيّة بوصفها لغة ثانية في عدد لا بأس به من بلدان العالم، وهذا إن دل فإنما يدل على مدى أهمية اللّغة العربيّة بوصفها من أهم لغات الحضارة والثقافة والدبلوماسية في العالم أجمع.

إذا ألقينا نظرة على مكانة اللّغة العربيّة في كوريا اليوم، نجد أنها قد شهدت ارتقاءً ملحوظًا في الآونة الأخيرة، تجلّى في تزايد الاهتمام الأكاديمي والثقافي بها، ولا سيما مع بلوغ العلاقات الدبلوماسية بين كوريا والعالم العربي ذروتها. وبينما كانت كوريا قد شهدت ما يسمى بنهضة الشرق الأوسط خلال السبعينات بفضل أزمة البترول ونهضة مشاريع البناء للشركات المحلية في الدول العربيّة.



جامعة هانكوك

تختلف المكانة الحاليَّة للغة العربيَّة عن مكانتها في السّبعينات اختلافًا جذريًّا، فقد بدأت جمهورية كوريا الجنوبية الاهتمام بتعليم اللّغة العربيّة بدءًا من عام 1965م، فأنشأت جامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة قسم اللّغة العربيّة فيها، بالإضافة إلى افتتاح برنامج الدراسات العليا لدرجتَي الماجستير والدكتوراه بقسم اللّغة العربيّة في جامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة عام1976 وذلك لأول مرة في كوريا، أمّا الآن فقد أدخلَت بعض الجامعات الكوريَّة اللُّغة العربيَّة ضمن برامجها الثَّقافيَّة، كما أدرجتها تخصُّصًا ثانيًا يدرسه الطلاب بالإضافة إلى تخصصهم الأول. وعلاوة على هذا، اختيرت اللّغة العربيّة لتكون من مواد اللغات الأجنبيّة الثانية رسميًّا ضمن مناهج تعليم المدارس الثانوية لوزارة التربية والتعليم الكورية ابتداءً من عام 2002، مما يدل على اعتراف الحكومة الكوريّة بأهميّة اللّغة العربيّة لكونها من أهم لغات العالم.

تشهد كوريا في السنوات الأخيرة إقبالاً متزايدًا على دراسة اللغة العربية ودراسات الشرق الأوسط، سواء في المرحلة الثانوية أو الجامعية، حيث يزداد عدد الطلاب المنتسبين إليها بصورة لافتة. ولا يقتصر الأمر على التعلم فحسب، بل إن كثيرًا من هؤلاء الطلاب يبدعون في إتقان العربية ويتخذونها مجالاً للعمل بعد تخرجهم، في دلالة واضحة على المكانة المتنامية للغة العربية بين الشباب الكوري.

تعليم اللّغة العربيّة في جامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة.

توجد في كوريا حاليا خمس جامعات لتعليم اللّغة العربيّة والدراسات العربيّة والإسلامية تأتي على رأسها جامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة والتي تعدّ أعرق جامعة لتعليم اللّغة العربيّة إذ افتتحت أول قسم متخصص لتعليم اللّغة العربيّة والدراسات العربيّة والإسلامية في الحرم الرئيس بالعاصمة سيول عام 1965م.

1) نبذة عن جامعة هانكوك للدّراسات الأجنبيّة

تعدّ جامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة الواقعة في العاصمة الكورية سيول من الجامعات العريقة في كوريا الجنوبيّة، وقد أُنشأت عام 1954، وهي مسقط رأس تعليم اللغات الأجنبيّة في كوريا، حيث يتم تعليم 45 لغة من اللغات الرئيسة في آسيا، والشرق الأوسط وأوروبا وأمريكا وغيرها، كما تقوم الجامعة على تأهيل الطلاب ليصبحوا باحثين مستقلين يسهمون في تطوير العلاقات وتبادل الثقافات المختلفة، بالإضافة إلى تركيزها على النّظرية والممارسة للغات الأجنبيّة. كما تشجّع الجامعة الطلاب على استخدام المهارات اللغويّة التي اكتسبوها لدراسة السياسة، والاقتصاد والمجتمع والثّقافة من كل منطقة من مناطق العالم. وتضم الجامعة 17 كلية، ويدرس فيها حوالي 15,000 طالب في المرحلة الجامعية. وتعمل الجامعة على تعزيز علاقات التبادل التعليمي مع 463 جامعة في 90 دولة حول العالم، كما يؤدي خريجوها حاليًا دورًا حيويًّا في التجارة الدولية والشؤون الدبلوماسية.

وفي هذه الجامعة قسم اللّغة العربيّة بكلية اللغات والثقافات الآسيوية في حرم سيول الرئيس الذي أسّس في عام 1965 والذي يعد الأعرق والأبرز من نوعه في كوريا. حيث يدرس فيه حاليًا 300 طالب متخصص في اللّغة العربيّة وآدابها ودراسات الشرق الأوسط. وخُرّج فيه حوالي 26 ألف خريج حتى الآن بالإضافة إلى كلية الدراسات العليا للغة العربيّة وآدابها لمرحلتي الماجستير والدكتوراه التي أسّست في عام 1976، وكلية الدراسات العليا للترجمة لمرحلتي الماجستير والدكتوراه التي أسّست في عام 1979.



ملتقى تذكاري لذكرى مرور ستين عامًا على إنشاء قسم اللّغة العربيّة بجامعة هانكوك

2) هيئة التدريس في قسم اللّغة العربيّة بالجامعة

تَرْأَس القسم حاليًا الأستاذة الدكتورة يون أون كيونغ المتخصصة في علم اللّغة الاجتماعي وتعليم اللّغة العربيّة للناطقين بغيرها، وتتكون هيئة التدريس من 3 أساتذة كوريين متخصصين في علوم اللّغة العربيّة والأدب العربي والدراسات العربيّة والإسلامية، من بينهم الأستاذ الدكتور كيم دونغ هوان الذي حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، والدكتور كيم كانغ سوك المتخصص في سياسة الشرق الأوسط الذي نال شهادة الدكتوراه من جامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة بالإضافة إلى أستاذَيْن ناطقين بالعربيّة من مصر وهما متخصصان في الأدب المقارن والنقد الأدبي الحديث. كما يوجد في القسم 10 محاضرين غير متفرغين متخصصين في مختلف المجالات منها علوم اللّغة العربيّة والأدب العربي والسياسة والاجتماع والثقافة العربيّة والإسلامية وقد حصلوا على درجة الدكتوراه من مختلف البلدان العربيّة وكوريا الجنوبية.

3) المقررات الدراسية والمناهج التعليمية في قسم اللّغة العربيّة بجامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة

أما المقررات الدراسية والمناهج التعليمية في قسم اللّغة العربيّة بجامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة فهي كالتالي.

السنة	اسم المادة/ الفصل الأول	ساعة معتمدة	اسم المادة/ الفصل الثاني	ساعة معتمدة
الأولى	قواعد اللّغة العربيّة للمستوى الابتدائي 1	3	قواعد اللّغة العربيّة للمستوى الابتدائي 2	3
	المحادثة للمستوى الابتدائي 1	3	المحادثة للمستوى الابتدائي 2	3
	القراءة للمستوى الابتدائي 1	2	القراءة للمستوى الابتدائي 2	2
	التدريب الشفوي للمستوى الابتدائي 1	2	التدريب الشفوي للمستوى الابتدائي 2	2
	مدخل إلى الدراسات العربيّة	2	فهم المجتمع العربي	
الثانية	القواعد للمستوى المتوسط1	2	القواعد للمستوى المتوسط 2	2
	المحادثة للمستوى المتوسط 1	2	المحادثة للمستوى المتوسط2	2
	الإنشاء للمستوى المتوسط 1	2	الإنشاء للمستوى المتوسط 2	2
	التدريب الشفوي للمستوى المتوسط 1	2	التدريب الشفوي للمستوى المتوسط 2	2
	تاريخ الحضارة العربيّة	2	تاريخ الإسلام	2
الثالثة	المحادثة للمستوى المتقدم1	2	المحادثة للمستوى المتقدم 2	2
	اللّغة العربيّة للتجارة 1	2	اللّغة العربيّة للتجارة 2	2
	القصة العربيّة	2	لغة الإعلام	2
	تاريخ العرب	2	الأدب العربي القديم	2
	تاريخ الأدب العربي	2	تاريخ اللّغة العربيّة	2
	السيمينار في السياسة العربيّة	2	الدراما العربيّة	2
	الثقافة والفنون في العالم العربي	2	تاريخ الدبلوماسية في الشرق الأوسط	2
الرابعة	اللغات في المجتمع العربي	2	المقارنة بين العربيّة الفصحى واللهجات العامية	2
	فهم الأدب العربي	2		
	الشعر العربي	2	الأدب العربي الحديث	2
	دراسات في اللهجات العامية	2	تاريخ الحضارة الإسلامية	2
	دراسات في القرآن الكريم	2	الاقتصاد في الشرق الأوسط	2
	فهم صناعة الحلال	2	اللّغة العربيّة للسياحة العلاجية	2
		2		2

كما أُشير سالفًا، فإن قسم اللغة العربية بجامعة هانكوك للدراسات الأجنبية يحرص على تحقيق التوازن العلمي في برامجه، تبعًا لتخصصات الأساتذة وتنوّع المواد المقررة. غير أنّ الساعات المعتمدة لتعليم العربيّة تظل محدودة، نظرًا إلى خصوصية تعليم اللغات الأجنبية عامة، وخصوصية تعليم العربية على وجه أخص. ومن هنا تبرز ضرورة إتاحة فرص للطلاب لقضاء فترة دراسيّة في إحدى الدول العربية لبضعة أشهر، بما يعزّز خبرتهم اللغوية ويعمّق فهمهم للثقافة العربيّة.

لكن على الرغم من بعض الصعوبات، فإن طلاب قسم اللّغة العربيّة يظلّون

أهم ما يميز هؤلاء الدارسين هو حبهم الشديد للعربيّة وأهلها، بل ويتحول كثير منهم إلى أصدقاء للعرب يدافعون عنهم في ظل الهجمة المسعورة التي يشنّها الإعلام العالمي على كل ما هو عربي أو مسلم.

مثابرين بشغف وحماسة على دراسة اللّغة العربيّة ودراسات الشرق الأوسط، لأنهم يعرفون جيدًا أهميّة اللّغة العربيّة والثّقافة والحضارة العربيّة والإسلاميّة، إذ إن اللّغة العربيّة لم تكن أبدًا مجرد لغة قادت مسيرة الحضارة، وأسهمت في تطور البشرية على مدى قرون، وامتد تأثيرها في العالم. وللغة العربيّة تأثير مباشر وغير مباشر على كثير من اللغات الأخرى، كما تحتل اللّغة العربيّة مكانة مرتفعة في العصر الحديث لكونها إحدى اللغات الرسميّة الست لمنظّمة الأمم المتحدة وعدد من الهيئات الدولية.

يمكن القول إن هناك أسبابًا متعددة لإقبال الشباب الكوريين على اللّغة العربيّة. حيث شهدت كوريا في الآونة الأخيرة نهضة علمية واقتصادية واسعة وزاد اتصالها بالعالم العربي بعد أن أصبحت المنطقة العربيّة سوقًا رائجة لمنتجات الشركات الكورية العملاقة مثل «سامسونج» و«إل جي» و«كيا وهيونداي» وغيرها، مما دفع كثيرًا من الطلاب إلى المسارعة بدراسة اللّغة العربيّة نظرًا إلى ما تحققه هذه الدارسة لصاحبها من فرص عمل، لا سيما في الشرق الأوسط. كما يُتاح لطلاب اللّغة العربيّة والدراسات الشّرق أوسطيّة التقدّم للمنافسة في اختبارات توظيف كبار الموظفين الحكوميين في وزارات الشؤون الخارجية والإدارة العامة ويوجد كثير من طلاب قسم اللّغة العربيّة يبدؤون حياتهم العملية قبل التخرج خاصة المتفوقين منهم لكن أهم ما يميز هؤلاء الدارسين هو حبهم الشديد للعربيّة وأهلها، بل ويتحول كثير منهم إلى أصدقاء للعرب يدافعون عنهم في ظل الهجمة المسعورة التي يشنّها الإعلام العالمي على كل ما هو عربي أو مسلم.

تبادلات أكاديمية تعاونية

لقد أقام قسم اللّغة العربيّة بجامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة مذكرات التفاهم والتعاون مع عشرات الجامعات العربيّة والمؤسسات المعنية بتعليم اللّغة العربيّة بما فيها جامعة القاهرة، الجامعة الأردنية، جامعة الملك سعود، وجامعة قطر، وكلية السلطان قابوس وجامعة الإمارات العربيّة المتحدة ومجمع اللّغة العربيّة بالشارقة وغيرها. علمًا أن الحظ حالفنا في عام 2020 لعدد من طلاب قسم اللّغة العربيّة بجامعة هانكوك. وقام وفد من طلاب قسمنا بزيارة إمارة الشارقة منارة العلم والثقافة العريقة، التي أسهمت بالتأكيد في النهوض بالدراسات العربيّة والإسلامية – لغةً وثقافةً – في جامعتنا خاصةً، وفي كوريا الجنوبية على وجه العموم. وقد جاءت تلك الزيارة الموفقة ضمن أهداف مجمع اللّغة العربيّة بالشارقة الموقر لنشر اللّغة والثقافة العربيّة بين البلدان الأجنبيّة، وتنفيذًا لمذكرة التعاون الذي وُقّعت بين المجمع وجامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة في عام 2019.

زار الوفد الطلابي المكون من 22 طالبًا وطالبة إمارة الشارقة مدة شهر كامل، وذلك بهدف تعلم قواعد اللّغة العربيّة وتطبيقها والتّعرف على الثقافة العربيّة عن قرب، واشتملت الرحلة على دورة لغويّة مكثّفة لجميع الطلاب على اختلاف مستوياتهم اللغوية في مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة الموقر، بالإضافة إلى جولات ثقافية في إمارة الشارقة عرّفتهم على معالمها المهمة الجديرة بالاهتمام. لقد شعر الطلاب في أثناء إقامتهم في الشارقة أنهم لم يغادروا بلادهم كوريا، وأنهم بين أهلهم وعائلاتهم. وعلى الرغم من مرور خمسة أعوام تقريبًا على زيارتهم للشارقة، فإن طلاب القسم ما زالوا يواصلون الثناء على كل مَن كانوا في استقبالهم في الشارقة، وكل من مدَّ لهم يدَ العون من الأساتذة والمشرفين الذين بذلوا مع الطلاب جهودًا جبارة أعطتْ لهؤلاء الطلاب دَفْعَةً عظيمة من الطاقة، كما جعلتهم أكثر حماسةً وإصرارًا على بذل الجهود الصادقة في إتقان اللّغة العربيّة لِما رأوا من كرم أهلها



وفد طلاب القسم الذي زار الشارقة في شهر يناير عام 2020

وسماحتهم التي لا نظير لها.

الأنشطة الخاصة باللّغة العربيّة

جدير بالذكر أن قسم اللّغة العربيّة بجامعة هانكوك للدراسات الأجنبيّة كان وما زال له دورٌ رياديٌّ في تعزيز تعليم اللّغة العربيّة والثقافة العربيّة والإسلامية في البلاد. ومنها على سبيل المثال تنظيم ملتقى اللّغة العربيّة ومهرجان اللّغة العربيّة وآدابها على هامش الاحتفال باليوم العالمي للغة العربيّة بالتعاون مع بعض سفارات الدول العربيّة كل عام وتنظيم المؤتمرات العلمية المحلية والدولية للغة العربيّة وآدابها وتنظيم مسابقة للإلقاء والكتابة باللّغة العربيّة للطلاب وتنظيم سلسلة من المحاضرات الخاصة لتطوير طرق تعليم اللّغة العربيّة بالتعاون مع بعض المؤسسات العربيّة المعنية إلى جانب تقديم عرض تمثيلي باللّغة العربيّة احتفالاً بمرور خمسين عامًا على افتتاح قسم اللّغة العربيّة وغيرها مما يشجع الطلاب على دراسة اللّغة العربيّة والثقافة العربيّة والإسلامية. كما يستقبل القسم وفودًا من الشباب والأدباء والعلماء المتخصصين من الدول العربيّة ويتيح فرصًا للطلاب لتبادل الحوارات والأراء معهم لتعميق فهمهم للغة العربيّة وأدابها والثقافة والتاريخ وغيرها.

علاوة على هـذا، يمارس الطلاب أنشطة علمية وثقافيّة بأنفسهم من خلال انضمامهم إلى بعض النوادي الطلابية بالقسم مثل «التمر» و«بيت الحكمة». إذ يصدر الطلاب أعضاء نادي «التمر» مجلة «التمر» مرتين في السنة بانتظام والتي تضم مقالات خاصة يكتبونها



تنظيم مسابقات الإلقاء والكتابة باللّغة العربيّة للطلاب



عقد المؤتمرات العلمية المحلية والدولية للغة العربيّة وآدابها



جلسة حوار بين طلاب القسم وبعض الكاتبات الإماراتيات



تنظيم محاضرات خاصة لتطوير طرق تعليم اللّغة العربيّة بالتعاون مع المؤسسات العربيّة المعنية



تقديم عرض تمثيلي باللّغة العربيّة بمشاركة الطلاب أنفسهم

بأنفسهم بعد دراسة مواضيع علمية وثقافية. أما في نادي «بيت الحكمة» فيقرأ الطلاب بعض القصص أو يشاهدون الأفلام العربية ويتكبون التقارير عنها، بالإضافة إلى ترجمة الشعر أو كلمات الأغاني العربيّة حتى يزيد فهمهم للثقافة العربيّة عمقًا.

نحتفل هذا العام بذكرى مرور ستين عامًا على تأسيس قسم اللّغة العربيّة بجامعة هانكوك، وعلى هامش الاحتفال بهذه المناسبة الخاصة نظّم القسم ملتقًى تذكاريًا في شهر مايو الماضي لاستعراض منجزات القسم خلال ستين عامًا مضت إضافة إلى بحث السبل الكفيلة بتعزيز تعليم اللّغة العربيّة وآدابها والثقافة والحضارة العربيّة والإسلامية بصورة أكثر فاعلية.

٥. الخاتمة:

وهكذا ارتقت مكانة اللغة العربية في كوريا ارتقاءً ملحوظًا في الآونة الأخيرة، مع وصول العلاقات الدبلوماسية بين كوريا والعالم العربي إلى مستويات متقدمة. وانسجامًا مع هذا التوجّه، يقبل معظم طلاب قسم اللغة العربية على دراسة اللغة والثقافة والحضارة العربية والإسلامية بحماسة كبيرة، حتى إنّ كثيرًا منهم يتفوّقون في دراستهم ويجعلون من العربية مجالًا لعملهم بعد التخرّج، في دلالة واضحة على المكانة المتنامية للعربية بين أوساط الطلاب الكوريين.

ومنذ تأسيسه عام 1965، بدأ كل أعضاء القسم يبذلون مافي وسعهم لنشر اللّغة العربيّة وتعزيز تعليمها، وتعلّم الثقافة والحضارة العربيّة والإسلامية حتى يكون حلقة الوصل لسنواتٍ طويلة بين كوريا الجنوبية والعالم العربي، حيث يتخرج في هذا القسم كلّ عام نحو خمسين طالبًا ينتشرون في كافة المؤسساتِ الكورية، ومن أهمّها وزارةُ الشؤونِ الخارجيةِ، والتعليم، والثقافةِ، ومختلف المؤسساتِ الحكومية والخاصة المعنيةِ بالاقتصادِ وإدارةِ الأعمالِ والإعلامِ والترجمة وغيرِها. لقد أصبح القسم – بمن فيه من طلاب وأساتذة – واحة مهمة من واحاتِ اللّغة العربيّة وآدابِها المنتشرةِ خارجَ العالمِ العربي، كما أنه –بسعيه الدائم نحو تنمية الروابط بين كوريا والعالم العربي– يأمل في مزيد من التعاون البنّاء في المجالات كافّة.

مجمع اللّغة العربيّة يُعزّز المهارات اللّغويّة لـ51 موظفًا من «اقتصاديّة الشارقة»









في إطار جهوده لترسيخ اللغة العربية في بيئة العمل، أطلق مَجْمَعُ اللغةِ العربيةِ بالشّارقة يوم الثلاثاء 9 سبتمبر برنامجاً تدريبياً مكثفاً في مهارات اللغة العربية، يستهدف 51 موظفاً من كوادر دائرة التّنمية الاقتصادية بالشّارقة؛ حيث يتضمّن، على مدار أسبوعين، جلسات نظرية يقدّمها الدكتور امحمد صافي المستغانمي، أمين عام المجمع، حول تطوير الملَكة اللغوية، وأساسيات النّحو العربي، والأخطاء الشّائعة في الكتابة، إضافة إلى جانبٍ عمليٍّ تناول تطوير مهارات المراسلات الإدارية وصياغة الوثائق الرّسمية.

وفي أولى جلسات البرنامج، أكّد الدكتور امحمد صافي المستغانمي أن تعلّم اللغة العربية رحلة طويلة تقوم على الممارسة والمعايشة اليومية، وأنّ المتعلّم لا بد أن يفكر بالعربية ويتحدث بها ويقرأ مؤلفاتها، معتبراً أنّ الشّغف وحب اللغة أساس التّطور والتّحصيل.

الإيجاز والإسهاب وبلاغة المتكلم:

وأوضح المستغانمي أنّ البلاغة تقوم على وضوح الرّسالة وتأثيرها في الجمهور، وأنّ الإيجاز يمثل أحد أعمدتها الرئيسة، حيث تكون الألفاظ قليلة والمعاني كثيرة، مستشهداً بقول

النّبـي صلـى الله عليـه وسـلم: «أوتيت جوامـع الكلـم». وأكـدّ أنّ حفـظ القرآن الكريـم والحديث الشّـريف، ثم أشـعار العـرب وكلام بلغائهـم، يمثـل الرّكيـزة الأولـى لصقـل لسـان طالـب العربية.

وقـال المسـتغانمي: «البليـغ هـو مـن يحسـن اختيـار ألفاظـه وجملـه بمـا يناسـب المقـام، فيوجـز حيـن تقتضي الحـال الإيجـاز، ويُسـهب إذا اسـتدعى الموقف الإيضـاح، مع ضـرورة الوقوف فـي المواضـع التـي تمنح الـكلام وقعه المؤثر»، مؤكـداً أنّ الإسـهاب والتفصيل يُعـد بـدوره من البلاغـة إذا جـاء محبباً للسّـامع وداعمـاً للفكرة المـراد تثبيتها.

وأشـار الدكتـور امحمـد صافـي المسـتغانمي إلـى أنّ العربـي ذكـي ولطيـف ومتفائـل، يسـتخدم العبـارات التـي تبشـر بالخيـر، مستشـهداً بمـا ورد عـن العبـاس رضـي اللـه عنه حين سُـئل: «أأنـت أكبـر أم النّبي صلـى الله عليـه وسـلم؟»، فأجاب: «هو أكبـر، وأنا أسـنّ»، فـي دلالـة علـى رهافـة الحسّ ودقّـة التّعبيـر التـي تميّـز اللسـان العربـي.

سبل تنمية الملكة اللغوية:

وحـول موضـوع «الملكـة اللغويـة» أوضـح المسـتغانمي أن تكويـن هـذه الملكـة لا يعتمد على الموهبة إلا بنسـبة قليلـة لا تتجـاوز عشـرة بالمئة، بينما يتشـكل الباقـي بالاجتهـاد والحفـظ والمطالعة والممارسـة؛ مشـدداً على أنّ الملكـة تُصنـع صناعة وتترسـخ بكثرة التّكـرار والتّدريب. كما أكـد أهمية تنمية المهـارات الأربـع: القـراءة والاسـتماع والتّحـدث والكتابـة، باعتبارهـا الطّريق الأمثـل لترسـيخ الفصاحة، مـع ضرورة تطبيـق القواعـد عمليـاً فـي الـكلام لا الاكتفـاء بحفظهـا نظريـاً.

وختـم أمين عـام مجمـع اللغـة العربية الجلسـة بتأكيـد أهميـة قـراءة كتـب التـراث الموثوقة للعلماء قديمـاً وحديثاً، وإتقـان علـوم اللغة الأسـاس مـن نحو وصـرف وبلاغـة وإملاء، علـى أن يبدأ الطّالـب بالكتـب المبسـطة ثـم يتـدرج إلـى المتقدمـة، مـع الحـرص علـى القـراءة المضبوطـة بالتّشـكيل لضمان سلامـة النّطـق والمعنـى.

وينقسـم برنامـج «مهـارات اللغـة العربيـة» إلـى دفعتيـن؛ حيـث تضـمّ الأولـى 24 موظفـاً مـن كـوادر دائـرة التّنميـة الاقتصاديـة بالشـارقة، فيمـا تضـمّ الدفعـة الثانيـة 27 موظفـاً، على أن يحصـل المشـاركون فـي ختـام البرنامـج على شـهادات مشـاركة توثق اجتيازهـم لمراحلـه التّدريبيـة النّظرية والعمليّـة.



من كَثُرَ كلامه كَثُرَ خطؤه

قالَ عليُّ بن أبي طالبٍ رضِيَ الله عنه:

«من نَظَرَ في عيبِ نفْسِه اشتغَلَ عن عيبِ غيرِه، ومن رَضِيَ برزقِ اللهِ لم يحزَن على ما فاتَه، ومن سلَّ سيفَ البَغيِ قُتِل به، ومن كابدَ الأمورَ عَطِب، ومن اقتحَمَ اللُّجج غَرِق، ومن دَخَلَ مداخِلَ السُّوء اتُّهم، ومن كَثُرَ كلامُه كَثُرَ خَطؤُه، ومن كَثُرَ خطؤُه قلَّ حَياؤه، ومن قلَّ حَياؤه قلَّ وَرَعُه، ومن قَلَّ وَرَعُه ماتَ قلبُه، ومن ماتَ قلبُه دخلَ النّار، ومنْ نظَرَ في عيوبِ النّاسِ فأنكرَها ثمَّ رضِيَها لنَفسِه فذاكَ الأحمقُ بعَيْنِه، ومن أكثَرَ مِنْ ذِكْرِ المَوتِ رضِيَ من الدُّنيا باليَسير، ومن عَلِمَ أنَّ كلامَه من عَمَلِه قلَّ كلامُه فيما لا يَعْنيه».



آداب الكلام

قالَ حكيم: اعْقِل لسانَك إلاّ عن حقٍّ توضِحُه، أو باطل تَدْحَضُه، أو حكمةٍ تَنشُرها، أو نعمةٍ تذكُرها.

وقالَ الشّاعر:

رأيــتُ العِــزَّ في أدبٍ وعــقـلٍ ... وفي الجهلِ المذلَّةُ والهوانُ
وما حُسْنُ الرِّجالِ لهم بِحُسْنٍ ... إذا لم يُسعِدِ الحُسْنَ البَيانُ
كفـى بالمَـرءِ عيبًا أن تَــراهُ ... لــه وجهٌ وليـسَ لـه لِســانُ

وقال بعض الحُكَماء: إذا جالَسْتَ الجُهّالَ فَأَنْصِتْ لهم، وإذا جالسْتَ العلماءَ فأَنصِت لهم؛ فإن في إنصاتِكَ للجُهّال زيادة في الحِلْم، وفي إنصاتِكَ للعُلَماء زيادة في العِلم.





نظراتٌ في البيانِ القرآنيّ

- ارْتِبَاطُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ لَفْظِيّا وَظاهِراتُهُما الفِيزيائِيَّة الفَلَكِيَّة بِالنِّسْبَةِ إِلى الأَرْضِ فِي القُرْآنِ الكَرِيم

- الرَّوابِطُ والتّقْنِيّاتُ الحِجاجِيَّةُ في سُورَةِ هودٍ بين نوحٍ عليْهِ السَّلامُ وَقَوْمِهِ

- الإِيجَازُ لِمَقَاصِدِ القُرْآنِ في أُمِّ الكِتَابِ

- الكِنَايَةُ فِي القُرآنِ الكَـريـمِ ومَفْهُومُ الاخْتِيَارِ الحِجَاجِيِّ

ارْتِباطُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ لَفْظِيًّا وَظاهِراتُهما الفِيزيائِيَّة الفَلَكِيَّة بِالنِّسْبَةِ إلى الأَرْضِ فِي القُرْآنِ الكَرِيم

«الجُزْء الأَوَّل»



سَنُرَكِّزُ في هَذا البَحْثِ على عَدَدٍ مِنَ الظَّواهِرِ الفِيزيائِيَّةِ الفَلَكِيَّةِ المُهِمَّةِ جِدًّا (لِلْبَشَرِيَّةِ على سَطْحِ الأَرْضِ) الَّتِي خَلَقَها اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى لِتَتَناغَمَ مَعَ حَياةِ الكائِنِ الحَيِّ على سَطْحِ الأَرْضِ مِثْلَ: ارْتِباطِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ (المَذْكُورَةِ في عَدَدٍ مِنَ الآياتِ الكَرِيمَاتِ) بِالنِّسْبَةِ إلى الأَرْضِ وَعَلاقَتِهما بها، وكذلك اللَّيْلُ وَالنَّهارُ، والمَشارِقُ وَالمَغارِبُ، وَتَوازُنُ الأَرْضِ وَحَرَكاتُها حَوْلَ نَفْسِها وَحَوْلَ الشَّمْسِ في مَنْظُومَتِنا الشَّمْسِيَّةِ، ثُمَّ مَواقِعِ الأَجْرامِ السَّماوِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ في الكَوْنِ بِالنِّسْبَةِ إلى الرَّائِي مِنْ عَلى سَطْحِ الأَرْضِ.



أ.د. حميد مجول النعيمي

مدير أكاديمية الشارقة لعلوم وتكنولوجيا الفضاء والفلك.

رئيس الاتحاد العربي لعلوم الفضاء والفلك.

أوّلًا: الشَّمْسُ وَالقَمَرُ والاقْتِران بَيْنَهُما فِي القُرْآنِ الكَرِيم وَفِي المَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّة:

في هذه الفقرة موضوعات مهمة جدًّا مرتبطة بحياة الإنسان وتقاويمه بِسَبَبِ ارتباط الشمس والقمر والاقتران بينهما لفظيًّا (التلازم) أو (الاقتران Connection) في كتاب الله العزيز ومدلولهما الفلكي العلمي في الفيزياء الفلكية والتَّوغل قليلًا في إنجازات العلماء في هذا الحقل إزاء معنى الكلمة القرآنية الدالَّة أبدًا (وكذلك الارتباط الفيزيائي الفلكي بين الأجرام السماوية الثلاثة (الشمس والقمر والأرض) وحركاتهما المُسَبِّبة للظواهر الطبيعية التي تناغمت مع حياة الكائن الحيّ).

في كتاب الله تعالى الكريم، دخلت كلمة الشمس اسمًا في ثَلاثَةٍ وَثَلاثِينَ(33) نصًّا قرآنيًّا دخولًا لفظيًّا مباشرًا، مؤنَّثًا مرفوعًا بالضم، ومنصوبًا بالفتح، ومجرورًا بالكسر مع نصب في موضع مفعول به واحد، (شمسًا أي أننا لا نعد لفظة (سراجًا) شمسًا على وجه الإحصاء، بل على نهج الدلالة فقط). ودخلت كلمة القمرُ اسمًا في سَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ(27) نصًّا قرآنيًّا دخولًا لفظيًّا مباشرًا مذكرًا مرفوعًا بالضم ومنصوبًا بالفتح ومجرورًا بالكسر مع نصب في موضع مفعول به واحد (قمرًا)، إلا أن تلازم (الشمس والقمر) في نص واحد، أو آية واحدة، جاء في تسعة عشر موضعًا(1)، أي بنسبة تزيد على نصف ذكر الاثنين معًا وهما منفردان، وهذا ما يدعو إلى التَّفكُّر فعلًا بغية فهم هذا التلازم على حقيقته من وجهي اللغة والعلم معًا (النعيمي، 2016).

1-1: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.... ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ نجدُ أنّ ما ذُكِر آنِفًا،وما سنأتي على ذكره لاحقًا؛ حصيلةٌ عِلْمِيَّةٌ حقيقية بين علوم الفيزياء

الفلكيـة حصرًا، وعلـوم اللغـة القرآنيـة إجمـالًا، وبخاصَّـةٍ ما يتعلَّـق بالأَجْـرام السـماويَّة الثلاثـة المهمـة للحياة. نقـرأ قول اللــه تعالى:

(1): ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ [الشمس 6-1]، نجد كلمة ﴿إِذَا﴾ جاءت في ثلاث حالات من الحالات الست المَقْسوم بها، لمجرد الظرفية لأن العامل فيها فعلُ (القَسَم)، أما مدلول كل قسَم فهو فيزيائيٌّ صرف، سواء من حيث المحتوى أو الترتيب أو العلاقة الداخلية بين الحالات كافة.

ثم نقرأ حالة (لُغوية) مماثلة ونرى مقدار ارتباطها بعلوم الفيزياء الفلكية أيضًا.

(2): ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ۝٣٥﴾ [المدثر:35-32]، إذْ إنَّـهُ مـع غياب الشمس وحضور القمر صار التوالي ليليًّا فقط، حتى مطلع الصبح، مع أن الحالة السياقيَّة تمثل بلاغة (القَسَم) بالظواهر الفلكية التي خلقها الله تعالى. ومن البديهيِّ أن يَعبُر القسم بِالشَّمس والقمر معًا إلى الظواهر الفلكية عينها كما في الآيات المعروفة.

(3): في الآيات الكريمات الآتية نقرأ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، و﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾، و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾...، إذْ تُشير تِلْكُمُ الآياتُ إلى أن كل ظاهرة لها صلة بظهورٍ أوْ غيابٍ للشَّمْسِ والقَمَر على نحو مباشر أو غير مباشر. إذًا، فإن كيفيّة صياغة (القَسَم) تأخذ بعين الاعتبار نظام الحركة الفيزيائية الفلكية للكواكب حول النجوم تحت أثر قوى الجذب المعروفة أي: الأرض حول الشمس، والقمر حول الأرض والشمس فينتج من تلك الحركة تعاقب الليل والنهار تدريجيًّا على شكل مُنْحَنى للظلام ومثله للضوء، أي أن حلكة الظلام مقابل شدة الضوء تُمَثِّل قممًا في المنحنيين، وكل قمة ناشئة من حالة حركية دورانية معينة، في وقت محدد بالنسبة إلى موضع ثابت، وإن خلق هذا النظام بمادته وحركته، مهما كانت تسميته، لهو أكبر من خلق أي شيء آخر في عالم البيولوجيا التي يتربع الإنسان وحياته فوق هامتها، نذكر قول الله تعالى:

(4): ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر:57]

عن تفسير بن كثير: يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، بأنه خلق السماوات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه...، كما قال الله تعالى:﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف:33]. (وقال هاهنا: (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله جل جلاله خلق السماوات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا)).

في تحديد مدلول الصفات والأسماء والأفعال المتزامنة مع الظواهر الفلكية ثمة ملاحظات ذات أهمية ينبغي التفكر حيالها مليًّا، ففي الآية 1 الوارِدَة سابقًا:﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ كلمة:﴿ضُحَىٰهَا﴾ قد يفسرها البعض (كما في الجلالين) بالضوء أو الضياء، وهو تفسير صحيح، إلا أن الضحى هنا معلوم: وقت مبكر من النهار، وفي الآية التي أعقبتها من سورة المدثر:﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝٣٢﴾ وإن فهم الآية الكريمة 4 يؤول نحو ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ابتداءً (أكبر من خلق الناس) مرة ثانية (بعد الموت) وهي الإعادة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حسب سياق الآيات الكريمة في سورة غافر، إذ إن خلق الإنسان ابتداء وبعد الموت بإحيائه وبعثه يوم القيامة معًا يبقيان دون إعجاز ﴿لَخَلۡقُ

1 – إن الشمس والقمر يجتمعان في نفس الوضعية كل (19) عامًا، سميت دورة القمر، وإن كلمة الشمس اجتمعت مع كلمة القمر بالضبط في 19 آية من القرآن الكريم وهذا تطابق كوني (سبحان الله وتعالى)

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بما كشف عنه العلم من خفايا وتعقيدات تزيل غموضًا ثم تفضي إلى غموض أكبر وهلم جرًّا، وعلى الرغم من أن الشيء نفسه يحدث في بيولوجيا حياة الإنسان فإنَّ تعقيد الكون صار أكبر من تعقيد الجسم البشري في التعامل والبحث، وكلاهما آية كبرى. ولكن البحث في أمور الشمس والقمر فقط ليس كالبحث في شؤون الكون من سماء وسماوات وأرض وما بينهما) وما أدراك ما بينهما، بل إن البحث في شؤون (الشمس والقمر) أول خطوة في بحث شؤون الكون (من سماوات وأرض وما بينهما)(2)، أول خطوة لابد منها، على الأقل، لأنها تمثل التعامل مع أكبر مرئيين وأكثر ما في السماء وضوحًا للعين البشرية على الأرض (فيزيائيًّا وفلكيًّا: تُعَدُّ الشمس أقرب النجوم إلى الأرض وأن القمر أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض، والثلاثة مرتبطون بالجاذبية المشتركة الى ما يشاء الله سبحانه وتعالى)، من هنا فإن القرآن الكريم (لخص) بإعجاز مدهش العلاقة النظامية (الدورانية – الحركية) بلغة غاية في البساطة والوضوح وغاية في البلاغة والسمو معًا إذ قال الله سبحانه وتعالى :

(5) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ [يس:41-37]. فمعنى ﴿نَسۡلَخُ﴾: نفصل منه فيذهب النهار ويقبل الليل، أي أن الليل والنهار(انظر الى الفقرات الآتية في موضوع الليل والنهار) في الأصل شيء واحد أمكن قسمته، بإذن الله تعالى، على قسمين متضادين بسبب طبيعة الحركة الدورانية حول محور الأرض إزاء الشمس، ثم تبدأ مشكلة تحليل إعجاز: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ إذ ذهب المفسرون إلى المعنى الدال في (مُسْتَقَرٍّ) مذهبين مكانيًّا: تحت "العرش" وفيه أحاديث، وزمانيًّا وهو مذهبان أيضًا: إلى يوم القيامة حيث غاية الوجود أو في مطالعها الصيفية تبقى تنتقل إلى مدة لا تزيد عليها ثم تنتقل في مطلع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها أيضًا، ثمة مذهب آخر عام أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه، من غير تفسير محدد. من الواضح أن "التفسير" غير الحاسم، بتعدد أوجهه، يتحول من قانون راسخ يُتَّبَعُ ويُحتكم إليه إلى فرضية يعوزها الدليل، وإن التفسير في آخر كل مطاف هو وضع الحقائق التي تقصدها اللغة القرآنية على نحو "أكيد" وإلا صار تأويلًا يقبل التعديل والتغيير، وقد يقول علماء الفيزياء الفلكية: ربما المقصود بذلك المستقر (البعد المكاني والبعد الزماني) معًا وليس إما /أو، وقد يرفضون الافتراض الثنائي برُمَّته ويتعاملون مع واقع ملموس ومحسوب بدقة رياضية بسيطة ومركبة معًا، أي أنهم يحولون الكلمة – بالفعل (تجري) إلى معنى تتحرك أو تدور وجملة (لمستقر لها) إلى معنى لنظام لها وهو ليس بخطأ أبدًا، أما مآله المؤقت في اليوم الواحد، ومآلها الأخير في المستقبل السحيق فعلمها عند الله سبحانه من دون تحديد لطبيعة النهاية الغيبيَّة. لأن قول الله تعالى في سورة إبراهيم من الآية:33 .

(6) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ﴾ أي لا يفترقان ولا يتوقفان إلى يوم القيامة، فيه حذف جملة (إلى يوم القيامة) وهي إضافة غير ملزمة حسب النص شكلًا ومضمونًا، بل ذهب إليه بعض المفسرين فعلًا. وفي هذه الحركة نفسها فإن منطق العلاقة بين حركة الشمس والقمر يقع مطمئنًّا ضمن قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ والقمر بالرفع والنصب وهو منصوب بفعل يفسره ما بعده ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾ من حيث مسيره (منازل)، ففي التفسير:

2 – في مداخلة بين كلمتي السماء والكون ثمة معالجات ضمنية منها تعبير الكون المرئي Visible Universe،(النعيمي، 2021) أي الكون الذي تمكنا فيه من إرصاد أبعد الأجرام السماوية مثل المجرات والكوازارات حسب الإمكانات التكنولوجية المتاحة للإنسان الآن (وهي متغيرة ومتطورة)، مع ذلك يجب التمييز أحيانًا بين الحاجة إلى العين المجردة فقط أو إلى العين المجردة مع الوسائل العلمية التكنولوجية المتطورة في يومنا هذا، ثم إن هناك افتراضًا غير مقصود يجعل الإنسان في مركز الكون المرئي متمثلًا بموقعه في الكرة السماوية الوهمية، وإن مثل هذا الكون الذي نعرفه بصفتنا البشرية على الأرض قد يوافق تعبير (السماء الدنيا) فما حكم (السماوات العلى)، إذن في التعبير الفيزيائي الفلكي ؟ إنها تقع ضمن مفهوم الكون الكامل أو الكون الحقيقي (السماوات السبع والله تعالى أعلم).

للقمر 28 منزلًا في 28 ليلة من كل شهر ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين ويومًا وليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين يومًا ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ في آخر منازله في رأي العين كالعرجون(3) القديم، كعود الشماريخ إذا عتق فإنه يرق ويتقوس ويصغر. ومن الواضح أن هذه المنازل ناشئة من دوران القمر حول الأرض ودورانهما معًا حول الشمس حتى يظهر القمر في مواقع مختلفة من السماء وعلى أشكال مختلفة من الأرض وذلك نسميه: (الأهلة جمع هلال) كما في قول الله تعالى﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة:189].

نعود إلى الفعل ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ فنعيده إلى معنى: جعلناه يجري أو يسير تبعًا للعلاقة الفيزيائية الجذبية والحركية: الأرض والشمس والقمر، ومن ثم ولادة أشكال الهلال المختلفة ومواقيتها المستدل بها، ولكن﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ إذ الفعل في﴿تُدْرِكَ﴾ وهو يدرك إدراكًا ذو معان دالة عميقة، وليس مجرد الوصول إلى...، أو اللحاق بـ ...، أو التماس مع ...، بل ربما معنى يؤثر في ناحية اليسر والبساطة ويصطدم به من ناحية الفوضى واللانظام أيضًا، ونحن نميل إلى جعل كل هذه المعاني في الفعل (يدرك) في هذا الاستعمال القرآني المدهش، إذ إن جملة: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ تؤكد انقطاع الوصل المادي المباشر بين الشمس والقمر والاكتفاء بالاتصال الضوئي والجذبي الحركي على مسافة مقدرة بدقة وبنظام موضوع بدقَّةٍ كُبْرى من خلال كلمة (فلك/ مدار) نفسها، إذ إنَّ الإحاطة بنظام المجموعة الشمسية Solar System يجعل الشمس مركزًا لها، ولكن عندما يصير البحث في حركة الشمس نفسها ومجموعتها تبعًا لها فإن الإحاطة يجب أن تمتد إلى مجرتنا التي تنتمي إليها المجموعة الشمسية، والتي نسميها درب التبانة (الطريق الحليبي The Milky Way) هذا يعني ضمنًا أو مباشرة أن مستقر الشمس من الناحية الفيزيائية المكانية هو نظام الحركة داخل المجرة، فهي لا تستطيع الإفلات منه أو الخروج عليه أو تغيير مساره! وهذا لا ينفي ولا يلغي مطلقًا عبودية الشمس والقمر لرب العرش العظيم، وتسبيحهما له وسجودهما لله جل جلاله،

((تقول الفيزياء الفلكية في هذا السياق : تسبح مجرتنا نفسها ضمن (فضاء) حشد مَجَرِّيٍّ يدعى بالمجرات المحلية (Local Galaxies) وعدد المكتشف منها يتراوح بين 40 إلى 50 مجرة، وهذه المجرات مرتبط بعضها بِبَعض، فيزيائيًّا برباط الجاذبية المشتركة، أي: كل مجرة تدور حول مركز ثقل المجموعة المشترك، وتسبح المجرات المحلية وكأنها جِرْمٌ سماويٌّ واحدٌ في مجموعة كبيرة من الحشود المجرية تدعى Local Super Clusters وتسبح هذه المجموعة في حشود مجرية أكبر لتسبح في دائرة مجموع الحشود العملاقة وتؤلف الكون المرئي (والكون المرئي يتألف من أكثر من مليار حشد مجري، وكل حشد مجري يحوي معدلًا ما يقارب مئةَ (100) مجرة، وكل مجرة تحوي ما يقارب مئةَ (100) مليارٍ إلى مئةٍ وخمسينَ (150) مليار نَجْمٍ) وكل هذه الأجرام تسبح في فلك ويمكن ملاحظة تسلسل السباحة Swimming "الحركة في مدار/ فلك" للأجرام السماوية الآتية:

أ. يسبح القمر في مدار حول الأرض.

ب. تسبح الأرض في مدار حول الشمس في المجموعة الشمسية.

ج. تسبح وتجري الشمس وأفرادها من المجموعة الشمسية في مدار حول مركز المجرة.

د. تسبح المجرة "درب التبانة" في المجموعة المحلية من المجرات.

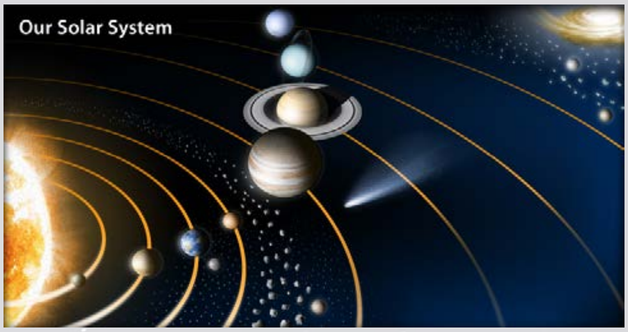
ه. تسبح المجرات المحلية في مجموعة كبيرة من الحشود المجرية.

و. تسبح الحشود المجرية (التي يبلغ عددها أكثر من مليار حشد مجري) في الكون المرئي.

ز. يسبح الكون المرئي في الكون الحقيقي، وقد تسبح الأكوان السبعة "والله أعلم" في مدار حول مركز ثقل الكون الحقيقي "السماوات السبع".

ح. وكل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى في الكون وفي السماوات يسبح في فلك (سبحان الله وتعالى الذي قال في كتابه الكريم: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

3 – العرجون: عذق النخيل العتيق اليابس، إذا نزعت (قطفت) عنه التمر يبقى خيطًا أصفر اللون. فربنا سبحانه وتعالى شبه الهلال بالعرجون.



الشكل (1) يوضح كواكب المجموعة الشمسية الثمانية (حسب التسلسل من كوكب عُطارد الأقرب الى الشمس والى الكوكب نبتون الأبعد من الشمس) تتوسطهما الشمس وتدور حولها



الشكل (2) يوضح مجرتنا (درب التبانة) وموقع مجموعتنا الشمسية فيها

1 - 2: ظاهِرَتا اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَارْتِباطُهُما بِحَرَكَةِ الأَرْضِ المِحْوَرِيَّةِ حَوْلَ نَفْسِها بِالنِّسْبَةِ إِلى الشَّمْسِ:

الليل والنهار ظاهرة فيزيائية طبيعية تحدث من جراء دوران الأرض حول محورها، وَيُحَدَّدُ اليومُ الواحدُ من خلال تحديد الوقت الذي تستغرقه الأرض للدوران دورةً كاملةً حول محورها، إذ يتضمّن هذا الوقت الليل والنهار، وكما هو معروف أنّ الأرض تدور دورةً كاملةً حول الشمس خلال ثلاثمئةٍ وخمسةٍ وسِتِّينَ(365) يومًا، تَدُور أيضًا حول محورها دورةً كاملةً كلّ أربعٍ وعِشْرِينَ(24) ساعةً، وتدور الأرض حول محورها دورانًا مُسْتَمِرًّا؛ لذلك يُوجد خط يفصل بين الليل والنهار، حيث تُشرق الشمس على نصف الكرة الأرضية بالنهار، فيكون هذا الجانب أكثر دفئًا وإشراقًا، أمّا الجانب الآخر البعيد عن الشمس فيكون أكثر برودةً وظلامًا.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحج 18: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [الحج:18]، وهذا نص صريح وقاطع بأن:﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، نصٌّ يقبل أكثر من تفسير في الواقع. أما في مسألة: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ فنرى معناه: لا يأتي قبل انقضاء النهار، أي لا ليل في العصر مثلًا، بل الليل بعد الغروب، إذ في هذه الاستحالة عودة إلى ما تقدَّمَ ذِكْرُهُ والخاصُّ بنظام الحركة المحورية للأرض حول نفسها، لأن سبق الليل انقضاء النهار يعني تغيرًا ما في نظام حركة الأرض، ولما كانت هذه الحركة تسير وَفْق قانونٍ أزليٍّ واحدٍ وثابتٍ (إلى ما شاء الله تعالى) فإنه من المستحيل، تلقائيًّا، أن يسبق حدثٌ حدثًا آخر في ظله ومنه استباق الليل، النهار، ولو شئنا قلب المعادلة لما أخطأنا، إذ لا يمكن أن يستبق النهار الليل قبل الفجر مثلًا، للأسباب نفسها، بل إن انبلاج الفجر وتغير لون الشفق ثم الشروق فالنهار صباحًا، والنهار ضحًى، والنهار ظهرًا، فالنهار عصرًا، ثم الغروب، فالليل هو القانون الطبيعي الذي فرضه الله سبحانه، فلا تقديم ولا تأخير إلا بنظام فيزيائي رياضي، من هنا فإن اقتران الشمس بالقمر له نظير في اقتران الليل بالنهار من حيث "الوظيفة" لا من حيث الشكل(4).

---

4 - اختلاف الليل عن النهار سببه يعود إلى دوران الأرض حول نفسها وطريقة تربط ميلان الأرض حول محورها وهي تدور حول نفسها ودورانها (جريانها) حول الشمس في المنظومة الشمسية، ثم غاية تمتد إلى أجل مسمى أو يوم الحساب إذ تجتمع بين التغير الانقلابي الفيزيائي الفلكي في الكون وبين وقوف الإنسان بين يدي ربه مثابًا أو معاقبًا.

5 - طبقة النهار طبقة رقيقة جدًّا مقارنة بقطر الأرض (1% من قطر الأرض)، وظاهرة اختلاف الليل والنهار ظاهرة طبيعية مذهلة بسبب اختلاف العوامل الفيزيائية فيها مثل: درجات الحرارة، شدة الضوء، نسبة الرطوبة، كمية الأشعة الكهرومغناطيسية والرياح الشمسية والمجال المغناطيسي ونسبة غاز الأكسجين والكربون... الخ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[المؤمنون:80]، فالتفكر في اختلاف الليل والنهار.

أمـا المحتوى البلاغـي لقـول اللـه تعـالى:﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، فإننـا نجـده شـديد القـوة والتـأثير في معاملـة الشـمس والقمـر مباشرة والأرض ضمنًـا معاملـة العـقلاء، وكأنهم يسـبحون بملء إرادتهم! والله جل جلالـه خالقهم وما يفعلـون، إلا أن بلاغـة التشـخيص ارتفعت بالعنـاصر المبحوثة إلى صـف العـقلاء، ليس في هـذه الآيـة الكريمة فحسـب، بل في آيـات كريمـات أُخَـر لا تخفـى على القارئ. فَـإِنَّ منـح العاقل صفـةَ غَيْرِ العاقـل يعد بلاغة (استـثناءمن القاعـدة) على الرغم مـن مدلولها الفيزيائـيّ الفلكـيّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾، فإن جملة ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ لا تخضـع لبلاغة التشـخيص، بـل لنقيضهـا الذي لـم يوثق؛ لأن الظلمـة قرينـة غير العاقـل: الليل، فـإذا أصبح الـبشر مُظْلِمين صـاروا في صـف غير العـقلاء وهو (لـون) بلاغيٌّ من غير شـك مـع الظاهـرة الفيزيائيـة والفلكيـة بحلول الـظلام عليهم.

طبقـة النهار طبقـة رقيقة(5) تحيط بكوكـب الأرض، يحيط بهـا الليـل (الظلمة) مـن اليمين واليسـار ومن الأعلى والأسـفل أو بالأحـرى مـن كل الجهات، يقول سـبحانه وتعـالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

والليـل يَغْشَى النهار مـن جميع الجهات، وطبقـة النهار تبدو قشرة رقيقـة تنسـلخ من الظلام الذي يغلفهـا من كل جانب كما مَرَّ في الآيةِ الكريمة المُسْتَشْـهَد بِها في سُـورة يس: 37.

إن غِشْـيانَ اللَّيـلِ النَّهـارَ، والنَّهـارِ اللَّيْـلَ كنايـةٌ ضمنيَّةٌ عن دوران الأرض حول محورها أمام الشـمس، ولـو لم تَدُرِ الأرض مـا كان ليـل ولا نهـار، ولا تحـرك ظلام إلى نـور، ولا العكـس، وهـي عملية (إغشـاء الليـل بالنهار)، يطلبـه حثيثًـا (سريعًا)، أي بسرعـة فائقـة إذا كانت سرعـة دوران الأرض حول محورها في بـدء الخلـق عالية جـدًّا (حثيثًا)، يـقصر الليل والنهـار معًا، بأقـل مـن 4 سـاعات، ثـم تَبْـدَأ الأرض في التَّباطُـؤ تدريجيًّا في دورانهـا حتـى تَصِـلَ إلى إتمـام دورانهـا حول نفسـها في 24 سـاعة كما هـو اليوم.

إن هـذا التَّباطؤ جزء مـن الثانية كُلَّ قَـرْنٍ ويسْـتَغْرِق أرْبَعَةَ آلافِ 4000 مليون سـنة من عمر الأرض بسـبب عاملين: عملية المـدِّ والجـزر، والرياح التـي تهبّ عَكْـسَ دوران اتِّجـاه دوران الأرض.

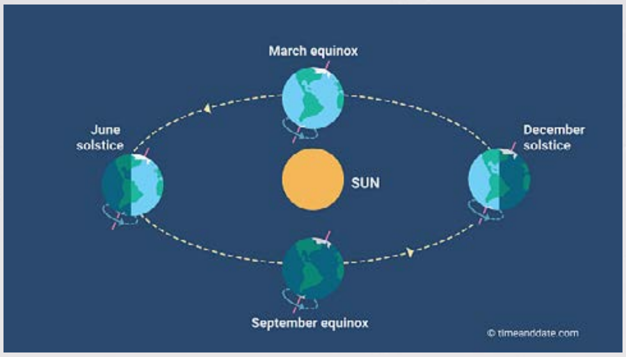


الشكل (4) صورة الأرض التقطت من الفضاء وتوضح الجزء المظلم(الليل) من سطح الكرة الأرضية وطبقة النهار الرقيقة مقارنة بما يحيطها من الليل

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:37].

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:54].

فعندمـا نتحـدَّث عن ظاهرتـي الليـل والنهار فإننـا نتحدَّث عـن حركـة الأرض حول نفسـها بالنِّسـبة إلى الشـمس، في 24 سـاعة، وعندمـا نتحـدَّث عن الفصـول الأربعـة فإننـا نتحدَّث عـن حركـة الأرض حول الشـمس في سـنة واحـدة، وعلاقة ذلك بميـل محـور الأرض بزاوية قدرها 23.5 درجة، فالشـكل الآتِي رقـم 5 يـبين موقع الأرض بالنسـبة إلى الشـمس وتوزيـع الليل والنهـار عليها في الفصـول الأربعة.



الشكل (5) صورة توضح موقع الأرض بالنسبة إلى الشمس وتوزيع الليل والنهار على سطح الأرض خلال الفصول الأربعة السنوية (الاعتدالين الربيعي والخريفي (يتساوى فيهما الليل والنهار تقريبًا) والانقلابين الصيفي والشتوي)

والجدير بالإشارة إليه أن ظاهرتي الليل والنهار تَحْدُثان في الكواكب الأخرى أيضًا حسب دورانها حول نفسها بالنسبة إلى الشمس، فمثلًا يوم المريخ 25 ساعة تقريبًا ويوم المشتري 10 ساعات ويوم زحل 12 ساعة.. وهكذا.



الشكل (6) صورة الأرض من الفضاء وفيها الليل والنهار على الوجه المقابل لنا في حين نجد النهار على الجهة اليسرى ممتدًا إلى الجزء الخلفي حسب موقع الشمس

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان:29].

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: 190].

وبناءً على ما تقدَّم نَجِدُ أن اللَّيل والنهار آيتان من آيات الله تعالى وهما من الظواهر الفيزيائيَّة الرائِعَة التي خلَقَهما اللهُ سبحانه للكائِن الحيِّ ليتمتَّع بهما في حياته، وجعلهما له سرمدًا دائمًا خالدًا إلى يوم القيامة، فسبحان القائل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: 72-71].

سُبْحانَ اللهِ عزَّ وَجَلَّ عَلى دِقَّةِ وصْفِه لِلَّيل والنَّهارِ في زمَنِ نُزول القُرْآن الكَريم قَبْلَ 1446 عامًا هجريًّا.

العَطِيَّة على قدر المُعْطي

مَرَّ يزيد بن المهلَّب في طريقِ البَصرةِ بأعرابيَّة فأهدَت إليه عَنْزًا فَقَبِلَها وقالَ لابنه: ما عندَكَ من نفَقَة؟ فقال: ثمانمئة درهم. قال: ادفَعْها إِلَيها. فقال له ابنُه: إنَّها لا تعرفكَ ويُرضيها اليَسير.

فقالَ له أبوه: إنْ كانَتْ لا تعرِفني فَأنا أعرِفُ نفسي، وإنْ كانَ يُرضيها اليَسير، فأنا لا أَرضى إلاّ بالكثير.



البَيانُ ووَصْفُ القُرآن

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]

قال الخليفة العبّاسيّ عبد الله بن المعتزّ:

البَيانُ تُرجمانُ القُلوب، وصَيقَل العُقول، ومجلي الشّبهة، ومُوجِب الحُجَّة، والحاكم عند اختصامِ الظُّنون، والمُفَرِّقِ بين الشَّكِّ واليَقين، وهو من سُلطان الرّسل الذي انقادَ به المستصعب، واستَقام الأصيد، وبهت الكافر، وسلم الممتنع، حتى أشب الحقُّ بأنصاره، وخلا ربع الباطل من عماره.

وخير البيان ما كان مصرّحًا عن المعنى، ليسرع إلى الفهم تلقّيه، وموجزًا، ليخفّ على اللَّفظ تعاطيه، وفضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول، وظاهر غير خفيّ، يشهدُ بذلك عجزُ المُتَعاطين، ووهنُ المتكلّفين، وتحيُّر الكذّابين، وهو المبلغ الذي لا يُمَلّ، والجديد الّذي لا يَخلَق، والحقّ الصّادع، والنّور السّاطع، والماحي لظلم الضّلال، ولسان الصّدق النّافي للكذب، ونذير قدمته الرَّحمة قبل الهلاك، وناعي الدنيا المنقولة، وبشير الآخرة المخلّدة، ومفتاح الخيرة، ودليل الجنَّة، إن أوجز كانَ كافيًا، وإن أكثر كان مذكرًا، وإن أومأ كان مقنعًا، وإن أطالَ كان مُفْهِمًا، وإن أمَرَ فناصحًا، وإن حكمَ فعادِلاً، وإن أخبَر فصادقًا، وإن بيَّن فشافيًا، سهل على الفهم، صعب على المتعاطي، قريبُ المَأخذ، بعيدُ المَرام، سراجٌ تَستضيءُ به القلوب، حلو إذا تذوَّقَتْه العقول، بحرُ العلمِ وديوانُ الحِكَم، وجَوهَر الكَلِم، ونُزهَة المُتَوسِّمين، وروح قلوب المُؤمِنين، نزلَ به الرّوحُ الأمين، على محمَّد خاتم النَّبيّين، صلّى الله عليه وعلى آلِه الطَّيِّبين، فخصم الباطل، وصدعَ بالحقِّ، وتألَّف من النَّفرة، وأنقذَ من الهَلَكَة، فوصَل الله له النَّصر، وأضرعَ به خدّ الكُفر.

الرَّوابِطُ والتِّقْنِيّاتُ الحِجاجِيَّةُ في سُورَةِ هودٍ بين نوحٍ عليْهِ السَّلامُ وَقَوْمِهِ



يأتي هذا البحث حلقة في سلسلة الأبحاث التي حرص الباحث على إنجازها بعون الله تعالى، لمجلة مجمع اللغة العربية بالشارقة، متناولا الأساليب الحجاجية الخاصة بما دار بين نوح عليه السلام وقومه من جهة، وبين المولى سبحانه وتعالى وبينه من جهة أخرى، وبينه وبين ابنه من جهة ثالثة، وذلك من خلال ما ورد من آيات كريمة من سورة هود؛ للوقوف على عناصر الحجاج، وفق هيكل للبحث يتألف من محورين: يخصص أحدهما للإطار النظري، في حين يفرد الثاني للدراسة التطبيقية، بناء على المنهج الوصفي المتكئ على التحليل.

ويهدف البحث إلى بيان أساليب الحجاج في مدونة البحث، وتتجلى أهميته في عنايته بالأساليب الحجاجية، من حيث المقدمات، والنتائج، والروابط، والتقنيات الحجاجية، بالتركيز على الروابط، والتقنيات الحجاجية



أ.د. بكري محمّد الحاجّ
رئيس مجمع اللّغة العربيّة بالخرطوم

ويفترض البحث أن الأساليب الحجاجية التي وردت في مدونة البحث قد جسدت نقل المضامين اللغوية التي أراد المولى سبحانه وتعالى إيقاف المخاطبين عليها، وأن الأساليب الحجاجية التي ظهرت في مدونة البحث كانت مناسبة في إحداث التأثير في المتلقي للرسالة اللغوية.

ويقوم البحث وفق محوريه على الترتيب الآتي:

المحور الأول: الإطار النظري للبحث:

يتناول هذا المحور النظرية الحجاجية: مفهومها، وخصائصها، وأهدافها، والمبادئ الحجاجية، وتتألف المكونات العملية الحجاجية من مقدمات حجاجية تؤسس لعملية الإقناع التي تظهر في شكل نتيجة، باستخدام الروابط الحجاجية، وتقنيات الحجاج. ويتناول الباحث هذه الجوانب على الترتيب الآتي:

1- مفهوم الحجاج:

ورد لفظ الحجاج في المعاجم اللغوية بمعنى التخاصم، وسوق البرهان لمجادلة الخصم، وإقامة الحجة عليه. يقول ابن منظور: «والحجة: البرهان؛ وقيل: الحجة ما دوفع به الخصم؛ وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل محجاج أي جدل. والتحاج: التخاصم؛ وجمع الحجة: حجج وحجاج. وحاجه محاجة وحجاجا: نازعه الحجة. وحجه يحجه حجا: غلبه على حجته».

ويقول عنه الصديق آدم بركات: «الحجاج (البلاغة الجديدة) بمعناه العادي هو طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع، فيكون بذلك الخطاب ناجعا فعالا». ويتضح من هذا التعريف أن الهدف الأساس من الحجاج هو التأثير في السامع المتلقي للرسالة اللغوية؛ ولذا لا بد أن يحرص المرسل على تضمين

رسالته ما يناسب المتلقي في مضمونها وصوغها، وتزويدها بالروابط التي تحقق التماسك اللفظي والانسجام الدلالي.

ويرى جميل حجاوي أن الحجاج عبارة عن رسالة تداولية خطابية بين مرسل ومتلق. وتوضح آمنة لعور التداولية بقولها: «يمكن أن نعرف التداولية بأنها: دراسة اللغة أثناء الاستعمال، دون إهمال المعنى الذي يحدده السياق، مركزة على عناصر العملية التبليغية: (المرسل، والمرسل إليه، ... أما الرسالة فهي الخطاب الذي يرسله المخاطب إلى المخاطب ...) بهدف التأثير في المشاركين في العملية التواصلية ككل».

2- عناصر العملية الحجاجية

ذكر الصديق آدم بركات أن مكونات الحجاج تتمثل في: المقدمات الحجاجية، والنتائج، والروابط الحجاجية، والتقنيات الحجاجية، وأنه يستمد الخطيب مقدماته من مواد تعود إلى الواقع، هي: الوقائع والحقائق والمظنونات، ومما يرجع إلى الأفضل، ويتمثل في القيم والترتيبات ومواضع الأفضل، للوصول إلى النتائج؛ لتكتمل عملية الحجاج.

3- ميدان الدراسة:

ميدان الدراسة هو آيات من سورة هود، وهي مكية إلا قوله: {وأقم الصلاة طرفي النهار} وهي مائة وثلاث وعشرون آية، وعينة البحث خمس وعشرون آية كما تقدم، تبدأ بالتعريف بإرسال نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

و«هذه آية قصص فيه تمثيل لقريش وكفار العرب، وإعلام محمد صلى الله عليه وسلم ببدع من الرسل، وروي أن نوحا عليه السلام أول رسول إلى الناس». وقصة نوح واردة في عدد من السور القرآنية، منها ما جاء في سورة (المؤمنون)، وسورة (الشعراء)، وسورة (العنكبوت)، لكنها أتت هنا في سورة هود أكثر تفصيلا.

المحور الثاني: الدراسة التطبيقية:

تأتي الدراسة التطبيقية متضمنة ما دار بين نوح وقومه، وبين المولى سبحانه وتعالى ونوح عليه السلام، وبين نوح وابنه، وذلك على الترتيب الآتي:

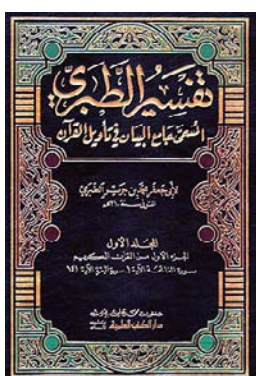
1- ما دار بين نوح وقومه:

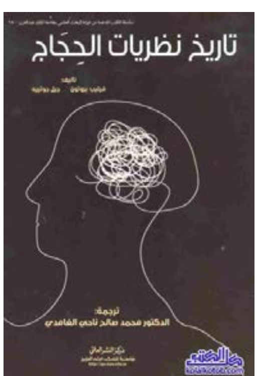
تبين الآيتان: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ ما دار من حجاج بين نوح وقومه في رسالته، لإفراد الله بالعبادة «قال ابن عباس: بعث نوح عليه السلام بعد أربعين سنة، ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، وكان عمره ألفا وخمسين سنة».

وتبين هاتان الآيتان المذكورتان المقدمة الحجاجية التي سينطلق منها الحجاج بين نوح وقومه، «قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه: إني لكم، أيها القوم، نذير من الله، أنذركم بأسه على كفركم به، فآمنوا به وأطيعوا أمره».

وقد ترابطت الجمل المكونة لهاتين الآيتين السابقتين بالضمائر البارزة والمستترة، وبـ (إن) التوكيدية التي تكررت مع اسمها مرتين، والتكرار من وسائل الترابط اللفظي، وتحقق الانسجام الدلالي بفضل الإسناد بين طرفي الجمل الفعلية والاسمية ومكملاتها، فضلا عن الترابط بين الصفة والموصوف في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ ومن بين كلمات اللغة تنطوي الصفة على أحكام تقويمية دون الاسم والفعل، خاصة الصفات المشتقة، كالصفة المشبهة، وأفعل التفضيل، واسم الفاعل والمفعول، فالصفة أكثر استعدادا من الأفعال والأسماء للتقويم، والمفاضلة.

وجاء رد الفعل على دعوة نوح





أَتَتْ دفوعُ نوحٍ عن موقِفِه تجاهَ ما ساقَه قومُه من حجَجٍ متتابعة، يأخذُ بعضُها بحجزِ بعض، وقد تمثَّلت في أنَّ موقِفَه في إبلاغِ الدَّعوةِ قائمٌ على بيِّنَةٍ من ربِّه.

لقومه معارضا، متهما أتباعه بافتقاد البصيرة، والجنوح للكذب: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

وأتوا في جدالهم مع نوح بثلاث حجج: أولها كونه بشرا مثلهم، وثانيها أن أتباعه ليسوا من علية المجتمع، بل من الأراذل الذين تسرعوا في إجابة دعوته، وثالثها أن من اتبعوه ليسوا أصحاب فضل يميزهم، وجاءت العناصر الحجاجية في هذا النص القرآني مكتملة، من حيث توفر المخاطب والمتلقي «وحجج سيقت بطرق مختلفة، وغاية هي الإقناع».

والرسالة منطلقة من الواقع في مدافعة أهل الباطل لكل جديد من الحق، والنتيجة الحجاجية التي ترتبت على هذه الحجج المسوقة، هي عدم الإذعان لما أتى به نوح عليه السلام. وهذا شأن المعاندين لدعوات الرسل في كل زمان. يقول الله تعالى مسليا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم: (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير).

وقد جاءت روابط حجاجية عديدة فيه: منها الضمائر، والتكرار لجملة (ما نراك)، والتضام بينها، وبين جملة (وما نرى لكم)، فضلا عن تكرار (إلا) الاستثنائية، وجاءت واو العطف رابطة بين هذه الجمل المتتابعة، وهي التي "تستثمر حجاجيا في إدراج الحجج والجمع بينها، وتتابعها؛ مما يساعد على انسجامها وتماسكها، وتقوية بعضها ببعض لتوصل إلى نتيجة واحدة؛ لذا تعد من الروابط المهمة في إنجاز السلم الحجاجي، بما تفيده من اشتراك في الحجج الموصلة لنتيجة معينة.

وقد مكنت هذه الروابط المذكورة من تماسك هذا النص الحجاجي من الناحية اللفظية، فضلا عن توفر عناصر حققت الانسجام الدلالي فيه، وعلى رأسها الإسناد في هذه الجمل المكونة لهذا النص الحجاجي الذي أتى على لسان قوم نوح.

– وجاء رد نوح على حجج هؤلاء القوم دامغا: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ وهكذا أتت دفوع نوح عن موقفه تجاه ما ساقه قومه من حجج متتابعة، يأخذ بعضها بحجز بعض، وقد تمثلت في أن موقفه في إبلاغ الدعوة قائم على بينة من ربه «أي: على يقين وبصيرة»، ولا يطلب منهم مقابلا، أي: على الوحي وتبليغ الرسالة، ولست متعرضا لمن أذعنوا بالطرد «لأنهم طلبوا منه أن يطرد من عنده من الفقراء والضعفاء حتى يجالسوه»، وهذا فيه تذكير وتثبيت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم «وذلك كما قال قريش للنبي صلى الله عليه وسلم في فقراء الصحابة رضي الله تعالى عنهم: اطرد هؤلاء عنك ونحن نتبعك، فإنا نستحيي أن نجلس معهم في مجلسك، فهو جواب عما لم يذكر في النظم الكريم، لكن فيه نوع إشارة إليه»، وليس (عندي خزائن الله) «كأنه يقول: عدم اتباعي وتكذيبي إن كان لنفيكم عني فضل المال والجاه فأنا لم أدعه.

وتتوالى حجج نوح مفصلة الحجة الأولى، ومعضدة لها (ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك) «ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم، ولا أقول إني ملك حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا، ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيرا في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، كما تقولون، مساعدة لكم ونزولا على هواكم؛ إني إذا لمن الظالمين إن قلت شيئا من ذلك».

وفضلا عن الضمائر التي أدت إلى التماسك اللفظي لجمل هذا النص، فقد توفرت عناصر ترابط لفظي أخرى مثل التكرار لأداة النفي (لا). أما عن الانسجام الدلالي فقد تحقق بالإسناد، والترابط بين الصفة والموصوف في أكثر من موضع. والنفي الذي أتى بصيغ متعددة من بينها (لا، وما، ولن) يعد من التقنيات الحجاجية في هذه الحجج التي أتى بها نوح، وهو «من العوامل ذات الطاقة الحجاجية بما يحمله من معان إنجازية، تقود المخاطب إلى المقصود... وهو أسلوب نقض وإنكار، يستخدم لدفع ما يتردد في ذهن المخاطب». وينضم الاستفهام إلى النفي، ويتكرر مثله عن طريق الهمزة، ومن، ولا تقل الطاقة الحجاجية فيه عن طاقة النفي، ويضاف إلى النفي، والاستفهام، الشرط الذي أتى بإن الشرطية، «أما حجاجيا فأدوات الشرط من العوامل الحجاجية التي تحصر الإمكانات الحجاجية، بربط الحجة التي هي فعل الشرط بالنتيجة التي هي جواب الشرط». وكل هذه التقنيات الحجاجية والروابط، قد قوت الحجج التي أفحم بها نوح قومه، ونفى عن نفسه الظلم؛ من حيث عدم استجابته لرغباتهم، وهذا ما ختمت به هذه الآيات الكريمة.

ومما يؤكد نفاذ حجاج نوح اعتراف قومه بقوته، وحسمه لعنادهم (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) «أي خاصمتنا ونازعتنا، وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله... وسميت المنازعة جدالا؛ لأن المتجادلين كأنهما يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه». وطلبوا عندما بان عجزهم أن يقولوا (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) «من العذاب، إن كنت من الصادقين في عداتك ودعواك أنك لله رسول. يعني: بذلك أنه لن يقدر على شيء من ذلك». وقد ترابط نص هذه الآية من الناحية اللفظية بالضمائر، وبالتضام بين كلمت (جادل، وجدال) فضلا عن تحقق الانسجام الدلالي بالإسناد.

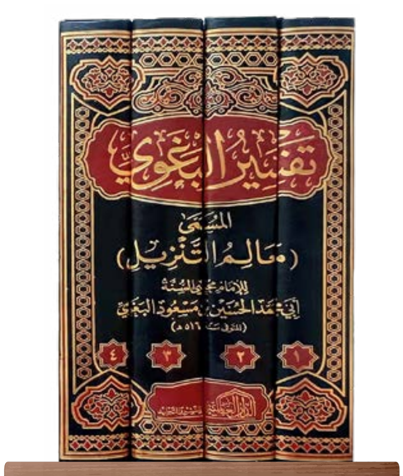
وجاء رد نوح على قومه المعاندين في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أورد الزمخشري شرح الآية الأولى بقوله: «إنما يأتيكم به الله، أي ليس الإتيان بالعذاب إلي، إنما هو إلى من كفرتم به، وعصيتموه ، إن شاء، يعني إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم».

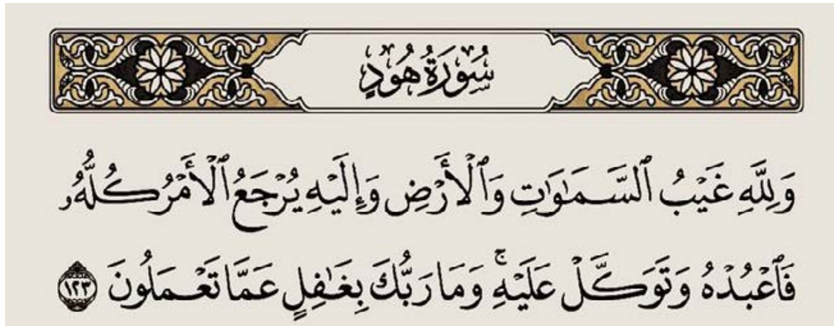
2- ما دار بين المولى سبحانه وتعالى ونوح:

- وبعد أن عجز قوم نوح عن مجاراته في حجاجه قالوا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وأم هنا في مقام الاستفهام بالهمزة، يقول أبو حيان: «بل أيقولون افترى ما أخبرهم به من دين الله وعقاب من أعرض عنه، فقال عليه السلام: قل: إن افتريته فعلي إثم إجرامي». وقد توفرت في الآية الضمائر محققة التماسك اللفظي، فضلا عن التضام بين (افتراه، وافتريته) و(إجرامي، وتجرمون)، كما تحقق الانسجام الدلالي بفضل الإسناد، وأدى هذ كله إلى حمل الرسالة اللغوية إلى قوم نوح على نحو ينبغي أن يحدث التأثير، ويقود إلى الاقتناع، ولكن (الله يهدي من يشاء).

- وجاء رد المولى سبحانه وتعالى حاسما لهذا الجدال، مبشرا بهلاكهم غرقا: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال الحسن: إن نوحا عليه السلام لم يدع على قومه، حتى نزلت هذه الآية: أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن؛ فدعا عليهم عند ذلك ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِرينَ دَيّارًا﴾ [نوح: 26]، ثم قال تعالى: فلا تبتئس بما كانوا يفعلون من الكفر، وذلك أن نوحا ندم على دعائه، وجعل يبكي ويتأسف عليهم، فقال الله تعالى: فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، يعني: لا يحزنك إذا نزل بهم الغرق، بما كانوا يفعلون من الكفر..». وقد تضمنت الآيتان من العناصر اللغوية ما حقق





إنَّ العَنَاصِرَ الحِجَاجِيَّةَ، المُتَمَثِّلَةَ فِي المُقَدِّمَاتِ والنَّتَائِجِ، والرَّوابِطِ، والتِّقْنِياتِ، قَدْ أَسْهَمَتْ في تَجْسِيدِ الرِّسالَةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَإِحْداثِ التَّأْثِيرِ فِي المُتَلَقِّينَ.

التماسك اللفظي، والانسجام الدلالي، مثل الضمائر، وإن التوكيدية، والعطف بين عبارتي (بأعيننا ووحينا).

- ويستجيب نوح لأمر الله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

والمقدمة الحجاجية هي الحديث عن البدء في صناعة الفلك رغم عدم امتلاك مهارة صناعتها «ولما أمره تعالى بأن يصنع الفلك قال: يا رب ما أنا بنجار، قال: بلى، ذلك بعيني». واللافت في الآية تكرار العبارات الدالة على السخرية المتبادلة بين نوح وقومه، وقد حققت التماسك اللفظي، فضلا عن تحقيق الإسناد، وحقق الترابط المتكرر بين الصفة والموصوف الانسجام الدلالي.

3- ما دار بين نوح وابنه:

ويكتمل المشهد الحجاجي ببناء السفينة، وانطلاقها، وبيان ما دار بين نوح وابنه في غمرة الطوفان وتلاطم الأمواج ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٤٢﴾. والمقدمة الحجاجية تمثلت في صدر الآية الكريمة (وهي تجري بهم في موج كٱلجبال)، والنتيجة الحجاجية التي ترتبت على هذا إشفاق نوح على ابنه، ودعوته للحاق به وبالناجين، ومن عناصر الترابط اللفظي التضام بين عبارتي (ابنه، وبني) فضلا عن الضمائر، وأداة النداء، وتحقق الانسجام الدلالي بالإسناد، والصفة، ومكن توفر عناصر الحجاج من حمل الرسالة اللغوية إلى ابن نوح، ولكن الله لم يكتب له الهداية ولم ينج من الغرق.

- ورد الابن على توسل أبيه ومناداته إياه للنجاة من الغرق ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ٤٣﴾. وجاءت المقدمة الحجاجية في قول الابن: (قال سآوي إلى جبل يعصمني من ٱلمآء). «يقول: سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء، فيمنعني منه أن يغرقني». وجاءت النتيجة الحجاجية في رد نوح عليه: (قال لا عاصم ٱليوم من أمر ٱلله إلا من رحم) وحسم الأمر(وحال بينهما ٱلموج فكان من ٱلمغرقين) يعني: فصار من المغرقين. وجاءت من عناصر الترابط اللفظي الضمائر البارزة والمستترة، فضلا عن تحقق الانسجام الدلالي بالإسناد، والصفة في قوله: (إلى جبل يعصمني). وأدى هذا إلى رسم صورة الحجاج الصادر من ابن نوح في خطابه وعناده مع أبيه.

خاتمة البحث:

الحمد لله الذي أعان على كتابة هذه الورقة، وتضمينها ما سمح به حيز البحث، وأورد بعض النتائج كما يأتي:

- أثبت البحث أن العناصر الحجاجية، المتمثلة في المقدمات والنتائج، والروابط، والتقنيات، قد أسهمت في تجسيد الرسالة اللغوية، وإحداث التأثير في المتلقين، الذين كتبت لهم الهداية، والاستجابة لدعوة نوح؛ لإفراد المولى عز وجل بالعبادة.
- أثبت البحث أن المقدمات والتقنيات الحجاجية قد راعت الواقع وانطلقت منه، وآزرتها الروابط الحجاجية لتحقيق النتائج المرجوة.
- تمثلت الروابط الحجاجية التي تآزرت لتحقيق التماسك اللفظي للنصوص عينة البحث في التكرار،

والتضـام، والضمائر البارزة والمسـتترة، فـضلا عـن أدوات العطـف، والتوكيـد، والنفـي، والاسـتفهام، والشرط.

• ومـن ناحيـة أخـرى أثبـت البحـث توفـر عدد مـن العنـاصر اللغويـة التي أدت إلى الانسـجام الـدلالي، ويأتـي على رأسـها الإسـناد، والترابـط بين الصفـة والموصـوف وغيرهـا، وقـد أدى هـذا إلى وصـول الرسـالة اللغوية محدثـة التأثير المطلوب.

• أثبـت البحث أن الحجج التي سـاقها نـوح تجـاه قومـه وابنـه كانـت دامغة وحاسـمة، منطلقـة مـن التوجيهـات الإلهيـة، فنجا مـن الغرق من هـداه الله، وهلك مـن عاند وأعرض، ونـآى بجانبه.

المصادر والمراجع

- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
- ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، د.ت.
- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرازق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1422هـ.
- إسماعيل الخلوتي، روح البيان، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- الألوسي، شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب، بيروت، 1415هـ.
- الزمخشري، تفسير الكشاف، المكتبة الشاملة، 1431هـ.
- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، 2000م.
- السمرقندي، بحر العلوم، المكتبة الشاملة، 1421هـ.
- أحمد عفيفي، نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2001م.
- آدم بركات، الأساليب الحجاجية في خطاب الدكتور امحمد صافي المستغانمي في مشروع المعجم التاريخي، بحث مقدم إلى الملتقى الدولي: امحمد صافي المستغانمي مسار ومنجزات.
- شاذلية سيد محمد السيد، التقنيات الحجاجية في وصف أم معبد الخزاعية، مجلة معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ع47، 2020م.
- نظريات الحجاج، مجلة المنهاج، العدد 70، 2018م.
- الأفعال الكلامية في سورة الكهف: دراسة تداولية، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة.
- Halliday, M. A. K., and Ruqaiya Hasan, Cohesion in English, London, 1976.

فائدة قرآنية لغويّة

الفرح ورد في القرآن محمودًا مأمورًا به في مثل قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:58]، فهذا فرح بالعلم والعمل بالقرآن والإسلام. وكذلك قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران:170]، فهذا فرح بثواب الله.

وورد منهياً عنه مذمومًا، مثل الفرح بالباطل والدنيا المشغلة عن الدين في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:10]. وقوله عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:76]، وما أشبه ذلك. فصار الفرح تبعًا لما يتعلق به؛ إن تعلق بالخير فهو محمود، وإلا فهو مذموم.



الإِيجَازُ لِمَقَاصِدِ القُرْآنِ فــــي أُمِّ الكِتَـــــابِ

سورةُ الفاتحةِ هي تَكثيفٌ إعْجَازِيٌّ وبَيَانِيٌّ في غايَةِ الإتْقَانِ، فقَدْ شَمَلتْ في آياتِها السَّبْعِ مَقاصدَ القرآنِ الكريم في وَحدانيّةِ الله وتفرُّدِه وفي الدَّعوةِ للعبادةِ وطريقِ الحقِّ ولم تقِفْ عند حدٍّ معيَّنٍ منَ القواعدِ بل شملتْ بين دفّتَيْ بِدايتِها ونهايتِها كنوزًا منَ المعرفةِ والأحكامِ الشّرعيّةِ والقواعدِ العامّةِ التي تكلّمَ عنها القُرآنُ مُفصّلًا لها ومُوضِّحًا إجمالَها.



أيمن عبد الراضي
باحث لغوي

أوّلًا: المزايَا الرّائعةُ في سورةِ الفاتحة:

- المَزِيّـةُ الأُولى للفاتحةِ هي الشُّموليّةُ الموجودةُ بالآيـاتِ والتي ترسمُ خريطةً حياتِيّـةً شـاملةً لكلِّ شيءٍ مـن حوْلِنا.

- الثّانيـةُ: عـرضُ رسـالةِ الإسلامِ عَرْضًا مُـخـتصَرًا وواضحًـا، ففيها إيجازٌ في الدّعـوةِ، وقـوّةٌ في الكلمـاتِ، وروْعـةٌ في عـرْضِ حقائـقِ الإسلامِ كمـا يقـولُ الدّكتـور عبـدُ الـسّلام مُقبـل: «الفاتحةُ تقـدّمُ الإسلامَ للعالَـم، ففِيهـا تعريـفٌ واضـحٌ بالحقائـقِ الإسلاميّـةِ الـكُبرى».

- الثّالثـةُ: الفاتحـةُ تضـعُ ضوابـطَ الحيـاةِ وقـوانينَ التّعامـلِ بين النّـاسِ في شُـمولٍ غريـبٍ مـع اسـتثناءٍ في نهايـةِ السّـورةِ للضّـالّينَ والمغضُـوبِ عليهِـم.

- الرّابعـةُ: السّـورةُ رغْـمَ قِصَرهـا إلّا أنّهـا جمعـت في آياتِهـا السّـبعِ مقاصـدَ القُـرآنِ الرّئيسـةَ في شُـمولٍ عجيـبٍ.

- الإيجـازُ الـذي تمتّعتْ به الآيـةُ رغْمَ عِظَـمِ المبادئِ التـي تتناولُها، فهذه الآياتُ السّـبعُ جـاءت لـتضربَ المثَـلَ في الإيجازِ المُعجزِ للقُـرآنِ الكريمِ.

- جمعـتِ الآيـةُ في بدايتِهـا بين توحيدِ الرّبوبيّـةِ وتوحيـدِ الألوهيّـةِ مـع الحمْدِ والرّحمـةِ بأنواعِها.

ثانيًا: مقاصدُ القُرآنِ في سُورةِ الفاتحةِ.

المقصـدُ الأوّلُ: توحيـدُ اللـه تعـالى، وهـذا المقصـدُ يشـتملُ على ثلاثـةِ وجوهٍ مهمّـةٍ وهي:

1 - اللُّجوءُ إلى الله.

وهـذا المَقصِدُ يَبْـدُو جَلِيًّا حِينَ تَسْـبِقُ الاسْتِعاذَةُ قراءةَ سـورةِ الفاتحةِ في قَوْلِنا: (أعـوذُ بالله منَ الشّـيطانِ الرّجيـم)، إذْ يَرى جمهورُ العلماءِ أنَّها سـنّةٌ مسـتحبّةٌ عندَ قـراءةِ القرآنِ، وفيها التجـاءٌ إلى الله أن يُنَجّيَنـا مـنَ الشّـيطانِ الرّجيم، وفي ذلـك يقول الدّكتور عبـدُ الله عليّ صاحبُ (تـأمّلاتٌ في سـورةِ الفاتحـة): «والعياذُ باللـه يكـونُ لدفْـعِ الشّرّ، واللّيـاذُ يكونُ لطلبِ جلْـبِ الخيرِ».

ويقـولُ أيضًـا صديـق خـان صاحبُ

كتـابِ (فتـحُ البيان في مقاصـد القرآن): «وهـي إقـرارُ العبـد بعجْـزه وضعْفِـه وبقُـدرةِ البـارِي على دفْـعِ جميـعِ المضرّات»، وممّا سـبقَ يتّضحُ المَقصدُ مِنَ الاسْـتعاذةِ التي بدأت بها سورةُ الفاتحةِ وإن كانت سـنّةً مسـتحبّةً عندَ الجمهور، إلّا أنّها شـملتْ غايةً مِنَ الغايـاتِ المهمّةِ وهـو الالتجـاءُ إلى الله في القـولِ والفعلِ.

وجـاء في اللّغـةِ أيضًـا في معنَـى الاسـتعاذةِ أنّهـا بمعنَـى أَلْتَجِـئُ إليـه وأعتصـمُ، وتقـولُ: أعـوذُ باللـه مـنَ الشّـيطان الرّجيـمِ أي أعتصـمُ بالله منَ الشّيطانِ وضَررِه وشُرورِه، صغيرةً كانت أو كـبيرةً.

2 – توحيدُ الرّبوبيّةِ.

وهـو الإقـرارُ بوجـودِ ربٍّ معبـودٍ في هـذا الكـونِ يخلـقُ ويرحـمُ ويُسـتعانُ به، وتَجَسَّـد هذا المعنَـى بوضوحٍ في قولِه تعـالى:﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحـة:2]، فاللـه جـلَّ في عُلاه ربٌّ لـكلِّ العوالمِ على اخـتلافِ أجناسِـها وصفاتِهـا وهيئاتِها، سـواءٌ أَرَضِيَـتْ بربوبيّتِـه أَمْ أبـتْ، فهو الـرّبُّ الواحِدُ لجميـعِ الخلْقِ ، إنْسًـا كانَ أو جنًّـا أو ملَـكًا أو أيَّ مخلـوق وُجِـد في السّـماواتِ والأرضِ على اخـتلافِ كُنْهِـه وصفَتِه .

3 – توحيدُ الألوهيّةِ.

وهـذا المقصـدُ ظهـرَ في قولِـه تعالى:﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وفي قولـه تعـالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهـو التّوجّهُ بالعبادةِ للـه وحدَه، وكذلك الاسـتعانةُ به، كمـا أنَّ لفظتَـي الرّحمن والرّحيـم تـدلّان على الصّفـاتِ الغالبـةِ للـه، فيقـولُ صاحـبُ البيـانِ في مقاصدِ القُـرآن: «الرّحمن مـنَ الصّفـاتِ الغالبةِ لـم يُسـتعمل في غيرِ الله عـزّ وجلّ، وقال أبـو عليّ الفـارسيّ: الرّحمن اسـمٌ عامٌّ في جميـع أنـواعِ الرّحمـةِ يختـصُّ بـه الله تعـالى، والرّحيمُ إنّمـا هو من جهـةِ المؤمـنين قـال تعـالى:﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾».



المقصدُ الثّاني: إثباتُ النُّبوّات.

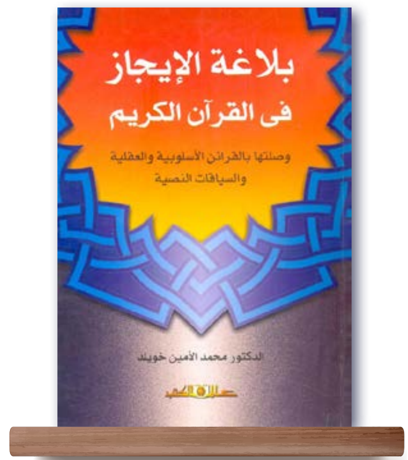
وظهـرَ هـذا المَقصـدُ في قولـه تعالى في سـورة الفاتحـةِ التـي نحـن بصددِهـا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وفيها إشـارةٌ إلى إثبـاتِ النّبوّات ، ففي تفـسيرِ الآية يقـولُ ابنُ كـثيرٍ في المقصودِ بقوله :

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: «قال أبـو جعفر الـرّازي عـن الرّبيع بنِ أنس: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، قـال: هم النّبيّـون، وقال ابـن خَديج عن ابـن عبّـاس: هـم المؤمنـون، وكـذا قال مجاهـد، وقـال وكيـع: هـم المسـلمون، وقـال عبـدُ الرحمـن بـنُ زيد بنِ أسـلم: هـم النّبـيّ –صلى اللـه عليه وسـلّم ومن معه» .

المَقصدُ الثّالثُ: أهلُ الكتابِ.

ففـي قولـه تعـالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، تنـاولٌ واضـحٌ لأهـلِ الكتـابِ، وفي ذلـك يقول ابـنُ كثيرٍ أيضًـا: «وأكّدَ الـكلامُ بلا؛ ليدلَّ على أنّ ثمَّ مسـلكَيْن فاسـدَين، وهما طريقةُ اليهود والنصـارى»، وهنـا في هذه الآيـةِ نجدُ أنَّ سـورةَ الفاتحـةِ قـد أجْمَلت مـا تحدّثتْ عنـه سُـورُ القـرآن كلُّها عن عقيـدةِ أهلِ الكتـاب، فهي تـبيّنُ أنَّ المنهـجَ الصّحيحَ والمسـتقيمَ هـو المنهـجُ الـذي جـاء بـه محمّـد صلّى اللـه عليه وسـلم، وذلك من خلال وصْـفِ اليهـودِ بالمغضـوبِ عليهم ووَصْـفِ النّصـارَى بالضّـالّين، وهـذا



الإجمـالُ وضّحتْـه السُّـوَر القرآنيّـةُ بعدَ ذلك بالتّفصيلِ، فبيّنتْ سـببَ غضبِ الله عليهـم وبيّنـتْ سـببَ ضلالِ النّصـارى وفصّلـتْ في هـذا الأمرِ.

المَقصدُ الرّابعُ: الإيمانُ باليومِ الآخرِ.

وظهـرَ هـذا المَقصـدُ في قولـه تعـالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فمـن يملـكُ يومَ الدّيـنِ يملكُ الحسـابَ والعقـابَ، ويعني ذلـك ضرورةَ الإيمـانِ باليـوم الآخرِ على صـورة الإجمـالِ، فإليـه يُرجـعُ الأمـر -سُـبْحانَهُ- وهو من يملكُ يـومَ القيامة، إذِ الإيمانُ بهـذا اليومِ واجـبٌ حتميٌّ على المؤمن.

المَقصدُ الخامسُ: التّكاليفُ الشّرعيّةُ.

وهـي مجموعـةُ التّكاليـفِ الـواردةِ في السّـورةِ مُتمثلـةٌ في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾،وفي هذا يقول ابنُ كثيرٍ:«وقال قتادةُ:﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يأمرُكـم أن تُخلِصُـوا لـه العبـادةَ، وأن تسـتعِينُوه على أمورِكـم، وإنّمـا قـدّمَ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على ﴿ إِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ لأنّ العبادةَ له هي المقصودةُ والاسـتعانةُ وسيلةٌ».

والعبـادةُ في معناها العـامِّ هي الصّلاةُ والصّيـامُ والزّكاةُ والحـجُّ والذّبحُ والنّذرُ والدّعاءُ والاستغاثةُ والاسـتعاذةُ والرّجاءُ والخوفُ والتّوكّلُ والاسـتعانةُ وما إلى غيرِ ذلك مـن عباداتٍ. وقـد أجملـتِ الآيةُ كلَّ هـذه المعانـي بِوَصْفِهـا مَقصِـدًا شرعيًّا عامًّـا جـاء تفصيلُـه في السُّـور التّاليـة لذلـك، فوضّحتِ البقرةُ جـزءًا كبيرًا منها وتوالتِ السُّـوَرُ في توضيـحِ الأمرِ الخاصِّ بجميع العبـاداتِ بالتّفصيلِ بعدَ الإجمالِ الـواردِ في سـورةِ الفاتحةِ.

علومُ سُورةِ الفاتحةِ عندَ القُرطبيّ:

أوردَ القُرطبـيُّ كلامًـا جمـيلًا في هـذا الشّـأن عـن علـومِ القـرآنِ الـواردةِ في سـورةِ الفاتحـةِ، وهذا مـا أوردَه صدّيق خـان في كتابـه (فتـحُ البيـان في مقاصد القـرآن) أردتُ أن أنقُلَه هنـا؛ لأبيّن نقطةً مهمّـةً في هذه السـورة: «قـال القُرطبيّ: سـورةُ الفاتحـة على أربعـةِ أنـواعٍ مـنَ العلـومِ هي مَنـاطُ الدِّيـن، أحدُهـا: علمُ الأصول، وإليه الإشـارةُ بقولـه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ومعرفـةُ النُّبُوّات، وهي قولـه: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ومعرفـةُ المَعـاد، وهـي قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾،وثانيها:علـمُ الفـروعِ، وأعظمُه العبـاداتُ وهي ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والعبادةُ ماليـةٌ وبدنيّةٌ، وثالثها: علْمُ الأخلاق، وهو قوله:﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، ورابعُهـا: علْـمُ القَصـص والأخبـار عـنِ الأمـم السّـالفةِ السُّعداءِ منهم والأشـقياءِ، وهو المراد بقوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلى آخر السّـورة انتهـى ملخّصا».

فالرّائـعُ مـن خلال كلامِ القُرطبيّ هو شـموليّةُ هذه السّورةِ واختصارُها المُعجزُ المـبينُ الذي جعلَها تُقـرأُ في كلِّ ركعةٍ من ركعـاتِ الـصّلاةِ، وكأنّه يُشـعلُ مصباحَ العُقـول بـأنَّ السّـورةَ التـي سـتُقرأُ في كلِّ ركعـةٍ هـي إجمـالٌ للقُـرآن كلِّه، فما أجمـلَ كلامَ اللـه! وما أعْظَمه ومـا أجَلَّه!

المصادر والمراجع:

1 – ابن كثير– الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي – دار الخير– الطبعة الرابعة (1417هـ–1996–م) – دمشق – المجلد الأول ص 25.

2 – الدكتور عبد الله بن علي – تأملات في سورة الفاتحة – دار نور المكتبات – الطبعة الثانية – جدة – السعودية 2006م.

3 – المعجم الوسيط 635.

4 – صديق خان – أبو الطيب صديق بن حسن بن علي بن الحسين القنوجي البخاري –فتح البيان في مقاصد القرآن – راجعه عبد الله إبراهيم الأنصاري– المكتبة العصرية –بيروت –لبنان (1412هـ – 1992) الجزء الأول ص.31

كلمات مأثورة في العلم

قيل للمُهَلَّب: بِمَ أدرَكتَ ما أدرَكتَ؟ قال: بالعلم، فقيلَ له: فإنَّ غيرَك قد عَلِمَ أكثرَ ممّا عَلِمْتَ ولم يُدرِكْ ما أدرَكتَ، فقالَ: ذلك علمٌ حُمِل، وهذا علمٌ استُعمِل.

وقالَ سهل بن هارون وهو عند المأمون: من أصنافِ العلم ما لا ينبغي للمسلمينَ أن ينظروا فيه، وقد يُرْغَبُ عن بعضِ العلمِ كما يُرْغَبُ عن بعضِ الحلال، فقال له المأمون: قد يسمّي بعضُ النّاس الشيءَ علمًا وليسَ بعلم، فإن كانَ هذا ما أردتَ فوجَهُهُ الّذي ذكرتَ، ولو قلتَ أيضًا إنَّ العلمَ لا يُدرَكُ غَورُه، ولا يُسبَرُ قعرُه، ولا تُبلَغُ غايَتُه، ولا تُستَقْصى أُصوله، ولا تَنضبطُ أجزاؤه، لصدقتَ، فإنْ كانَ الأمرُ كذلكَ فابدأ بالأهمّ فالأهمّ، والأوكد فالأوكد، وبالفرضِ قبلَ النَّفلِ، يَكُن ذلكَ عدلاً قصدًا، ومذهبًا جميلاً.

وقد قال بعض الحكماء: لستُ أطلبُ العلمَ طمَعًا في غايته، والوقوف على نهايته، بل التماسًا لما لا يسعُ جهله، فهَذا وجهُ ما ذكرتَ.

وقد بيَّنَ الإمامُ الشّافعيُّ أسبابَ تحصيلِ العلمِ فقال:

أَخي لَن تَنالَ العِلمَ إلاّ بِسِتَّةٍ ❋❋❋ سَأُنْبيكَ عَنْ تَفْصيلِها بِبَيانِ

ذَكاءٌ وحِرصٌ واجتِهادٌ وبُلغَةٌ ❋❋❋ وصُحبَةُ أُستاذٍ وطولُ زَمانِ





الكِنَايَةُ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وَمَفْهُومُ الاخْتِيَارِ الحِجَاجِيِّ

مَفْهومُ الاخْتيَارِ البَلاغيِّ؛ نحوَ توجيهٍ بلاغيٍّ للدّلالاتِ.

سَنَشْتَغِلُ في هذا البحثِ باستراتيجيّةٍ خطابيّةٍ رأينا أنّها تنتظمُ جُزءًا من نَسَقِ التَّفكيرِ البَلاغيِّ العربيِّ القديم، وسنختبرُ -انطلاقًا من نَماذجَ تُراثيّةٍ- مقولةً بلاغيّةً نرى أنّها تتحكّمُ في آليّةِ اشتغالِ مجموعةٍ منَ الوُجوهِ البَلاغيّةِ الواردةِ في القرآنِ الكريم. لقد وعَيْنا بمفهومِ الاختيارِ هذا انطلاقًا من إنصاتٍ لصوتِ البَلاغيِّ القديم، وهو يُحلِّلُ وُجوهًا كالكِنايةِ بأنواعِها والمَجازِ المُرسَلِ... وكذلك ونحن نَرى هذه الوُجوهَ تُناقَشُ انطلاقًا من افتِعالِ وحدةٍ مُصطنَعةٍ يُمنحُها مفهومُ التَّصوير.



د. رفعت الكنياري
باحث - المغرب

حاول عبدُ الله صولة وُسعَه أن يُدخلَ وجْهًا بلاغيًّا يقومُ على آليةِ الاختيارِ ضمْنَ مفهومِ الصّورة لدَيه والتي تقوم -حسبَ رأيِه- على الاستبدالِ، وليس الاستبدالُ في جوهرِه -عندنا- سوى نوعٍ منَ التّماثُلِ وهو ما لم يَنتبه إليه الباحثُ، فناقش وجوهًا بلاغيّةً لا تقومُ على التّماثُلِ ضمْنَ هذا المفهومِ. والسّببُ في ذلك -حسبَ رأينا- أنّه كان متأثّرًا بمفهومِ الانزياحِ الذي صرّح بتَبنّيه في مبحثِ التّركيبِ وسمّاه عُدولًا، وبقيَ متأثّرًا به في فصلِ الصّورة. حقيقةٌ أنّه اقترح معيارًا ناجعًا لمقاربةِ الأشكالِ البلاغيّةِ التي تقومُ على التّصويرِ الذي يُتيحُه نسقُها التّماثُليُّ، وهو ما أسْماه استبدالًا ولكنّه حين عمّمَه على الكنايةِ والمجازِ المُرسَلِ، كان يضيعُ رأسَ الخيطِ الذي سيُخرجُه منَ المتاهةِ، ورغم أنّه تنبّه إلى أنّ العلاقةَ في الكنايةِ والمجازِ المُرسَلِ هي علاقةُ مُجاورةٍ التي هي وجوديّةٌ، لا على المشابهةِ التي هي جوهريّةٌ، إلّا أنّه عادَ تحت تأثيرِ مفهومِ الوحدةِ المصطنعةِ التي يمنحُها مفهومُ التّصويرِ، إلى اعتبارها صورةً متجاهلًا سماتِها الخطابيّةَ الجوهريّةَ والنّوعيّةَ.

لقد تبنّت آموسي مجموعةً منَ الآراءِ التي تُلخّصُ الملامحَ الخطابيّةَ التي تطبعُ اشتغالَ الوُجوهِ البلاغيّةِ وحدّدتها في: «كونِها (مظاهرَ بارزةً) تكسرُ رتابةَ الخطابِ وتُغذّي القوّةَ الإنجازيّةَ

للمَلفوظـات...»، وكونِهـا تُشـكّلُ توتّـرًا خطابيًّا؛ وصراعيّةً داليـةً...، «جاعلةً منَ الضّروريّ» إعـادةَ النّظـرِ في التّصنيفاتِ القائمةِ...وهي ملامحُ واصفةٌ للاشـتغالِ الخطابـيِّ التّـداوُليِّ لمجموعـةٍ مـنَ الصُّوَر أخـذًا بـعينِ الاعتبـارِ الخطابيّةِ، ومشـاركتِها في عملياتٍ حِجاجيّـةٍ كلّيّةٍ.

إنَّ مـنَ الآليّـاتِ الحِجاجيّةِ المتحكِّمةِ في عمـل كلِّ مجموعةٍ مـنَ الوجـوه البلاغيّةِ التـي رصَدهـا البلاغـيُّ العربـيُّ القديمُ في القـرآنِ وحلّـلَ اشـتغالَها الوظيفـيَّ، واسـتَنْتج نجاعتَهـا التّداوُليّـةَ في سـياقٍ حِجاجـيٍّ تـداوُليٍّ في القرآن الكريـم، آليّةَ الاختيارِ، وهي آليّةٌ تعملُ على اسـتحضارِ الموضوعِ في الوعي وتقديمِه بشـكْلٍ حسّيٍّ قادرٍ على إثـارةِ الشّـعورِ والخيالِ.

الكِنَايَةُ: فعاليّةُ الاخْتيارِ المَوَجَّه

إنَّ مفهـومَ الاختيـارِ البلاغـيِّ يُلخِّصُ عمليّـاتٍ توجيهيّـةً يقـومُ بهـا المتكلّـمُ لغـرضِ لفْـتِ الانتبـاهِ إلى مناطـقَ يريدُ المتكلّـمُ أن يُسـلّط عليهـا الضّـوءَ ليُـبيِّنَ مـا يظـلُّ مختبئًـا في المسـتوى العميـقِ لوعيِنـا إنّـه تعـيينٌ موجّـهٌ، يسـمحُ بتنظيـمِ المُعطياتِ المُسـبقةِ التـي ينطلقُ منهـا كلُّ فعْـلٍ حِجاجـيٍّ، ويتـجلّى هذا المفهـومُ التّداوُليُّ في مجموعـةٍ منَ الوجوه البلاغيّـةِ، باعتبارِهـا لا تَنفـكُّ -في رأينا- عـنِ المشـاركةِ في عمليّاتٍ حِجاجيّـةٍ كلّيّةٍ داخـلَ النّسـقِ الحِجاجيّ القُرآنيّ. وعلى الرّغْـمِ مـن أنّ البلاغـيَّ العربـيَّ لم يكن يعـرفُ مثـلَ هـذه المفاهيـمِ الحديثـةِ إلّا أنّـه لمّا كان يتعامـلُ مـع نـصٍّ بقـوّةِ ونجاعـةِ القـرآن الحِجاجيّـةِ، فإنّـه كان ينضبـطُ لصـوتِ النّـصّ الـذي يـسير نحوَ الوظيفةِ في اسـتعمال كلِّ الفعاليّات الخطابيّةِ اسـتعمالًا يخدمُ الغرضَ العامَّ مـنَ التّنزيل وهو تحقيـقُ التّخلّق الأقصَى بـأخلاقِ القُـرآن الكريـم. لذلـك نجدُه لا يـرى في وجـهٍ بلاغـيٍّ مثـلَ الكنايـةِ إلّا اختيارًا يـعبّرُ عن غرضِ إثبـاتِ المعاني.

ومــن ذلك مـثلًا مـا نقـلَ الـزّركشيُّ عنِ الجُرجانـيِّ تعريفَـه للكنايـةِ حيث قال: «وهي عنـد أهلِ البيـانِ أن يريـدَ المتكلّمُ إثبـاتَ معنًـى مـنَ المعانـي فلا يذكـرُه باللّفـظِ الموضـوعِ له مـنَ اللّغـة، ولكن يجـيء إلى معنًـى هـو تالِيـه ورديفُه في الوجـود، فيومئُ بـه إليـه، ويجعلُه دليلًا عليـه، فيـدلُّ على المـرادفِ مـن طريـقٍ أَولى».

إنّ الكنايـةَ وجْـهٌ بلاغـيٌّ يُـعبّرُ عـن غـرضِ المتكلّـمِ الذي يـرومُ مـن خلالها لفْـتَ الانتبـاهِ إلى خصائـصَ معيّنـةٍ في الكلمـةِ المكنَّـى عنهـا، وهـو ملخّـصُ قولـه: «أن يريد المتكلّمُ إثبـاتَ معنًى مِنَ المعانـي»؛ فالاختيـارُ هنـا ليـس اختيارًا جماليًّـا ولا تزينيًّـا، بـلِ اختيـارٌ مُوجّـهٌ لوعـي المخاطـب نحوَ المعنى الـذي يثبتُه المتكلّـم. ولكـن كيف تتـمُّ هـذه العمليّةُ الحجاجيّـةُ، وما الآليّةُ التـي تتحكّمُ فيها فتعطِـي قيمـةً حِجاجيّـةً للاختيار؟

يقـول الجُرجانيّ مُفسِّرًا سـببَ نجاعةِ الكنايـة: «وكمـا أنَّ الصِّفَـةَ إذا لـم تأتِكَ مُصَرَّحًـا بذِكرها، مَكشـوفًا عـن وجهِها، ولكـنْ مدلـولٌ عليهـا بغيرِهـا، كان ذلك أفخـمَ لشـأنِها، وألطَـفَ لمكانِهـا، كذلك إثباتُـك الصِّفَـةَ لـلشَّيء تُثْبِتها لـه، إذا لم تُلقِهـا إلى السـامع صَريحًا، وجئـتَ إليه مـن جانـبِ التَّعريـضِ والكِنايـةِ والرَّمزِ والإشـارةِ، كأنَّ لـه مـن الفضـلِ والمزيَّة ومـن الحُسـنِ والرَّونق، ما لا يقـلُّ قليلُه، ولا يُجهَـلُ موضـعُ الفضيلـةِ فيه».

يَجعـلُ الجُرجانـيُّ نَجاعـةَ الكِناية في طَريقـةِ إثباتِهـا المَعنـى بشـكلٍ خَفـيٍّ، حيـثُ يَجعـلُ الاختيـارَ في الكِنايـةِ «لَـم تُلقِـه إلى السـامِعِ صَريحًـا» مَنـاطَ النَّجاعـةِ، وذلك لِما يَخْلُقُـه في المتكلِّمِ من رَغبـةٍ في الدُّخولِ في حِـوارٍ مع النَّص، لِما يُعـرَفُ عن الإنسـانِ مـن حُبِّـه للغامِضِ أنْ يَفُكَّ مَغاليقَـه. فَتَرَكُ "الصَّريح" بِلَفظِ المكنّـى عنـه، والعُـدولُ إلى «التَّلويـحِ»، أيْ تَـركُ الاسـمِ إلى الكِنايـةِ عنـه، هـو تَسليطٌ للضَّـوءِ على مَظاهـرَ يُريـدُ أنْ يُثبِتَهـا المتكلِّـمُ، وهو ما يَظهَـرُ من قولِه «إثباتُـك الصِّفـةَ تُثبِتُها لـه»، لِذلك عَدَّها ريبول حُجَّةَ تَسـميةٍ، يقـولُ: إنَّ نَجاعَتَها -الكِنايـةَ- الإقناعيّـةَ تَتَحـدَّدُ إضافةً إلى كونِهـا حُجَّـةَ تَسـميةٍ، في أنَّهـا تُسَـلِّطُ الضَّـوءَ على الجَوانـبِ التي تُـثيرُ المتكلِّمَ، وذلـكَ بواسـطةِ عَمليّـةٍ اسـتِدلاليّةٍ تُتيحُ لِلمُتلَقّـي الانتِقـالَ مِـنَ اللَّفـظِ إلى المَعنى عَبرَ وسـائطَ وروابِـطَ تكـونُ مُعتـادَةً لَدَيـه، وهو ما يَجعَلُها تَفقِـدُ نَجاعتَها إذا انتَقَلَت مِـن ثَقافَةٍ لأُخرى، فَكَـثيرُ الرَّمادِ لا تَعنـي في فَرنسـا مَـثَلاً إلّا أنَّهُ مُتَّسِـخٌ، وَكَذلـكَ هـو الحَالُ عنـدَ عُمـومِ الّذينَ لا عِلـمَ لَهُـم بِكِناياتِ العَـرَبِ القُدامى.

لَكِـنَّ العَمَليَّـةَ الاِسـتِدلاليَّةَ في الكِنايـةِ لَيسَـت هِـيَ وَحدَهـا مَنـاطَ النَّجاعـةِ فيهـا، إذ يَتبادَرُ إلى الذِّهنِ السُّـؤالُ: لِماذا اختـارَ المُتَكلِّـمُ وَهوَ الحَقُّ عَـزَّ وَجَلَّ لَفْظَ ﴿يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ في الآيةِ (75) مِن سُـورَةِ المائِـدَةِ؛ لِيَكنِيَ عَـنِ البَول.

يأكلان الطّعام تؤدّي إلى ⟵ البول والغائط

إنسان ⟵ لا يُعبدان

هَـلِ البِنيَـةُ الاِسـتِدلاليَّةُ هِـيَ مَنـاطُ

يَجعلُ الجُرجانيُّ نَجاعةَ الكِنايةِ في طَريقةِ إثباتِها المَعنى بشكلٍ خَفيّ، حيثُ يَجعلُ الاختيارَ في الكِنايةِ «لَم تُلقِهِ إلى السامِعِ صَريحًا» مَناطَ النَّجاعةِ.

إنَّ مفهومَ الاختيارِ البلاغيِّ يُلخّصُ عمليّاتٍ توجيهيّةً يقومُ بها المتكلّمُ لغرضِ لفْتِ الانتباهِ إلى مناطقَ يريدُ المتكلّمُ أن يُسلّط عليها الضّوءَ ليُبيِّنَ ما يظلُّ مختبئًا في المستوى العميقِ لوعينا.

النَّجاعـةِ في الدَّلالَةِ على أَنَّ عـيسَى وَأُمَّهُ لا يَصلُحـانِ أن يُعبَـدا، وَلِماذا لَـم يَذكُر في القُـرآنِ الكَريـمِ اللَّفظَ الـدَّالَّ على المَعنى الثّانـي وَهو أَنَّهُمـا يَتَبَـوَّلانِ وَيَتَغَوَّطانِ، وَهـو أَشـنَعُ في الدَّلالَـةِ على عَـدمِ جَـوازِ عِبادَتِهِمـا، هَـذا الـرَّأيُ الأَخيرُ هُـوَ الَّذي تَبَنّاهُ الجاحِـظُ –حَسَـبَ مـا ذَكَـرَهُ الزَّركَشي– حَيثُ قـالَ: «وَيَكفي في الدَّلالَةِ على عَـدمِ الإلَهيَّةِ نَفـسُ أَكلِ الطَّعامِ، لِأَنَّ الإلَـهَ هُوَ الَّـذي لا يَحتـاجُ إلى شَيءٍ يَأكُلُهُ، وَلِأَنَّـهُ كَمـا لا يَجـوزُ أَن يَكـونَ المَعبـودُ مُحْدِثًـا كَذلِكَ لا يَجـوزُ أَن يَكونَ طاعِمًا» قـالَ الخَفاجـي: «وهـذا صَحيحٌ».

لَقَـد أَسـقَطَ الجاحِظُ وَأَيَّـدَهُ الخَفاجي في مَذهَبِـه، الطَّـرَفَ –الغائِـطَ وَالبَـولَ– فَجَعَـلَ اختيـارَ «يَأكُلانِ الطَّعـامَ»، كافِيًا لِكَـي يَتَوَجَّـهَ فَهـمُ السّـامِعِ إلى مَناطِـقَ «عَـدمِ الأَهليَّةِ لِلعِبـادَةِ». فَرَجَّحَ الجاحِظُ مَفهومَ الاختِيـارِ وَجَعَلَهُ، لِكَونِـهِ اختيارًا مُوَجَّهًـا، يَجذِبُ الانتِبـاهَ لِصِفَـةٍ مُحَدَّدَةٍ في الإنسـانِ، لا يَجـوزُ وَصفُ الإلَـهِ بِها.

وقد وَقَفَ الزَّركَشيُّ على عَشرة «أَسبَابٍ» لِلكِنايَـةِ وَتَبِعَـهُ في ذلك صاحِـبُ الإتقانِ. غَيرَ أَنَّهُ قَصَرَهَا على سِـتَّةِ أَسـبَابٍ. وَلِلَفْظِ «الأَسـبَاب» عندنَـا دَلالاتٌ، إِذ لا يَكـونُ السَّـبَبُ إِلَّا مِـن فِعـلٍ مُوَجَّـهٍ ذي غايَـةٍ، وَالاختِيـارُ مِـن أَكثَرِ هـذه الأَفعـالِ الَّتي تَسـتَدعي التَّعليـلَ، حَتَّـى يَكُـونَ الفِعلُ قاصِـدًا وإِلَّا أَصبَـحَ لَغـوًا. ولَمّا كانَ كلامُ اللَّـهِ يَنبُـو عَـنِ اللَّغـوِ كانَ لَفظُ السَّـبَبِ مُقترِنًـا بِتَعليلِ الاختِيَارِ، وسـنرى في هذه الأَمثِلَـةِ الـعَشرَةِ أَنَّـهُ سَـيُجيبُ دائمًا عَن سُـؤَالٍ مُضمَـرٍ، هـو سـؤالُ: لماذا اختارَ التَّنزيـلُ هذا اللَّفـظَ؟ وانظُـر حِينَ نَسرُدُ لك الأَسـبابَ كَيـفَ تُحِسُّ بهـا جوابًا عن هـذا السُّـؤَالِ: لماذا اختـارَ التَّنزيـلُ هـذا اللَّفظَ؟ لِأَسـبَابٍ:

- أَحَدُها: التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ الْقُدْرَةِ.
- ثانيهَا: فِطْنَةُ الْمُخَاطَبِ.
- ثَالِثُهَا: تَرْكُ اللَّفْظِ إِلَى مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْهُ.
- رَابِعُهَا: أَنْ يَفْحُشَ ذِكْرُهُ فِي السَّمْعِ.
- خَامِسُهَا: تَحْسِينُ اللَّفْظِ.
- سَادِسُهَا: قَصْدُ الْبَلَاغَةِ.
- سَابِعُهَا: قَصْدُ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّشْنِيعِ.
- ثَامِنُهَا: التَّنْبِيهُ عَلَى مَصِيرِهِ.
- تَاسِعُهَا: قَصْدُ الِاخْتِصَارِ.
- عَاشِرُهَا: أَنْ يَعْمِدَ إِلَى جُمْلَةٍ وَرَدَ مَعْنَاهَا عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ فَيَأْخُذَ الْخُلَاصَةَ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارِ مُفْرَدَاتِهَا بِالْحَقِيقَةِ أَوِ الْمَجَازِ، فَتُعَبِّرَ بِهَا عَنْ مَقْصُودِكَ.

يشـغلُ بـالَ الـزَّرْكَشِيِّ وهـو يتنـاولُ الكِنايـةَ تَعليـلُ الاختيـارِ تَعليـلًا بلاغيًّا حيـثُ يُسَـلِّطُ الضَّـوءَ على أهمِّ الأسـبابِ التَّداوُليَّـةِ الَّتـي تَحكُـمُ الاختيـارَ المُعلِّـلَ لِلكِنايةِ، وهو الَّذي سـيتحكَّمُ في نَجاعَتِها في سِـياقِ القُرآنِ الكَريمِ وذلـك بأَنْ تقومَ بدَورِهـا الحِجاجيِّ فتجعَـلَ رُؤيةَ المُتلقّي تَتَّجِـهُ نحـوَ المَناطِقِ المُحـدَّدَةِ والَّتي يُرامُ التَّوجيـهُ إليهـا، والَّتـي لا تَخـرُجُ عـن المَواضِعِ الَّتي يُركِّـزُ عليها القُرآنُ الكَريمُ. منهـا التَّركيـزُ على قُـدرةِ اللهِ عـزَّ وجلَّ، وتنبيهُ الغافِلينَ والتَّشـنيعُ على المُتهاونينَ والكافِريـنَ والمُنافِـقينَ... وهـي أغراضٌ تتوجَّـهُ مُبـاشَرَةً إلى سُلوكـاتِ المُخاطَبِ العَقَديَّـةِ أو السُّلوكـاتِ العَمَليَّـةِ... بيدَ أنَّ في الأسـبابِ مـا هـو نَصِّيٌّ كقصـدِ الاختِصارِ، وتَحَـرِّي اللَّفظِ الجَميلِ، وتَركِ الفاحِشِ، وهـذِه الاختيـاراتُ «المُعجَميَّةُ» تَتَغَيَّـى التَّطابُقَ معَ المُتكلِّـمِ حيثُ تختارُ لـه ما يُناسِـبُهُ من لَفظٍ حتَّـى يكونَ ذلك أدعَـى إلى لَفتِ انتباهِهِ إلى تِلكَ الـمِنْطَقَةِ المقصودَةِ.

وسَـنُحَدِّدُ بدَورِنـا أهـمَّ الأدوارِ الحِجاجيَّـةِ الَّتي أَدَّتْها الكِنايـةُ في القُرآنِ الكَريمِ مِـن خِلالِ نَماذِجَ بَلاغيَّـةٍ تُراثيَّةٍ.

1- الكِنايَةُ والتَّحديدُ الخِطابيُّ:

ذَكَرَ الـزَّرْكَشِيُّ أَنَّ الغَـرَضَ مِنَ الكِنايةِ في قَولِـه تعـالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:5]، أَنْ يَعمِدَ إلى جُملةٍ وَرَدَ



مَعناهـا خِلافَ الظّاهِرِ فيَأخُـذَ الخُلاصَةَ مِنها مِن غيرِ اعتِبارِ مُفرَداتِها بالحَقيقَةِ أو المَجازِ، فَتُعَبِّرَ بِها عن مَقصودِكَ، ثُمَّ قالَ: فإنَّه كِنايةٌ عنِ المُلْكِ؛ لأنَّ الاسْتِواءَ على السَّريرِ لا يَحصُلُ إلّا مَعَ المُلْكِ فَجَعَلوه كِنايةً له، فالغَرَضُ مِنَ الكِنايةِ في الآيَةِ تَعريفُ الحَقِّ بأنَّهُ مَلِكٌ، لِذلِكَ سُلِّطَ الضَّوءُ على مَظهَرٍ مِن مَظاهِرِ هذه الحَقيقَةِ، سَيَبقَى في المُستَوَى العَميقِ لِلوَعيِ، إذْ لَيسَ الغَرَضُ تَعريفَ الحَقِّ عزَّ وجلَّ بالاسْتِواءِ على السَّريرِ؛ لأنَّهُ لا يَجوزُ في حَقِّ اللهِ الَّذي يَستَوي عزَّ وجلَّ بلا كَيفٍ وَلا أَيْن، وإنَّما «قالوه» لِشُهْرَتِه في ذلِكَ المَعْنَى وَمُساواتِه مُلْكٌ وإنْ لَمْ يَقعُدْ على السَّريرِ البَتَّةَ، فَكانَتِ الكِنايةُ تَعريفًا، وَلَكِنَّها لَيسَتْ تَعريفًا بِغَرَضِ البَيانِ بَلْ بِغَرَضِ لَفْتِ الانْتِباهِ لِـمِنْطَقَةٍ لا يُمكِنُ لَفْتُ الانْتِباهِ إِلَيْها إلّا عَبْرَ لَفْظٍ مَعرُوفِ الدَّلالَةِ، وَذلِكَ كالآتي:

الرّحمنُ على العرْشِ استوَى ← الرّحمنُ ملكٌ

↓

بُؤرةُ توجيهِ الخطاب

التَّعريفُ: الملكُ مَن كان له عرشٌ يَستوي عليه

2- التَّقْييمُ الحِجَاجيُّ:

وَذَكَرَ الزَّرْكَشِيُّ أنَّ الغَرَضَ مِنَ الكِنايةِ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ [المسد: 1]، التَّنْبيهُ إلى مَصيرِه، أي: جَهَنَّمِيٍّ، مَصيرُه إلى اللَّهبِ، فَكانَتِ الكِنايةُ تَقييمًا حِجاجيًا، يُلصِقُ صِفَةَ الخالِدِينَ في النّارِ بأَبي لَهَبٍ. يَقولُ: «فَلَمّا أُريدَ تَشهيرُهُ بِدَعوَةِ السُّوءِ وَأَنْ تَبقَى سِمَةً لَهُ»، وَلا أَسْوَأَ مِن أَنْ يَبقَى اسمُكَ مُخَلَّدًا في التّاريخِ ضِمنَ لائحَةِ رُوّادِ جَهَنَّمَ وَحامِلي لِوائِها. إنَّ تَعويضَ الاسْمِ الشَّخصِيِّ بِأَبي لَهَبٍ يُقصَدُ مِنْه تَجَنُّبُ التَّلَفُّظِ بِالاسْمِ الشَّخصِيِّ، وَذلِكَ بِهَدفِ تَقييمِ الشَّخصِ حِجاجيًّا.

3- الكِنايَةُ وخَلْقُ الرُّموزِ:

إضافَةً إلى ما سَبَقَ، أَصْبَحَ «أبو لَهَبٍ» رَمزًا لِلطُّغيانِ وَشَرِّ المَآبِ. حَيثُ إنَّ اقترانَ اسمِهِ بِالنّارِ وَالخُلودِ فيها، وَتَحَوُّلَهُ إلى أَيْقونَةٍ لِلخاسِرينَ الضّالِّينَ... جَعَلَهُ رَمزًا يُتَداوَلُ على نَحوٍ واسِعٍ في كَلامِ العَوامِّ. فَحينَ تُسِيءُ إلى أَحَدٍ أَو تُجافيهِ أَو تُعاقِبُهُ عِقابًا قاسِيًا، يَرُدُّ عَلَيكَ مُبَيِّنًا أَنَّهُ لَيسَ سَيِّئًا لِهذِهِ الدَّرَجَةِ، فَيَقولُ لَكَ: «أَنا لَستُ أَبا لَهَبٍ» حَتّى تُعامِلَني هذِهِ المُعامَلَةَ. هذا التَّخليدُ الَّذي لا يُدانيهِ فيهِ سِوَى أَبي جَهلٍ، يَأتيهِما مِن تَينِكَ الكُنيَتَينِ الشَّنيعَتَينِ اللَّتَينِ خَلَّدَتا اسمَيْهِما رَمزًا في تاريخِ الإسلامِ؛ وَإلّا فَمَن مِنّا يَتَذَكَّرُ الأَسوَدَ بْنَ عَبدِ يَغوثَ أَو الحارِثَ بْنَ قَيسٍ، أَو الوَليدَ بْنَ المُغيرَةِ... اللّهُمَّ إلّا إنْ كانَ مُتَخَصِّصًا أَو على مُسكَةٍ مِن تاريخِ الإسلامِ لا بَأسَ بِها؛ وَأَمّا الرَّمزُ فَيَتَداوَلُهُ الخاصُّ وَالعامُّ. وَلِذلِكَ قالَ رِيبول عَنِ الكِنايةِ إنَّها تَخلُقُ الرُّموزَ.

وَقَد خَلَقَ القُرآنُ الكَريمُ مَجموعَةً مِنَ الرُّموزِ التَّداوُلِيَّةِ الَّتي استُعمِلَتْ على مَجالٍ واسِعٍ فيما بَعدُ، فَرَفَعَ الحَرَجَ في مَواضِعَ كَثيرَةٍ عَنِ الأُمَّةِ أَنْ تَستَعمِلَ كَلِماتٍ مُستَشنَعَةً في التَّداوُلِ لِحُمولَتِها الفاحِشَةِ الَّتي يَنبُو الطَّبعُ السَّليمُ عَنِ استِعمالِها؛ فَمَثَلًا كَنى القُرآنُ عَنِ العَلاقاتِ الجِنسيَّةِ بَينَ الرَّجُلِ وَالمَرأَةِ بِالمُباشَرَةِ وَالمُلامَسَةِ وَاللِّباسِ. قالَ الزَّرْكَشِيُّ: «وَمِن عادَةِ القُرآنِ العَظيمِ الكِنايَةُ عَنِ الجِماعِ بِاللَّمسِ وَالرَّفَثِ، وَالدُّخولِ، وَالنِّكاحِ، وَنَحوِها. قالَ تَعالى: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 187]، فَكَنَى بِالمُباشَرَةِ عَنِ الجِماعِ لِما فيهِ مِنِ التِقاءِ البَشَرَتَينِ، وَقَولُهُ تَعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النِّساء:

43]، إذْ لا يَخلُو الجِماعُ مِنَ المُلامَسَةِ، وَقولُهُ في الكِنايَةِ عنهُنّ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 187]، وَاللِّباسُ مِنَ المُلابَسَةِ، وَهِيَ الاخْتِلاطُ وَالجِماعُ، فَكُلُّ الحالاتِ الَّتي ذَكَرَها الزَّرْكَشِيُّ، تَزْوَرُّ عنِ استِعمالِ اللَّفظِ غَيرِ المُحَبَّبِ وَتستَعمِلُ لَفظًا آخَرَ أَلطَفَ؛ لِما فيهِ مِن حُمولَةٍ تَربَوِيَّةٍ أَو سُلوكِيَّةٍ يُريدُ الحَقُّ أَنْ يَلفِتَ الانْتِباهَ إليها. وَقَد مَيَّزَ الزَّمَخشَرِيُّ في هَذا البابِ بَينَ استِعمالِ عِبارَةِ «رَفَث» الدّالَّةِ على مَعنى القُبحِ، كِنايةً عنِ الجِماعِ؛ وَاستِعمالِ عِباراتٍ لَطيفَةٍ كَقَولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّساء: 21]، (فَلَمّا تَغَشّاها) ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف: 189]،... قالَ في تَعليلِ اختِيارِ مَلفوظِ (رَفَث): «قُلتُ: استِهجانًا لِما وَجَدَ مِنهُم قَبلَ الإباحَةِ، كَما سَمّاها اختِيانًا لأنفُسِهِم». فَالمَعنى واحِدٌ في نَفسِهِ، وَهوَ «الجِماعُ» وَلَكِنَّهُ مُختَلِفٌ مِن حَيثُ الحُمولَةُ الأخلاقِيَّةُ الَّتي مَنَحَتْها لَهُ الآياتُ باستِعمالِ الكِنايَةِ.

فَما كانَ مِن جِماعٍ غَيرِ مَرهوبٍ فيهِ شَرعًا كُنِيَ عَنهُ بِالرَّفَثِ وَالاختِيانِ لِلنَّفسِ، تَسليطًا لِلضَّوءِ على شَناعَتِهِ إذا كانَ في غَيرِ مَحَلِّهِ الشَّرعِيِّ؛ أَو أَرادَ مِنهُ أَنْ يُؤَدِّيَ مَعنى يَنطَوي على التَّوبيخِ، كَما هوَ الحالُ عَلَيهِ في استِعمالِ الرَّفَثِ في حالَةِ الحَلالِ في الآيَةِ الَّتي تَناوَلَها الزَّمَخشَرِيُّ؛ حَتّى يُشيرَ إلى أَنَّهُم اقتَرَفوهُ حَرامًا مِن قَبلُ، ثُمَّ عَفا اللهُ عَنهُم وَحَلَّلَ لَهُم إتيانَ الزَّوجاتِ في لَيلِ رَمَضانَ.

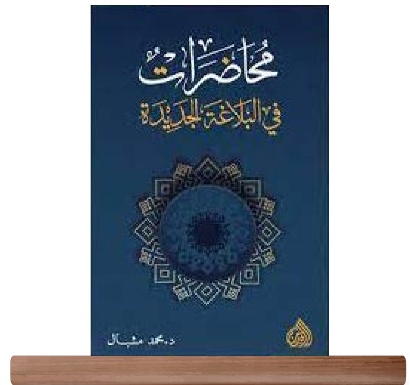
وَما كانَ مِنهُ مُرَغَّبًا فيهِ لِأَنَّهُ مَسلَكٌ حَلالٌ صِرفٌ، استُعمِلَتْ فيهِ مَلفوظاتٌ لَطيفَةٌ ذاتُ حُمولَةٍ مُحَبَّبَةٍ، قالَ الزَّمَخشَرِيُّ: «بِخِلافِ قَولِهِ: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّساء: 21]؛ ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف: 189]؛ ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 187]».

وَقَد جَعَلَ القُرآنُ، بِهَذا الإجراءِ البَلاغِيِّ، الألفاظَ رُموزًا تَداوُلِيَّةً تَدُلُّ في مَعناها العَميقِ على دَلالاتٍ أَخلاقِيَّةٍ؛ حَيثُ يَكتَسِبُ اللَّفظُ بِفِعلِ هَذا التَّرميزِ حُمولَةً زائِدَةً تَرتَبِطُ بِهِ وَتُتَداوَلُ؛ فَلا نَجِدُ في مَجالِ التَّداوُلِ العَرَبِيِّ مَن يَقولُ: «لَقَد رَفَثتُ بِامرَأَتي»؛ وَإنَّما يُكنى بِما كَنى بِهِ القُرآنُ مِنَ المُباشَرَةِ وَالإتيانِ وَغَيرِهِما مِنَ الكِناياتِ المَعهودِ استِعمالُها في مِثلِ هَذا المَقامِ الدّالِّ على الحَلالِ. وَهَذا لَعَمري مِمّا يُدخِلُ العَمَلِيَّةَ التَّخاطُبِيَّةَ في سِياقِ التَّأَدُّبِ وَالتَّخَلُّقِ وَالتَّلَطُّفِ المُرتَبِطِ بِرِفعَةِ النُّفوسِ وَالرُّقِيِّ الحَضارِيِّ العالي، وَهُوَ الهَدَفُ الَّذي جاءَ القُرآنُ الكَريمُ لِيُقِرَّهُ حَتّى قالَ النَّبِيُّ صلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «إنَّما بُعِثتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخلاقِ».

بَيْنَ الكِنَايَةِ وَالتَّعْرِيضِ: فعالِيَّةُ التَّوْجِيهِ المُخَلِّق

اجتَهَدَ البَلاغِيُّونَ القُدامى في تَرَصُّدِ تَجَلِّياتِ الاختِيارِ وَتَسميتِها بِتَسمِياتٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَبَعًا لِمَعاييرَ قَد يَتَّفِقونَ عَلَيها مَرَّةً وَقَد يَختَلِفونَ مَرّاتٍ، وَمِن ذلكَ ما ذَكَرَهُ الزَّرْكَشِيُّ في تَفسيرِهِ (البَحرُ المُحيطُ في أصول الفقه)مِن أَنَّ الفُقَهاءَ لَم يَتَعَرَّضوا لِلفَرقِ بَينَ الكِنايَةِ وَالتَّعريضِ إلّا في بابِ اللِّعانِ، حَيثُ بَدا مِن كَلامِهِ أَنَّ الفُقَهاءَ يُرَكِّزونَ عَلَى الجامِعِ بَينَ الكِنايَةِ وَالتَّعريضِ، وَالمَجازِ المُرسَلِ، قالَ: «وَلَم يُفَسِّروا الكِنايَةَ إلّا بِما استَتَرَ المُرادُ مِنهُ، سَواءٌ كانَ ذلِكَ بِاعتِبارِ المَحلِّ أو غَيرِهِ، وَلَم يَشتَرِطوا إرادَةَ اللازِمِ ثُمَّ الانتِقالَ مِنهُ إلى المَلزومِ، بِدَليلِ أَنَّهُم جَعَلوا الحَقيقَةَ المَهجورَةَ وَالمَجازَ المُتَعارَفَ كِنايةً لِمُجَرَّدِ استِتارِ المُرادِ».

يَبدو أَنَّ الفُقَهاءَ يَهتَمّونَ أَكثَرَ بِما يَنتُجُ عَنِ الكِنايَةِ وَالتَّعريضِ وَالمَجازِ في نِهايَةِ المَطافِ، مِن دَلالَةٍ تَنتُجُ عن مَعنى اللَّفظِ، بَل بِما استَتَرَ مِنهُ، ولَم يَدخُلوا في تَفاصيلِ البَلاغِيِّينَ وتَفريعاتِهِم لِأَنَّهُم جَمَعوا هذِهِ الوُجوهَ البَلاغِيَّةَ تَحتَ مَفهومِ «استِتارُ المُرادِ»، أَي التَّوَصُّلُ إلى المَعنى مِن طَريقٍ غَيرِ مُباشِرَةٍ. ولَم يُفَرِّقوا بَينَ الكِنايَةِ وَالتَّعريضِ وَالمَجازِ المُرسَلِ، بَل رَكَّزوا عَلى ما يَجمَعُ هذِهِ الوُجوهَ. لَن نَذهَبَ بَعيدًا في تَفاؤُلِنا فَنَقولَ إنَّ الفُقَهاءَ قَد رَكَّزوا عَلى مَفهومِ الاختِيارِ بِاعتِبارِهِ ناظِمًا لِسِلكِ هذِهِ الوُجوهِ الثَّلاثَةِ وتَجَلِّياتِها العَديدَةِ المَنثورَةِ في كُتُبِ البَلاغَةِ، وَلَكِنَّنا نَستَطيعُ أن نَستَنتِجَ مِن كَلامِهِ أَنَّ نَسَقًا تَأويلِيًّا كانَ يُصاحِبُ العَمَلِيّاتِ التَّصنيفِيَّةَ لِلبَلاغَةِ، كَأَن يَرصُدَ أَوجُهَ الدَّلالَةِ بِغَيرِ ما استُعمِلَ لَهُ اللَّفظُ في مُشاعِ اللُّغَةِ وَالمُتَّفَقِ عَلَيهِ مِنها بَينَ النّاسِ، وَأَنَّهُم تَنَبَّهوا إلى أَنَّ المَجازَ وَالكِنايَةَ وَالتَّعريضَ يَنضَوونَ ضِمنَ الآلِيَّةِ الاستِدلالِيَّةِ البَلاغِيَّةِ نَفسِها الَّتي تُتيحُ المُرورَ مِنَ المَعنى الحَرفِيِّ إلى مَعنى استِلزامِيٍّ. وَأَنَّ مَناطَ التَّوَصُّلِ إلى المَعنى الاستِلزامِيِّ المَقصودِ يُلَخَّصُ في اختِيارِ اللَّفظِ المُكَنّى بِهِ أَوِ المُجرى عَلَيهِ المَجازُ. وَأَنَّ نَوعَ الاختِيارِ يَنتُجُ عَنهُ مَعنى آخَرُ ذو بُعدٍ قِيمِيٍّ فَإذا اختارَ المُتَكَلِّمُ لَفظًا مِمّا يُحَبِّبُ الواقِعَةَ كانَ مُرَكِّزًا عَلى الأَثَرِ الانفِعالِيِّ النّاتِجِ عَنِ






محمد مشبال

المِيولِ إلَيها، وَإلّا فَالعَكسُ، وَهَكَذا... وَعلى هَذا الأَساسِ فَإنَّ عَملَنا هَذا القائمَ عَلى تَرَصُّدِ مِثلِ هذِهِ الآليّاتِ الخِطابِيَّةِ الَّتي تُثبِتُ مِرارًا أنَّ التَّأويلَ البَلاغِيَّ لِلوُجوهِ في القُرآنِ الكَريمِ كانَ يَسيرُ بِها إلى مَناطِقَ تُركِّزُ على وَظيفَتِها وَعَلى اشتِغالِها التَّداوُلِيِّ في سِياقٍ يَرومُ إيصالَ رِسالَةٍ كَونِيَّةٍ لِلعالمِينَ.

وَوَعيًا مِنّا بِهَذا الهاجِسِ التَّداوُلِيِّ الَّذي يَحكُمُ مَنطِقَ النَّظَرِ إلى الوُجوهِ البَلاغِيَّةِ، انْبَرَيْنا لِتَرَصُّدِ الآلِيّاتِ المُتَحَكِّمَةِ في هذِهِ التَّأويلاتِ. وَها نَحنُ نَقِفُ عَلى تَجَلِّياتِ آلِيَّةِ الاختِيارِ بِاعتِبارِها مَفهومًا بَلاغِيًّا يَسمَحُ بِتَجاوُزِ التَّعيينِ «المَوضُوعِيِّ» إلى تَعيينٍ «مُوَجَّهٍ»: قَد رَأَينا –سَيْرًا عَلى نَهجِ فُقَهاءِ الزَّركَشِيِّ– أنَّ المَجازَ المُرسَلَ وَالتَّعريضَ وَالتَّوجيهَ تَنتَمي إلى الآلِيَّةِ نَفسِها.

وَلِلْوُقُوفِ عَلى أَسْبابٍ وَمَداخِلَ لِنَجاعَةِ الحِجاجِيَّةِ لِلتَّعْريضِ مِن كَوْنِهِ وَجْهًا يُكَثِّفُ تِقْنِيَّةَ الاخْتِيارِ، فَلْنَتَأَمَّلْ ما قالَهُ الزَّرْكَشِيُّ عَنْ تِقْنِيَّةِ اشْتِغالِ هٰذا الوَجْهِ الْبَلاغِيِّ، وَالَّتي سَمّاها أَيْضًا «التَّلْويحَ». قالَ: «وَيُسَمّى تَعْريضًا لِأَنَّ الْمَعْنى بِاعْتِبارِهِ يُفْهَمُ مِنْ عُرْضِ اللَّفْظِ أَيْ جانِبِهِ، وَيُسَمّى التَّلْويحَ لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يُلَوِّحُ مِنْهُ لِلسّامِعِ ما يُريدُ».

لِنَتَبَيَّنْ أَوَّلًا مَناطَ النَّجاعَةِ فِي فِعْلِ التَّعْريضِ أَوِ التَّلْويحِ فِي حَدِّ نَفْسِهِ، وَالَّذي أَجْمَلَهُ الزَّرْكَشِيُّ فِي قَوْلِهِ مُؤَوِّلًا الْوَجْهَ الْبَلاغِيَّ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: 22]، حَيْثُ قالَ: «وَوَجْهُ حُسْنِهِ ظاهِرٌ، لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِعْلامَ السّامِعِ عَلى صُورَةٍ لا تَقْتَضي مُواجَهَتَهُ بِالْخِطابِ الْمُنْكَرِ كَأَنَّكَ لَمْ تَعْنِهِ، وَهُوَ أَعْلى فِي مَحاسِنِ الْأَخْلاقِ وَأَقْرَبُ لِلْقَبولِ، وَأَدْعى لِلتَّواضُعِ، وَالْكَلامُ مِمَّنْ هُوَ رَبُّ الْعالَمينَ نَزَّلَهُ بِلُغَتِهِمْ، وَتَعْليمًا لِلَّذينَ يَعْقِلُونَ». يُلَخِّصُ الزَّرْكَشِيُّ أَسْبابَ النَّجاعَةِ الْحِجاجِيَّةِ لِهذِهِ الْآياتِ الْمُحْتَوِيَةِ عَلى التَّعْريضِ فِي نُقْطَتَيْنِ مُتَرابِطَتَيْنِ:

الْأُولَى: عَدَمُ مُواجَهَةِ الْمُخاطَبِ بِالْخِطابِ الْمُنْكَرِ تَوَدُّدًا إِلَيْهِ وَتَأَدُّبًا مَعَهُ.

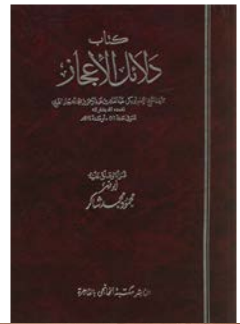
الثّانِيَةُ: مُخاطَبَةُ النّاسِ بِما يَفْهَمُونَ جَرْيًا عَلى عادَةِ الْعَرَبِ.

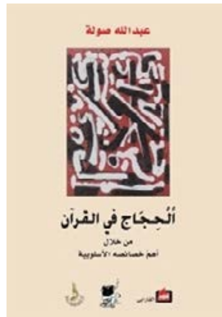
وَبِذلِكَ تَكُونُ الآيَةُ مُعْتَمِدَةً عَلى قاعِدَتَيْنِ تَداوُلِيَّتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، هُما:

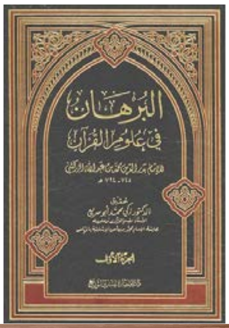
الْقاعِدَةُ الأُولَى: يُنالُ بِاللِّينِ ما لا يُنالُ بِالْعُنْفِ. وَهِيَ قاعِدَةٌ رَسَّخَها الإِسْلامُ بِاعْتِبارِها قاعِدَةً عامَّةً فِي التَّناصُحِ وَإِيصالِ الرَّأْيِ لِلآخَرِ. وَهِيَ قاعِدَةٌ مُسْتَنْتَجَةٌ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فُصِّلَت: 34]. وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه:43 – 44]. وَهُما آيَتانِ –وَغَيْرُهُما كَثيرٌ– تُوَضِّحانِ نُزوعَ الْقُرْآنِ الْكَريمِ إِلى الابْتِعادِ عَنِ الْعُنْفِ بِشَتّى أَشْكالِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، لِيَعْلَمَ النّاسُ أَنَّ الإِقْناعَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ بِواسِطَةِ طَرائِقَ أَلْطَفَ» .

نَسْتَنْتِجُ مِنَ النُّقْطَةِ الأُولَى أَنَّ الْخِطابَ الْحِجاجِيَّ الْإِسْلامِيَّ يَسْعَى إِلَى التَّحَقُّقِ بِأَقْصَى آفاقِ التَّأَدُّبِ، مُسْتَخْدِمًا ما يُعْرَفُ فِي التَّداوُلِيّاتِ الْحَديثَةِ بِقاعِدَةِ التَّوَدُّدِ، وَهِيَ قاعِدَةٌ أَجْمَلَها الزَّرْكَشِيُّ فِي قَوْلِهِ السّابِقِ: «عَدَمُ الْمُواجَهَةِ تَلَطُّفًا وَتَوَدُّدًا، وَتَواضُعًا مِنْ رَبِّ الْعالَمينَ».

الْقاعِدَةُ الثّانِيَةُ: وَيُجْمِلُها ما رَواهُ الْبُخارِيُّ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُوسى، عَنْ مَعْرُوفِ بْنِ خَرَّبُوذَ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ أَنَّهُ قالَ: «حَدِّثُوا النّاسَ بِما يَعْرِفُونَ»، وَقَدْ أَقَرَّ الْقُرْآنُ الْكَريمُ هذِهِ الْقاعِدَةَ، فَخاطَبَ النّاسَ بِما يَعْرِفونَ في مُناسَباتٍ عِدَّةٍ، مِنها أَنَّهُ







راعى قَواعِدَهُمُ الَّتي وَجَدَها مُسْتَحْسَنَةً في الخِطابِ، وَرَدَّ ما كانَ مِنها سَيِّئًا، وَمِنَ القَواعِدِ الَّتي اسْتَحْسَنَها عِنْدَهُمْ فَجاءَ عَلى مِنْوالِها، قاعِدَةُ التَّلَطُّفِ في الكِنايَةِ حَتَّى قيلَ إِنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِـ «إِيَّاكِ أَعْني فَاسْمَعي يا جارَةُ».

وَهُوَ ما يَعْني أَنَّ العَرَبَ قَدِ اسْتَحْسَنَتِ التَّعْريضَ وَالتَّلْميحَ وَالكِنايَةَ وَفَضَّلَتْها عَلى التَّصْريحِ، يَقولُ الزَّرْكَشِيُّ: «اعْلَمْ أَنَّ العَرَبَ تَعُدُّ الكِنايَةَ» مِنَ البَراعَةِ وَالبَلاغَةِ وَهِيَ عِنْدَهُمْ أَبْلَغُ مِنَ التَّصْريحِ، قالَ الطَّرْطوشِيُّ: وَأَكْثَرُ أَمْثالِهِمُ الفَصيحَةِ عَلى مَجاري الكِناياتِ، وَتِلْكَ قاعِدَةٌ كَوْنِيَّةٌ عَلى ما يَبْدو، حَيْثُ يُقِرُّ ريبول أَنَّ الكِنايَةَ تَصْنَعُ الأُلْفَةَ مِنَ الرَّوابِطِ المُعْتادَةِ، وَهُوَ ما يُؤَكِّدُ مَرَّةً أُخْرى خُضوعَ الاخْتِيارِ كَمَبْدَإِ الاخْتِيارِ المُوَجَّهِ.

نَسْتَنْتِجُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ التَّعْريضَ وَجْهٌ بَلاغِيٌّ تَداوُلِيٌّ حِجاجِيٌّ، يَعْتَمِدُ في نَجاعَتِهِ الحِجاجِيَّةِ -المُنْبَنِيَةِ أَساسًا عَلى اخْتِيارٍ مُوَجَّهٍ- عَلى قاعِدَةٍ تَأَدُّبِيَّةٍ هِيَ التَّوَدُّدُ، وَقاعِدَةٍ تَداوُلِيَّةٍ تَعْمَلُ عَلى خَلْقِ الأُلْفَةِ بِالتَّطابُقِ مَعَ المُتَكَلِّمِ عَبْرَ مُخاطَبَتِهِ بِنَمَطِ التَّوَدُّدِ،وَقاعِدَةٍ تَداوُلِيَّةٍ تَعْمَلُ عَلى خَلْقِ الأُلْفَةِ بِالتَّطابُقِ مَعَ المُتَكَلِّمِ عَبْرَ مُخاطَبَتِهِ بِنَمَطِ خِطابٍ يَعْرِفُهُ وَيَسْتَحْسِنُهُ، لِيَكونَ ذَلِكَ أَدْعى إِلى اقْتِناعِهِ وَإِذْعانِهِ، وَسَيْرًا بِهِ إِلى التَّخَلُّقِ بِهَذِهِ الأَخْلاقِ الرَّفيعَةِ في الخِطابِ.

أهم المصادر والمراجع

أحمد إسماعيل حسن علي، تطور المصطلحات البلاغية، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 9، 2016.

ابن منظور، لسان العرب.

الجرجاني، دلائل الإعجاز.

الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن.

الزركشي بدر الدين، البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق عبد القادر عبد الله العاني، وزارة الأوقاف الكويتية.

السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن.

الزمخشري جار الله، الكشاف.

البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة.

بروتون فيليب، الحجاج في التواصل، ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد العلمي.

عماد اللطيف، أزمة المصطلح البلاغي العربي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 9، 2016.

عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط1، دار الفارابي، بيروت، 2001.

عبد اللطيف محفوظ، وظيفة الوصف في الرواية.

مشبال محمد، بلاغة صور الأسلوب وآفاق تحليل الخطاب، ضمن: البلاغة والخطاب.

مشبال محمد، تحليل الخطاب السردي: وجهة النظر والبعد الحجاجي.

نجوى القسنطيني الرياحي، في نظرية الوصف الروائي.

Perelman Chaim & Lucie Olbrechts-Tyteca, Traité de l'argumentation.

Amossy Ruth, L'argumentation dans le discours.

Amossy Ruth & Roselyne Koren, «Rhétorique et argumentation : approches croisées», Argumentation et Analyse du Discours, 2/2009.

Bonhomme Marc, «De l'argumentativité des figures de rhétorique», Argumentation et Analyse du Discours, 2/2009.

Lakoff Robin, "Papers from the Ninth Regional Meeting", Chicago Linguistic Society, April 13-15, 1973.

Plantin Christian, «Un lieu pour les figures dans la théorie de l'argumentation», Argumentation et Analyse du Discours, 2009.

Reboul Olivier, Introduction à la rhétorique.



لغويّات

- الإِشْكَالُ النَّحْوِيُّ وسُلْطَتُه فــي تَشْكيلِ المَعْنى قولُهُ تعالى: {وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ} « أنموذجًا»

- التَّحْلِيلُ الصَّرْفِيُّ الآليُّ ماهيّتُه وأهمّيّتُه

- الجُمْلَةُ العَربيّةُ في النَّحْوِ الوَظِيفِيّ منَ التّركيبِ إلى السِّيَاقِ التَّدَاوُلِيّ

الإِشْكَالُ النَّحْوِيُّ وسُلْطَتُه فـي تَشْكِيلِ المَعْنى

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ «أنمُوذَجًا»

هَذه مسألةٌ نحويّةٌ مشكلةٌ، فورُودُ المضارعِ المُعْتَلِّ المَرْفُوعِ ﴿يَسۡرِ﴾ (بحذف الياء) دون جَازِمٍ، إشْكَالِيَّةٌ نَحْويّةٌ تَسْتَدْعِي الوُقُوفَ عندَها طَوِيلًا؛ بَحْثًا عن عِلَّةِ الحَذْفِ الذي وَقَعَ دونَ عَامِلٍ، فنَظَرِيّةُ العاملِ(1) تَقْضِي بأنّه لا إعْرَابَ إلَّا بعَامِلٍ-؛ أي: لا رَفْعَ، ولا نَصْبَ، ولا جَرَّ، ولا جَزْمَ، إلّا بعَامِلٍ- وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾، إشكالٌ نحويٌّ اسْتَوْقَفَ كثيرًا منَ العُلماءِ والنُّحاةِ؛ لشُعُورِهم بأنّ هذا الإشكالَ أمْرٌ جلَلٌ، لا ينبغي تجاوُزُه حتّى تُدْرَكَ عِلّتُه، وهذا هو دَيْدَنُ العلماءِ، لا يَتجاوَزون الإشْكَالاتِ العلميَّةَ إلّا بعد إزالَتِها وكشْفِها، أمّا من لا يُعنَى بمثلِ هذه الإشكالاتِ الواقعةِ في القرآن الكريم، فقد نعَى عليهم عبدُ القاهرِ في (دلائل الإعجاز) بقولِه: «كأنَّ المُشْكَلَ على الجَميعِ غيْرُ مُشكلٍ عندكم... فتخرُجُوا إلى فَنٍّ منَ التَّجاهُلِ لا يَبقى معه كلامٌ»(2)، «وحتى تَزْعموا مثَلًا أنّكم لا تحتاجون في أَنْ تَعرفوا وجْهَ الرّفْعِ في ﴿الصَّابِئُون﴾ من سورة المائدة إلى ما قاله العلماءُ فيه»(3).



د. أحمد المغربي

باحث لغوي

فهذا من عبدِ القاهرِ إنّما هو نعيٌ على أولئك الذين لا يَقفون عند هذه الإشكالاتِ النّحويّةِ في القرآنِ الكريمِ، ويتجاوزُونَها كأنّهم على علْمٍ بها، أو كأنّ العلْمَ بها والجهلَ سواءٌ؛ ولهذا وجدْنا العلماءَ والمفسّرين والنُّحاةَ، قد وقفُوا طويلًا عندَ هذه الإشكالاتِ النّحويّةِ، مُنقسِمين في ذلك فريقَيْن: فريقًا همُّه الوقوفُ على العلّةِ النّحويّةِ، وآخرَ همُّه الوقوفُ على العلّةِ البلاغيّةِ.

يُمثّلُ الفريقَ الأوّلَ: الكِسائيُّ، إمامُ نُحاةِ الكوفةِ، فقد كان همُّه الوقوفَ على العلّةِ النّحويّةِ؛ باحثًا عن علّةِ (حذف الياء) منَ الفعلِ (يسري)، حتى لقد أضْناه السّهرُ، وأرهقَه الهمُّ والغمُّ، فقد رأى عمَلًا دون عامِلٍ، ومضارعًا مرفوعًا (حُذف منه حَرْفُ العلّة) دون جازمٍ، فتحيّرَ طويلًا، وَ حارَ ولم يَجْرُؤْ على أن يختارَ، فهو إن (أثبت الياءَ) خالفَ المُصحف، (وإن حذفَها) نقّصَ حرفًا، والإقدامُ على مثلِ ذلك في القرآنِ الكريم -دون علْمٍ ويقينٍ- فيه ركوبُ خطرٍ عظيمٍ، حتّى لكأنَّ أبا فِراسٍ الحَمْدانيَّ يُصوّرُ حَيْرةَ الكِسائيّ بقوله:

وَقالَ أُصَيْحابِي الفِرارُ أَوِ الرّدى

فَقُلتُ: هُما أَمرانِ أَحلاهُما مُرُّ

يقول الكِسائيُّ: «أصْبحتُ وقيذًا، ساهرًا بآيةٍ قرأتُها، إن قرأتُ: واللّيلِ إذا يَسْري، خالفتُ أصحابَ محمّدٍ؛ لأنّ عثمانَ -رضي الله عنه- جمعَ أصحابَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم على ما في هذا المُصحفِ، وإن قرأتُ: يَسْرِ (بلا ياء)، فقد نقّصتُ، فما أدرِي ما أصنعُ؟»، وبينَا هو في تلك الحَيْرةِ والتّردّدِ - وفي الحَضْرةِ الفرّاءُ - إذ قَدِمَ أعرابيٌّ يُكْنى أبا الدّينارِ، فقال له: يا أبا الدِّينارِ، أتقرأُ من القُرآن شيئًا؟ قال: أقرأُ بعِلْم.

قال له: اقرأْ والفَجر، فابتدأَ يقرأُ: ﴿وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ



مخطوطة كتاب سيبويه

وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (بالتنوين) [الفجر: 4-1].

فَسُرِّيَ عنِ الكسائيِّ ما كان فيه منَ الغمِّ، فتعجّب الفرّاءُ من سرورِه بقراءةِ الأعرابيِّ، فسألَه: وما ترجُو بسماعِك منه؟ فقال الكسائيُّ: أنت لا تَدري، هؤلاء يُنوّنون في قوافِي الشّعر -يعني: لايَقفون بالسّكون- فإن كان نصبًا (نوّنوها) منصوبةً، وإن كان رفعًا (نوّنوها) رفعًا، وإن كان خفضًا (نوّنوها) مخفوضةً.

فلما كانت ﴿وَالْفَجْرِ﴾ آيةً، (نوّنوها)، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، (نوّنوها)، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، (نوّنوها) أيْضًا -يعني الكسائيُّ أنّ (يسري) لو كانت (بالياء) لما نوّنَها الأعرابيُّ- فتنوينُه لها دليلٌ على انتهاء الفعلِ بالكسرةِ لا بالياء.

جاء في البحر المحيطِ: «قَرأَ أَبو الدِّينارِ الأَعرابيُّ: وَالفَجرِ، وَالوَترِ، وَيَسرٍ بِالتَّنْوينِ فِي الثَّلاثَةِ»، وقد «رُوِيَ عَنْ بَعْضِ العَرَبِ أَنَّه وَقَف عَلَى آخِرِ القَوافِي بالتَّنوينِ وَإِن كَانَ فِعلاً، وَإِن كَانَ فِيهِ أَلِفٌ وَلامٌ»، واحتجّ ابْنُ خالَوَيْهِ لهذه اللّغة، بقول الشّاعر:

أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالعِتَابًا

وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ : لَقَدْ أَصابًا

بتنوينِ الكلمتَين: (العِتابًا، وأَصابًا)، على لُغةِ مَن يُنوّنون الكلمةَ الأخيرةَ وَإِنْ كان فِيها أَلِفٌ وَلامٌ، وَإِن كَانت فِعْلاً.

إذنْ (فحذفُ الياء) والاجتزاءُ عَنْهَا بِالْكَسْرَةِ، لغةٌ من لُغات العرب، نَطقتْ بها هُذيلٌ، قال الرّازي: «وحَذْفُ الياء وَالاجتزاءُ عَنْهَا بِالْكَسْرة، كَثِيرٌ فِي لُغَةِ هُذيلٍ»، وَنَحْوُه قَوْلُهُمْ: (لا أَدْرِ) حكاه سِيبَوَيه .

وقد جاء على هذه اللّغةِ حروفٌ كثيرةٌ منَ القرآن الكريم (محذوفةَ الياء): أسماءٌ وأفعالٌ: كقوله تعالى:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾[البقرة: 186]،(بحذْفِ الياء) من (الدّاعِ)، وكقوله تعالى:﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[الرعد: 9]، (بحذْفِ الياء) منَ (المتعالِ)، وكقوله تعالى:﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[الإسراء: 62]، (بحذْفِ الياء) من (أخّرتنِ)، وجميع ذلك لغةُ هُذيلٍ.

وأمّا الفريقُ الآخَرُ، فيمثّله المؤرّجُ السّدوسيُّ، فقد فزِعَ إلى الأخفَش يسألُه عنِ العلّةِ البلاغيّةِ لهذا الحذْفِ، فأجابَه الأخفشُ بالجوابِ الشّافِي، لكنْ بعد أن طلبَ منه ثمنًا عنِ الجوابِ؛ وكان الثّمنُ أن يبيتَ على بابِ دارِه ليلةً كاملةً، ففعلَ المُؤرّجُ، فقال له الأخفشُ: «إنّ عادةَ العربِ إذا عدلتْ بالشّيءِ عن معناه نقّصتْ حروفَه، واللّيلُ لمّا كان لا يَسْرِي، وإنّما يُسْرَى فيه، نقَصَ منه حرفٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[مريم: 28]، الأصلُ بَغِيّة، فلمّا حُوِّل ونُقِلَ عن (فاعل) نقَصَ منه حرفٌ»، وقال الزّرْكشيُّ: «عادةُ العرب أنّها إذا عدلتْ بالشّيء عن معناه، نقّصت حُروفَه»، إذنْ فنقْصُ الحرفِ منَ الكلمةِ يُؤدّي وظيفةً بلاغيّةً لا يدركُها سوى العارفين بكلامِ العرب؛ وقد أدّى (حذفُ الياء) هنا خمسَ وظائفَ:

قال الزّرْكشيُّ: «عادةُ العرب أنّها إذا عدلتْ بالشّيء عن معناه، نقّصت حُروفَه».

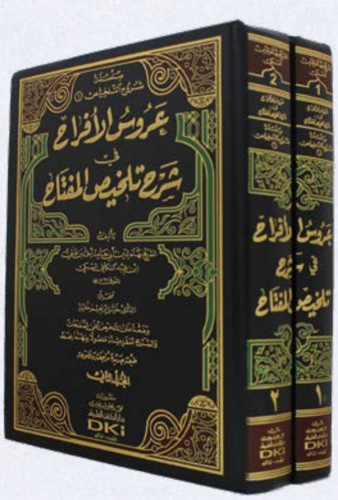
1- المشاكلةُ بين رُؤوس الآي: الفَجر، الوتر، يَسر، فكلُّها خُتمتْ بحرف الرّاء، والمشاكلةُ مقصدٌ من مقاصدِ العربيّة.

2- استعمالُ لغةٍ من لغاتِ العرب وإحياؤها.

3- التّنبيهُ على أنّ لغاتِ العرب كلَّها حجّةٌ .

4- التّنبيهُ على معنًى دقيقٍ لولا الحذْفُ لمَا تُنبِّه إليه، وهو أنّ الفعلَ قد عُدل به عن معناهُ الأصليّ.

5- التّنبيهُ على أنّ من عادة العرب، أنّها إذا عدَلت بالشّيء عن معناه نقّصتْ حروفه.





التَّحْلِيلُ الصَّرْفِيُّ الآلِيُّ

ماهيّتُه وأهمّيّتُه

محمود غريب

باحثٌ في مجالِ المعالجةِ الآليّةِ للغة العربيّة

حياةُ اللّغاتِ ومُستقبلُها مَرهونانِ بمَدَى تجاوُبِها مع التَّطوُّراتِ التّقنيّةِ والعالَمِ الافتراضيِّ وكَثافةِ المُحتوَى الإلكترونيِّ المَكتوبِ، وهو ما يُشكِّلُ تَحدّيًا أمامَ اللّغاتِ غيرِ المُنْتِجةِ للمَعرفةِ والتّقنيةِ؛ لذا فإنَّ من أهمِّ مجالاتِ البحثِ في العصرِ الحديثِ في اللُّغةِ العربيّةِ مجالَ حوْسبةِ اللّغةِ والذّكاءِ الاصْطناعيِّ. والتّحليلُ الصَّرفيُّ الآليّ يُعدُّ من أبْرزِ نماذجِ المُعالَجةِ الآليةِ للّغةِ العربيّةِ، والتي تَعني تطويعَ اللّغةِ بكلِّ تَعقيداتِها وقواعدِها وعلاقاتِها وحقيقتِها ومَجازِها لثُنائيّةِ الصّفرِ والواحدِ في نظامِ الحاسوبِ بحيث يُوصَلُ عن طريقِ الحاسُوبِ إلى فهْمِ النُّصوصِ وتحليلِها وتوليدِها سواءٌ أكانت مكتوبةً أم مسموعةً، وذلك لأنَّ اللّغةَ تُعدُّ من أبرزِ النّشاطاتِ الإنسانيّةِ، ومعالجتُها أصبحت من لازمِ عَصرِ المعلوماتِ، وأصبحت حاجَةً ماسّةً؛ وذلك بسببِ حرّيّةِ نشرِ المعلوماتِ على شبكةِ الإنترنت، بالإضافةِ إلى أنّ معالجةَ اللّغةِ آليًا تُعدّ إحدَى وسائلِ حفْظ اللّغةِ، وفي ذلك محافظةٌ على الهُويّةِ والدّين؛ فهي لغةُ القرآنِ الكريمِ والسّنّةِ النّبويّةِ المُطهَّرة.

ماهيّةُ التّحليلِ الصّرفيّ الآليّ:

لا يَخفَى أنَّ التّحليلَ بِوَصْفِهِ مَفْهُومًا عامًّا هو عمليّةُ تفتيتِ مادّةٍ معقّدةٍ أو تقسيمِها إلى أجزاءٍ صغيرةٍ من أجل الحُصولِ على فهْمٍ واستيعابٍ لكُنْهِ تلك المادّةِ أو ماهيَّتِها

والتّحليلُ اللّغويُّ عمليّةٌ تلقائيّةٌ لا إراديّةٌ معقّدةٌ يقومُ بها العقلُ البشريُّ بصورةٍ مستمرّةٍ خلالَ تواصُلِ الإنسانِ مع بني جنْسِه سواءٌ أكان التّواصُل معهم تواصُلاً مباشرًا وجْهًا لوجْهٍ عن طريق السّماعِ لِما يقولونه، أم تواصلاً غيرَ مباشرٍ بالاطّلاعِ على ما كتبُوه من نصوصٍ عن طريق القراءةِ وغيرِ ذلك من أشكالِ التّعامُلِ مع النّصّ اللُّغويّ.

وعمليّةُ التّحليلِ اللُّغويّ التي يقومُ بها العقلُ البشريُّ تتمُّ لديه بصورةٍ تلقائيّةٍ باطنيّةٍ لا إراديّةٍ دون تفكيرٍ في تفاصيلِ النّصّ من مُفرداتٍ من حيث الصّوتُ أوِ الصّرفُ أوِ المُعجمُ أوِ النّحوُ أوِ الدّلالةُ وغيرُ ذلك.

وعمليّةُ التّحليلِ هذه التي يقوم بها العقلُ البشريّ لا إراديًّا تَهدفُ إلى الوصولِ إلى فهْمِ مَضمونِ النّصِّ وتفاصيلِه وما يحتوي عليه من معلوماتٍ قد ضمَّنَها المُتكلّمُ حديثَه أوِ الكاتبُ نصَّه ويريدُ إيصالَها للمُتلقّي.

والتّحليلُ اللُّغويُّ ذو أنواعٍ مختلفةٍ: تحليلٌ صوتيٌّ، وتحليلٌ تركيبيٌّ نحويٌّ، وتحليلٌ نصّيٌّ، والذي نحن بصددِ الكلامِ عنه هو التّحليلُ الصّرفيُّ ولكن بصورةٍ آليّةٍ.

وتلك الأنواعُ أوِ العمليّاتُ التّحليليّةُ

المختلفةُ سابقةُ الذّكْرِ وغيرُها يقوم بها العقلُ البشريُّ بصورةٍ تلقائيّةٍ لا إراديّةٍ عند التّعامُلِ مع النّصّ اللُّغويّ لكي يصلَ إلى استيعابِ النّصِّ وفهْمِه والوصولِ إلى مضامينِه المختلفةِ، وفي ظلّ ثورةِ المعلوماتِ وكثرةِ المُحتوَى اللّغويِّ أراد الإنسانُ أن يُحصِّلَ منَ المعلوماتِ الكثيرَ دون جُهدٍ أو وقتٍ كثيرَيْن فلجأَ إلى الآلة كي تُنجزَ له تلك المَهامَّ بدقّةٍ عاليةٍ مع توفيرٍ في الوقت والجُهد والمالِ وغيرِ ذَلك.

ولم يكنْ هذا التّوجّهُ أوِ اللّجوءُ إلى الآلة بجديدٍ على الإنسان، فقد لجأَ إليها في كثيرٍ من نشاطاتِه الإنسانيّةِ. فالآلة تنقلُه من مكانٍ إلى آخرَ، وتحملُ أثقالَه، وتَعْمَلُ له أعمالاً كثيرةً لسْنا بصددِ الحديث عنها الآن، واللّغةُ تُعدُّ نشاطًا إنسانيًا من أظْهرِ النّشاطات الإنسانيّةِ، والإنسانُ يحتاجُ إلى هذا النّشاطِ أكثرَ من غيره منَ النّشاطاتِ الأخرى؛ لذا لجأَ إلى الآلةِ كي تُحقّقَ له ما يريدُه منَ النّصّ اللّغويِّ من تدقيقٍ وتشكيلٍ وفهْمٍ وترجمةٍ واستماعٍ وكتابةٍ واختصارٍ وفهْرسةٍ وغيرِ ذلك.

والتّحليلُ الصّرفيُّ الآليّ للّغة يُعدُّ إحدَى مراحلِ التّحليلِ الآليّ للُّغة، حيث يُقطِّعُ الكلِمَةَ ويَتَعَرَّفُ عليها آليًا فيردُّ الكلمةَ أوِ المُفردةَ من مُفردات اللّغةِ إلى أصولِها التي تكوّنتْ منها، أو بُنِيت على أساسِها وهي المادّةُ المُعجميّةُ أوِ الجذرُ المُعجميُّ، فيردُّ الكلمةَ إلى جذرِها الّذي تألّفت منه، مثل كلمةِ (قُلْتُ) يذكرُ لها الجَذْرُ (ق و ل)، وبالتّأكيدِ يحدثُ ذلك مع كلِّ مُفردات اللّغة يُظهر لها جذورَها التي تكوّنتْ

"التّحليلُ الصّرفيُّ الآليّ للّغة يُعدُّ إحدَى مراحلِ التّحليلِ الآليّ للُّغة، حيث يُقطِّعُ الكلِمَةَ ويَتَعَرَّفُ عليها آليًا فيردُّ الكلمةَ أوِ المُفردةَ من مُفردات اللّغةِ إلى أصولِها التي تكوّنتْ منها، أو بُنِيت على أساسِها

منها، ثمّ يذكرُ التّحليلُ الصّرفيُّ الآليُّ ساقَ هذه المُفردةِ أو جذعَها، وإذا ما كان قدِ التصقَ بهذا الجذعِ سابقٌ كـ (ال) التّعريف أو واوِ العطف أو واوِ القَسَم أو باءِ الجر أو لامِ الجرّ أو لامِ التّعليل أو لامِ الأمر أو لامِ الابتداء أو كافِ التّشبيه أو سينِ الاستقبالِ أو غيرِ ذلك منَ السّوابق التي تلتصقُ بالكلمة، سواءٌ أكانت تلكمُ السّوابقُ مُفردةً كالذي ذُكر سابقًا، أَمْ مركّبةً، على سبيل المثال (لل) المكوّنةِ من لام الجرّ مع ال التّعريف، و(فَوَال) المكونة من فاء العطف مع واو القسم وال التّعريف، وكذلك يتعرّفُ التّحليلُ الصّرفيُّ على ما التصقَ بالكلمةِ من لواحقَ كواوِ الجماعة، أو ألفِ التّثنيةِ أو ضمائرِ الغائب (هـ، ها، هما، هم، هن)، أو تاءِ الفاعل، أو تاءِ التّأنيث، وغيرُ هذا كثيرٌ، منه اللّواحقُ المُفردةُ، ومنه اللّواحقُ المُركّبةُ أيضًا كـ (ونَهُ) المكوّن من واو الجماعة مع نون علامةِ رفعِ الأفعالِ الخمسةِ وهاءِ ضميرِ الغائب مفعولاً به، كما يُظْهِرُ التّحليلُ الصّرفيُّ الآليُّ البياناتِ الصّرفيّةَ للكلمةِ أوِ اللّفظةِ إظهارًا تامًا، فيُظهرُ ضبْطَ المُفردةِ الشّكليَّ من وضْعِ الحركاتِ الصّوتيّةِ على حروفِ الكلمة، ويُظهرُ السّماتِ الصّرفيّةَ للكلمةِ لكلِّ كلمةٍ أو مفردة (الباب الصّرفيّ للفعل الماضي المجرّدِ، الصّحيح والمُعتل، الإعلالُ والإبدالُ، أنواعُ الأسماءِ: مقصورٍ، وَمنقوصٍ، وَممدودٍ) والسّماتِ المُعجميّةَ للكلمةِ فيذكرُ مع كلِّ كلمةٍ إذا ما كانت (مفردًا أو مثنًّى أو جمعًا، مذكّرًا أو مؤنّثًا، عاقلاً أو غيرَ عاقل... إلخ)، والسّماتِ النّحويّةَ (معرفةٌ أو نكرةٌ، معرّفٌ بال أو معرّفٌ بالإضافة، مصروفٌ أو ممنوعٌ منَ الصّرف، اسمٌ منَ الأسماء السّتّة، فعلٌ منَ الأفعال الخمْسة، جمعُ مذكّرٍ سالمٌ، مُلحقٌ بجمعِ المذكّر، جمعُ تكسير)، ويذكرُ لها أيضًا وزْنَها الصّرفيَّ وما طرأ عليها من زيادةٍ أو نقصانٍ أو إدغامٍ أو قلْبٍ، إضافةً إلى معرفةِ نوعِ الكلمةِ نفسِها من حيث قسْمُ الكَلِم؛ (اسمٌ أو فعلٌ أو حرفٌ)، ويُفصّلُ أكثرَ من ذلك فيذكرُ (فعلُ ماضٍ مجرّد، فعلُ مضارعٍ مزيدٌ، مصدرٌ مجرّدٌ، مصدرٌ مزيدٌ، اسمُ فاعلٍ مجرّدٌ، اسمُ فاعلٍ مزيدٌ، صفةٌ مشبّهةٌ، صيغةُ مبالغةٍ، اسمُ آلةٍ، اسمُ مكانٍ، أوِ اسمُ زمانٍ، اسمُ تفضيلٍ، اسمٌ منسوبٌ، اسمُ استفهام، أداةُ شرطٍ، حرفُ نفيٍ، حرفُ استقبالٍ) إلى غيرِ ذلك منَ التّوصيفاتِ الصّرفيّةِ التي تخصُّ كلَّ قسْمٍ من أقسامِ الكَلِمِ العربيّ، وكلُّ هذه البياناتِ يُحْصَلُ عليها عن طريقِ الآلة، وهي في حالتِنا هذه: الحاسوبُ.



أهمّيّةُ التّحليلِ الصّرفيّ الآليّ:

والسّؤالُ الذي يطرحُ نفسَه الآن: ما الحاجةُ إلى التّحليلِ الصّرفيّ الآليّ؟ والواقفُ مع نفسِه قليلاً يَتساءلُ: ما الذي يَجعلُني بِوَصْفِي إنسانًا أنطقُ بالكلمةِ نُطقًا صحيحًا ضابطًا حروفَ الكلمةِ بالشّكلِ الصّحيحِ، فالحرفُ الأوّلُ يكونُ بحركةِ الفتحةِ، والثّاني بالكسرةِ، والثّالثُ بغيرِهما، وهكذا باقي الحروفِ بحيث يجعلُ هذا النُّطقُ المضبوطُ المتلقّيَ يَستوعبُ مقصودَ المتكلّمِ من هذه الكلمةِ بعد شكْلِها؟

تأتي الإجابةُ عَنْ ذلك التّساؤلِ السّابق؛ بأنّ ضبطَ البِنيةِ المسموعِ أوِ المَقيسِ لها أيضًا يجعلُ النّاطقَ للكلمةِ يَنْطِقُها النُّطقَ الصّحيحَ، كذلك الآلةُ من خلال التّحليلِ الصّرفيّ الآليّ للمُفردةِ تَنْطِقُ الكلمةَ نُطقًا صحيحًا بناءً على الضّبطِ الموجودِ لها.

ويُوجَدُ جانبٌ آخرُ كذلك، ما الذي يجعلُ النّاطقَ بالمُفردةِ يضعُ علاماتِ الإعرابِ، سواءٌ أكانت هذه العلاماتُ فتحةً أم كسرةً أم ضمّةً أم سكونًا، وكذا لو كانت منوّنةً أو غيرَ منوّنةٍ على أواخرِ الكلمات؟

تأتي الإجابةُ عنِ التّساؤلِ السّابقِ أيضًا بأنَّ وضْعَ علاماتِ الإعرابِ على أواخرِ الكلماتِ لا يتمُّ إلّا بعْدَ معرفةِ قسمِ الكلمِ الخاصّ بالمُفردةِ سواءٌ أكانت فعلاً أو حرفًا أو اسمًا، وبعْدَ معرفةِ قسْمِ الكَلِمِ أيضًا للكلمةِ يستطيعُ المُتكلّمُ بالكلمةِ أو النّاطقُ بها أن يُرتّبَ أركانَ الجملةِ، ومِنْ ثَمَّ يستطيعُ وضْعَ العلاماتِ الإعرابيّةِ على أواخرِ المُفرداتِ، لذا كانتِ الحاجةُ إلى التّحليلِ الصّرفيّ الآليّ للمُفردة.

ذكرْنا أنَّ التّحليلَ الصّرفيّ يُظهرُ كثيرًا منَ السّوابقِ واللّواحقِ والسِّماتِ الصّرفيّةِ والدّلاليّة والنّحويّةِ وغيرِ ذلك، وهذا يفيدُ في المَنطقِ اللّغويّ في حالة التّحليلِ التّركيبيّ والنّصّيّ والتّدقيقِ الإملائيّ الآليّ والتّشكيلِ الآليّ، فمعرفةُ كوْنِ الكلمةِ مفردةً أو مُثنّى أو جمعًا أو عاقلةً أو غيرَ عاقلةٍ يفيدُ آليًّا في التّطابقِ بين الصّفة والموصوفِ، ويفيدُ آليًّا في عوْدِ الضّمير. ومعرفةُ كوْنِ المفردة مَصروفةً أو غيرَ مصروفةٍ يفيدُ آليًّا في الجرّ بالفتحةِ أو بغيرِها، وهكذا.

ولا يفوتُنا أن نذْكرَ أنَّ التّحليلَ الصّرفيّ الآليّ لمفردات اللّغة فيه إثباتُ أنّ هذه الكلمةَ أو هذه المفردةَ صحيحةُ النّسبةِ إلى اللّغة العربيّةِ، أي أنّ هذه المفردةَ هي مفردةٌ من مُفردات اللّغةِ الفُصحى، وليست من مُفرداتِ لُغةٍ أخرى، وليست من مُفرداتِ اللّغةِ العامّيةِ، فكأنّ التّحليلَ الصّرفيّ الآليّ مُعجمٌ صرفيٌّ مُوثّقٌ لمُفرداتِ اللّغةِ الفُصحى، بل يُمكنُ القولُ إنّه كذلك بالفعلِ؛ ولذا فالكلمةُ التي لم يتعرّف عليها التّحليلُ الصّرفيُّ الآليّ يُحكَم عليها بأنّها ليست مُفردةً من مُفرداتِ اللّغةِ العربيّة.

إضافةً إلى ما سبق ذكْرُه، فإنَّ التّحليلَ الصّرفيَّ الآليّ يحكمُ بصحّةِ ضبْطِ الكلمةِ أو خطئِه، وذلك عندما تُحَلَّلُ كلمةٌ ذاتُ ضبطٍ ما (مَلِلْتُ، وليس مَلَلْتُ)، ففي ذلك إثباتُ أنَّ ضبطَ هذه البِنيةِ لتلك الكلمة أوِ المُفردةِ هو الضّبطُ الصّحيحُ في اللّغة العربيّةِ وليس غيرُه.

ولا يقلُّ أهمّيّةً عمّا سبقَ ذكْرُه إثباتُ أنّ الكلمةَ أوِ المُفردةَ العربيّة ذاتَ الرّسمِ الإملائيِّ المعيّنِ لو حُلِّلَتْ صَرْفِيًّا آليًّا فتعرّفَ عليها التّحليلُ الصّرفيُّ الآليّ وحلَّلها (يقرَءون، يقرَؤون) ففي ذلك إثباتُ صحّةِ الرّسمِ الإملائيّ للكلمةِ أوِ المُفردة العربيّةِ، والعكسُ يصحُّ إذا لم يَتَعَرَّفِ التّحليلُ الصّرفيُّ الآليّ على الكلمةِ وتحليلها كـ (يقرَأون)، أو (يقرَئون) فهو بهذا أثبتَ عدمَ صحّتِها إملائيًّا، وبهذا يمكنُ القولُ إنَّ التّحليلَ الصّرفيّ الآليّ يُعدُّ مُوثِّقًا لرسمِ الكلماتِ العربيّةِ إملائيًّا.

وتتعدّدُ فوائدُ التّحليلِ الصّرفيّ الآليّ

عنـد الاعتمـادِ عليه فـي مجـالِ المُعالجةِ الآليـةِ للّغـةِ العربيّـةِ حيث يكـونُ أقوَى الدّعائمِ التـي تُبنَـى عليهـا برامـجُ معالجـةِ اللّغـةِ العربيّـةِ آليًّا فهـو الأصلُ أوِ الأسـاسُ للانـطلاقِ نحـوَ التّحليـلِ التّركيبـيِّ أوِ الإعرابـيِّ، ومـنْ ثَـمَّ إلـى التّرجمةِ الآليةِ والتّشـكيلِ الآلـيّ والقراءةِ الآليّـةِ ... إلـخ.

والنّاظـرُ فـي حقيقـةِ التّحليـلِ الصّرفـيِّ الآلـيّ حِيـنَ يتعـرّفُ علـى كلِّ مُفـرداتِ اللّغـةِ؛ يـرى أنّـه بمَنزلَـةِ مُعجـمٍ أو قامـوسٍ صرفـيٍّ جامـعٍ لـكلّ مُفـرداتِ اللّغـةِ العربيّـةِ وألفاظِها، وعلى هـذا يمكـنُ أن يَحصـر مُفـرداتِ اللّغـةِ العربيّـةِ أو يعطِيَ إحصائيّـةً لها، فيعطِيَ إحصائيّةً عـن كلّ جَذرٍ من جـذورِ اللّغة، كم عـددُ الكلمـاتِ التي يُمكـنُ أن تتكوّنَ منـه، وعـددُ الكلمـاتِ التـي تأتـي علـى كلِّ صِيغـةٍ مـن صِيَـغِ اللّغـةِ الصّرفيّـةِ، وكذلـك كلُّ قسْـمِ كَلِمٍ كمْ مـنَ المُمكن أن يأتـيَ منه مـنَ الكلمـات، وغيـرُ ذلك منَ الإحصـاءاتِ اللُّغويّـةِ، ومـن هنـا يُمكـنُ القـولُ: إنَّ التّحليـلَ الصّرفـيَّ الآلـيّ يُعدُّ مرجعًـا للباحثين والدّارسـين فـي مجالِ الصّـرفِ بصفـةٍ خاصّـةٍ واللّغـةِ بصفـةٍ عامّةٍ.

ومـن أهـمّ البرامـجِ اللّغويّـةِ الآليّـةِ التـي تُبنَـى علـى التّحليـلِ الصّـرفيّ الآلـيّ:

1- المُدقّـقُ الإملائـيُّ الآلـيّ لنصـوصِ اللّغـةِ العربيّةِ.

2- المُشَـكّلُ الآلـيّ لنصـوصِ اللّغـة العربيّـةِ.

3- القـارئُ الآلـيّ لنصـوص اللّغـةِ العربيّـةِ ومُفرداتِهـا.

4- التّرجمةُ الآليّة من العربيّة وإليها.

5- التّحليـلُ التّركيبـيُّ أوِ الإعرابـيُّ للنُّصـوص العربيّـةِ.

6- مُحرّكاتُ البحث.

7- إحدَى الأدواتِ الرّئيسـةِ المسـاعدةِ التـي يُعتمـدُ عليها فـي عمليّةِ التّوسـيمِ اللُّغويّ.

الخلاصـةُ: يُعدُّ التّحليـلُ الصّرفيُّ الآليّ حَجَـرَ الزّاويةِ فـي فهْمِ اللّغـةِ ومُعالجتِها حاسـوبيًّا، وكلّمـا ازدادت دقّتُـه، ازدادت دقّـةُ التّطبيقـاتِ الذَّكيّـةِ التـي تعتمـدُ عليـه، ممّـا يُعـزّزُ قُـدرةَ اللّغـةِ العربيّـةِ علـى مُواكبـةِ الثّـورةِ الرّقميّةِ.

النّـاظـرُ فـي حقيـقـةِ التّحليلِ الصّرفيِّ الآليّ حِيـنَ يـتـعـرّفُ علـى كلِّ مُـفـرداتِ اللّغةِ؛ يـرى أنّه بمَنزلَةِ مُعجمٍ أو قاموسٍ صرفيٍّ جامعٍ لكلّ مُفرداتِ اللّغةِ العربيّةِ وألفاظِها.

من العاميّ الفصيح

أروم

كلمة (أروم) في اللّهجة الإماراتيّة تعني (أستطيع) وتستخدم للنّفي إذا أُضيف إليها (ما)، فيصير معنى (ما أروم): (لا أستطيع).

وهي كلمة فصيحة من الفعل (رام)، ومن معانيه: طلب الشيء والرغبة فيه.

الجُمْلَةُ العَربيّةُ في النَّحْوِ الوَظيفِيّ مِنَ التّركيبِ إلى السِّيَاقِ التَّدَاوُلِيّ

سهام محجوبي
باحثة

يتناولُ هذا البحثُ مفهومَ «الجُملة» كما يُفهمُ في النّحوِ الوظِيفِيّ، انْطلاقًا من دلالتِها المُعجميّةِ وتعريفاتِها في النّحْوِ التَّقليديِّ وُصولًا إلى تصوُّرِها الحديثِ وَفْقَ النّظريّةِ الوظيفيّة. نستعرضُ في هذا السّياقِ آراءَ عددٍ منَ الدّارسين الذين يَروْن أنَّ الجُملةَ فعلٌ لُغويٌّ يرتبطُ بسياقِه المَقاميّ ويعكسُ حاجاتِ المتكلّم داخلَ محيطِه الاجتماعيِّ واللُّغويّ.
كما يتطرّقُ هذا البحثُ أيضًا إلى بِنياتِ الجُملةِ وقواعدِها التّركيبيّةِ والصّرفيّةِ والدّلاليّةِ في ضوءِ هذا التّصوُّرِ الوظيفِيّ، لنُظهرَ كيفيَّةَ تشكُّلِها كأداةِ إنجازٍ لُغويٍّ تُلبّي حاجاتِ المَقام الذي وُظّفت فيه، وليس ككيانٍ بِنيويٍّ فقط.

تُعدُّ الجُملةُ الوحدةَ الأساسيّةَ في بناءِ الخِطابِ اللُّغويّ، ومن خلالِها يتحقّقُ المعنَى ويتمُّ التواصُلُ بين المتكلّمين، وقد حظيتْ باهتمامِ النُّحاةِ قديمًا وحديثًا، إذ نظرَ إليها النحوُ التّقليديُّ من زاويةِ بِنيتِها التّركيبيّة، فجاءت مُقيّدةً بقوالبَ ثابتة. إلّا أنّ النّحوَ الوظِيفيَّ قدّمَ تصوُّرًا مُغايِرًا، فهو يُعلِي من شأنِ السّياقِ ويَجعلُ منَ الجملةِ أداةً لتحقيقِ أغراضِ المتكلّمِ داخلَ مقامٍ مُحدّدٍ. ومن هذا المُنطلق، يسعَى هذا البحثُ إلى استكشافِ مفهومِ الجُملةِ في ضوءِ هذا التّصوُّرِ الوظِيفيّ، مُبْرزًا أبعادَها التّركيبيّةَ والدّلاليّةَ والتداوُليّة.

- مفهومُ الجُملةِ

لغةً: جاء في لسانِ العربِ لابنِ منظورٍ في مادّة (ج م ل) الجُملةُ واحدةُ الجُمل، والجُملةُ جماعةُ الشّيء: «جمعَه عن تفرّقِه وأجملَ له الحسابَ كذلك، والجملةُ جماعةُ كلِّ شيءٍ بكمالِه منَ الحسابِ وغيرِه، يقال: أجملتُ له الحسابَ والكلامَ إذا أرددتَه إلى الجُملةِ»(1).

اصطلاحًا: «الجُملةُ هي التّركيبُ الذي يتكوّنُ من عدّةِ ألفاظٍ تتضافرُ مع بعضِها لتؤدّيَ فائدةً ما»(2)، كما يُمكنُ أن نقولَ إنَّ «الجملةَ هي عبارةٌ عن فعلٍ وفاعلٍ (قامَ زيْد)، والمبتدأ وخبرُه (زيدٌ قائمٌ) وما كان بمنزلةِ أحدِهما نحو: ضربَ اللّصّ، ظننتُه قائمًا»(3).

ولتوضيحِ مفهومِها في النّحوِ الوظيفيِّ يمكنُ أن نستعين بالتّعريفِ الذي قدّمه المتوكّلُ للخطاب: «كلُّ إنتاجٍ لُغويٍّ يُربَطُ فيه ربطَ تبعيّةٍ بين بِنيتِه الدّاخليّةِ وظروفِه المقاميّةِ (بالمعنَى الواسع)»(4)، ويُقصدُ بربْطِ التّبعيّةِ في تعريفه هذا «أنّ بنيةَ الخطابِ (والجملةُ نوعٌ منَ الأنواعِ التي يتحقّقُ فيها الخطابُ) ليستْ مُتعالقةً والظّروفَ المقاميّةَ

التـي يُنتج فيها فحسـبُ، بـل إنّ تحديدَهـا لا يمكـنُ أن يتمَّ إلّا وَفقًـا لهذه الظّـروف»(5).

لكـنّ الدّكتـور بعيطيش يَسـتنتجُ من خلال دراسـتِه للجُملة فـي النّحـوِ الوظِيفـيِّ أنَّ الجُملةَ ما هـي إلّا فعلٌ لُغـويٌّ، ويُورد التّعريـفَ الآتي: وبنـاءً عليه، نستشـفُّ «أنّ الجملـةَ في نظريّة النّحـوِ الوظِيفـيّ هـي: فعلٌ لُغـويٌّ يتميّـزُ بخصائـصَ دلاليّةٍ تداوليّةٍ تعكسُـها خصائـصُ بِنيويّةٌ صرفيّةٌ تركيبيّةٌ، يَسـتغلُّها مسـتعملُ اللّغـةِ الطّبيعيّـةِ لتغطيـةِ احتياجاتِـه فـي عشـيرتِه اللّغويّـةِ التي يعيـش فيها»(6).

والجُملـةُ فـي النّحـوِ الوظيفـيِّ صِيغـةٌ متميّزةٌ تجمـعُ بين الوصْـفِ والإنجـازِ، ومنه فهي ليسـت صِيغةً بِنيويّـةً أو صِيغةً توليديّـةً، بـل جـاءت مُلبّيةً للمقـامِ الـذي اسـتدْعاها تلفُّظًا أو إنجازًا علـى طريقـةٍ معيّنةٍ.

- بنياتُ الجُملة وقواعدُها

تُشْـتَقُّ الجُمْلـةُ حسـبَ النّحـوِ الوظيفـيِّ عـن طريـقِ بنـاءِ ثلاثِ بِنيـات: «البِنيـةُ الحمْليّـةُ» و«البِنيـةُ الوظيفيّـةُ» و«البِنْيةُ المُكوِّنيّـة».

ويَضطلـعُ ببنـاءِ هـذه البِنيـات الـثّلاثِ ثلاثـةُ أنسـاقٍ مـنَ القواعـد (أو ثلاثُ مكوِّنـات): «الأسـاسُ» و«قواعـدُ إسـنادِ الوظائـف» و»قواعـدُ التّعبيـر».

فالأسـاسُ سُـمّي كذلـك؛ لأنّه بمـا يوفّـرُه من مُعطَيـاتٍ فهو يُعـدُّ أسـاسَ بنـاءِ أيِّ جُملـةٍ؛ لأنّـه يوفّـرُ المداخـلَ المُعجميّةَ التـي تمُدُّ الجملـةَ بالمـادّةِ المُفرداتيّـةِ (محمـولاتٌ أو حدودٌ)، ومـن ثَـمَّ فالأسـاسُ يشـملُ مجموعـةَ القواعـدِ التـي تهتـمُّ بالتّمثيـلِ للمـادّةِ مصـدرِ اشـتقاقِ الجُملـةِ، فهذه الأخيـرةُ إذا نُظِـر إليهـا فـي ذاتِهـا وُجد أنّهـا مكوّنةٌ أساسًـا مـن مجموعةٍ منَ المُفـرداتِ(7).

يُمكـنُ التّمثيـلُ لقواعـدِ الأسـاسِ في إطـارٍ محمولـيٍّ يقومُ برصْـدِ توزيعِ موضـعِ محمـولِ المُفردةِ الأسـاسِ وخصائصِها الدّلاليّـةِ، وهـو بمَنْزلَـةِ مُعجـمٍ للمُفـرداتِ يمـدُّ باقـي قواعـدِ النّحـوِ بمصدرِ الاشـتقاقِ.

والمُعجمُ هو نَسقٌ منَ القواعدِ لتمثيلِ المُفرداتِ.

وقواعـدُ التّكويـن نوعـان: الأولـى خاصّـةٌ بالمَحمـولاتِ والثّانيـةُ بالحـدودِ، والمحمـولاتُ هي مـا دلَّ على واقعةٍ سـواءٌ أكان فـعلًا (خـرجَ) أو صفـةً (خارجٌ) أو اسـمًا (خـروجٌ)، أمّا الحـدودُ فهـي الأسـماءُ أو مـا يقـوم مقامَها».

وقواعـدُ تكويـنِ المَحمـولات تتكفّـلُ باشـتقاقِ المُفـرداتِ الفروعِ مـنَ المحمـولاتِ الأصليّةِ، كالأفعـالِ التّعليليّـةِ (فَعَل – أفعـلَ)، وأفعالِ المُطاولـةِ (انفعل – تفعّل)، وأفعالِ المشـاركةِ (فاعـلَ – تَفاعـل)، والاتّخـاذِ (تفعّـلَ – افتعَـل)، والطلـبِ (اسـتفْعَل) وغيرِهـا، إلى جانـبِ المصـادرِ وباقِي المشـتقّاتِ الأخرى، فهـذه المُفرداتُ، أو لنقُـلِ المَحمولات يُكوّنُهـا المتكلّمُ مـنَ المحمـولاتِ الأصليّـةِ حسـبَ قواعـدَ مُنتجةٍ.

ويـردُ هذان النّوعـان مـنَ المُفـردات، أو لِنقُـلْ: المَحمولاتِ: الأصـولَ والمُشـتقّةَ فـي شـكلِ أُطُـرٍ حمْليّـةٍ تُحَـدَّدُ خلالَهـا مـحلّاتُ هـذه المَحمولات.

والإطـارُ الحمْلـيُّ هـو المحمـولُ وموضوعاتُـه سَـنتطرّقُ له فيمـا يأتي.

وقواعـدُ الوظائـف: هـي الوظائـفُ التّركيبيّـةُ (الفاعـلُ والمفعـولُ) والوظائـفُ الدّلاليّـةُ (المنفّذُ والمُتقبّل والمُسـتقبل والأداةُ والمـكانُ والزّمـانُ) والوظائـفُ التّداوُليّـةُ (المحـورُ وَ البُؤرةُ وَ الذّيلُ وَ المُبتدأ و المُنادَى).

أمّـا قواعـدُ التّعبير فتتمثّـلُ فـي قواعـدِ إسـنادِ الحـالاتِ الإعرابيّـةِ وقواعـدِ المَوقعيّـةِ أي تحديـدِ رُتبـةِ المُكوّنـات. وبإجـراءِ قاعدتَـي النّبـرِ والتّنغيـمِ نحصلُ علـى بِنيـةٍ مُكوّنيّةٍ تامّـةِ التّحديدِ يُمكنُ أن تُشـكّلَ مـدخلًا للقواعـدِ الصّوتيّةِ التي تنقلُهـا إلـى جُملـةٍ مُحقّقـةٍ بالفعلِ الكلامـيِّ.

1- البِنْيةُ الحَمْليّةُ

هـي بِنيـةٌ كلّيّةٌ تشـتركُ فيها جميـعُ اللّغات، بناؤهـا مرهونٌ بتطبيـقِ قواعـدِ الأسـاسِ، ويتكفّـلُ ببِناء هـذه البِنيةِ نـوعٌ منَ



القواعـدِ سـمّاه المُتـوكّل قواعدَ الأسـاسِ، وفـي أعمالِـه التّالية سـمّاه الخَزينةَ.

وتُعـدُّ البِنيةُ الحَمليّـةُ مَدخلاً للبِنيـةِ الوظيفيّة، وتنقسـمُ إلى قسـمين: بِنيـةِ الحمْلِ وبِنيـةِ الدّلالـة، والحمْلُ يمكـنُ أن يكون فـعلاً أو صفـةً أو اسـمًا، ومـن حيـث بِنيـةُ الدّلالـة يـدلُّ فيها المحمـولُ علـى واقعةٍ سـواءٌ أكانـت عـملاً أو حدثًـا أو وضْعًا أو حالةً.

2- البِنْيةُ الوظيفيّةُ

ويمثِّـلُ فيهـا البِنْيتَيـن التّركيبيّـةَ والتّداوليّةَ، فعلى مُسـتوى البنيـةِ الأُولـى تُسْـنَدُ الوظيفتَـانِ: الفاعـلُ والمفعـولُ، وعلـى مُسـتوى البِنْيـةِ الثّانيةِ تُسْـنَدُ جملـةٌ مـنَ الوظائـفِ التّداوُليّةِ الدّاخليّـةِ والخارجيّـة، وذلك بالنّظـر إلى المعلومـاتِ الإخباريّةِ التـي تحْملُها هـذه المُكوّنـات بتفاعُلِها مـع مُعطيات السّـياقِ بأبعاده الاجتماعيّةِ والثّقافيّة والنّفسـيّةِ والحضاريّـةِ واللُّغويّة.

وسـيأتي تفصيـلُ هـذه الوظائفِ فـي مكانِها المناسـبِ من هـذا البحث، فهـذه البِنْيـةُ تُعـدّ الرّابـطَ بيـن البِنْيـةِ الحمْليّةِ والبِنْيـةِ المُكوِّنيّة، وباختصارٍ تهتمُّ بإسـنادِ مختلـفِ الوظائف إلـى البِنْيـةِ الحمْليّةِ.

3- البِنْيةُ المُكوِّنيّة

يُقصـدُ بالبِنْيـة المُكوِّنيّة البِنْيـةُ الصّرفيّـةُ التّركيبيّةُ ، «ويتمّ بناؤهـا انطلاقًا مـنَ البِنْيـة الحمْليّـةِ المُخصّصـةِ وظيفيًّا التي تتوفّـر فيها كلُّ المعلومـاتِ (دلاليّـةً، تركيبيّـةً، تداوليّةً)، وهي مـا تَسـتلزمُه قواعدُ النّسَـق الثّالثِ المُصطلـحِ عليهـا بقواعدِ التّعبير» (8).

فتضطلـعُ هـذه البِنْيـةُ بإسـنادِ جُملـةٍ مـنَ القواعد تُسـمّى قواعـدَ التّعبير، مِـن مثْـلِ قواعـدِ الإعـرابِ الخاصّـةِ بإسـنادِ الحـالاتِ الإعرابيّـةِ، وقواعـدِ المَوقعيّـةِ الخاصّةِ برَصْـد ترتيبِ مكوّنـاتِ الجُملـة، وأيضًـا قواعـدِ النّبـرِ والتّنغيم المُتعلّقـةِ بالمُسـتوى الصّوتـيّ.

أي أنّنـا لِنحصـلَ علـى بِنْيـةٍ مكوّنيّـةٍ جديـدةٍ تامّـةٍ يجـبُ أن نعتمـدَ خمسـةَ أنسـاق مـنَ القواعـدِ هـي: قواعدُ الأسـاس وقواعـدُ الوظائـف، وقواعـدُ التّعبير، وقواعـدُ النّبْـر والتّنغيم، وقواعـدُ المَوقعيّـة، أي تحديـدُ رُتبـةِ المُكوّنـات.

ومنه يكونُ نموذجُ النّحوِ الوظيفيِّ هو كالآتي:

الأساسُ	
مُعْجم	قواعدُ تكوينِ المَحمولات والحدودِ
↓ أُطُر حمْليّة	
↓ قواعدُ إدماجِ الحُدود	
↓ بِنْيةٌ حمْليّة	
↓ قواعدُ إسنادِ الوظائفِ التّركيبيّةِ والتّداوُليّة	
↓ بِنْيةٌ وظيفيّةٌ	
↓ قواعدُ التّعبير قواعدُ إسنادِ الحالاتِ الإعرابيّةِ قواعدُ المَوقعةِ قواعدُ إسنادِ النّبْرِ والتّنْغيم	
↓ بِنْيةٌ مُكوّنيّة (ما قَبْل التّمثيلِ الصّوتيّ) (9)	

وتَلْخيصًـا لِمـا سـبقَ يمكـنُ القـولُ إنَّ الجملـةَ تُشـتقُّ وَفْق ثلاثِ بِنْيـاتٍ هي البِنْيـةُ الحمْليّـة (الدّلاليّة)، والبِنْيـةُ الوظيفيّةُ والبِنيـةُ المُكوِّنيّـة. وتتكـوّن البِنْيـةُ الحمْليّـةُ مـن أُطُـرٍ حمْليّةٍ أُصـولٍ كالفعـل، وأُطُـرٍ حُدودٍ هي باقـي الكلماتِ فـي الجملة، وباسـتخدام قواعـدِ تكويـنِ المحمـولات يُكَـوَّنُ إطـارٌ حمْلـيٌّ نـوويٌّ يحتوي علـى الحدودِ والموضوعـاتِ، أمّا قواعدُ توسـيعِ

الأُطُـر الحمْليّـةِ فتكـوّنُ الحـدودَ اللّواحـقَ، فيُصبـحُ الإطـارُ الحمْلـيّ بذلك مُوسّـعًا، ثمّ تقـومُ قواعـدُ إدماجِ الحـدودِ بدمج الحـدودِ فـي المحمـولات وَفْقًـا لقيـود الانتقـاءِ، لتُكَـوِّنَ بذلك البِنْيـةُ الحمليّـةُ التـي تتضمّـنُ الوظائـفَ الدّلاليّةَ.

ويمكنُ التّمثيل لِما سبق بالجملة: شرب زيد شايًا صباحًا

فالفعل «شرب» يُمثّلُ له بالإطار المَحمولي الآتي:

شرب: فعل: حيّ، منفّذ، متقبّل.

أي أنّـه فعـل يتطلّبُ فـاعلاً كائنًا حيًّـا يقوم بوظيفـة المُنفّذ ولا بـدّ له من سـائلٍ يقـوم بوظيفـةِ المُتقبّل. فالفعلُ «شـرب» يَنتقـي موضوعَيْه (الفاعـل والمفعول) بمقتضى قيـديْ [حيّ] و[سـائل] على التّوالي.

وتُعـدّ البنيـةُ الحمْليّـةُ مـدخلاً للبِنْيـةِ الوظيفيّـةِ بواسـطة قواعـدِ إسـنادِ الوظائف، وتتحـوّلُ البِنْيـةُ الوظيفيّةُ إلـى البِنْيةِ المُكوِّنيّـة بواسـطة إسـنادِ قواعـدِ التّعبير التي تحكـمُ الحالاتِ الإعرابيّـةَ وأيضًـا التّرتيـبَ والتّنغيمَ.

- خاتمةٌ:

حاولنـا في هذا المقـال أن نُقاربَ مفهومَ «الجملـة» من مَنظورِ النّحوِ الوظيفيِّ، مُسْـتعرضين مسـارَها منَ التّصـوُّرات التّقليديّةِ التـي ركّزت على بِنْيتها الشّـكليّةِ، إلـى الرّؤيةِ الوظيفيّـةِ الحديثةِ التـي تُدمـجُ بين البِنْيـةِ والسّـياقِ التّداوُليّ. وقـد أبرزْنا من خلال هـذا الطّـرح أنَّ الجُملـة في النّحـوِ الوظيفـيِّ لا تُفهـمُ باعتبارِها مجـرَّدَ بناءٍ نحـويٍّ، بـل بِوَصْفِها فِـعْلاً لُغويًّا يتفاعلُ مـع المقامِ ويخدمُ حاجـاتِ المتكلّم فـي محيطِه التّواصُلـيِّ والاجتماعيّ.

لقـد أتاح لنـا هـذا التّحليلُ أن نُـدرك كيـف تُبنَى الجُملـةُ وَفْقَ قواعـدَ تركيبيّـةٍ وصرفيّـةٍ ودلاليّـةٍ، ولكـنْ دون أن تنفصـلَ عـن وظيفتِهـا التّداوُليّـةِ، مـا يجعـلُ مـن كلّ جملـةٍ وحـدةً تواصُليّةً تتكامـلُ فيهـا البِنْيـةُ مـع المقام.

وبذلـك نؤكّـدُ أنَّ النّظـر إلـى الجُملـة مـن خلال هـذا المَنظورِ التّكامُلـيِّ يفتـح آفاقًـا جديـدةً لفهـم اللّغـةِ باعتبارِهـا نشـاطًا إنسـانيًّا مُتغيّـرًا باسـتمرارٍ، ويتجـاوزُ حـدودَ البِنْيـة إلـى أُفُـقِ الاسـتعمالِ والمَعنـى فـي السّـياقِ.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ج م ل)، دار صادر، بيروت، لبنان، ج1، ط3، 1994، ص: 203.

(2) مجدي محمد حسين، الجملة الاسمية، راجعه سليمان طه حمودة، دار ابن خلدون للنشر، 2004، ص 212.

(3) ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق، مازن المبارك ومحمد على حمد الله، ط 5 مؤسسة الصادق، 1378 ه، ج 2، ص: 490.

(4) أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص)، (المغرب، دار الأمان) ط1، 2001، ص:16.

(5) نفسه، ص: 87.

(6) ينظر، يحيى بعيطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، ص:167.

(7) ينظر، النحو الوظيفي والدرس اللغوي العربي دراسة في نحو الجملة، رسالة دكتوراه، ص 146.

(8) ينظر، أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص -148 169.

(9) ينظر، أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المُكوِّنيّة، الوظيفة المفعول في اللغة العربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1997، ص :6.

حكمٌ وآدابٌ

الرّجاءُ والأمنيةُ

من كلام الغزالي: الفرقُ بين الرَّجاءِ والأمنيةِ أنَّ الرَّجاءَ يكون على أصل، والتَّمنّي لا يكونُ على أصل.

مثالُه: من زَرَعَ واجتَهَدَ وجَمعَ بيدرًا، ثمّ يقول: أرجو أن يحصُلَ منهُ مئةُ قفيز، فذلك منهُ رجاءٌ، وآخَرُ لا يزرَعُ زرعًا، ولا يعملُ يومًا، قد ذهَبَ ونامَ وأغفَلَ سنةً، فإذا جاءَ وقتُ البيادر يقول: أرجو أنْ يحصُلَ لي مئة قفيز (وهو مكيال قديم)

فيُقال له: مِنْ أينَ لك هذه الأمنيةُ الّتي لا أصلَ لها؟

وصيّة أعرابيّة

قال أبان بن تغلب:

شهدتُّ أعرابيَّة توصي ولدًا لها أرادَ سفرًا وهي تقول: أي بُني اجلس أمنَحكَ وصيَّتي وبالله توفيقك، قال أبان: فوقفتُ مستمعًا لكلامها، مستحسنًا لوصيَّتها. فإذا هي تقول: أي بُنيّ، إيّاك والنَّميمَة، فإنَّها تزرعُ الضَّغينة، وتُفرِّقُ بين المحبّين، وإيّاك والتَّعرُّض للعيوب فَتُتَّخَذَ غرضًا، وخليقٌ ألا يثبت الغرض على كثرة السِّهام. وقَلّما اعتورت السهام غرضًا إلا كلمته، حتى يهمي ما اشتدَّ من قوَّته، وإياك والجُود بدينك، والبُخل بمالِك، وإذا هزرت فاهزُز كريمًا، يلِن لهزَّتك، ولا تهزز اللَّئيم فإنَّه صَخرةٌ لا ينفَجِرُ ماؤها، ومثِّل بنفسك مثال غيْرك، فإن استحسنتَ من غيرك فاعمل به، وما استقبحتَ من غيرك فاجتَنبه، فإنَّ المرءَ لا يرى عيبَ نفسِه، ومن كانت مودَّته بشره، وخالف منه ذلك فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرُّفها.

ثمَّ أمسكَت، فدنوتُ منها فقلتُ لها: بالله يا أعرابيَّة، هلاّ زدتِ في الوصيَّة؟ فقالت: أوقد أعجَبَك كلام العرب يا حضريّ؟ قلت: نعم. قالت: الغدرُ أقبَحُ ما تعاملَ به النّاس بينهم، ومن جمعَ الحِلمَ والسَّخاء، فقد أجادَ الحُلة رَيْطتها وسِربالَها.





مُعجَمّيات

- المُفَارَقَةُ بَيْنَ مَعَاجِمِ اللُّغَةِ والحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ لَفْظَتَا (المُؤامَرَة، والاسْتِمَارَة) أُنْمُوذَجًا.
- رحلة مع الجذر (أ د ب)
- المَنْجَنِيق بين الأَصْل اللُّغَوِيِّ والاستِعْمَال الحَرْبِيِّ.
- التَّوْلِيدُ المُصْطَلَحِيُّ في أُرجُوزَةِ ابنِ طُفَيلٍ.



المُفَارَقَـةُ بَيْـنَ مُعْجمات اللُّغَةِ والحَياةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ

لَفْظَتَا (المُؤامَرَة، والاسْتِمَارَة) أُنْموذَجًا

يُسَلِّطُ هذا البَحثُ الضَّوءَ على المُفارَقةِ القائمَةِ بَينَ ما تُسَجِّلُهُ مَعاجِمُ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ من دَلالاتٍ، وبَينَ ما يَجري على ألسِنَةِ النَّاسِ من استِعمالاتٍ حيَّةٍ ومُتَشَعِّبَةٍ، ولا سِيَّما في المَجالِ الإداريِّ والاجتِماعيِّ.

واتَّخَذَ البَحثُ من لَفظَتَيِ (المُؤامَرة)، و(الاسْتِمارة) أُنموذَجًا للكَشْفِ عن هذه المُفارَقة.

وقدِ استَنَدَ البَحثُ إلى نُصوصٍ تاريخيَّةٍ مُوَثَّقَةٍ؛ لإثباتِ أَصالَةِ هذه الدَّلالاتِ واستِمرارِها في الحياةِ الإداريَّةِ الإسْلاميَّةِ. كما كَشَفَ عن تَقصيرِ كثيرٍ مِنَ المَعاجِمِ في تَتَبُّعِ التَّحَوُّلاتِ الدَّلاليَّةِ للكَلِماتِ، فأدَّى إلى فَجوةٍ معرفيَّةٍ بين الواقِعِ اللُّغَويِّ الحَيِّ والتَّدْوينِ القامُوسِيِّ.



د. أيّوب جرجيس

باحث أكاديمي

إنَّ مِـن أَبـرَزِ مَهـامِّ المُعجَـمِ أَنَّـهُ يُسَـجِّلُ الكَلِمَـةَ واسـتِعمالاتِها ودَلالاتِها مِـن بَدايَتِهـا حَتّـى فَتـرَةِ وُجـودِه، لكِن هـلِ المَعاجِـمُ اللُّغَوِيَّةُ سَـجَّلَت كُلَّ ذلك؛ سَـيُحاوِلُ الباحِـثُ تَتَبُّـعَ ذلـك، وعليـهِ سَـنَأْخُذُ لَفظَتَيـنِ مُتَقارِبَتَيـنِ تُسـتَعمَلُ فـي الحَياةِ اليوميّةِ مُنذُ القَـرنِ الرّابعِ الهِجـرِيِّ بِكَثرَةٍ بِمَعنىً مُعَيَّنٍ، وسَـيَتَبَيَّنُ أَنَّـهُ لا ذِكـرَ لِهـذِهِ الدَّلالَـةِ فـي مَعاجِـمِ اللُّغَـةِ عامَّـةً أبـدًا، وبِحَسَـبِ المَطالِـبِ الآتِيَةِ:

المَطْلَبُ الأَوَّلُ: لَفْظ (المُؤَامَرَة):

مِـنَ المَشـهورِ أنَّ المُؤامَـرَةَ هـي المُشـاوَرَةُ، ومِنها: «آمِروا النِّساءَ في بَناتِهِنَّ»[سنن أبي داود (3/ 435)]. أي شـاوِروهُنَّ فـي أَبْضاعِهِنَّ[المغرب في ترتيب المعرب، (ص28): لسان العرب (4/ 30)]، وقد تَدُلُّ على المُشاوَرةِ في عَمَلِ الشَّـرِّ والمَكيدَةِ، وشاعَ هذا المَعنَى فيها .

لكِـنِ اسـتُعمِلَتْ لِلدَّلالَةِ على مـا يُكتَبُ في العَصرِ العبّاسـيِّ فصاعِـدًا، فالوَالي، أو الأَميـرُ يَأمُرُ بِكتابَةِ مـا يَتَعَلَّقُ بالعُمّالِ مِـن أجـرٍ، وجَـوابٍ، وتوضيـحٍ، ويُوَقِّـعُ السُّـلطانُ في آخِـرِه بإجازَةِ ذلـك. وأوَّلُ نَـصٍّ وَقَفتُ عليـه فـي القَـرنِ الرّابِـعِ الهِجـريِّ عنـدَ ابـنِ وَهـبٍ الكاتِـبِ (ت:

335 هـــ/947م)، فمِـن ذلـك قولُه:

«فمِن ذلـك أنَّ كُتّابَ المَجلِسِ مُحتاجٌ إلـى أن يَكـونَ حاذِقًا باقتِصاصِ الكُتُبِ وتَرتيـبِ أبوابِهـا فـي المُعامَلَـةِ علـى مـا يَقتَضيـه تَرتيـبُ وُقـوعِ الجَماعـاتِ والمُوافَقـاتِ، لِتُقابَـلَ بذلك عنـدَ وُرودِه، وتَخريجِ ما فيـه مِن خِلفٍ فـي المُؤامَرَةِ الّتـي يَعمَلُهـا للعامـلِ، ويَحكُـمُ في ذلك بمـا يُوجِبُـه حُكـمُ الكِتابةِ»[البرهـان في وجوه البيـان (ص290)].

ثُـمَّ عندَ ابـنِ أبي الفَهـم داودَ التَّنوخيِّ البَصريِّ (ت: 384هـ) قال:

«وأَخَذَهـا العامِـلُ، وجـاءَ إلـى ابـنِ الفُراتِ، فشَـرَحَ لـه الصُّورَةَ، وسـألَه أن يَنظُـرَ فـي المُؤامَـرَةِ، ويُلَقِّنَـه الجَـوابَ علـى كُلِّ بـابٍ مِنها»[نشـوار المحاضـرة وأخبـار المذاكـرة (2/ 29)].

وعَرَفَهـا الخُـوارِزمِـيُّ (ت: 387هـــ) بقولـه:

«والمُؤامَـرَةُ: عَمَـلٌ تُجمَعُ فيـه الأوامِرُ الخارِجَـةُ في مُـدَّةِ أيّـامِ الطَّمـعِ ويُوَقِّعُ السُّـلطانُ فـي آخِـرِه بإجازَةِ ذلـك، وقد تُعمَـلُ المُؤامَـرَةُ فـي كُلِّ ديـوانٍ تُجمَعُ جَميـعُ مـا يَحتـاجُ إليـه مِـن اسـتِئمارٍ واسـتِدعاءِ توقيعٍ»[مفاتيـح العلـوم (ص83)].

وَذَكَرَهـا أبـو حَيّـانَ التَّوحِيـديُّ (ت: نَحـو 400هـــ) بقولِه:

«ذا كان يُسَـلِّمُ لـو كانَ الإنشـاءُ والتَّحريـرُ والبَلاغَـةُ بائِنَـةً مِـن صِناعَةِ الحِسـابِ والتَّحصيـلِ والاسـتِدراكِ وعَمَـلِ الجَماعَـةِ وعَقـدِ المُؤامَرَةِ»[الإمتاع والمؤانسـة (ص84)].

وقالَ ابنُ مِسكَوَيه (ت: 421هـ):

«فعَمِلتُ هـذِه المُؤامَـرَةَ واشْـتَمَلَت علـى سِـتَّةِ آلافِ ألـفِ درهَـمٍ، ونُسِـبَت هذه الأَمـوالُ إلـى جِهاتِها»[تجـارب الأمم وتعاقـب الهمـم (6/ 304)].

وأَبـو نُعيـم أحمـدُ بـنُ عبـد الله الأصبهانـيُّ (ت: 430 هــ) بقولـه: «وَأَنَـا أَظُنُّ، أَنَّ هَـذَا آخِرُ كِتَـابٍ أَكْتُبُ إِلَيْـكَ، وَذَلِـكَ أَنَّكَ قَـدْ كَتَبْتَ الْمُؤَامَرَةَ أَنْ أَدْخُلَ عَلَـى أَمِيـرِ الْمُؤْمِنِينَ»[حلية الأولياء وطبقـات الأصفيـاء (9/ 148)]، ثـمَّ أبـو الحسـن الـهلالُ بـنُ المحسـن الصّابئ (ت: 448هـ):

«وقـد كُنـتُ صَـدَّرتُ أَوَّلَ بـابٍ مِـن المُؤامَـرَةِ بأنَّهُ فَصلٌ تَفصيـلاً لِثَمنِ الغَلَّةِ المَبيعة»[تحفـة الأمـراء فـي تاريـخ الوزراء (ص88)].

وابنُ السّيد البَطَلْيوسيّ (ت: 521 هـ) بقولـه: «ويَخـرُجُ مـا فيه مِـن خلفٍ في المُؤامَرَةِ الّتي يَعلَمُهـا العامِلُ»[الاقتضاب في شـرح أدب الكتاب (1/ 143)].

وذكرَهـا ابـنُ حَمْـدون، بهـاءُ الدّيـن البَغـداديُّ (ت: 562هــ): «وَقَّـعَ فـي المُؤامَـرَةِ بـإطلاقِ جَميـعِ مَـن فـي الحَبس»[التذكـرة الحمدونيـة (2/ 294)].

وياقـوتُ بنُ عبدِ اللـهِ الرُّوميُّ الحَمَويُّ (ت: 626هــ) [معجـم الأدبـاء = إرشـاد الأريب إلى معرفة الأديب» (1/ 222)]، وابنُ خَلِّـكانَ البَرمَكيُّ الإربِلِـيُّ (ت: 681هـ):

«فَعَزَلَنـي وأَمَرَ أن تُعمَـلَ مُؤامَرَةٌ»[وفيات الأعيـان (5/ 340)]، وابـنُ شِـهابِ الدِّينِ النُّوَيـريّ (ت: 733هـ)[نهايـة الأرب فـي فنون الأدب (8/ 296)]، والقَلْقَشَـنديّ (ت: 821هـ)[صبح الأعشـى في صناعة الإنشـاء (12/ 201)]، ثُـمَّ المَقْريـزيّ (ت: 845 هـــ= 1440 م) بِقولِـه: «وأَجابَ عن كُلِّ فَصلٍ فـي المُؤامَرَةِ. ودَفَعَ إلى الرَّسـولِ مالاً»[المقفى الكبيـر (5/ 315)].

وعَرَّفَهـا جَلالُ الدِّيـنِ السُّـيوطي (ت: 911هـ) بتَعريـفِ الخُوارِزمِيّ:

«المُؤامَـرَةُ: مـا يُجمَـعُ فيـه الأوامِـرُ الخارِجَـةُ فـي مُـدَّةِ أيّـامِ الطَّمـعِ لِيُوَقِّعَ السُّـلطانُ فيه إلى اسـتِئمارٍ، واسـتِدعاءِ تَوقيعٍ[معجـم مقاليـد العلـوم فـي الحـدود والرسـوم (ص159)].

وَذَكَرَها ابنُ شـاهينَ الظّاهِريُّ المَلَطيُّ (ت:920هـ):

«وعَمِلَـتِ المُؤامَـرَةُ بِمَصروفِه»[نيـل الأمـل فـي ذيـل الـدول (6/ 442)].

المَطْلَـبُ الثّانـي: لَفظُ (الاسْـتِئمار أوِ الاسْتِمارة):

يَبـدو أنَّ ابـنَ إسـحاقَ الهَمدانـيَّ المَعـرُوفَ بابـنِ الفَقيـه (ت: 365هـ) هـو أَوَّلُ مَن ذَكَرَ مُصطَلَحَ (الاسـتِئمار)، فقال:



> **يُؤَكِّدُ البَحثُ الحاجَةَ الماسَّةَ إلى تَجديدِ مَنهَجيَّةِ التَّأليفِ المَعجَميِّ، بحَيثُ تَتَكامَلُ فيها أدَواتُ التَّوثيقِ اللُّغَويِّ، مَعَ أدَواتِ التَّحليلِ السِّياقيِّ الاجتِماعيِّ، لإنتاجِ مَعاجِمَ لا تَكتَفي بتَأريخِ اللَّفظِ، بَل تُواكِبُ تَحَوُّلاتِ المَعنى عَبرَ الزَّمَنِ والاستِعمالِ.**

«فلمّا استَخلَفَ المُعتَصِمُ باللهِ سَجَّلَ بتِلكَ النَّفَقَةِ سِجِلًّا فانقَطَعَ الاستِئمارُ وصارَت جاريةً يُحتَسَبُ بِها العُمّالُ فَتُحسَبُ لَهُم»[البلدان لابن الفقيه (ص153)].

ثُمَّ ياقوتُ الحَمَويُّ (ت: 626هـ):

«فلمّا استَخلَفَ المُعتَصِمُ سَجَّلَ بذلِكَ سِجِلًّا فَانقَطَعَ الاستِئمارُ وصارَتِ النَّفَقَةُ يُحتَسَبُ بِها للعُمّالِ ...» [معجم البلدان شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) (3/ 69)].

والنُّوَيريّ (ت 733هـ):

«فلمّا كانَ في يَومِ الأَحَدِ رابِعَ عَشَرَ شَوّالٍ قُرِئَ الاستيمارُ على السُّلطانِ وتَعَيَّنَ مَن تَوَفَّر...» [نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ) (33/ 263)].

ثُمَّ صَلاحُ الدِّينِ الصَّفَديّ (ت: 764هـ):

«ثُمَّ لازَمَ بَيتَه يَأكُلُ مُرتَّبَهُ إلى أن عُمِلَ الاستيمارُ في أيّامِ الجَمالِي»[أعيان العصر وأعوان النصر صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) (2/ 661)].

والقَلقَشَنديّ ثُمَّ القاهِريّ (ت: 821هـ):

«وكانَ فيه كاتِبانِ ومُعَيَّنانِ لِنَظمِ الاستيماراتِ، ويورَدُ في استيمارَةٍ كُلُّ ما في الرِّقاعِ والرواتِبِ، وما يُجبى له مِن جِهاتِ كُلٍّ مِن الوَجهَينِ القَبليِّ والبَحريِّ»[صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (ت ٨٢١هـ) (3/ 567)].

وفي مَوضِعٍ آخَرَ:

«وكانَ يَتَوَلّاهُ عندَهُم أَحَدُ كُتّابِ الدَّولَةِ مِمَّن يَكونُ مُتَرَشِّحًا لأن يَكونَ رَأسَ الدَّواوينِ، ويُسَمّى استيمارَةَ دَفتَرِ المَجلِسِ، وهو مُتَضَمِّنٌ للعَطاءِ والظّاهِرِ مِن الرُّسومِ الّتي تُقَرَّرُ في غُرَّةِ السَّنَةِ والضَّحايا، وما يُنفَقُ في دارِ الفِطرَةِ في عيدِ الفِطرِ[المصدر نفسه (3/ 566)].

والمَقريزيُّ (ت: 845هـ):

«عُرِضَ الاسْتيمارُ على الحاكِمِ بِأسماءِ الفُقَهاءِ والقُرّاءِ والمُؤَذِّنينَ بالقاهِرَةِ ومِصرَ» [اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ) (2/ 112)].

وفي كِتابِه السُّلوكُ لِمَعرِفَةِ دُوَلِ المُلوك:

«أَنَّ أَحَدًا مِنَ المُلوكِ ما قُرِئَ علَيه الاسْتيمارُ وَقَطَعَ شَيئًا إلَّا وأَصابَه ما يَكرَهُ في دَولَتِه حتّى رَسَمَ باستِمرارِ الرَّواتِبِ على حالِها[السلوك لمعرفة دول الملوك، المؤلف: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ» (4/ 54)].

وله في المَواعِظِ والاعتِبارِ بذِكرِ الخُطَطِ والآثار:

«قالَ: وإذا انقَضى عيدُ النَّحرِ مِن كُلِّ سَنَةٍ تَقَدَّمَ بِعَمَلِ الاستيمارِ لِتِلكَ السَّنَةِ تَمامَ ذي الحِجَّةِ مِنها»[المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار/ المؤلف: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ)،دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ» (2/ 272)].

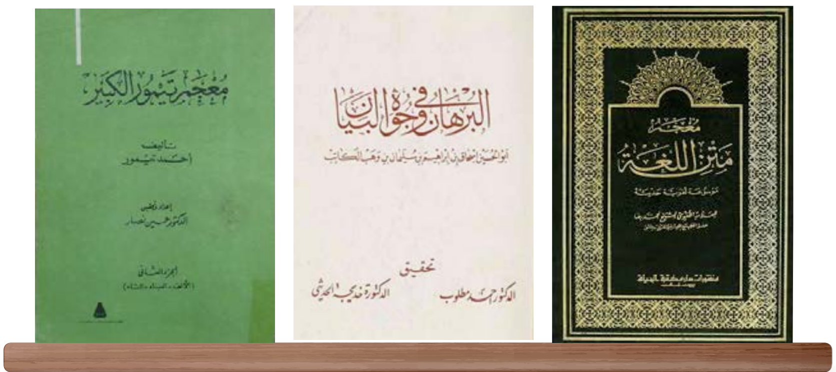
وَذَكَرَ السَّخاويّ (ت 902هـ):

«أَنَّ القاضي عَلَمَ الدِّينِ قالَ لِلمُباشِرِ: ارفَعْ مِن الاستيْمارِ اسمَ رَجُلَينِ: أَحَدُهُما لا يَحضُرُ ولا يُطالَبُ، والآخَرُ لا يَحضُرُ ويُطالَبُ»[الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (ت ٩٠٢هـ)ـ (2/ 588)].

وعَرَفَها السُّيوطي (ت ٩١١هـ) تَعريفًا مُشابِهًا لِتَعريفِ الخُوارِزمِيِّ:

«المُؤامَرَةُ: ما يُجمَعُ فيه الأَوامِرُ الخارِجَةُ في مُدَّةِ أيّامِ الطَّمَعِ لِيُوقِّعَ السُّلطانُ فيه إلى استِئمارٍ، واستِدعاءِ تَوقيعٍ»[معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص159)].

«إِنَّهُ لازِمَ بَيتَهُ يَأكُلُ مُرتَّبَهُ إِلى أَن عُمِلَ الاستيمارُ في أَيّامِ الجَمالِي،



ووُفِّـرَ فيه جَماعَـةٌ، فَطَلَبَ مِن السُّـلطانِ أَن يَتَصَـدَّقَ عليهِ بِوَظيفَةٍ[الوافي بالوفيات، صلاح الديـن خليـل بـن أيبـك بـن عبـد الله الصفـدي (ت ٧٦٤هـــ) (17/ 51)].

«..وَفيـهِ عُمِـلُ الاسـتيمارُ بمـا علـى الدَّولَـةِ مِنَ الكُلَفِ وَمـا يَتَحَصَّلُ، فَوُجِدتِ الكُلَـفُ ثَلاثَـةَ أَمثـالِ ما كانَت فـي الأَيّامِ النّاصِريَّـةِ مُحَمَّـدِ بنِ قَلاوون». السُّـلوكُ لِمَعرِفَـةِ دُوَلِ الملوك[السـلوك لمعرفة دول الملـوك (4/ 54)].

وهـذا مـا عرّبـه المجمـعُ الثّانـي المصـريّ فـي نـادِي دارِ العُلـوم سـنة (1910م): (الاسـتِئْمَارُ ... اسـتِمَارَةٌ) [معجم متـن اللغة، أحمد رضـا (1/ 122)].

ثُمَّ ذَكَرَهُ المُعجَمُ الوَسيط بِقولِهِ:

«(الاسـتئمارة) المَـرَّةُ مِن الاسـتئمارِ وهـو طَلَـبُ الأمـرِ و(فـي اصـطِلاحِ الدَّواويـن) مِثالٌ مَطبـوعٌ يَتَطَلَّبُ بَياناتٍ خَاصَّـةً لإِجـازَةِ أَمْـرٍ مِـنَ الأُمـورِ (مج) [المعجـم الوسـيط (1/ 26)].

وجـاءَ فـي (المُعْجمِ الوسـيطِ) قولُهم عـن بَصمـاتِ السُّـجناءِ: «و(تَشْـبيه المسـجونين) أَخْـذُ البَصمـاتِ اللّازِمَـةِ وَكِتابَـةُ الأَوْصَافِ على اسْـتِئمارةٍ خَاصَّـةٍ لتحديـدِ الشّـخصيّةِ (مج)»[المعجـم الوسـيط (1/ 471)].

وعَرَّفَها صاحِبُ (مُعجَـمِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ المُعاصِرَة):

«اسـتِمارَة: مُفـرَدٌ: وَرَقَـةٌ تَتَضَمَّـنُ بَيانـاتٍ مُعَيَّنَـةً خاصَّـةً بِمَـن يَقـومُ بِمَلئِهـا، وتُقَدَّمُ عندَ الالتحاقِ بِمَدرَسَـةٍ أو وَظيفَـةٍ أو أيِّ أَغـراضٍ أُخـرَى «مَلأَ اسـتِمارَةَ الشَّـهادَةِ الثّانَوِيَّـةِ- اسـتِمارَةُ قَبولٍ: اسـتِمارَةٌ خاصَّةٌ تُقَدَّمُ لِلالتِحاقِ بِمَعهَدٍ»[معجـم اللغـة العربيـة المعاصـرة» (1/ 148)].

وَفَسَّـرَ مُعجَـمُ تَيمـور الاسْـتِمارَةَ بالمُؤامَـرَة:

«اسـتَأمَرَ أي رَفَـعَ إِلَيـهِ المُؤامَـرَةَ، وَطَلَبَ أَمرَهُ، ويُرادِفُ اسْـتِمارَة: مُؤامَرَة، فَهِـيَ كَالتَّقريـرِ يُعمَـلُ ويُرفَـعُ لِلخَليفَةِ لِيَأمُـرَ بِمـا فيه»[معجـم تيمـور الكبير في الألفـاظ العاميـة (2/ 38)].

الخاتمةُ

أهمُّ النَّتائِجِ الَّتي تَوَصَّـلَ إِلَيها البَحثُ هي:

1. يُبَيِّـنُ حَجْـمَ الفَجْوَةِ بَينَ مـا تُقَرِّرُهُ المَعاجِـمُ العَرَبِيَّـةُ مِـن دَلالاتٍ تَقليدِيَّـةٍ لِلكَلِمـاتِ، وبَيـنَ مـا تُنتِجُـهُ اللُّغَـةُ فـي سِـياقاتِها الاجتِماعِيَّـةِ المُتَجَـدِّدَةِ مِـن مَعـانٍ ومَفاهيمَ وَظيفِيَّـةٍ. فَقَد دَلَّ البَحثُ مِـن خِلالِ الدِّراسَـةِ النَّصِّيَّـةِ والمُعجَمِيَّةِ والتَّاريخِيَّـةِ علـى أَنَّ اللَّفظَتَيـنِ مَحَـلَّ الدِّراسَةِ، رَغْمَ رُسُـوخِهِما في الاسْتِخدامِ الإداريِّ والاجتِماعِيِّ مُنـذُ عُصُورِ الإسلامِ الأُولـى، لَـم تَحظَيـا بالتَّدويـنِ الدَّلالـيِّ المُناسِـبِ في مُعظَـمِ المَعاجِـمِ القَديمَةِ والحَديثَةِ.

2. أَظهَـرَتِ الوَثائِـقُ والنُّصـوصُ الَّتي تَـمَّ تَحليلُها – ولا سِـيَّما تِلكَ المُسـتَقاةُ مِـن كُتُـبِ التّاريـخِ والتَّراجِـمِ والوَثائِقِ الإداريَّةِ – أَنَّ «المُؤامَرَةَ» كانَت تُسـتَعمَلُ بِمَعنًى يَتَجاوَزُ «التَّشـاوُرَ»، إِلـى الدَّلالَةِ علـى مُكاتَبَـةٍ إدارِيَّـةٍ رَسـمِيَّةٍ أو إِجراءٍ مَكتـوبٍ يُعَبِّرُ عـن مُوافَقَـةٍ أو تَفويضٍ، وَهـوَ مـا ثَبَـتَ مُنـذُ العَصـرِ العَبّاسِـيِّ فـي عَـدَدٍ مِـن الدَّواويـنِ والمُـراسَلاتِ. أَمَّـا «الاسْـتِمارَةُ»، فَظَهَـرَ مِـن خِلالِ التَّتَبُّـعِ اللُّغَـوِيِّ والتّاريخِيِّ أَنَّهـا لَم تَكُن طارِئَـةً علـى لُغَةِ العَصـرِ الحَديـثِ، بَل كانَت مُسـتَعمَلَةً في سِـياقاتٍ قَديمَةٍ وَإِن اختَلَفَـت صِيغَتُها الاشـتِقاقِيَّةُ أو الرَّسـمُ الكِتابِـيُّ لَهـا أَحيانًا.

3. يُؤَكِّـدُ البَحـثُ الحاجَةَ الماسَّـةَ إلى تَجديـدِ مَنهَجِيَّـةِ التَّأليـفِ المُعجَمِـيِّ، بِحَيـثُ تَتَكامَـلُ فيهـا أَدَواتُ التَّوثيـقِ اللُّغَـوِيِّ، مَـع أَدَواتِ التَّحليـلِ السِّـياقِيِّ الاجتِماعِـيِّ، لِإِنتـاجِ مَعاجِـمَ لا تَكتَفـي بِتَأريـخِ اللَّفـظِ، بَـل تُواكِـبُ تَحَـوُّلاتِ المَعنـى عَبرَ الزَّمَنِ والاستِعمالِ، وتَسُـدُّ الفَجـوَةَ بَيـنَ «لُغَـةِ المَعاجِـمِ» و«لُغَـةِ النّـاسِ».

وفـي ضَـوءِ مـا تَقَـدَّمَ، يُمكِـنُ القَولُ: إِنَّ المَعاجِـمَ العَرَبِيَّـةَ مُطالَبَـةٌ اليَـومَ بِـأَن تَتَحَـوَّلَ مِن وِعـاءٍ سـاكِنٍ لِلُّغَةِ إلى مَنظومَـةٍ مَعرِفِيَّـةٍ مَرِنَـةٍ، تَقـرَأُ الواقِـعَ وتَسـتَجيبُ لَهُ، مَعَ الحِفـاظِ على الجُذورِ اللُّغَوِيَّـةِ الأَصيلَـةِ دُونَ إِغفـالِ التَّطَوُّراتِ السِّـياقِيَّةِ والدَّلالِيَّةِ.

من المُعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة

رحلة مع الجذر (أ د ب)

تُعَدُّ دِراسةُ الجُذورِ العربيّةِ نافذةً مُضيئةً على حياةِ اللُّغةِ وتحوّلاتِها؛ فهي تُبَيِّنُ كيف يَنشأُ المعنى من بُؤرةٍ صغيرةٍ ثمّ يَتَشعَّبُ في مَساراتٍ مُتعدِّدةٍ، مُتأثّرًا بالثَّقافةِ والمجتمعِ والسِّياقِ الحضاريِّ. والكلمةُ في العربيّةِ ليست قالبًا جامدًا، بل كائنٌ نامٍ يَتوسَّعُ ويَتطوَّرُ، يكتسبُ دلالاتٍ ويَفقِدُ أخرى، ويَنتقِلُ من المحسوسِ إلى المجرَّدِ، ومن الضيِّقِ إلى الفَسيحِ. وهنا تَبرُزُ مكانةُ المعجَمِ التّاريخيِّ للُّغةِ العربيّةِ، إذ رصَدَ الجُذورَ في حركتِها الزّمنيّةِ، وأعادَ بناءَ الدّلالةِ على نَسَقٍ تاريخيٍّ مُتدرِّجٍ، حتّى بدا كأنَّه سِجلٌّ حضاريٌّ يُجَسِّدُ سيرةَ الكلمةِ منذ ميلادِها الأوّلِ في أوائلِ أوعيتِها القديمةِ، إلى حضورِها في النُّصوصِ المعاصرةِ.

ومِن بَينِ تلك الجُذورِ التي ارتَسَمَت فيها ملامحُ التَّحوُّلِ الدّلاليِّ بجلاءٍ: الجذرُ (أ د ب)، وهو جذرٌ يَشهَدُ على انتقالِ الكلمةِ من مَجالِ الضّيافةِ المادّيّةِ إلى فَضاءِ الفكرِ والأدبِ الرُّوحيِّ. وقد سجَّلَ له المعجَمُ التّاريخيُّ للُّغةِ العربيّةِ (13) مَدخلًا، وامتدَّت شواهدُه في صَفحاتٍ قارَبَت الخَمسين، فكان عِقدًا من الدّلالاتِ المترابطةِ، يَجمَعُ بين الحِسِّيِّ والمعنويِّ، ويُوازِنُ بين الاجتماعيِّ والثّقافيِّ.



أ. وئام المسالمة

باحثة لغويّة في مجمع اللّغة العربيّة بالشارقة

وعند سَبْرِ أغوارِ هذا الجَذْرِ تَتَكشَّفُ دلالاتُهُ عن مَعانٍ كُلِّيَّةٍ أبرزُها: الدَّعوةُ إلى طَعامٍ أو أَمرٍ، والتَّهذيبُ، والتَّعليمُ.

ولعلّ من أقدمِ ما وَثَّقه المعجَمُ التّاريخيُّ للُّغة العربيّة في رِحلتِه مع الجذْر (أ د ب) أنَّه جاء بمعنى: المأدُبة وصُنْع الطَّعام والدَّعوة إليه. فقد استُعمِل في الشِّعر الجاهليّ ليدلَّ على الوليمة وما يتَّصل بها من مظاهر الاجتماع والضّيافة.

1: أَدَبَ	فعل
1-1: ❋ أَدَبَ (بِفَتْحِ الدّالِ) فُلانٌ يَأْدِبُ (بِكَسْرِ الدّالِ) أَدْبًا، وَأُدْبَةً: صَنَعَ طَعامًا وَدَعا النّاسَ إِلَيْه، فَهُوَ آدِبٌ، (ج) أَدَبَة.	

وقد جاء من قول الشّاعر طَرفة شاهدٌ بيّنٌ على هذا الاستعمال:

(ق س) (480ق هـ/169م) إلى (1ق هـ/621م)

قال طَرَفَةُ بنُ العَبدِ (60 ق ه =563م) يَفْخَرُ:

نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى ❋❋ لا تَـرى الآدِبَ فيـنا يَنْتَـقِرْ

ديوان طرفة. تح: درية الخطيب وآخر، ص: 74.

ففي الجاهليَّةِ، كانَ «الأدْبُ» يعني: صُنْعَ المأدُبةَ الَّتي يَدعو إليها الآدِبُ قومَهُ، فيَجتمعونَ على الطَّعامِ والشَّرابِ. وهو معنًى حِسِّيٌّ يُجسِّدُ طبيعةَ الحياةِ القبَليَّةِ، حيثُ كانتِ الموائدُ مَيدانًا لتجديدِ العُهودِ، وتوثيقِ الرَّوابطِ، وتأكيدِ معاني الكَرَمِ والسُّؤدُدِ. فالآدِبُ هو الدَّاعي، والمأدُبةُ هي السِّياجُ الَّذي يَجمَعُ الأفرادَ على لُحمةٍ اجتماعيَّةٍ متينةٍ. وقد كان هذا الاستعمالُ المبكِّرُ أوَّلَ بذرةٍ لانطلاقِ الجذرِ في آفاقٍ أرْحب.

غيرَ أنَّ العربيَّ لم يكتفِ بالمستوى الحِسِّيّ، بل حمَلَ المعنى إلى بُعدٍ أعمقَ. فكما أنَّ المأدُبةَ تُشبِعُ البَطنَ، فإنَّها تَرمزُ أيضًا إلى اجتماعٍ نفسيٍّ وروحيٍّ على قِيَمٍ عُليا. وهُنا يبدأ الجذرُ رحلتَهُ من المحسوسِ إلى المعنويّ، ومن الاجتماعِ الجسديِّ إلى الاجتماعِ القِيميّ.

الأصلُ الدَّلاليُّ للجذْر (أ د ب)

يُورِد المعجم التّاريخيّ في مُستهلّ تأريخه الجذر (أ د ب) مجيئه في النُّقوشِ العربيَّةِ القديمة بدلالاتٍ تكاد تُطابِقُ بعض دلالاته اليوم؛ فقد جاء في عددٍ من النقوشِ العربيَّةِ الجنوبيَّةِ، منْ بينِها نقشٌ سبئيٌّ يعودُ تاريخُه إلى القرنِ الرّابعِ قبلَ الميلادِ (8/CIH 80)، ورد فيه الاسمُ أديبت dybt أي: مَوالي، كما ورَد في عددٍ من النّقوشِ العربيَّة الشماليّةِ، من بينِها نقشٌ صفائيٌّ غيرُ مؤرَّخ؛ حيثُ ورد فيهِ الفعلُ ادب db أي: هب، امنح، فجاء في النَّقشِ: «ف ه ل ت ا دب ل ه غ ل م»، أي: «فـ(ـيا أيتها) هبي له غلامًا».

في حين يذهب ابن فارس (395ه) إلى أنَّ أصْلَ الجذرِ هو الجَمْعُ. ويورد ذلك في معجمه مقاييس اللُّغة ضمن الجذر (أ د ب)، حيث يقول: «الهَمْزَةُ والدّالُ والباءُ أَصْلٌ واحِدٌ تَتَفَرَّعُ مَسائِلُهُ وتَرْجِعُ إِلَيْهِ: فالأَدْبُ أَنْ تَجْمَعَ النّاسَ إِلى طَعامِكَ. وهي الـمَأْدَبَةُ والـمَأْدُبَةُ. والآدِبُ: الدّاعي» ، وعلى هذا الأساسِ صوّرَ ابنُ فارسٍ الأدَبَ بأنَّه ما تواطَأَ النّاسُ على استِحسانِه وقَبولِه، فانتقلَ المعنى من الجَمْعِ الحِسّيّ على المائِدةِ إلى الجَمْعِ المعنويّ على الفَضائِلِ والمحاسِنِ. وفي هذا السِّياقِ ورَدَ حديثُ ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: «إنَّ هذا القُرآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ تعالى فتعلَّموا من مَأْدُبَتِهِ»، فجعلَ القرآنَ مَأْدُبَةً رُوحيّةً تَجمعُ القلوبَ على الهُدى. ويُضيفُ ابنُ فارسٍ (395ه) أنَّ مِن دلالاتِ هذا البابِ استعمال الإِدْبِ بمعنى: العَجَبِ، وهو مَعنًى يَظلُّ مُتَّصِلاً بأصلِ البابِ؛ إذ إنَّ العَجَبَ يَجذبُ الأنظارَ ويُؤلِّفُ القلوبَ، فَيَبقى الجَمعُ هو الخَيطَ النّاظِمَ الّذي تَرتَدُّ إليه جميعُ فُروعِ هذا الجذر.» .

ويُثبت المعجم التّاريخيّ هذه الدّلالة ويستشهدُ عليها ممَّا جاء في كتاب الله العزيز:

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

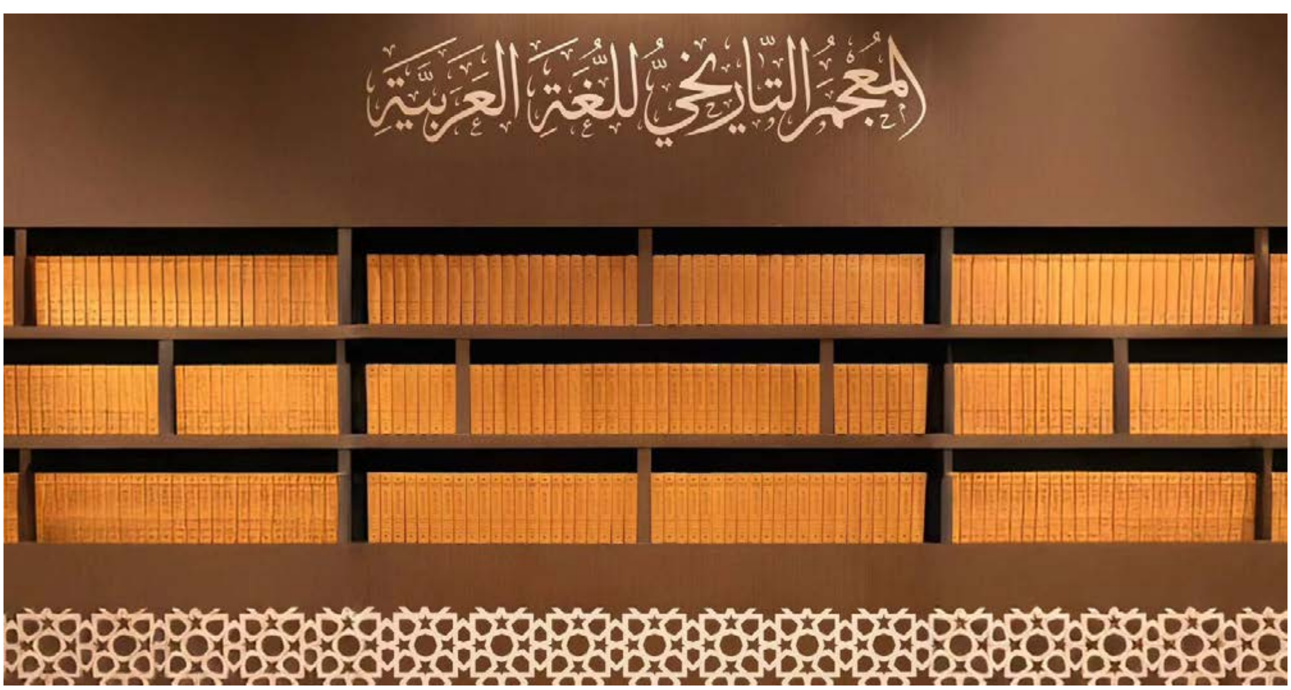
قالَ مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ (ت: 150هـ= 767م) يَتَحَدَّثُ عَنْ سورَةِ هود:

«وَما ذُكِرَ في هَذِهِ السّـورَةِ فَهُـوَ مَوْعِظَةٌ يَعْني مَأْدَبَةٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ».

تفسير مقاتل. تح: شحاتة، ج: 2، ص: 302.

*****

2: أَدِبَ	فعل
2-1: ❋ أَدِبَ (بِكَسْرِ الدّالِ) يَأْدَبُ (بِفَتْحِ الدّالِ) أَدَبًا، وَمَأْدَبَةً: راضَ نَفْسَهُ عَلَى مَحَاسِنِ الأَخْلَاقِ.	



فَهُوَ أَدِبٌ، وأَديبٌ.

فالأدَبُ موعظةٌ وغذاءٌ للرُّوحِ، وقد وجَدَ هذا المعنى صَداهُ في التُّراثِ التَّفسيريِّ، إذ وَصَفَ بعضُ المفسِّرينَ الموعظةَ القرآنيَّةَ بأنَّها «مأدُبةٌ للأمَّةِ»، في إشارةٍ بليغةٍ إلى أنَّ قُوتَ الأجسادِ غَدَا غذاءً للأرواحِ. إنَّها نقلةٌ نوعيَّةٌ في المعنى، تُبرِزُ كيفَ تتسامى اللُّغةُ من المباشرِ إلى الرَّمزيِّ، ومنَ المادِّيِّ إلى القِيميّ. فالأدَبُ، في هذا المقامِ، هو طَعامُ القلوبِ، ومَعينُ النُّفوسِ، والمصدرُ الأصيلُ لتهذيبِها.

وجاء في مَوضعٍ آخر من [أ د ب] في المعجم التّاريخيّ:

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

وَبِهِ رُوِيَ وَفُسِّرَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ (ت: 11هـ=632م):

«إِنَّ هَذَا القُرْآنَ مَأْدَبَةُ اللَّهِ».

ابن سيده، المحكم. تح: هنداوي، ج: 9، ص: 385.

*****

الصَّنعةُ البليغةُ في ثَنايا الجذْرِ (أ د ب)

يَكشفُ هذا المدخلُ أنَّ الفعلَ أدِبَ يُستَعملُ بمعنى التَّمكُّنِ والبراعةِ في فُنونِ الأدبِ وبَسطِ المـلَكةِ فيها. وهُنا يَسمو الجذرُ (أ د ب) من مَقامِ التَّهذيبِ الأخلاقيّ إلى مَقامِ الإبداعِ الفنّي، إذْ يُصبحُ الأديبُ سيِّدَ العبارةِ، بارعًا في تطويعِ الألفاظِ، يصوغ المعاني في قوالبَ بليغةٍ تُدهِشُ العقولَ وتأسِرُ الأذهانَ. فالأدبُ في هذا السِّياقِ ليسَ مُجرَّدَ أداةٍ للتَّهذيبِ، وإنَّما هو فنٌّ رفيعٌ يَجمعُ بينَ رصانةِ المضمونِ وروعةِ الأسلوبِ، ليُجسِّدَ قِمَّةَ التَّجربةِ الإنسانيَّةِ في أبهى صُوَرِها، ومن ذلك قوله:

2-3: و ـــ فُلانٌ: حَذِقَ فُنُونَ الأَدَبِ وَأَجادَها. (مج)

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قالَ مَجْمَعُ القاهِرَةِ (1389هـ=1970م):

«وأَدِبَ: حَذِقَ فُنُونَ الأَدَبِ».

مجمع القاهرة، المعجم الكبير، ج: 1، ص: 139.

التّحوُّلُ الدّلاليّ للمدخلِ: (من المأدُبةِ إلى الدَّهشَةِ التَّصويريَّة)

1-2: و ـــ الأَمْرُ أَدْبًا: عَجِبَ. (وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ هذا الفِعْلُ بِهَذا المَعْنى مِنْ قَبْلُ، واسْتُعْمِلَ المَصْدَرُ مِنْهُ).

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ رُؤْبَةُ (ت: 145هـ=762م) يَصِفُ إِبِلًا سَرِيعَةً:

يفْرِينَ بِالخَرْقِ فَرِيًّا أَدْبَا

بَوْعًا بِأَشْطَانِ الفَلَا وَجَذْبَا

ديوان رؤبة بن العجاج. تح: وليم ألورد، ج: 3، ص: 12.

من بينِ الانزياحاتِ الدَّلاليَّةِ الَّتي لحِقَت بالجذرِ أنَّهُ استُعمِلَ بمعنى: العَجَب. فالعجبُ: انفعالٌ داخليٌّ يَجمعُ النَّفسَ على الدَّهشةِ والانبهارِ، وهو بذلك امتدادٌ رمزيٌّ للمعنى الأوَّل؛ إذ كما تَجتمعُ الأجسادُ على المأدُبةِ، تجتمعُ الأحاسيسُ في النَّفسِ على دهشةٍ تُثيرُها الحوادثُ أو المشاهدُ. إذَنْ الدَّهشَةُ هُنا تَنبعُ مِن المبالَغَةِ في قُوَّةِ الحركة، ومن الصُّورَةِ الغَريبَةِ غَيرِ المألوفَةِ الّتي أوردها رؤبةُ في شِعره.

*****

الانتقالُ الدَّلاليّ إلى معنى (العِقاب، والتَّقويم الأخلاقيّ)

1-5: و ـــ السَّفِيهَ ونَحْوَه: رَدَعَهُ وَهَذَّبَهُ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قال أبو نُواسٍ (ت: 198هـ=814م):

وَكانَ سَيفُ الرَّبيعِ يَأْدِبُ ذَا السـ***سَفهَةِ مِنها وَراكِبَ الموق

ديوان أبي نواس. تح: بهجت الحديثي، ص: 332.

سرعانَ ما أخذَ الجذرُ يُفارِقُ المعاني الانفعاليَّةَ ليَستقرَّ في حقلِ التَّهذيبِ والتَّقويمِ. فالأدبُ لم يَعُد دعوةً أو عَجَبًا فحسب، بل صارَ وسيلةً لِرَدعِ السَّفيهِ، وتَأديبِ الجانحِ، وإصلاحِ المخطِئِ. وهذا بُعدٌ جوهريٌّ في تطوُّرِ الجذرِ؛ لأنَّهُ نقلَهُ من المجالِ الاجتماعيِّ العامِّ إلى المجالِ الأخلاقيِّ الشَّخصيِّ. فالأدبُ هنا يَغدو سلوكًا يُهذِّبُ الأفرادَ، ويُعيدُ لهم التَّوازنَ المفقودَ.

*****

1-3: و ـــــ فُلانًا أَدْبًا وأُدْبَةً: عَلَّمَهُ رِيَاضَةَ النَّفْسِ ومَحاسِنَ الْأَخْلاقِ.

(د م) (657هـ/1259م) إلى (1213هـ/1798م)

قالَ الفَيّوميُّ (ت: 770هـ= 1369م):

«أَدَبْتُه أَدْبًا؛ مِنْ بابِ ضَرَبَ: عَلَّمْتُهُ رِياضَةَ النَّفْسِ ومَحاسِنَ الأَخْلاقِ». (وهَذِهِ الدَّلالَةُ سَجَّلَتْهَا الْمَعَاجِمُ في العَصْرِ الحَديثِ)

الفيومي، المصباح المنير. تح: يوسف الشيخ، ص: 10.

ولَم يَقِف المعنى عندَ هذا الحدِّ، بل ترسَّخَ في المدوَّناتِ اللُّغويَّةِ أنَّ (الأدب) رياضةٌ للنَّفسِ، وتَعليمٌ لمحاسِنِ الأخلاقِ. إنَّهُ انتقالٌ من صورةِ المأدُبةِ إلى صورةِ المدرسةِ؛ فكما يَدعو الآدِبُ قومَهُ إلى طَعامٍ، يَدعو الأديبُ المتأدِّبين إلى الفضائلِ، فيَنهَاهُم عن المقابِحِ ويُرشِدُهم إلى المحامِدِ.

وفي مَوضِعٍ آخر من الجذر [أ د ب]:

5: أَدَّبَ	فعل

1-5: ❋ أَدَّبَ فُلانٌ فُلانًا: عَاقَبَهُ تَقْوِيمًا وتَهْذِيبًا لَهُ عَلى إِسَاءَتِه.

(ق س) (480ق هـ/169م) إلى (1ق هـ/621م)

قالت أمُّ ثَوابِ الهِزّانيَّة (ت: 86ق هـ=538م):

حَتَّى إِذَا آضَ كَالْفُحَّالِ شَذَّبَهُ***أَبَّارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الْكَرَبَا

أَمْسَى يُمَزِّقُ أَثْوابي يُؤَدِّبُني***أَبَعْدَ شَيْبِيَ عِنْدِي يَبْتَغِي الْأَدَبَا

ابن طيفور، بلاغات النساء. تح: أحمد الألفي، ص: 202.

التَّأريخُ الدَّلاليُّ للاسْمِ (أَدَب)

يُسجِّلُ المعجمُ التاريخيُّ للُّغةِ العربيّةِ ثراءً لافتًا في دَلالاتِ الجَذرِ (أ د ب)، تحديدًا في معاني المدخل الاسْميّ (أَدَب)؛ إذِ انبَثَقَ معناهُ أوّلًا في مَجالِ الرِّياضةِ الخُلُقيّةِ، فيَقولُ:

9: أَدَب	اسم

1-9: ❋ الْأَدَبُ: كُلُّ رِيَاضَةٍ مَحْمُودَةٍ يَتَخَلَّقُ بِهَا الإِنْسَانُ، والخُلُقُ القَويمُ. (ج): آدَابٌ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ النَّبِيُّ اللَّهِ ﷺ (ت: 11هـ=632م):

«مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدَهُ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ».

مسند أحمد. تح: الأرناؤوط وآخرين، ج: 24، ص: 128.

فالأدبُ في جوهرِهِ رِياضةٌ محمودةٌ يتخلَّق بها الإنسان، فيستقيم سلوكه، ويهذِّب خُلقُه، ويُعَدُّ من أرفع صور العطاء التّربويّ. جاءَ في تهذيب اللّغة: «الأدَبُ ما يَتَأَدَّبُ به الأديبُ مِنَ النّاسِ؛ وسُمِّي أدَبًا لأنَّه يَأدُبُهُم إلى المحامِدِ ويَنْهاهُم عن المقابِحِ»، وقد أكَّدَ النّبيُّ ﷺ أيضًا تلك المنزلة بأقواله وأفعاله.

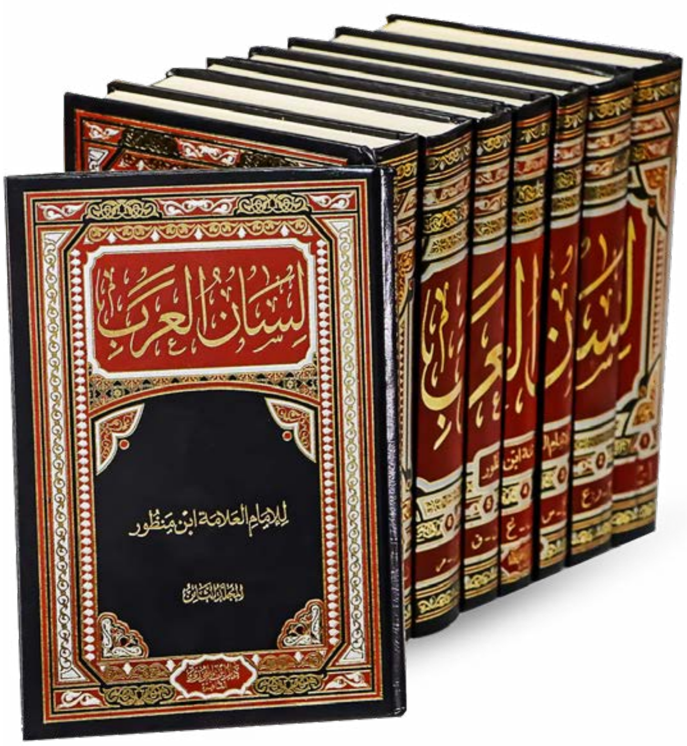
وبهذا يَلتَقي التُّراثُ اللُّغَويُّ والحَديثُ النَّبَوِيُّ على أَنَّ الأَدَبَ لَيسَ مَجرَّدَ مَعرِفَةٍ أو تَزيينٍ لَفظِيٍّ، بَل هُوَ مِرآةٌ تُصقَلُ عَلَيها الأخلاقُ، وميدانٌ تُختَبَرُ فيه القِيَمُ، ليكونَ الأَديبُ صورَةً لتَمامِ التَّهذِيبِ ورُسوخِ الفَضيلَةِ.

الأَدَبُ: نورٌ يُضيءُ مَدارِكَ النَّفْسِ

2-9: و ـــــ: الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالب (ت: 40هـ=660م):



حَرِّضْ بَنِيكَ عَلَى الآدَابِ في الصِّغَرْ**كَيْمَا تَقَرَّ بِهِمْ عَيْنَاكَ في الكِبَرِ

وَإِنَّمَا مَثَلُ الآدَابِ تَجْمَعُهَا**في عُنْفُوَانِ الصِّبَا كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ

ديوان علي بن أبي طالب. تح: عبد العزيز الكرم، ص: 48.

يُضيء هذا الاستعمالُ بُعدًا رفيعًا من دلالاتِ الجذرِ، إذ ارتقى (الأدبُ) ليُساوي العِلمَ والمعرفةَ، لا في ظاهرهما فحسب، بل في أثرهما الباقي في النَّفس. فجاء قولُ الإمام عليٍّ رضيَ اللهُ عنه مؤكِّدًا أنَّ الآدابَ إذا غُرست في الطُّفولة ثَبَتَت في القلبِ ثباتَ النَّقشِ على الحَجرِ؛ لا يزولُ أثرُها ولا تَمحوهُ الأيّام. فالأدبُ هنا ليس مجرَّدَ تربيةٍ آنيّة، بل مَيراث علميّ وأخلاقيّ يَرتسمُ في النُّفوسِ منذ الصِّغَرِ، ليُثمِرَ في الكِبَرِ رُشدًا وسدادًا وسموًّا في السّلوكِ والمعرفة؛ وقد عبّر عن هذا شوقي ضيف حين قال: «اسْتَقرَّ في الأذْهان أنّ الأَدَبَ هو: الأخْذُ من كلِّ عِلْمٍ وفَنٍّ بطَرَف».

الأَدَبُ: التزامُ الجماعةِ وصَوْنُ العُرف

9-3: و ـــــ: الأَعْرَافُ وَالْعَادَاتُ الاجْتِمَاعِيَّةُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قالَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالب (ت: 40هـ=660م):

حُسَيْنُ إِذَا كُنْتَ في بَلْدَةٍ**غريبًا فعَاشِرْ بِآدَابِهَا

ديوان علي بن أبي طالب. تح: عبد العزيز الكرم، ص: 23.

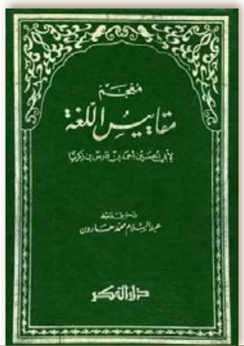
يُفصِحُ قولُ الإمام عليٍّ عن جوهرِ الأدبِ بوصفِه التزامًا بأعرافِ الجماعةِ وقَوانينها بما يَضمنُ للغريبِ القَبولَ بين النّاس، فالأدبُ هنا ليس خُلقًا فرديًّا فقط، بل هو نظام اجتماعيّ يَضبط علاقة الغريب بالمجتمع الّذي يحلُّ فيه.

وهنا يتجلّى الجذرُ (أ د ب) في معناه الأصليّ: الدَّعوة إلى المحامد والانقياد لها؛ بما يكشفُ عن امتدادِه من دَلالةِ المأدُبة إلى نظامٍ اجتماعيٍّ يَضبِطُ علاقةَ الفردِ بالمجتمع.

الأَدَبُ: لُغَةُ المشاعرِ والتَّجاربِ الإنسانيَّة

9-5: و ـــــ: الْكَلَامُ الْمُعَبِّرُ عَنِ الْمَعَارِفِ والمشاعرِ والتَّجَارِبِ الإِنْسَانِيَّةِ في قَالَبٍ فَنِّيٍّ يُعْجِبُ وَيُؤَثِّرُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)





قال مُعاوِيَةُ بْنُ أبي سُفْيان (ت: 60هـ=679م):

«يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ تَأْدِيبُ وَلَدِهِ، والشِّعْرُ أَعْلَى مَرَاتِبِ الأَدَبِ».

ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر. تح: محيي الدين عبد الحميد، ج: 1، ص: 29.

فالأدبُ إذَن قد غدا مَيدانًا جَماليًّا يَحتضِنُ التَّجربةَ الإنسانيَّةَ في أبهى صُوَرِها؛ إذ تَسامى من مَرتبةِ التَّهذيبِ إلى ذُرى البيانِ الرَّفيع، حيثُ غدا الشِّعرُ أعلَى مَراتبِه، يَتآلَفُ فيه جَمالُ المبنى مَعَ عُمقِ المعنى. ولِذلك قالَ سيّدنا معاوية بنُ أبي سُفيان رضي الله عنه بأنَّ الشِّعر: «أعلى مَراتِبِ الأدبِ»؛ فهو يَجمعُ بين المعاني وبين البِناءَ الفنِّيَّ. وقد عُدَّ الأدبُ ضمن أبرز فنون اللّغة؛ فهو فنٌّ جَميل يُفصِحُ عنِ العَواطِفِ والأفكارِ في أرقى القَوالِبِ الَّتي تُدهِشُ وتُؤثِّرُ في آنٍ واحِد، وقد بيّنَ هذا شوقي ضيف، حيث عرّفَ (الأدب) -بعدما أشار إلى تطوُّرِ معاني- قائلًا: «هو: الكَلامُ الإنْشائيُّ البَليغُ الّذي يُقْصَد به إلى التَّأثيرِ في عَواطِفِ القُرّاء والسّامِعين، سواءٌ أكانَ شِعْرًا أمْ نَثْرًا».

الأَدَبُ في النَّاقَةِ: رِياضَةٌ وانقيادٌ

9-7: و ـــــ في النَّاقَةِ: الطَّواعِيَةُ والانقياد.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

قال أبو النَّجْمِ العِجْلِيُّ (ت: 125هـ= 743م):

فاخْتَرْتُ مَهْرِيَّةً قَدْ شَقَّ بازِلُها**من إبْلٍ تَهْنِئَ تُبْدي العِتْقَ والأَدَبا

ديوان أبي النجم. تح: جمران، ص: 79.

يُثبِتُ التُّراثُ اللُّغويُّ أنّ للأَدَبِ وجهًا خاصًّا في لُغةِ الإبلِ؛ إذْ

يُطلَقُ على النَّاقةِ إذا رِيضَتْ ولانتْ وانقادَتْ. فالمعاجِمُ تُصرِّح بأنَّ الجملَ أَدِيبٌ، إذا رِيضَ وذُلِّل؛ وقد جاء في لسانِ العرب: «ويُقالُ لِلبعيرِ إذا رِيضَ وذُلِّل: أَدِيبٌ مُؤدَّب»؛ وهو نصٌّ يُحيلُ على معنى التَّطويعِ بالتَّدريبِ والرِّياضةِ لا مجرَّد الطَّبعِ والسَّجيَّة.

ويرتبطُ هذا الوجهُ بدلالةِ الجذرِ الكبرى من حيث التَّهذيب والتَّقويم، غير أنّه ينتقلُ بها من المجالِ الإنسانيِّ إلى الواقع الحِسِّيّ الحيوانيِّ، فيُصَيِّرُ الأدب معيارًا فنِّيًّا لما يمكن أن يُطلق عليه: (صناعة الانقياد)، وهو حينئذ رِياضةٌ تُكسِبُ الدَّابّةَ رزانةَ السُّلوكِ وسُهولةَ الانقيادِ، كما تُكسبُ الإنسانَ سَمتَ الوقارِ ومَلَكةَ التّخلُّق بمكارم الأخلاق. وبذلك يغدو هذا المدخلُ شاهدًا بليغًا على مرونةِ الجذرِ (أ د ب) واتِّساعِهِ لِـحقلٍ دلاليٍّ يضمُّ التَّهذيبَ خُلُقًا، والانقيادَ طبعًا، والرِّياضةَ صناعةً.

الأديب في أصل الاستعمال

13: أديب	اسم

13-1: ⁕ الأَدِيبُ: مُرَوِّضُ الخَيْلِ.

(ق س) (480ق هـ/169م) إلى (1ق هـ/621م)

قَالَ طُفَيْلُ الغَنَويّ (ت: 13 ق هـ= 609م) يَصِفُ خَيْلًا:

طِوالُ الهَوادي والمـُتونُ صَليبَةٌ⁕⁕مَغاويرُ فيها لِلأَديبِ مُعَقَّبُ

البكري، التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه. دار الكتب المصرية، ص: 54.

الأَدَبُ الإلهيُّ: شَريعةٌ وهُدًى

9-10: 0 أَدَبُ اللهِ: أَحْكامُهُ وتعاليمُه وشَريعَتُهُ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

رويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (ت: 11هـ= 632م) أَنَّهُ قالَ:

«إِنَّ كُلَّ مُؤَدِّبٍ يَحِبُ أَن يُؤَدَّى أَدَبُهُ، وإِنَّ أَدَبَ اللهِ الْقُرْآن».

الحارث المحاسبي، فهم القرآن ومعانيه. تح: القوتلي، ص: 289.

يوردُ الحديثُ النبويُّ الأدبَ في بُعدِه الأعلى المتمثِّل في أحكام اللهِ وتشريعاتِه. إنَّه أدبٌ سماويٌّ يُهذِّبُ النفوسَ بالوحْي، ويُقوِّمُ السُّلوكَ بالشَّريعةِ؛ فالقرآن الكريمُ هو المصدر الجامعُ للفَضائل، والمأدبةُ الرّوحيّة الّتي تُغذِّي القلوبَ بالهُدى، وبهذا ارتقى الجذرُ (أ د ب) من اجتماعٍ على المائدةِ إلى اجتماعٍ على الهدايةِ الإلهيَّةِ.

الأَدَبُ: مَوعِظةٌ تُوقِظُ القُلوبَ

9-11: 0 أَدَبٌ أَديبٌ: عِظَةٌ واعِظَةٌ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَتِ امْرأةٌ (ت: 216هـ= 831م، مِنْ شَواهِدِ الأَصْمَعِيِّ):

إذا كانَ الطِّباعُ طِباعَ سُوءٍ⁕⁕فَلَيْسَ بِنافِعٍ أَدَبٌ أَديبُ

نجم الدين الغزي، حسن التنبه لما ورد في التشبه. تح: نور الدين طالب وآخرين، ج: 11، ص: 130.

في هذه الدّلالة يتجلَّى البُعدُ السّلوكيُّ الوعظيُّ للجذر؛ فالأدبُ هنا ليس مجرّد تربيةٍ أو تهذيبٍ، بل هو موعظة بليغة، غير أنّها لا تُثمر إذا انغمسَ الطبعُ في السُّوء. فالأدبُ الأديبُ: هو الموعظةُ



الحكيمةُ الَّتي تَرُدّ النَّفسَ عن زَيغِها، لِيغدُو الأدبُ حينئذٍ سُلطةً روحيّةً تُخاطبُ الضمائرَ وتستنهضُها.

الأَدَبُ الأديبُ: صَوتُ الإبداعِ والفَنّ

9–12: 0 الأَدَبُ الأديبُ: الشِّعْرُ والنَّثْرُ المـُحْكَمُ الإِبْداع.

ومعَ الازدهارِ الدّلاي عبر العُصورِ المختلِفة، أخذَ (الأدبُ الأديبُ) بُعدًا فنّيًّا خالصًا. فالأدبُ في هذا السّياق غدا اسمًا جامعًا للشِّعرِ والنَّثرِ المـُحكَم، حيثُ يلتقي جمالُ الصِّياغةِ معَ عُمقِ المعنى. وقد لخَّص هذا البُعد قَولُ:

أحْمَد زَكي أبو شادي (1372هـ= 1953م)

(ح) (1214ه/1798م) إلى (1441ه/2020م)

«الأَدَبُ الأَديبُ مَنْ عاشَ لِلْفَنِّ ومَنْ صاحَبَ الحَياةَ».

أبو شادي، مجلة الرسالة، عدد: 1019.

أَدَبُ البَحرِ: غَمْرٌ وفَيْضٌ

9–14: 0 أَدَبُ البَحْرِ: كَثْرَةُ مائِهِ. (ز)

(ع) (133هــ/750م) إلى (656هــ/1258م)

قال أبو عَمْرو الشَّيْبانيّ (ت: 206ه=821م):

«جاشَ أَدَبُ الْبَحْرِ، وَهُوَ: كَثْرَة مَائِه». (وهَذِهِ الدَّلَالَةُ سَجَّلَتْهَا الْمَعَاجِمُ فِي بَقِيَّةِ الْعُصُور)

الأزهريّ، التهذيب. تح: عبد النبي، ج: 14، ص: 209.

هُنا استُخدِمَ لفظُ الأدبِ في توصيفِ البحرِ، لا من زاويةِ الأخلاقِ أو التَّهذيبِ، بل في بُعدٍ ماديٍّ محسوسٍ؛ وهذا الاستعمالُ يُبرزُ طاقةَ الجذرِ (أ د ب) على الاتِّساعِ الدلاليِّ؛ فالفيضُ المائيُّ الهادرُ وامتلاءُ البحرِ صار يُوصَفُ بــ(الأدَب). وكأنَّ العلاقةَ هنا تربط بين الأصلِ اللُّغويِّ الّذي يدلُّ على الجمعِ والامتلاءِ، وبين الامتلاءِ المعنويِّ الذي يُفضي إلى الفَضلِ والسَّعة.

أَدَبُ الحَربِ: فَنُّ القِيادَةِ والانضِباط

9–15: 0 أَدَبُ الحَرْبِ، وآدابُ الحَرْبِ: ما يَتَحلّى بِهِ القُوّادُ والمـُحارِبونَ مِنْ مَعْرِفَةٍ بالحُروبِ وَخِبْرَةٍ كامِلَةٍ بِها.

(ع) (133هــ/750م) إلى (656هــ/1258م)

قال الـماتُريديُّ (ت: 333هــ= 944م):

«وَقَوْلُهُ -تعالى-: (وَأَعِدوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ)، وقوله: (فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا)، وَغَيْرُهُ مِنَ الآياتِ فيها الدِّلالَةُ على تَعَلُّمِ آدابِ الحَرْبِ وَأَخْذِ الأُهْبَةِ فيه».

الماتريدي، تأويلات أهل السنة. تح: باسلوم، ج: 3، ص: 346.

يَتَّسِعُ الجذرُ (أ د ب) شيئًا فشيئًا ليشمَلَ مَجالَ المعارِك، حيث يُطلَقُ (أدبُ الحرب) على مجمَلِ ما يَتَحلَّى به القائدُ في المعارِكِ من مَعرفةٍ وخِبرةٍ وانضِباطٍ. وقد بَيَّنَ الماتُريديُّ أَنَّ الآياتِ القرآنيَّةَ في الإعدادِ والجِهادِ تُؤسِّسُ لآدابِ الحربِ، أي: نظامها وخُطَطها وأخلاقها، بما تَحمِلُه من تَوجيهٍ إلى الاستعداد، وحُسنِ التَّدبيرِ، وضَبطِ السُّلوكِ في مَيدانِ القِتالِ.

9–18: 0 الأَدَبُ العَرَبِيُّ: الشِّعْرُ والنَّثْرُ.

لقد غدا الأدبُ عَلَمًا على علوم العربيَّةِ نفسِها؛ فبهذه الدلالة يُطلَقُ (الأدب العربيّ) ويُراد به التُّراث المتّصف بالعُروبة برُمَّته: لغةً، وشعرًا، ونثرًا، وبلاغةً، وتاريخًا. فهو إذَن: العِلمُ الجامعُ الَّذي يُحيلُ إلى الهُويَّةِ الثقافيَّةِ للأمَّةِ العربيّة، ويُجسِّدُ ذاكرتَها وحِكمتَها وذَوقَها.

ومنه قول المنفلوطيّ (ت: 1344هــ= 1924م):

(ح) (1214ه/1798م) إلى (1441ه/2020م)

«ولا تَزالُ نَفْسي تَشْتَمِلُ عَلى لَوْعَةٍ مِنَ الحُزْنِ لا تُفارِقُها حَتّى المـَوْتَ كُلَّما ذَكَرْتُ أَنَّ الأَدَبَ العَرَبِيَّ كانَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَكونَ خَيْرًا مِمّا كانَ لَوْ أَنَّ اللهَ كَتَبَ لِلُزومِيّاتِ المـَعَرّيِّ النَّجاةَ مِنْ قَبْضَةِ اللُّغَةِ وَأَسْرِ الالْتِزام، وَإِنَّكَ لا تَكادُ تَرى اليَوْمَ مِنْ شُعراءِ هَذا العَصْرِ وَكُتّابِهِ الَّذينَ يَأْخُذونَ بِزِمامِ هذا المـُجْتَمَعِ العَرَبِيِّ وَيُقيمونَ عالَمَهُ».

المنفلوطي، النظرات، ج: 1، ص: 35.

الأَدَبُ: صَونُ القِيَمِ وضَبطُ السُّلوك

9–21: 0 أَدَبُ الْمُسْتَمْلِي وَآدَابُ الْمُسْتَمْلِي: الأَخْلاقُ والصِّفاتُ الَّتي يَنْبَغي أَنْ يَكونَ عَلَيْها طالِبُ الإِمْلاءِ مِنَ الْمُحَدِّثِ في حالِ إِمْلاءِ الأَحاديثِ.

(ع) قَالَ صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ جَزَرَةُ (ت: 293هـ=906م):

«كانَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْماعيلَ يَجْلِسُ بِبَغْدادَ وكُنْتُ أَسْتَمْلِي لَهُ، وَيَجْتَمِعُ فِي مَجْلِسِهِ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا»

الخطيب البغدادي، الجامع، تح: الطّحان، ج: 2، ص: 53.

فالمُستَملِي عبارة عن واسِطَة بَينَ المـُحَدِّثِ والجُمهورِ، وبِحُسنِ أَدَبِـهِ يَصفُو النَّقلُ، ويَأمَنُ السّامِعونَ مِنَ الخَلطِ والتّصحيف. وإنّما عُدَّ هذا أَدَبًا؛ لِأَنَّهُ جَمعٌ بَينَ الدِّقَّةِ في الأَداءِ، والتَّوقيرِ لِلمَجلِسِ، والتِزامِ السَّكينَةِ الَّتي تُناسِبُ مَقامَ السُّنَّةِ المشرَّفَةِ ورِوايَتِها. فالجَذرُ (أ د ب) يَحتفظُ بأَصلِه الدِّلاليّ في الجَمعِ والتَّهذيبِ، ثُمَّ يضيف إلى ذلك هنا التّعبير عن مَجمَعِ الفضائِلِ الَّتي تُؤدِّي إلى صِيانَةِ العِلمِ وحِفظِ هيبَتِه.

9-23: 0 الآدابُ العامَّةُ: عُرْفٌ مَرْضِيٌّ في مُجْتَمَعٍ يَقْبُحُ الخُروجُ عَلَيْهِ.

يُجسِّد هذا المدخلُ بُعدًا اجتماعيًّا آخَر للجذرِ (أ د ب)؛ إِذْ تُظْهِرُ دلالَتُهُ كيف انتقَلَ من إطارِ التَّهذيبِ الفرديِّ إلى مَقامِ النِّظامِ المجتمعيّ، حيث أصبحَ بمثابةِ ميثاقٍ جامعٍ، يَصونُ القِيمَ ويَضبِطُ السُّلوكَ، فمُخالَفَته خَرقٌ لِلمروءَةِ وانفصامٌ عن نِظامِ الجماعة.

قال عَبْدُ الله النَّديمُ (1311هـ= 1893م) يَتَحَدَّثُ عَنْ فَنِّ التَّمْثيلِ:

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

«فَهُوَ فَنٌّ قَديمٌ أَخَذَهُ الأُوروبيّونَ عَنِ العَرَبِ عِنْدَ مُخالَطَتِهِمْ لَهُمْ في الأَنْدَلُسِ والشّامِ، وَلَكِنَّهُمْ هَذَّبوهُ وَبَنَوْهُ على تَمْثيلِ الوَقائِعِ الشَّهيرَةِ الَّتي لها وَقْعٌ في التَّهْذيبِ والتَّأْديبِ، وَطَهَّروهُ مِنْ كُلِّ ما يُخِلُّ بالآدابِ العامَّةِ».

عبد الله النديم، مجلة الأستاذ، ص: 502.

ومِن ثَمَّ ارتبَطَ الأدبُ في هذا المقام بمَفهوم (الحِفاظ على الانسِجامِ الاجتماعيِّ)، إِذْ يَغدو إطارًا جامعًا يَصونُ القِيمَ المشترَكَةَ ويَحمي السُّلوكَ من التَّفلُّتِ والفَوضى.

التطوُّرُ الدَّلاليُّ للجذرِ [أ د ب] في ضَوءِ النَّقْدِ الأدبيِّ

تَبلورَ مصطلحُ «الأدبيَّةِ» في العصرِ الحديثِ، ليُشيرَ إلى الخصوصيَّةِ الفنِّيَّةِ للنَّصِّ، وإلى بِنْيتِه اللُّغويَّةِ الرَّصينةِ الَّتي تَجعلُ منه إبداعًا لا مُجرَّدَ كلام. وهنا يَبلغُ الجذرُ ذروةَ ارتقائِه؛ فإنّه ابتدأ مأدُبةً للطَّعامِ، وأضحى مأدُبةً للرُّوحِ، وانتهى إلى (الأدبيَّةِ) الَّتي تُميِّزُ الفنَّ وتُبرِزُ مَلامِحَهُ الجماليَّةَ، فمِنْ ذلكَ:

11-5: 0 أَدَبِيَّةُ النَّصِّ: امْتِلاكُ النَّصِّ بِنْيةً لُغَوِيَّةً رَصينَةً، تُحيلُهُ مِنْ مُجَرَّدِ نَصٍّ لُغَوِيٍّ إِلى نَصٍّ إِبْداعِيٍّ.

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قال صَلاح رِزْق (1422هـ= 2002م، تاريخُ الطَّبْعِ):

«كُلُّ ما في الأَمْرِ أَنَّ هَذا المـَنْهَجَ يَبْدو في اعْتِقادِنا أَعْوَنَ عَلى إِدْراكِ أَدَبِيَّةِ النَّصِّ وَدِقَّةِ تَحْديدِ مَفْهومِها باعْتِبارِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ لُغَةً خاصَّةً ذاتَ سِماتٍ خاصَّةٍ وَبِنْيَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ داخِلَ اللُّغَةِ العامَّةِ بِدَرَجَةٍ لا تَتَوَفَّرُ في سِواهُ مِنَ المـَناهِجِ والمـَداخِلِ النَّقْدِيَّةِ الأُخْرى».

صلاح رزق، أدبية النص، ص: 12.

ومنه أيضًا في مَوضِعٍ آخر:

11-6: 0 الأَدَبِيّاتُ: الأَبْياتُ السّائِرَةُ والنَّثْرُ الذّائِعُ.

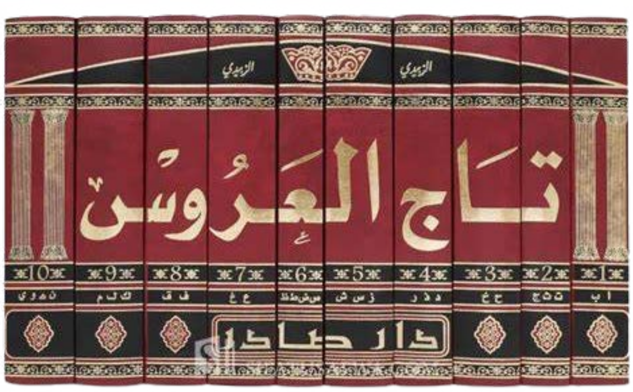
(د م) (657هـ/1259م) إلى (1213هـ/1798م)

قال قُطْبُ الدّينِ اليونينيّ (ت: 726هـ= 1326م) يَتَحَدَّثُ عَنْ أبي عَبْدِ الله المالكيِّ:

«وكانَ ظَريفَ الشَّكْلِ، حَسَنَ المـُحاضَرَةِ، يَحْفَظُ كَثيرًا مِنَ الأَدَبِيّاتِ والأَناشيدِ».

اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج: 2، ص: 356.

11-7: 0الأَدَبِيّاتُ: عُلومُ العَرَبِيَّةِ مِنْ نَحْوٍ وَشِعْرٍ وَأَدَبٍ وَتاريخِ ...إلخ.



(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ أبو طاهر السِّلَفِيُّ (ت: 576هـ= 1180م) يترجِمُ أحدَ الرّؤساء:

«فَقَدْ كَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ الْأَنْدَلُسِ، وَلَهُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ الْحَظُّ الْوَافِرُ مِنَ الشَّرْعِيَّاتِ وَالْأَدَبِيَّاتِ».

أبو طاهر السلفي، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر. تح: عباس، ص: 58.

11-8: 0 الأدَبِيّاتُ: مَجْمُوعُ ما كُتِبَ في مَجالٍ مُعَيَّنٍ أَوْ لُغَةٍ مُعَيَّنَةٍ.

(ح) (1214هـ/1798م) إلى (1441هـ/2020م)

قال كامِلُ الغَزّيّ (ت: 1352هـ= 1933م) يَتَحَدَّثُ عَنْ رِفْعَتْ آغا:

«كانَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ والعَرَبِيَّةِ والفارِسِيَّةِ والفَرَنْسِيَّةِ، وَيُحْسِنُ مِنْ كُلِّ لُغَةٍ مِنْ هَذِهِ اللُّغاتِ أَدَبِيّاتِها».

كامل الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج: 1، ص: 320.

وبهذا يَكشِفُ مُصطَلَحُ الأدَبِيّات عن ثَراءٍ دَلاليٍّ يتَدَرَّج عَبرَ العُصور، فارتَبَطَ أوّلًا بما هُوَ سائِرٌ على الألسِنَةِ من أبياتٍ ونُصوصٍ مَنثورةٍ، تُرَدَّدُ في المفاكهات ويُستشهَدُ بها في المـُحاوَرات، لِتَغدو شاهِدًا على الذّائقَةِ الجَمعيَّةِ ومَخزونِها الشِّعريِّ والنَّثريِّ في كلّ عصر. ثُمَّ اتَّسَعَ المعنى في مَرحَلَةٍ أُخرى لِيَدُلَّ على عُلومِ العَرَبِيَّةِ وفُنونِها، مِن نَحوٍ وصَرفٍ وشِعرٍ وأَخبارٍ، حتَّى صارَ عَلامَةً على التَّضَلُّعِ في التَّكوينِ اللُّغويِّ والفِكريِّ. وفي



العَصرِ الحَديثِ أَخَذَتِ الكَلِمَةُ بُعدًا اصطِلاحيًّا أَشمَل، فَأَصبَحَت تُطلَقُ على مَجموعِ الإنتاجِ الفِكريِّ واللُّغويِّ في مَجالٍ بِعَينِهِ أَو في لُغَةٍ محدَّدة، كالأدَبِيَّاتِ السِّياسيَّةِ أَو أَدَبِيَّاتِ لُغَةٍ ما.

وهكذا نَرى أَنَّ الجذرَ [أَ دَ بَ] حينَ يُضافُ إِلَيهِ هذا الاشتِقاقُ، يَغدو مظلَّةً جامِعَةً لِمَجالاتِ القَولِ والكِتابةِ والمَعرِفَةِ، مُحتَفِظًا بِخَيطِهِ الأَصيلِ: الجَمع والتَّدوين والتَّداوُلِ.

*****

الأَدّابُ: المـُعَلِّمُ والمُهَذِّبُ

12: أدّاب	اسم

1-12: ❋ الأدّاب: المـُعَلِّمُ.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قَالَ دِعْبِل الخُزاعِيُّ (ت: 246هـ= 860م):

إِنْ عابَنِي لَمْ يَعِبْ إِلّا مُؤَدِّبَهُ❋❋وَنَفْسَهُ عاب لمـّا عاب أَدّابَهْ

الأصفهاني، الأغاني. تح: عباس وآخرين، ج: 20، ص: 69.

يُطلَقُ لفظُ الأدّاب على المـُعلِّمِ الَّذي يَنهَضُ بمهمَّةِ الغَرسِ والتَّوجيه. فالمـُعلِّمُ في هذا السِّياقِ ليسَ ناقِلًا للمَعارِفِ فقط، بل هو مُؤدِّب يُقوِّمُ النَّفسَ ويُهذِّبُ الطِّباعَ. وهُنا يتجلّى الارتباطُ الوثيقُ بالجذرِ [أ د ب]؛ إذ ينزاحُ أصلُ الجَمعِ لِيُصبِحَ جَمعًا للقلوبِ على مَكارِمِ الأخلاقِ ومَعارِفِ العُلوم، ويُصبح (الأدّابُ) مَرجِعًا وأداة يُقاسُ بها نُضْجُ الأجيالِ ورُقِيُّها.

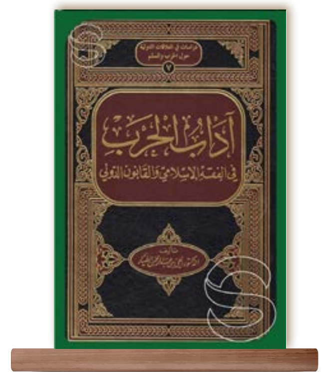
*****

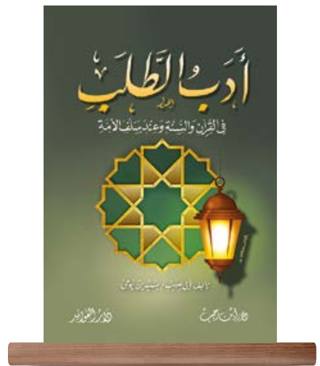
التَّأْدِيبُ: تَربِيَةٌ وإِصلاحٌ

15: تَأدِيب	اسم

1-15: ❋ التَّأْدِيبُ: التَّهْذِيبُ والتَّرْبِيةُ والإِصْلاحُ والتَّعْلِيمُ. (ج) تَأْدِيباتٌ.

ويُلاحظ ارْتِسامُ مَعنى التَّأْدِيبِ في هذا المـَدخلِ كقُوَّةٍ تربويَّةٍ تُهذِّبُ السُّلوكَ وتُقوِّمُ النُّفوسَ، بالجَمْعِ بينَ التَّرْبِيَةِ والإِصْلاحِ





والتَّعليم.

يقول الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ (ت: 17 ق هــ= 605م):

(ق س) (480ق هــ/169م) إلى (1ق هــ/621م)

صَغيرُ القَوْمِ في التَّأْديبِ يُرْجى*** ولا يُرْجَى على الأَدَبِ الكَبيرُ

ديوان الزبير. تح: أبي الطاهر القرشي، ص: 22.

المُسْتَأْدِبُ: مُتَصَنِّعُ الأَدَبِ ومُدَّعِيه

21: مُسْتَأَدِب	اسم

21-1: ❋ المـُسْتَأْدِبُ: المـُدَّعي مَعْرِفَةَ الأَدَبِ.

يُجسِّدُ لفظُ المـُسْتَأْدِبِ صُورةَ التكلُّفِ في مَيدانِ الأدبِ؛ إذْ يَكشِفُ عن تغيّرٍ في مسارِ الجذرِ [أ د ب]؛ فالأصلُ فيه يَدورُ على الجَمعِ في مَجالِ الكَرامةِ والفَضيلةِ والعِلمِ، غير أنَّ المـُستأدِبَ يَتظاهرُ بمَعرفةٍ لا يَملِكُها، ويَتشبَّثُ بظِلالِ غَيرِه لِيَكتَسِبَ وَقارًا زائفًا.

يقُول زكي مُبارَك (ت: 1362هــ= 1942م):

(ح) (1214ﻫ/1798م) إلى (1441ﻫ/2020م)

«ولَيْسَ بِأَديبٍ مَنْ يَتَشَبَّثُ بِأَذْيالِ أَحَدِ النّوابِغِ لِيَضْمَنَ لَهُ الرِّزْقَ الحَرامَ أَوِ الحَلالَ، كالرِّزْقِ الذي يُضْمَنُ لِلْمُسْتَأْدِبِ المـَجْهولِ حينَ يَتَّصِلُ بالأَديبِ المـَعْروفِ».

مجلة الرسالة، عدد: 468.

وهُنا يُقابِلُ الجذرُ بين مَن جَمَعَ القلوبَ على المكارمِ حقًّا، ومَن ادَّعى الأَدَبَ ادِّعاءً باطِلاً فبَدا جَمعُه تَفرُّقًا ونُقصانًا.

وبهذا نجدُ أنَّ الجذرَ [أ د ب] يَرتَسِمُ في ذاكرةِ اللُّغةِ العربيَّةِ كأحَدِ الجذورِ البالغةِ في الغِنى وثراءِ المعنى مبلغًا كبيرًا، حيث يُمثِّلُ أُنموذجًا ساطعًا لِلتَّحوُّلِ الدَّلاليِّ في العربيَّةِ؛ إذ انبثقَ ابتداءً من مَجالٍ حِسِّيٍّ مُرتَبِطٍ بالمأدُبةِ والاجتماعِ على الطَّعامِ، ثُمَّ تَسامى ليُصوِّرَ الاجتماعَ الرُّوحيَّ على المكارمِ والفضائلِ، قبلَ أن يَتَّسِعَ عبْرَ عُصورِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ ليُصبحَ عَلَمًا على الثَّقافةِ والمعرفةِ والفنِّ. وبينَ تلك المحطَّاتِ تَتَّسِعُ الدَّائرةُ دَلاليًّا لتَشملَ العقوبةَ المـُصلِحةَ، والتَّهذيبَ الذَّاتيَّ، والنِّظامَ الاجتماعيَّ، لتَتجلَّى في عصورِنا الحديثةِ بمفهومِ (الأدبيَّةِ)، أي خصوصيَّةَ النَّصِّ الإبداعيِّ.

ختامًا

وبَعدَ هذا التَّطوافِ مع الجذْرِ [أ د ب] في رِحابِ المعجَمِ التَّاريخيِّ للُّغةِ العربيّةِ، تَبَيَّنَ لنا أنَّ هذا العملَ الرّائدَ لم يقتصرْ على جمعِ المعاني وحصرِها، بل تَجاوزَ ذلك إلى رَصْدِ مسيرتِها، ومتابعةِ تحوّلاتِها عبرَ المتونِ والنُّصوصِ في مُختلفِ العصورِ، حيث أبانَ المعجمُ عن وُجوهِ التَّنامي والتَّوسُّعِ في دلالاتِ هذا الجذْرِ، مُستعرِضًا مَسارَه منذ ارتبطَ بالضِّيافةِ والمأدُبةِ، مرورًا بتهذيبِ السُّلوكِ وتقويمِ النَّفسِ، وانتهاءً باستقرارِه عَلَمًا على مَدارسِ التَّعليمِ والثَّقافةِ والفُنونِ. وبذلكَ لم يُقدِّمِ لنا المعجمُ مادّةً لغويّةً جامدةً، وإنّما سِيرةً حيّةً تُجَسِّدُ كيفَ تَشكَّلَ الأدبُ في الوعيِ العربيِّ، وتَحوَّلَ من مجالٍ اجتماعيٍّ مَحسوسٍ إلى فَضاءٍ معرفيٍّ وثقافيٍّ رَحْبٍ.

وهنا تتجلّى عظمةُ الجُهودِ المبذولة في المعجَمِ التّاريخيِّ للُّغةِ العربيّةِ؛ إذ لم يكتفِ بإبرازِ المداخلِ اللُّغويّةِ للجَذْرِ

[أ د ب]، بل أحاطَها بشواهد دقيقةٍ ومصادر مُوثَّقةٍ، كاشفًا عن تَشابُكِ دلالاتِها، ومَواضعِ تَحوُّلِها، ومَساراتِ استعمالِها. هذا، وإنَّ ما سَطَّرهُ المعجَمُ التّاريخيُّ من مَداخل دَقيقة للجَذْرِ [أ د ب] ليس نهايةَ المسيرِ، بل يُعدُّ مَعْبرًا إلى آفاقٍ أرحبَ من البحوثِ والدِّراساتِ، تُعمِّقُ النظرَ في الجذورِ العربيّةِ، وتَكشِفُ أسرارَها الكامنةَ خلْفَ النُّصوصِ والشَّواهدِ. فالرِّحلةُ مع اللُّغةِ لا تنقضي، ومَسارُها يَظلُّ مَفتوحًا أمامَ الباحثينَ ليُكمِلوا السَّفرَ، ويَستزيدوا من ثَراءِ هذا الكَونِ اللُّغويِّ البديع.

المَنْجَنِيق

بين الأَصْل اللُّغَويِّ والاستِعْمَال الحَرْبِيِّ



يُعدُّ المنجنيقُ منَ الألفاظِ الأعجميّةِ الدّخيلةِ على لُغتنا العربيّةِ فهو كما وصَفَه الخليلُ في مُعجمه العيْن: «ليسَ من مَحْضِ العربيَّة» أي: ليس منَ الألفاظِ العربيّةِ الأصيلة، وإنّما هو لفظٌ «أَعْجَمِيٌّ مُعَرَّب» كما قال ابنُ دُريد، أو كما جاء في اللّسان «دخيلٌ أَعْجَمِيٌّ مُعَرَّب» وحجّةُ ذلك؛ أنّه «لا تجتمعُ الجيمُ والقافُ في كلمةٍ عربيَّةٍ، فمتى جاءتا في كلمة فاعلم أنها مُعَرَّبَة»، فهذه إحدى العلامات التي وضعها العربُ لمعرفة اللّفظ العربيّ الأصيل منَ الأعجميِّ الدّخيل.



د. أحمد الخضري
عضو هيئة تدريس - جامعة الأزهر

ومع إجماعِ علماءِ اللّغة القُدامى والمحْدَثين على أنَّ المنجنيق منَ الألفاظ الأعجميّةِ المُعَرَّبَة إلاّ أنّهم اختلفوا في لغتِه الأصليّة التي ينتمي إليها.

فذهب البعضُ إلى أنَّ المنجنيق لفظ مُعَرَّب منَ الفارسيَّة، وأصلُهُ في لُغةِ الفرس (مَنْ چه نِيْك) بمعنى: ما أجْودني، أو أنا شيءٌ جَيِّد، وقيل إنّه مركّب من (مَنْك جَنْك نَيْك) ومعناه: أسلوبٌ جيّدٌ للحرب أو من (مَنْجَك نَيْك) ومَنْجَك في لُغة الفرس معناها: ما يُفْعَلُ بالحِيَلِ، في حيّن يذكر أدي شير أنّ «مَنْجَك معناه: الارتفاعُ إلى فوق».

لكنَّ فريقًا آخر منَ المحْدَثين ذهب إلى أنه مُعَرَّب من الكلمة اليونانيَّة (منكنيكون) أو Magganik-(ón).

يقول الكرمليّ: «ورأيْنا في المنجنيق أنه معَرَّب، لكن منَ اليونانيّة لا من الفارسيّة كما قال بعضُهم»، وهو ما أيّده محققُ المُعَرَّب بقوله: «والصّوابُ أنّه يونانيٌّ ومنه (منكنيقا) بالسّريانيّة و(منجنيك) بالفارسيَّة»، وأيضًا صاحبُ كتاب التّعريب في القديم والحديث؛ حيث يقول: «وهي كما تؤكّدُ المراجعُ الحديثةُ كلمةٌ يونانيَّة (Magganik- ón) دخلت إلى الآراميّة (منجنيقا)، ثمّ إلى العربية (منجنيق)».

ولعلَّ نسبةَ المنجنيق إلى اللّغةِ اليونانيّة بوصْفِها لغتَه الأصليَّةَ كما قال المحْدَثون أقربُ للصّوابِ من نسبته إلى الفارسيَّة كما يرى المُعجميّون القُدامى وبعضُ المُحْدَثين.

ولأنَّ الكلمة ليست عربيّةَ الأصلِ؛ فقد ترتّب على ذلك حدوثُ خلافٍ بين أئمّةِ النّحو، نقلتهُ لنا بعضُ المصادرِ اللّغويّةِ عنْ وزن الكلمة وجمْعِها، وهلِ الميمُ فيها أصليَّةٌ أم زائدةٌ؟ وكذلك النّون الواقعةُ بعد الميم هل هي حرفٌ زائدٌ أم من بِنية الكلمةِ؟ وغير ذلك.

وبعد أن عرض الزَّبيدِي في تاجِهِ لمجمل آراء اللّغويّين حول هذا الخلاف صَرَّح بأنَّ أحرُفَ الكلمة جميعَها أصليّةٌ، ولا سبيلَ فيها إلى دعوى

الاشتقاق؛ نظرًا إلى أنّها أعجميّةٌ ليست من كلام العرب، فقال: «والصوابُ عِنْدِي أنَّ حرُوفَه كُلَّها أصليّةٌ؛ لأنَّهُ عَجَمِيٌّ لا سبيلَ فيه إلى دَعوى الاشتقاق، ولا مُرَجِّحَ في ادّعَاءِ زيادَةِ بعض الحروف دون بعضٍ ولا داعِيَ لذلك».

ومن حيث دلالةُ الكلمة، فيُستخدم المنجنيقُ في اصطلاح العسكريّين للدّلالة على «آلةٌ قديمةٌ من آلاتِ الحصار كانت تُرْمَى بها حجارةٌ ثقيلةٌ أو كُراتٌ ناريَّةٌ على الأسوار فتهدِمَها» أو كما عَرَّفَه بعضُ القُدامى بأنّه «آلة حربيّةٌ ثقيلةٌ تُسْتَخدم لقذفِ الأحجار والسّهام وقوارير النّفطِ أو أيِّ مقذوفاتٍ أخرى»، فهو في مقام المَدافعِ التي تستعملُها الجيوش في عصرنا الحاضر، وممّا قِيلَ في وصْف هذه الآلة بأنّها «من خشب، لها دَفَّتان قائمتان، بينهما سهمٌ طويلٌ، رأسُه ثقيل، وذنبُه خفيف، وفيه تُجْعَل كِفَّةُ المنجنيق التي يُجْعَل فيها الحجرُ، يُجْذَب حتى تُرفعَ أسافلُه على أعاليه، ثمّ يرسلُ فيرتفع ذنبُه الذي فيه الكِفَّة فيخرج الحجرُ منه فما أصاب شيئًا إلاّ أهلكه».

وقد استخدمه الفينيقيّون قديمًا، وعنهم أخذه اليونان، والإسرائيليّون، وورد ذكرُه في التّوراة مرارًا، وعنهم اقتبسَه الفرسُ والرّومان.

ويُنكر بعضُ الباحثين معرفةَ العرب بهذا السّلاح في العصر الجاهليّ، وحجّتُه في ذلك كما قال: «أنّ أشعارَ الجاهليّين التي هي سِجلُّ حياتِهم لم تَذكر عنه شيئًا ولو إشارةً عابرةً تفيدُ أنّهم عرفوه أو عمِلوا به، ولو كان ذلك لتناولُوه بالوصْفِ ونسبُوه إلى صانعِيه وأماكنِ صُنْعه كما فعلوا بسائرِ سلاحِهم، وما شاع لدَيهم من أدواتِ القتال». وهذا رأيٌ مردودٌ؛ لأنّ «عدم ذكْرِه في الشّعر الجاهليّ لا يقومُ دليلاً على أنّ العرب لم يعرفوه، فالشّعرُ الجاهليّ لم يَرِد إلينا كلُّه، كما أنّ شعْرَ الحضارة والمدنِ مفقودٌ تمامًا وأنّ سلاحَ البدو معروفٌ، وهو السّيف والرّمح والقوسُ والسّهم، وهو سلاحٌ يوافقُ طبيعةَ البداوة، أمّا المنجنيقُ فهو آلةُ حصارٍ يُستخدمُ في اقتحام الحصونِ والقلاع»، وممّا يؤكّدُ معرفةَ العربِ بهذا السّلاح منذ عهدِ الجاهلية، ما ذكرتْه المصادرُ التّاريخيّةُ من أن جَذِيمَةَ الأَبْرَش (ت نحو366 ق. ه = نحو 268م) أحدَ ملوكِ العرب في العراق كان أوّلَ مِن استخدم المنجنيقَ في الجاهليّة، وتُوجَدُ دراسةٌ حديثةٌ مبنيّةٌ على نتائج التّنقيب والاكتشافاتِ الأثريّةِ تدلُّ على أنّ عربَ العراق عرفوا منذُ ما قبْلَ الإسلام استخدامَ هذا المنجنيق، بل إنّ هذه الدّراسةَ نفسَها تحملُ عنوانا مُوحِيًا وهو: المنجنيقُ سلاحٌ عربيٌّ في ضوء التّنقيبات الأثريّة.

ومثلَما عَرف العربُ المنجنيقَ في العصر الجاهليّ، عرفوه في الإسلام، فكان الرّسول صلّى الله عليه وسلم أوّلَ من رَمَى به في الإسلام، فقد استعمله في غزوة الطّائف سنة 8هـ، بل قيل إنّه استعمل المنجنيق في خيبر سنة 7هـ.

كما استخدمَه الأمويّون، والعباسيّون، والأيوبيّون في حروبهم، وقد «بَطَل استخدامُه في أعقاب اختراعِ البارودِ والمدفعيّة»، وفي هذا الصّدد يقول د. إحسان هندي: «ومنذ أواسطِ القرن الخامس عشر بُدِئ بالتّوسّع باستخدام البارودِ في المكاحلِ والمدافعِ، وحلّت هذه الأخيرة في مهمّتها محلّ المَجَانِيق التي بدأ استخدامُها يتراجعُ في معركة مُرج دابق سنة 1516م، والرّيدانيّة 1517م، واستخدموا عوضًا عنه البنادقَ والمدافعَ على نطاقٍ واسع».



وللمجانيقِ أنواعٌ كثيرةٌ وأصنافٌ مختلفةٌ عرفها العرب، منها: الصّغير الذي يُوضعُ فوق الأسوارِ وعلى الأبراج، والكبيرُ العظيم، ومنها: العربيّ، والتّركيّ، والرّوميّ، والفارسيّ، ومنها ما هو لرمْيِ الحجارة، أوِ السّهام، أو قدورِ النّفط، أوِ العقاربِ، والحيوانات الميتةِ، والقاذورات.

ويذكر أحدُ الباحثين «أنّ استعمالَ الحشرات السّامّة والضّارة مثلَ العقارب والأفاعي، والقاذوراتِ إنّما يكون ذلك من قَبيل إدخالِ الرُّعب إلى نفوس الأعداء بسبب هذه الحشرات والحيوانات وتهديدِهم بالوباء مثلَما تُستخدم اليوم في الحروبِ الحديثة الجراثيمُ والميكروباتُ والتي تُسمّى: بالحرب الجُرثوميّة [وحرب الميكروبات، أوِ البيولوجية] ولا يخلُو ما يحملُه هذا من طابعِ الرّعب والخوف منَ المصير

4. مَنْجَنِيق — اسم

1 - 4

*ال . مَنْجَنيقُ: آلةٌ حَرْبِيّةٌ، تُقْذَفُ بِها الحِجارَةُ على الحُصونِ. (ج) مَجانِقُ، ومَجانيقُ، ومَنْجَنيقاتٌ.

(س) (1هـ/622م) إلى (132هـ/749م)

»أن رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم حاصَرَ أَهْلَ الطّائِفِ ونَصَبَ عَلَيْهِمُ الـمَنْجَنيقَ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا«.

البيهقي، السنن الكبرى. تح: محمد عطا، ج: 9، ص: 144.

وقالَ عَمْرُو بْنُ العاصِ (ت: 43هـ=663م) يَذْكُرُ بَلاءَ هَمْدانَ في فَتْحِ أَحَدِ الحُصونِ:

يَوْمٌ لِهَمْدانَ ويَوْمٌ لِلصَّدِفْ

والـمَنْجَنيقُ في بَلِيٍّ تَخْتَلِفْ

شعر همدان وأخبارها. تح: حسن أبو ياسين، ص: 116.

(ع) (133هـ/750م) إلى (656هـ/1258م)

قالَ الجاحِظُ (ت: 255هـ=869م) يَصِفُ رَجُلا أَصابَتْهُ ضَرْبَةُ المَنْجَنيقِ:

"رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ جُنْدِ قُرَيْشِ بْنِ شِبْلٍ أَصابَتْ شِقَّهُ الأَيْمَنَ شَظِيَّةٌ مِنْ حَجَرِ الـمَنْجَنيقِ، فَذَهَبَ شِقُّهُ الأَيْسَرُ وذَهَبَ لِسانُهُ وسَمْعُهُ، وبَقِيَ بَصَرُهُ".

الجاحظ، البرصان والعرجان. تح: عبدالسلام هارون، ص: 444.

المحتوم ممّا يؤثّرُ في عزيمة الأعداء».

ومن شواهدِ استعمالِ المنجنيق في اللّغة العربيّة:

قال أُمَيَّة بن أبي عَائذ الهُذَلِيُّ (ت نحو75ه = 695م، أموي) يصفُ حمارًا وحشيًّا:

يَمُرُّ كَجَنْدَلَةِ المَنجَنيقِ
يُرْمَى بِها السورُ يَومَ القِتالِ(29)

الجَنْدَلَة: الحجارة، السُّور: الحائط

وقال البُحتريّ (ت 284ه=897م، عباسي) من قصيدة له في مدح أبي سعيد الثّغري:

خاضَ الحُتوفَ مِنَ الحُتوفِ مُعانِقاً
زَجِلاً كَفِهرِ المَنجَنيقِ عَتيقا

الحتوفُ جمع حتْف: الهلاك، زَجِلاً: الذي له صوت، الفِهْر: حجرٌ ناعمٌ صلبٌ

وجاء في تجارب الأمم لابن مِسْكَويه (ت 421ه= 1030م) فاطميّ:

«وكان المعتصم قدِ اتخذ مَجَانِيق كبارًا، وجعلَها على كراسِيَّ، وتحتها عجلٌ وعملَها كأوثقِ ما يكون»

وقال ابنُ الفارض (ت632ه= 1235م) أيوبي:

وتشهدُ رَمْيَ المَنجنيقِ ونَصْبَهُ
لِهَدْمِ الصَّيّاصِي والحُصُونِ المَنِيْعَة

نصْبُ المنجنيق: إقامتُه وتهيئتُه، الصّياصي: القلاع.

قال ابنُ تَغْري (ت 874ه = 1470م، مملوكي) في معرض كلامِه عن أحداث سنة 646ه: «ونزل السّلطانُ بقلعة دمشقَ وبعث جيشَه فنازلوا حمصَ، ونصبُوا عليها المجانيق، ومنها مَنجنيقٌ مغربيٌّ، ذكر الأمير حُسام الدّين أنّه كان يرمي حجرًا زنتُه مائة وأربعون رطلا».

قال ابنُ عماد الحنبليُّ (ت1089ه =1679م، عثماني) في سياق كلامِه عنِ الأحداث التي وقعت سنة 73هـ: «وفيها نازل الحجاجُ ابنَ الزّبير فحاصرَه ونصبَ المنجنيق على أبي قُبَيْس، ودام القتالُ أشهُرًا وتفرّق عن عبد الله أصحابُه»

أبو قُبيس: اسمُ الجبل المشرفِ على مكّة

وقال الشّاعر أحمد محرم (1364ه = 1945م، مُحْدَث) من قصيدة نظمَها في أحداث غزوة الطّائف سنة 8ه:

وزِدْتَ فقلتَ اضربوا الكافرين
وعلّمتهم صَنْعَةَ المَنْجَنِيقْ
تَظَلُّ الحِجارةُ مقذوفةً
يُشيّعها من مكانٍ سَحِيقْ

ولفظةُ المنجنيق لم يُصبْها أيُّ تطوّرٍ منَ النّاحيةِ الدّلاليّة، كما لم يَعدْ لها استعمالٌ في عصرنا الحديث فقد حلَّ محلَّها -على حدّ قولِ أحدِ المحْدَثين- كلمةُ أجملُ، وأكثرُ عروبةً، وأخفُّ على الألسنة كما أنّها أقربُ إلى سليقةِ اللّغة وهي المِدْفَع.

فضيلة الاستشارة

رُوِيَ عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «ما نَدِمَ من استَشار، ولا شَقِيَ من اسْتَخار».

وسُئِلَ بعضُ الحُكَماء: أيُّ الأمورِ أشَدُّ تأييدًا للعَقلِ، وأيُّها أشدُّ إضرارًا به؟
فقال: أشدُّها تأييدًا له ثلاثةُ أشياء: مُشاوَرَة العُلَماء، وتجرِبَة الأمور، وحُسْنُ التَّثبُّت، وأشَدُّها إضرارًا به ثلاثَةُ أشياء: الاستِبْدادُ، والتَّهاوُن، والعَجَلة.
وكانَ عامر بن الظّرب حكيم العَرَب يقول: «دعوا الرَّأيَ يَغِبُّ حتّى يَخْتَمِر، وإيّاكُم والرَّأيَ الفَطير» (أي: الّذي لم ينضج).

طلب المشورة

أَوْصى ناصح الدّين الأرجاني بطلَبِ المَشورَةِ فَقال:



شاوِرْ سِـواكَ إذا نابَتْـكَ نائبَـةٌ ... يومًا وإنْ كُنتَ من أهلِ المشـوراتِ
فالعينُ تنظُرُ منها ما دَنا ونَأى ... ولا تَـرى نفسَـهـا إلا بـمـرآةِ

التَّوْلِيدُ المُصْطَلَحِيُّ في أُرجُوزَةِ ابنِ طُفَيلٍ

محمّد بن عبد الملك بن طُفَيل الأندلسيّ (ت: 581هـ)



د. عبد اللطيف الغزواني

باحثٌ في المُعجميّة وعلمِ الدّلالة

الأُرْجُـوزَةُ أُنموذَج شِعريٌّ تعليميٌّ مُتميِّزٌ اصطبغتْ به الثّقافةُ العربيّةُ منذ عصورٍ متقدّمةٍ بهدفِ التَّمكُّنِ من مُصطلحاتِ العلومِ والفنونِ ومفاهيمِها. وقد وظّفتْ في سبيلِ تحقيقِ هذا المسعَى بحْرَ الرَّجزِ المُصرَّعِ؛ نظرًا إلى سهولةِ نظْمِه ولُطفِ إيقاعِه، «ولأنّه أخفُّ وقعًا، وأسهلُ حفظًا، وأبقَى في الذّاكرةِ» (1).

ورغْمَ أنّ هذا اللّونَ الشّعريَّ لا يَعدُو أن يكون كلامًا موزونًا مُقفًى يخلُو في مُعظمِه من أهمِّ المُقوِّمات الفنّيّةِ التي تَنبغي للشِّعر، فقد شكّلَ صُورةً لتَأثُّرِ العربِ بما عَرفوه من علومٍ ومعارفَ وفدت عليهم من ثقافاتٍ احتكّوا بها بطريقةٍ مباشرةٍ أو بواسطةِ التّرجمةِ، ولا سيمَا في العصرِ العبّاسيّ حيث نَشطتْ هذه الحركةُ، قبْلَ أن تزيدَ وتتنامَى في العصورِ اللّاحقةِ، فكانتِ الأراجيزُ تُمثّلُ على مرِّ هذه العصورِ سَندًا لمتعلّمِي العلومِ والفنونِ، وسببًا في حفْظِ كثيرٍ منَ التّراثِ العلميِّ والمُصطلحيِّ لأمّتِنا العربيّةِ.



ابنُ طُفَيلٍ: الطّبيبُ والفيلسوفُ

هو أبو بَكر محمّدُ بنُ عبد الملك بن طُفَيل القيسيُّ الأندلسيُّ، الفيلسوفُ الطّبيبُ، ولد نحو سنة (494هـ) في وادي آش بإقليمِ غرناطةَ في الأندلس، وتوفّي بمُراكش سنة (581هـ).

لا نعرفُ متى استقرّ ابنُ طُفَيل بمُراكش، ولكنّنا نأنَسُ من تعلّقه بسلاطينها وطول ملازمته لهم أنّه مكثَ فيها زمنًا غيرَ يسير، حيث عمِلَ طبيبًا مكرّمًا عند أمراءِ المُوحّدين، كما كان ابنُ رشد مُكرّمًا لديْهم، وكانا متعاصرَين. قال عنه المُراكشيّ في (المعجب): "وكان أميرُ المؤمنين أبو يعقوبَ شديدَ الشّغفِ به والحُبِّ له؛ بلغني أنّه كان يقيمُ في القصر عنده أيّامًا ليلًا ونهارًا لا يظهرُ"(2).

أمّا عن صِلاتِ التّلمذة والمَشْيخة، فقد أخذَ ابنُ طُفيل عن أبي محمّد الرُّشاطيِّ (ت: 542 هـ)(3)، وعبد الحق بن عَطيّة الغرناطيِّ (ت 541)(4)، وأبي بكر بن الصّائغ السّرَقسْطيِّ (ت: 533هـ)(5)وغيرهم. ولم يُعْنَ بكثرة التّأليف كما صنعَ بعضٌ ممّن تقدّمَه أو تأخّرَ عنه مثلَ أبي العلاء بن زُهْر (ت: 526هـ)، وابن سينا الرّئيس (ت: 428هـ)، وابن رُشد الحفيد (ت: 520هـ)، ولو كان فعلَ ذلك ونزعَ مَنزعَهم لألْفينا مادّةً غزيرةً فيما تفنّنَ فيه من علوم الفلسفة والطّبِّ والأدبِ والنّظْم، وإنّما حفظتْ لنا كتبُ التّراجم مؤلَّفَيْنِ اثنين دلّا معًا على لوْذَعيّته وألْمعيّته، وبلغا منَ الشُّهرة والصِّيت عنانَ السّماء، وهما: رسالةُ حيِّ بنِ يقظانَ(6)، والأرجوزةُ الطبّيّةُ المجهولةُ، مادّةُ هذا البحث.

- الأُرجُوزةُ الطّبّيةُ المَجهولةُ

المُصطلحـاتُ مفاتيحُ العلـومِ، ومنفذُ التّبصُّـرِ بخَبايَاها واستِشْـرافِ معالمِها. واعتنـاءُ المُتقدّمين بمُصطلحـاتِ الطّبّ مَظهرٌ مـن مظاهرِ تكيّفِ اللّغـةِ العربيّةِ مـع جميعِ العلوم، وقُدرتِهـا على التّعبيرِ عـن مُصطلحاتِهـا، سـواءٌ عـن طريقِ التّرجمـةِ، أو مـن خلالِ اسـتثمارِ آلياتٍ مُعجميّـةٍ أخـرى، نحـوَ القلْـبِ والإبدالِ والاشـتقاقِ والنّحتِ.

والأرجـوزةُ التي بيـن أيدينـا الآنَ تقعُ مـن هـذا السّـبيلِ علـى الجـادّةِ، نظمَهَا صاحبُها علـى بحْـرِ الرَّجَزِ (مُسْـتَفْعِلُنْ مُسْـتَفْعِلُنْ مُسْـتَفْعِلُنْ)، ولا ندري سـببَ وسْـمِها بالمجهولـةِ، ولكـنّ الأسـتاذَ محمّـد بـنَ عبد العزيـزِ الدّبّـاغَ ذكرَ في دراسـةٍ لـه نُشـرت سـنة 1984 بمجلّةِ دَعـوة الحقّ (العـدد 239) أنّ مَخطوطةَ الأُرجوزةِ ليسـت مُعنونَةً، وإنّمـا اقْتُصر فـي نسـبتِها إلـى ابـن طُفيـل علـى الورقـةِ الأُولـى منهـا، والتي أُشـيرَ فيها إلـى أنّها مـن تَحبيـس أحمـد المنصور السّـعديّ(7)، فلربّمـا يكـون وسْـمُ الجهالـةِ فيهـا مـن هـذا البابِ.

وتشـيرُ الأُرجـوزةُ إلـى وعْـيٍ مُبكّـرٍ لابـنِ طُفيـل بأهمّيّـةِ مُصطلحـاتِ الطّـبّ ودوْرِهـا فـي نقـلِ علومِـه وفهْمِ أدوائِـه وعِلَلِـه، حيـث عـدّد فيهـا هـذه المُصطلحـاتِ، وأتـى بهـا علـى نحـوٍ يُسـعفُ القارئَ فـي فهْمِها واسـتيعابِها علـى نحـوٍ أمثـلَ، ومَطلعُهـا:

الحَمْـدُ للهِ العَـلِـيِّ الظّـاهِـرِ
ذي المُلْكِ والعِزِّ المَجيدِ القاهِرِ
نَحْمَـدُهُ حَمْـدًا على آلائِهِ
ونَسْأَلُ المَـزيـدَ مِنْ نَعْمائِهِ

ويَعرِضُ ابـنُ طفيلٍ لموضـوعِ نظْمِه فيقول:

أَذْكُـرُ فيـهـا عِـلَلَ الإنْسـانِ
بِغـايَـةِ الإيضـاحِ والبَـيـانِ
وأَذْكُـرُ الأَعْضاءَ فيـهِ جَمْعا
ذِكْرًا يُفيدُ مَنْ وَعى واسْتَمْعا
يَكونُ بِالرَّأْسِ ابْتِـداءُ الذِّكْرِ
ثُـمَّ بِالرِّجْـلِ انْتِهـاءُ الأَمْـرِ

- التّوليدُ المُصطلحيُّ في الأُرجوزةِ

يُقصـدُ بالتّوليـدِ عمومًا خلْـقُ وَحَداتٍ مُعجميّـةٍ جديـدةٍ تُضـافُ إلـى معاجمِ اللّغـةِ العامّـةِ أوِ الخاصّـةِ. أمّـا التّوليـدُ المُصطلحـيُّ، فمعنـاه خلْـقُ شـكْلٍ أو دالٍّ لُغـويٍّ جديـدٍ يحملُ معنًـى مُعجميًّا جديدًا بِمَنْزِلَةِ مفهـوم للمُصطلحِ المُوَلَّدِ، وذلـك طبقًـا للإمكانيّـاتِ التـي يُتيحُها النّظـامُ اللّغـويُّ للعربيّـةِ، وباسـتعمالِ أدواتٍ لسـانيّةٍ متعـدِّدةٍ كالتّعريـبِ(8) والاشـتقاقِ والتّركيبِ والنّحتِ والتّرجمةِ، وهـو خلافُ التّوليدِ الدّلالـيّ؛ الذي يقومُ على إحيـاءِ الوَحَداتِ المُعجميّـةِ القديمةِ بعـد إفراغِها مـنَ المفهومِ القديـمِ الذي تحملُـه، وشـحْنِها بمفهـوم جديدٍ.

ويُميّـزُ أهلُ الصّناعـةِ المُصطلحيّة في آليـاتِ توليـدِ المُصطلحاتِ بين خمسـةِ أنـواعٍ هـي: التّوليـدُ الصّوتـيُّ، والتّوليدُ الصّرفـيُّ، والتّوليـدُ الدّلالـيُّ، والتّوليـدُ بالارتجـالِ(9)، والتّوليـدُ بالاقتـراضِ. وسـنقدّمُ نماذجَ لهـذه الأنمـاطِ انطلاقًا مـنَ الجـزءِ المتعلّـقِ بأعـراضِ الجهـازِ الهضمـيِّ الـواردِ فـي الأرجـوزةِ متْـنِ الدّراسـةِ.

---

(1) مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد 25، ص415.

(2) المراكشيّ: عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط: 1، 2006، ص177.

(3) روى عن أبي العباس الداني، وكانت له عناية كبيرة بالحديث والرجال والرواة والتواريخ. له كتاب حسن سَمَّاه «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار». ابن الموّاق: بغية النقاد النقلة، ص238.

(4) صاحب التفسير المعروف. حدّث عن أَبيه وغَيره. كانَ فَقيها عارفًا بِالأَحْكام والحَديث وَالتَّفْسير بارعًا في الأَدَب. الوافي بالوفيات. تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ج18/ص41.

(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان. تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط: 1، 1981، ج4/ص429.

(6) رسالة لطيفة الجرم، عظيمة النفع، سعى فيها ابن طفيل إلى بيان مبدأ النوع الإنساني على مذهب الفلاسفة، وطبعت في مصر سنة 1881م.

(7) من أشراف الملوك السعديّين بمرّاكش، محدّث ومؤرخ وأديب وشاعر. ولد بفاس سنة 956هـ، وبويع بالخلافة سنة 986 هـ، وتوفي في سنة 1012هـ. شهد معركة وادي المخازن، وانتصر فيها على البرتغاليين. له نظم وتآليف.

(8) التعريب توليد مصطلح جديد في معجم اللغة من خلال اقتراض مصطلح أجنبي دالّ على المفهوم نفسهِ المراد تسميته ثم إخضاعه للوزن العربي.

(9) التوليد بالارتجال «يكون بابتداع وحدة معجمية يتوفر فيها التأليف الصوتيّ والبنية الصرفية والانتماء المقوليّ توفرا كاملا، أما الدلالة فقد

1- التّوليدُ الصّرفيُّ

يُمثِّلُ هذا الضرب أحد أهمّ آليات التوليد المعجميّ في اللغة، ويُقصد به «إحداثُ وحداتٍ معجميّة جديدة نتيجة ما يطرأ على الجذور والأسس الثابتة أو الجذوع من التغيّر أو التحويل أو التركيب»(10)، وله أربع قواعد أساسيّة هي: الاشتقاق والنحت والتركيب والمَعْجَمَةُ، ومثاله:

أ. «حُمّى اليوم»، «حُمّى الدِّقِّ» و«حُمّى الغِبِّ(11)» fièvre récurrente

تشتركُ هذه المُصطلحاتُ الثّلاثةُ في آلية التّوليدِ المُعتمَدة، وهي التّوليدُ الصّرفيُّ بالتّركيب، وفيها يُجْمَعُ بين وحدةٍ مُعجميّةٍ بسيطةٍ «حُمّى» ووحَداتٍ مُعجميّةٍ بسيطةٍ أخرى توجَدُ سلفًا في اللّغة، لنحصلَ على تراكيبَ إضافيّةٍ جديدةٍ، لكلّ واحدٍ منها دلالةٌ مُصطلحيّةٌ معيّنةٌ.

ويُوضّحُ جوادُ عليّ سبيلَ توليدِ هذه المُصطلحات ودلالاتِها في كتابه «المفصّلُ في تاريخ العرب قبل الإسلام»، فيقول: «وذكرَ علماءُ اللّغة أسماءً للحُمّى تحكي صفاتِها وكيفيّةَ ظهورِها وتحكُّمَها في البَدَن، فقالوا: حُمّى الغبِّ، وذلك إذا أخذَت المريضَ يومًا وتركتْه يومًا، وحُمّى الرِّبْع، وحُمّى الصّالبِ، وهي الحُمّى التي يكونُ معها صُداعٌ، والنّافضُ، والرّاجفُ التي تكون معها رعدةٌ ونفْضةٌ، وحُمّى مُغبطةٌ ومُردمةٌ، أي: دائمةٌ عليه لا تقلعُ، وتُسمّى الحُمّى المُطبِقة أيضًا، والوَعْك الحُمّى، وحُمّى الرّوح، وحُمّى الدِّقّ أن يُغمَى عليه في الحُمّى»(12). وفي هذا يقول ابنُ طُفيل:

> تَبْدأُ بِالنّابِضِ حُمّى الغِبِّ
>
> يَوْمًا ويَوْمًا لا بِأَمْرٍ صَعْبِ
>
> ومُدّةُ النّابِضِ لا تَطولُ
>
> وبَرْدُها مُقَصّرٌ قَليلُ
>
> وحرُّها يَلْدَغُ كفَّ اللّامِسِ
>
> كَأَنّهُ لَهَبُ نارِ القابِسِ

ب. الشَّهْوَةُ الكَلْبِيَّةُ boulimie

وتُسمّى أيضًا الشَّرَهَ المرضيَّ؛ ومعناها «أن يدومَ جوعُ الإنسان ثمّ يأكلَ الكثيرَ ويثقُلَ ذلك عليه فيَقيئَه أو يغيثَه، يقال: كَلِبَتْ شهوَتُه كَلَبًا، كما يقال: كَلِبَ البَرْدُ إذا اشتَدَّ، ومنه الكَلْبُ الكَلِبُ: الذي يُجَنُّ»(13). يقول ابنُ طُفيل:

> الشَّهْوَةُ الشَّديدَةُ العَظيمَهْ
>
> تُعْرَفُ بِالكَلْبَةِ المَذْمومَهْ
>
> واشْتُقَّ هَذا الاسْمُ بِالتَّمْثيلِ
>
> مِنْ شِدَّةِ الكِلابِ لِلْمَأْكولِ
>
> وكَثْرَةِ الأَكْلِ فَرْطَ الجوعِ
>
> وعَدَمِ الشِّبَعِ كَالمَقْطوعِ

فهاهنا يبيّنُ ابنُ طُفيل منهجَه في توليدِ المُصطلح، والآليّاتِ المُتحكّمةِ في اختيار الألفاظِ المناسبةِ للتّعبير عن مفهومِه، مع بيانِ هذا المفهوم وتَجْليتِه للسّامع. فشبّه شَرَهَ المُصاب وتهافُتَه على الطّعامِ بطريقةِ أكلِ الكلابِ مُبالغةً في الوصْفِ وذمًّا للحالة المَرَضيّة، وفي هذا حثٌّ على ضرورةِ التّخلُّص منها والمُبادرةِ إلى علاجِها.

2- التّوليدُ الدّلاليُّ

يَرتكزُ التّوليدُ الدّلاليّ على إسنادِ مدلولٍ جديدٍ إلى دالٍّ موجودٍ سلفًا للحُصولِ على دلالةٍ مُعجميّةٍ للَفظٍ عامٍّ، أو مفهوميّةٍ لمُصطلحٍ جديدٍ، ومثالُه:

أ. الجُشَاء régurgitation

يدلُّ لفظُ «جُشاء» في أصل اللّغة على الصّوتِ الذي تُحدثُه الغنمُ. قال أبو عثمانَ المازنيُّ: «وجشَأَتِ الغنمُ جُشاءً: صوّتتْ بحُلوقِها»(14)، وأنشدَ امرؤ القيس(15):

يحققها المرتجِل (في حال المصطلح) وقد ينفيها (في حال اللفظ العام)» الودرني: علي، دور القواعد الصوتية في التوليد المعجمي، مجمع الأطرش، تونس، ط: 1، 2019، ص17.

(10) ابن مراد: إبراهيم، مقدّمة لنظرية المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص143.

(11) الغِبُّ -بكسر الغين المعجمة، وتشديد الموحّدة-يقال: غَبَبْتُ عن القوم أَغُبُّ، منْ باب قتل غِبًّا بالكسر: أتيتهم يومًا بعد يوم، ومنه حُمَّى الْغِبّ، يقال: غَبّت عليه تغُبُّ: إذا أتت يومًا، وتركت يومًا». محمد بن علي الأثيوبي، ذخيرة العقبى في شرح المجتبى، دار المعراج الدولية، ط: 1، 1424هـ، ص38.

(12) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار الساقي، ط: 4، 2001م، ج16/ ص37.

(13) محمد الخوارزمي، مفاتيح العلوم. تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب

إذا جَشَأَتْ سَمِعْتَ لها ثُغاءَ

كَأَنَّ الحَـيِّ صَبَّحَهُـمْ نَعِيُّ

ثـمّ انتقلـتْ دلالـةُ اللّفـظِ إلـى مجال الطّـبّ ليُعبَّـرَ بها عنِ الرّيـحِ التي تخرجُ مـنَ الفـمِ ومعهـا صـوتٌ عنـدَ الشّـبَعِ، فصـارتْ دلالةً مفهوميّـةً لمُصطلحٍ طبيٍّ جديدٍ. قـال ابـنُ طُفيل:

قَدْ يَعْرِضُ الجُشاءُ مِنْ رياحِ

في مِعْـدَةٍ مَعْدومَةِ الصَّـلاحِ

إذا ارْتَقَـتْ إلى فَـمِ العَليـلِ

وذابَ البَلْغَـمُ في الفُضـولِ

وبَعْدَ إصْلاحِ المزاجِ الفاسِدِ

وقَطْعِ أَسْبابِ السَّقامِ الوارِدِ

فَأَعْطِـهِ أَدْوِيَـةَ التَّحْليـلِ

لِلنَّفْـخِ فَهْيَ راحَـةُ العَليلِ

ب. الفُواقُ hoquet

يقول ابنُ طُفيل:

إنَّ الفُـــواقَ أَصْلُـــهُ أَسْبـابُ

وكُلُّـها تَضُمُّـها الأَبْـــوابُ

فَمِـنْهُ ما يَكـونُ لامْتِـلاءِ

بِكَثْـرَةِ الأَكْلِ مِـنَ الغِـذاءِ

والامْتِلاءِ مِنْ فُضـولِ المَعِـدَهْ

قَدْ حَصَلَتْ في جِرْمِها مُعَسَّرَهْ



مخطوطة الأرجوزة الطبية

فالفُـواقُ فـي أصـلِ اللّغـةِ «أن تُحلَبَ النّاقـةُ وتُتـرَكَ سـاعةً حتى ينزلَ شـيءٌ مـنَ اللّبن ثمّ تُحلَـبَ. فما بيـن الحلْبَتَين فُـواقٌ»(16). وقدِ اسـتُعير اللّفظُ للدّلالة علـى الشّـيءِ فـي موضـعِ التَّمَكُّثِ والانتظـارِ، وأطلَقَـه أربـابُ الطّـبِّ على الرّيـحِ التـي تخرجُ مـنَ المعـدةِ نتيجةَ حركةِ أجزاءِ طبقتِها الدّاخليّةِ وتشـنُّجِها وَانْقِباضِها.

وذهـب ابـنُ سـيدَه فـي (مُحكمِـه) إلـى أنّ مُصطلـح الفُـواق أصلُـه الفُؤاق بالهمـز، قـال: «وفئـق فأَقًـا، فَهُـوَ فئق: اشْـتَكَى فائقَـه. والفـؤاق: الرّيـحُ التـي تخـرج مـن المعـدة: لُغَـةٌ فـي الفُواق. وقـد فأق يفأق فؤاقـا»(17). وبناءً عليه، يكـونُ وضْـعُ مُصطلـح الفُـواق بفعـلِ تغييـرٍ صوْتـيٍّ ناتجٍ عـن قاعـدةِ القلْبِ الصّرفـيّ(18)، قبل أن يتفـرّدَ بمفهومِه الطّبـيِّ عـن طريـق تخصيـصِ الدّلالةِ.

3- التَّوليدُ بالاقْتِراضِ

يحـدثُ التّوليدُ بالاقتـراضِ عن طريقِ «إدخـالِ دوالَّ مـن لُغة مصـدرٍ إلى لُغة مـوردٍ مصحوبـةٍ بمداليلِهـا الأصليّـة -كمـا في لغـة العلوم والفنـون- أو غيرِ مصحوبـةٍ بها فتُعطَى فـي اللّغة الموردِ مداليـلَ جديدةً»(19)، ولا يُلجـأُ إلى هذا النّـوع فـي اللّغـة العربيّة إلاّ عنـد ثبوتِ الحاجة إليه، وشَـريطة خضوعِه لتكييفٍ صيغيٍّ ومفهومـيٍّ ليصير مُنسـجمًا مع قواعـد اللّسـانِ العربـيّ قبـل تداوُلـه. ومـنَ الأمثلـة التـي ذكرهـا ابـنُ طُفيلٍ

العربي، بيروت، ط2، د-ت، ص188.

(14) المعافري: سعيد، كتاب الأفعال. تح: حسين محمد شرف، مؤسسة دار الشعب، مصر، 1985، ج2/ص306.

(15) الديوان. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص136.

(16) ابن قتيبة، غريب القرآن. تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، ص378.

(17) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم. تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ج6/ص478.

(18) يرى جمهور الصرفيّين أن الواو لا تُبدل إلى تاء، وإذا ما أُبدلت بياء أو بهمزة فذلك يدخل في باب القلب الصرفيّ ويخرج عن الإبدال.

فـي أُرجوزتِه:

أ. القُولَنْجُ colopathie

يقول ابنُ طُفيل:

ذا الدَّاءُ قَدْ يَكونُ في القولونِ
وَهْوَ المِعَى الأَعْوَرُ باليَقينِ
وهْوَ المِعاءُ الخامِسُ المَوْضوعُ
فــي أَسْفَـلٍ لِيَنْتَـهي الرَّفيـعُ
واشْتُقَّ لِلْقُولَنْجِ هَـذا الاسْـمُ
مِنِ اسْمِـهِ فَـهْوَ عَلَيْـهِ وَسْـمُ

والقُوْلَنْـجُ، بضـمّ القـاف وإسـكان الـواو وفتح اللّام، مـرضٌ مِعَـويٌّ مُؤلِمٌ، يتعسَّـر معه خـروجُ ما يخـرجُ بالطّبع. قـال الثعالبـيُّ: «القُولَنْـجُ اعْتِقَـالُ الطَّبيعـةِ لانْسـدادِ المِعَـى المُسـمَّى قُولُـون بالرُّومِيَّـةِ»(20) ، وقـدِ اشـتُقّ مـنَ اللّفـظ الرّومـي قولـون (Côlon)، وهـو موضـعُ الغائـطِ فـي البطـن، ثم صـار مُعرَّبًا لاسـتقامةِ لفْظِـه مع قواعد اللّغـةِ العربيّـة. قـال صاحـبُ (النظـم المسـتعذب): «وهو فارِسـيٌّ مُعَرَّبٌ؛ لِأَنَّ القـافَ والجيـمَ لا تَجْتَمِعـانِ فـي كَلِمَةٍ واحِـدَةٍ عَرَبِيَّـةٍ»(21).

ب. ذْيابيطا diabète

مـنَ المُصطلحـات المُقترَضـة أيضًـا مصطلـحُ «ذْيابيطـا»، والاقتـراضُ فـي هـذه الحالـة تـمَّ مـن خلال التّرجمـةِ الحَرْفيّـةِ للمُصطلـح اليونانـيّ الوافـد (Diabéte)، أي ارتفاعُ نسـبةِ السّكر في الـدّم، والذي يُسـفرُ عـن تولّـد الحصَى في الكُلَى وعسْـرِ البولِ وسلَسِـه وحرقتِه وكثـرةِ القيام إليه، فقال عنه ابنُ طُفيل فـي أرجوزتِه:

تُعْرَفُ ذي العِلَّـةُ باليـونانِ
ذْيابيطا في مَنْطِـقِ اللِّسانِ
وهْيَ التي يُشْرَبُ فيها الماءُ
ولَيْـسَ بِالجَـوْفِ لَـهُ بِغـاءُ

- خاتمةٌ

تمثّـلُ المُعطيـاتُ المُصطلحيّـةُ التـي قدّمناهـا نَموذجًـا للتّصـوُّرِ العربـيِّ التُّراثـيّ لمُصطلحـاتِ السّـيميولوجيا الطّبّيـةِ، وقدِ اسـتطاع ابـنُ طُفيل رحمه اللـه أن يحفـظَ لنـا فـي أُرجوزتِـه كمًّا هـائلًا مـن هـذه المُصطلحـات، فأبـدعَ فـي انتقائهـا واسـتخلاصِ مفاهيمِهـا، واحتـرزَ مِنْ غريبِهـا ووحْشِـيّها، مُراعيًا في ذلـك كلِّه الإيجـازَ والدِّقّـةَ، والابتعادَ عـنِ العيـوبِ القادحةِ.

إنّ مـا عرضْنـاه مـن نَمـاذِجَ يقضـي بضـرورةِ العنايـةِ بالأراجيـزِ المُنجَـزةِ فـي لُغتنـا العربيّـةِ، وبسُـبُلِ صِياغتهـا للمُصطلـح وتداوُلِـه فـي أَثْنـاءِ تلْقيـنِ المعرفـةِ الطّبّيـةِ. وقـد رأينـا أنَّ دَوَرانَ آليـاتِ التّوليـدِ للمُصطلحـاتِ السّـيميولوجيّةِ جارٍعلـى أنـواعٍ ثلاثـةٍ هـي: التّوليدُ الدّلالـيُّ، والتّوليدُ الصّرفيُّ، والتّوليـدُ بالاقتـراض، بَيْـدَ أنّنا لَـمْ نَعثُرْ في حـدودِ الجُـزءِ المَدروس علـى آليتَي التّوليدِ الصّوتـيّ والتّوليدِ بالارتجالِ. وما يُهمّنـا هنا أنَّ الآليّـاتِ الـثّلاثَ المذكورةَ تمثّـلُ خيْـرَ دليـلٍ علـى مـدَى القُـدرةِ التّوليديّـةِ للّغـة العربيّـةِ، ومُرونتِها في اختيـارِ مُصطلحـاتِ العلـوم وتوليدِها.

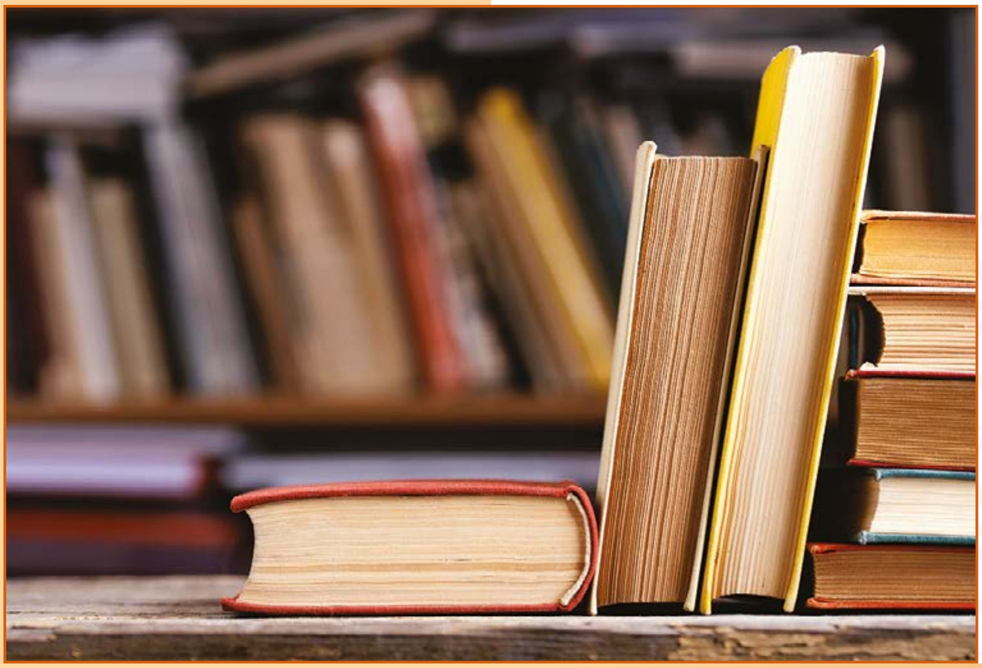
يحدثُ التّوليدُ بالاقتراض عن طريـقِ إدخـالِ دوالَّ من لُغـة مصـدرٍ إلـى لُغة موردٍ مصحوبةٍ بمداليلِها الأصليّة -كما في لغة العلوم والفنون- أو غير مصحوبةٍ بها فتُعطَى في اللّغة المورد مداليلَ جديدةً.



(19) الودرني: علي، دور القواعد الصوتية في التوليد المعجميّ. مجمع الأطرش، تونس، ط1، 2019، ص18.

(20) الثعالبي: أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية. تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2002، ص102.

(21) بطال الركبي، النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب. تح: مصطفى عبد الحفيظ سالم، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، 1988، ج2/ص99.



كُتُبٌ ودِراساتٌ

- عرض كتاب: «تَـوْظِـيفُ التُّـرَاثِ في أَدَبِ الأَطْفَالِ»
- وقفةٌ مَع كِتاب: همزة الاستفهامِ في القُرآن الكريم
- وقفــةٌ مـعَ الأعْمــالِ الفائِــزةِ فــي جائِـزَةِ الشّـارقَة للدّراسـاتِ اللّغَويّــة والمُعجَميّــة
- وصية الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بمكتبته
- شَرْحُ (القَامُوس المُحِيط) بِحَاضِرَةِ سِجِلْمَاسَةَ العَالِمَةِ



عرض كتاب:

«تَـوْظِـيفُ التُّـرَاثِ في أَدَبِ الأَطْفَالِ»

د. هيثم يَحْيَى الخَواجَة

يُقدّمُ لنا النّاقدُ السّوريّ الدكتورُ هَيْثَم يَحْيَى الخَواجَة كتابَهُ الجديدَ بعنوان «تَوظيفُ التّراثِ في أدبِ الأطفالِ» في 137 صَفْحَةً، الصّادِرَ عن مَعْهَدِ الشّارقةِ للتّراث.

واشتملَ على فصْلَين رئيسيّين، وتضمّنَ كلُّ فصلٍ مجموعةً منَ المحاور، حيثُ تضمّنَ الفصلُ الأوّلُ عدّةَ أبوابٍ منها: الطفلُ في تراثِنا الأدبيّ - التّراثُ وأهمّيتُه في الكتابةِ الأدبيةِ للطّفلِ - التّراثُ والتّطويرُ وعالمُ الخيالِ - التّراثُ مصدرٌ لا ينضبُ - كيف توظّفُ التّراثَ في أدبِ الأطفالِ؟ - الطّفلُ العربيُّ والتّراثُ وتكنولوجيا المعلوماتِ وتضمّنَ الفصلُ الثّاني محاورَ عدّةً، بينها: تجربتي في استلْهامِ التّراثِ في الكتابةِ للأطفالِ.



شيمازا فواز الزَّعَل
كاتبة

كُتِبَ على غلافِ الكتابِ: يسعى فَرْضُ العصرِ الحديثِ اهتمامًا نوعيًّا بأدبِ الأطفالِ؛ حيثُ باتَ يشغلُ بالَ الدّارسينَ والباحثينَ والعلماءِ وجماعةِ التّربيةِ من أجلِ طفْلِ المستقبلِ. ففي هذا الأدبِ فوائدُ لا تُعَدُّ ولا تُحصى لبناءِ شخصيّةِ الطّفلِ وفِكرِه، وهذا ما منحه خصوصيّةً؛ بسببِ ما يحتاجه كاتبُ الأطفالِ من مُكنةٍ ومهارةٍ وقُدراتٍ وطُهرٍ وصفاءٍ. ولئن اعترف علماءُ النّفسِ بذكاءِ الطّفلِ وقدراتِه الخارقة، فإنَّ هذا الاعتراف لا بدّ أن يكون مُنطلَقًا لاحترام أدبِ الطّفلِ وتقديره وعدمِ الاستهانةِ به أوِ استسْهالِ الإبداعِ في أيّ جنسٍ من أجناسِ أدبِ الأطفالِ. إنَّ أدبَ الأطفالِ الذي يحرصُ على الجوهرِ هو الأدبُ الخالدُ، وهو الأدبُ الذي يُفيدُ الطّفلَ، ويُغذّي فِكرَه، ويَبني شخصيّتَه .

يؤكدُ مؤلّفُ الكتابِ أنَّ التّراثَ الأدبيَّ يشتملُ على مادّةٍ لا بأس بها تتّصلُ بالطّفلِ، فهناك قصائدُ تُعَبِّر عن مشاعرِ الوالدين تجاهَ أولادهم، وإضافةً إلى الأدبِ الذي يتحدّث عنِ الطفلِ، فقد أدركَ الجاحظُ في إحدى رسائله كيف يُخاطبُ الطّفلَ، فدعا إلى أن يكون هناك أدبٌ يخصُّ الأطفالَ شكلاً ومضمونًا.

ويذكرُ المؤلّفُ: في هذا المجال اندفاعَ عبد الله بنِ المقفّع إلى ترجمةِ كتابِ (كليلة ودمنة) الذي اعتمدَ أسلوبَ القصِّ فيه على لسانِ الحيوانِ. ويتحدّثُ الجاحظُ عنِ الصّائدِ

والعصفورِ، وكتب الشّاعرُ أبو الشّمقمق قصّةَ الفئرانِ التي حطّت في بيته شعرًا ففوجئت بِخُلُوِّهِ منَ الطعامِ، ويحكي شهابُ الدين محمد بن أحمد الأبشيهي قصّةَ فأرةِ البيتِ وفأرةِ الصحراءِ في كتابه المُستطرَف في كلّ فنٍ مستظرَف.

التُراث وأهمّيّتُه:

يذكرُ المؤلّفُ أنَّ التّراثَ في أدبِ الأطفالِ يُشكّلُ أهمّيةً كبيرةً، لما يتضمّنُ من جواهرَ ومكنوناتٍ يستفيدُ منها الطّفلُ، والمقصودُ هنا مختلفُ أنواعِ التّراثِ الذي تُوُورِثَ عن آبائنا وأجدادِنا. ويتابعُ: عندما يوظَّفُ التّراثُ في أدبِ الأطفالِ، فإنَّه يُعزِّزُ الهُويّةَ الوطنيّةَ والقوميّةَ، ويعرّفُ الطّفلَ إلى عاداتِنا الأصيلةِ، وتقاليدِنا الرّائعةِ، وقيَمِنا التي نفتخرُ بها. ويناقشُ الخواجةُ؛ أنّ توظيفَ التّراثِ للأطفالِ يتطلّبُ عناصرَ كثيرةً، بدءًا منَ الإدراكِ والذّاكرةِ والتّفكيرِ والانفعالِ والخيالِ والفعلِ الإراديِّ، وغيرِ ذلك. ويؤكّدُ أنَّ منَ المهمِّ أن تلمسَ الجوانبَ الإيجابيةَ برؤيةٍ معاصرةٍ، لأنّنا بذلك نَبْعُدُ عن التّراثِ المدسوسِ -إن وُجد- والشّوائبِ التي تسيءُ إليه وتقلّلُ من قيمتِه.

أَسَالِيبُ ومَفَاهِيمُ:

يقولُ المؤلّفُ: لقد جمعتِ التّربيةُ العربيّةُ في أصولها بين تأديبِ النّفسِ وتثقيفِ العقلِ وتقويةِ الجسدِ، فالتّعاملُ مع التّراثِ علميًّا يقومُ على مستويين: مُسْتَوًى يتعلّقُ بالفهمِ والاستيعابِ، و مُسْتَوًى يتعلّقُ بالتّوظيفِ والاستثمارِ والاختيارِ، وسنلمسُ ملامحَ هذه المفاهيمِ في أثناءِ تحليلِ نماذجِ التّراثِ في أدبِ الأطفالِ.

أمّا الموضوعُ الآخرُ فهو أنَّ أصولَ أدبِ الأطفالِ في تراثِ الإنسانيةِ مصدرُها ومنبَعُها الأساطيرُ والخُرافاتُ القديمةُ والملاحمُ، وعند الغربِ تعدُّ خرافاتُ إيسوبَ من أقدمِ المجموعاتِ التي عرفناها في بلادِ الإغريقِ، وإنّ توظيفَ التّراثِ في أدبِ الطفلِ يُعزِّزُ الهُويّةَ الوطنيّةَ والقيمَ الأصيلةَ في بِيئتنا وواقعِنا المعروف، كما أنَّ التّراثَ قيمةٌ بحدِّ ذاته، وهو منارةٌ في الرّؤيةِ المعاصرة؛ لأنه يدعمُ البصرَ والبصيرةَ. ويمكنُ أن نشيرَ هنا إلى أهمّيةِ الخيالِ العلميِّ في توظيفِ التّراثِ، وفي مواكبةِ الطّفلِ للواقعِ والحداثةِ.

تِكْنُولُوجيَا المَعْلُومَاتِ:

طرحَ د. الخواجة؛ سؤالاً مهمًّا: إذا كان التّوجّهُ نحو التّراثِ يتناقضُ مع المعاصرةِ والتّوجّهِ نحو تكنولوجيا المعلوماتِ والتّقنياتِ الحديثة؟ ويقولُ: «إنَّ المجتمعاتِ المعاصرةَ تسعى إلى تربيةِ الطّفلِ تربيةً حديثةً لكي يتمكّنَ من مواجهةِ تحدّياتِ الحياةِ في عصرِ التّكنولوجيا والتّقنياتِ الحديثة. ويتطلّبُ تحقيقُ هذا الأمرِ استراتيجياتٍ وخُططًا تشغيليّةً لاستحداثِ الأساليبِ والوسائلِ النّاجحةِ، خاصةً وأنَّ التّحدّياتِ تنمو وتتطوّر مع شروقِ كلِّ صباحٍ».

فإنَّ التراثَ في رأيهِ لا يشكّلُ عائقًا؛ لأنَّ توظيفَ التّراثِ لا يعني التّمحورَ في إطارِ الماضي، وإنما يعني الاستفادةَ منَ الماضي من أجلِ الحاضرِ والمستقبل. ويرى أنَّ في جَعْبةِ الواقعِ والحياةِ التي نعيشها



د. هيثم يحيى الخواجة

عناصرَ منها: تعزيزُ مهاراتِ التّواصلِ، وتنميةُ قدراتِ الطّفلِ من أجلِ اكتسابِ الثّقافةِ والخبرةِ والنّهوضِ بقدراتهِ الذّهنيةِ، ودعمُ الثّقافةِ العلميةِ لديهِ وتوظيفُ معارفهِ علميًّا، إضافةً إلى تكريسِ التّوازنِ لدى الطّفلِ بين الواقعِ والخيالِ، وأن يُحْمى ممّا يُدسُّ عن طريقِ شبكةِ الإنترنتِ من قيمٍ سالبةٍ.

تَوْظِيفُ التُرَاث:

يتحدّثُ مؤلّفُ الكتابِ في الفصلِ الثّاني عن جانبٍ مهمٍّ أفادَ بحقّهِ في توظيفِ هذا التّراثِ في أدبِ الأطفالِ، فهو أدركَ في وقتٍ مبكّرٍ أنَّ تراثنا العربيَّ والإسلاميَّ غنيٌّ وحافلٌ بالدّررِ والجواهرِ، وأنَّ الغَرْفَ منه يعمّقُ العملَ الإبداعيَّ ويدعمُه ويزيدُه ألقًا، وأنَّ توظيفَه له مجموعةٌ منَ الأهدافِ من أهمِّها: توصيلُه إلى الأجيالِ، ومدُّ جسورِ التّواصلِ بين الخلَفِ والسلَفِ، عدا الإمتاعِ والعِبرةِ والدّلالةِ والإسقاطِ.. إلى آخره.

كما يتّبعُ د. هيثم؛ خُطّةً تشغيليةً لتوظيفِ التّراثِ، وهو يخلصُ إلى جملةٍ منَ العناصرِ المهمّةِ، فالتّراثُ

يشيرُ المؤلّفُ إلى مصادرِ أدبِ الطفل، وأبرزُها المصادرُ الإسلاميّةُ وأوّلُها القرآنُ الكريمُ والحديثُ الشّريفُ، وهناك بعضُ المصادرِ التّراثيةِ العربيةِ تُعدُّ في صدارةِ مصادرِ التّراثِ، التي يجبُ أن يَستلهمَ منها المبدعُ إبداعَه.

لا بدَّ من إيجادِ صيغِ تحالُفٍ بين التّراث والفنّ، لكي يتسلّحَ وِجدانُ الطّفل بمثالٍ يُحتذى وصورةٍ مشرقةٍ، ونهجٍ مُضيءٍ.

يمثّل قيمةً كبيرةً، وعند توظيفه يجبُ الاهتمامُ بأمرين: الأوّلُ: تقديمُه ضمْنَ إطارٍ مُضيءٍ، الثّاني: أن يكونَ التراثُ مُتناسبًا وملائمًا للأحداثِ والفكرةِ المطروحةِ في الشّعرِ أوِ القصّةِ أوِ المسرحية، وأنّه منَ الضّروريّ أن نحرصَ على أن يكونَ الطّفلُ في محيطٍ مُضيءٍ ومملوءٍ بالقيمِ والمُثلِ والكرامةِ والأخلاقِ والعاداتِ الأصيلةِ، وأنّه لا بدَّ من إيجادِ صيغِ تحالُفٍ بين التّراثِ والفنّ، لكي يتسلّحَ وِجدانُ الطّفلِ بمثالٍ يُحتذى وصورةٍ مشرقةٍ، ونهجٍ مُضيءٍ.. وأنّه عند توظيفِ التّراثِ لا بدَّ منَ الابتعادِ عنِ الأوهامِ، وتعزيزِ العلمِ، والودِّ، والحبِّ، والتّعاونِ، والوفاءِ، والعدلِ، والشّجاعةِ، والكرامةِ، والنّجدةِ، والمروءةِ.

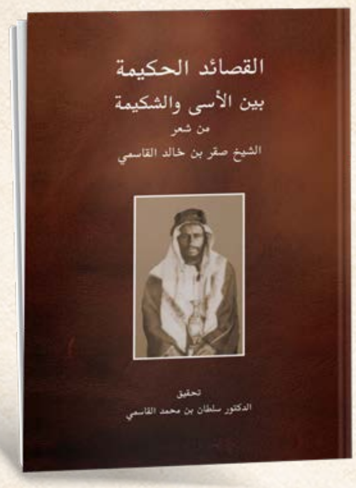
المَصَادِر:

يشيرُ المؤلّفُ إلى مصادرِ أدبِ الطفلِ، وأبرزُها المصادرُ الإسلاميّةُ وأوّلُها القرآنُ الكريمُ والحديثُ الشّريفُ، وهناك بعضُ المصادرِ التّراثيةِ العربيةِ تُعدُّ في صدارةِ مصادرِ التّراثِ، التي يجبُ أن يَستلهمَ منها المبدعُ إبداعَه في أدبِ الطّفلِ، على سبيلِ المثالِ: (نوادرُ جُحا، نهايةُ الأربِ للنّويري، مقاماتُ بديعِ الزمانِ الهمذاني، الوزراءُ والكتابُ للجهشياري، رسالةُ الغفرانِ لأبي العلاء المعرّي، مقاماتُ الحريري، حيُّ بْنُ يقظانَ لابنِ الطّفَيلِ الأندلسي.. وغيرُها الكثيرُ).



ضَرُورَةُ التُّرَاث:

وأخيرًا أضافَ المؤلّفُ: قد يتساءلُ البعضُ: لماذا لا نؤجّلُ التّعرّفَ إلى التّراثِ عندَ الطفلِ حتى يعيَ ويكبُرَ؟ فإنَّ هذا التّساؤلَ ليسَ مشروعًا؛ لأنَّ جُزءًا من تراثِنا يخصُّ الطّفولةَ، ويمثّلُ ضرورةً وطنيةً وقوميةً ملحّةً، وجذورهُ ضاربةٌ في عمقِ الأرضِ، وهو يتضمّنُ مخزونًا علميًّا ثرًّا ونبعًا ثقافيًّا لا يَنضبُ. وعندما نستفيدُ منَ الماضي بوعيٍ ودرايةٍ ونربطُ بينَ التّراثِ والحاضرِ، فإنّنا نكونُ قد خطونا خطوةً مهمّةً من أجلِ أن نصنعَ مستقبلاً متألّقًا. وهذا ما دفعَ د. الخواجة إلى القول: إنَّ ينابيعَ التّراثِ غنيّةٌ وتزخرُ بالحكاياتِ الهادفةِ التي تؤثّرُ في عقولِ الأطفالِ وقلوبِهم، وتُعدُّ الإسقاطاتُ الدّلاليةُ منَ العناصرِ المهمّةِ في الاستدلال؛ وعليهِ لا بدَّ من معاينةِ الواقعِ في حالِ وجودِه. وإنَّ التّركيزَ على عنصرِ الصّراعِ بين الخيرِ والشرِّ مهمٌّ، كما أنَّ النّهايةَ المفتوحةَ تُسهمُ في تحريكِ نبْضِ الطفلِ وفكرِه.



القصائد الحكيمة بين الأسى والشّكيمة

من شعر الشّيخ صقر بن خالد القاسميّ



جمع وتحقيق: الشيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسميّ

جمع صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، ديوانًا شعريًا فريدًا وأصدره مُحقّقًا بعنوان «القصائد الحكيمة بين الأسى والشكيمة»، مشتملاً على ثماني قصائد من شعر الشّيخ صقر بن خالد القاسمي -رحمه الله-، حاكم الشارقة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

لقراءة الديوان

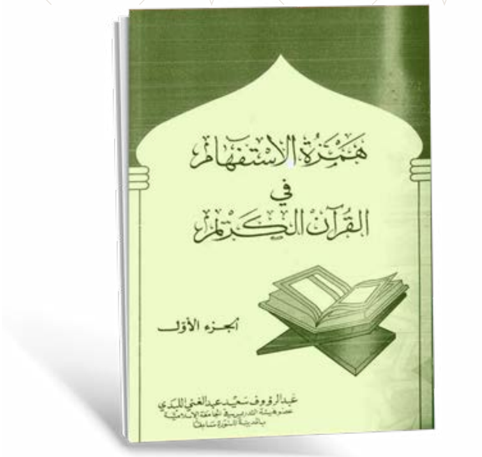


الشيخ صقر بن خالد القاسمي رحمه الله

تجلّت في هذه المجموعة الشعريّة الحكمة الممزوجة بالأسى، والاعتداد المقرون بالشّكيمة، إذ جاءت الأبيات زاخرة بالمعاني الجليلة، متينة السّبك، متدفّقة بالعاطفة، ومعبرة عن تجربة حاكم شاعرٍ جمع بين القيادة والسياسة والفصاحة والبيان.

وقد أولى سموه العناية البالغة بتحقيق النصوص، فشرح الألفاظ الغريبة ووضّح المعاني، مبرزًا ما تميزت به من قوة في التصوير وعمق في التجربة الإنسانية، لتغدو هذه القصائد وثيقة أدبية نادرة تكشف عن وجهٍ آخر من وجوه تاريخ الشارقة الثقافي والإنسانيّ والشعوريّ.

إنه ديوان يشي بجزالة اللفظ، ورصانة الحكمة، وبهاء البلاغة، ويقدّم للقارئ صورة صادقة لشاعرٍ عربيّ أصيل، ترك أثره في الأدب كما في السّياسة



وقفةٌ مَع كِتاب:

همزة الاستفهامِ في القُرآن الكريم

للدكتور عبد الرؤوف سعيد عبد الغنيّ اللّبديّ



د. محمد سيف الإسلام
كلية الآداب واللّغات – جامعة عنابة – الجزائر

إنّ هذا الكتاب يعدّ واحدًا من أهمّ الكتب التي درست همزات الاستفهام في القرآن الكريم دراسة تطبيقٍ واستقراءٍ واستقصاءٍ وشمولٍ، وكما وصفه مؤلّفه العلّامة (عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي)، فإنّه يدرس كلّ همزةٍ على انفرادٍ ضمن الآية التي وردت فيها دراسةٌ بلاغيّةٌ، كما أنّه لا يكتفي بعرض الآية التي وردت فيها همزة الاستفهام؛ بل يعرض معها الآيات التي تتّصل بها في المعنى لتتمّ الرّؤيا وتتّضح الصّورة، كما يشرح الآيات التي وردت فيها همزات الاستفهام والآيات التي تتّصل بها شرحًا أدبيًا يتضمّن المعاني التي تنصّ عليها الآيات، ومعاني أخرى توحي بها، ويتطلّبها السّياق والمقام، ويشرح المعاني البلاغيّة لهمزات الاستفهام ويخرجها من أكمامها الاصطلاحيّة؛ فيبيّن معنى الإنكار وما المراد بالتّقرير، وممّ كان التّعجّب والتّعجيب، وعلام كان التّوبيخ والتّقريع، وممّ كانت السّخريّة والاستهزاء، وهكذا بقيّة المعاني، كما يعرب الدكتور (عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي) الكلمات التي وردت في صيغ الاستفهام؛ حيث يكون الإعراب مساعدًا على فهم المعنى؛ فالإعراب تحليلٌ للكلمات وبيانٌ لموقع كلّ كلمةٍ من أختها وعلاقتها بها، ولا شكّ أنّ ذلك يعطيك عمقًا في الفهم، ودقّةً في الإدراك، وقد اعتمد المؤلّف على كتب المفسّرين التي أشار إليها بدقّةٍ في الهوامش، وفي لائحة المصادر والمراجع، وقد اعتمد عليها في شرح الآيات وفي بيان المعاني البلاغيّة لهمزات الاستفهام.

يقول الباحث الدكتور (عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي)، في مقدمّة الكتاب: «وإذا كان المؤلّفون قديمًا وحديثًا قد درجوا أن يذكروا في مقدّمات كتبهم الأسباب الدّاعية إلى تأليف تلك الكتب ونشرها على النّاس، فإنّ الحديث عن كتاب الله تعالى وبيان شيءٍ من خصائص أساليبه ومزايا آياته واجبٌ على كلّ من استطاع إليه سبيلًا، ولقد جاء الاستفهام في القرآن الكريم أسلوبًا مميّزًا في كثرة وروده ووفرة استعماله ودواعيه وتنوّع معانيه ومراميه؛ فقد ورد في حوالي ألفٍ ومائتين وستّين موضعًا، وإذا كانت آيات القرآن الكريم قد بلغت حوالي ستّة آلافٍ ومائتين وستّين موضعًا، وعلى خلافٍ بين العلماء في هذا العدد، تبيّن لك مبلغ هذه الكثرة ومدى انتشار الاستفهام في كتاب الله العظيم. وهذه الكثرة في استعمال أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم تدلّ على قوّة هذا الأسلوب ومبلغ تأثيره ووفرة مقتضياته ودواعيه»(1).

ويؤكّد الباحث (عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي) على أنّ ممّا يشهد لتلك القوّة وذلك التّأثير ووفرة تلك الدّواعي والمقتضيات أنّ القصائد التي تتضمّن السّؤال والحوار من أمتع القصائد، وأنّ الأدب المسرحيّ الذي ينهض على الأسئلة والحوار من أروع أنواع الأدب، وأنّ طريقة الحوار في التدريس التي تعتمد على الأسئلة من أنجع طرائق التربية والتعليم، وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ معنى (الحوار)، بالمفهوم الجاري

به المعنى المتداول في المصطلحات العربية المعاصرة، من قولهم في اللغة العربية في العهود الأولى: حاور (حاوره) محاورةً، جاوبه وجادله، والمحاورة: المجاوبة، أو مراجعة النطق والكلام في المخاطبة. والتحاور: التجاوب. لذلك كان لا بدّ في الحوار من وجود متكلّمٍ ومخاطبٍ، ولا بدّ فيه كذلك من تبادل الكلام ومراجعته. وغاية الحوار توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلّم، لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة، وفي هذا التجاوب توضيحٌ للمعاني، وإثراءٌ للمفاهيم؛ مما يفضي إلى تقدّم الفكر، وإذا كان الحوار تجاوبًا بين الأضداد، كالمجرّد والمشخّص، والمعقول والمحسوس، والحبّ والواجب، سمّي جدالًا(2) والحوار كما ورد في جلّ المعاجم العربية هو: مراجعة الكلام، حيث جاء في (أساس البلاغة): حاورته: راجعته الكلام، وهو حسن الحوار(3)؛ وجاء في (التهذيب) للأزهريّ أنّ المحاورة مراجعة الكلام في المخاطبة، تقول: حاورته في المنطق، وأحرت له جوابًا، وما أحار بكلمة، والاسم من المحاورة الحوير، تقول: سمعت حويرهما وحوارهما(4).

فالحوار في اللّغة هو حديثٌ يجري بين شخصين أو أكثر، وتحاور القوم تراجعوا بينهم وتجادلوا، والحاصل من هذا التّعريف اللّغويّ أنّ من شروط الحوار توافر المحاور والمحاور على الأقل، ويجري بينهما كلامٌ حول موضوعٍ ما، أو مسألةٍ ذات طابعٍ إشكاليٍّ بغاية العبور بهما من رأيٍ إلى آخر، أو من وضعٍ جداليٍّ إلى ما هو أفضل منه...

يشير الباحث الدكتور (عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي) إلى أنّ الاستفهام في القرآن الكريم جاء على ضربين:

أ- الضّرب الحقيقيّ: وهو ما يطلب معرفة المستفهم عنه، والله سبحانه وتعالى منزّهٌ عن أن يسأل سؤالًا حقيقيًّا؛ لأنّ السؤال الحقيقيّ يستلزم الجهل بما يسأل عنه، والله سبحانه وتعالى عالمٌ بكلّ شيءٍ لا تخفى عليه خافيةٌ، وما جاء في القرآن العظيم من سؤالٍ حقيقيٍّ يتّسم بالقلّة والاقتضاب، وقد جاء محكيًّا من غير الله سبحانه وتعالى، كقول سليمان عليه السّلام لمن حوله: ﴿قال يـٰأيها ٱلملؤا أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ [النمل، الآية:38].

ب- الضّرب الثّاني: الاستفهام غير الحقيقيّ: وهو ما يخرج عن معناه الحقيقيّ إلى معنى آخر أو أكثر، مثل: الإنكار والتّوبيخ والتّعجّب والتّحسّر، في سؤال هابيل على سبيل المثال: ﴿أعجزتُ أنْ أكون مثل هـٰذا ٱلغراب﴾[المائدة، الآية: 31]؛ فهو لا يرغب أن يسأل عن عجزه، ولكنّه يريد أن ينكر على نفسه هذا العجز، وأن يؤنّبها ويعاتبها عليه، كما يتحسّر له ويتعجّب منه.

والحقيقة أنّ المعاني البلاغيّة التي يخرج إليها الاستفهام، كالإنكار والتّوبيخ والتّعجّب والتّحسّر والتّهديد وغير ذلك، يكاد يقع الإجماع على أنّ هذه المعاني ليس لها قواعد موضوعةٌ مضبوطةٌ منظّمةٌ يحتكم إليها، وإنّما يعتمد في إدراكها على التّذوّق الأدبيّ الذّاتي، وعلى القرائن اللّفظيّة والمعنويّة التي تحيط بالاستفهام، ومن الطّبيعيّ أن يختلف المفسّرون في تأويلاتهم وأذواقهم الأدبيّة، وفي اكتناه ما يحيط بالاستفهام من أحوالٍ وقرائن، فكان طبيعيًّا أن يقع الاختلاف في بعض الأحيان لدى تفسير دلالات الاستفهام من معنى أو معانٍ بلاغيّة.

وقد حدّد الباحث (عبد الرؤوف سعيدٌ عبد الغنيّ اللّبدي)، الهمزة الداخلة على الأفعال الماضية، ورتّبها حسب الحرف الأوّل من فعلها الثّلاثيّ المجرّد؛ فالفعل الماضي الأوّل الذي دخلت عليه همزة الاستفهام في القرآن الكريم هو (اتّخذ)، وقد ورد ذلك في ثلاثة مواضع؛ الموضع الأوّل في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 79-82].

فهذه الآيات الكريمة تتضمّن جملةً من المعاني؛ ومن بينها أنّ الله سبحانه وتعالى يهدّد بالعذاب الشديد يوم القيامة أحبار اليهود الذين كانوا يكتبون التوراة بأيديهم، يختلقون فيها ويبدّلون، ويقولون لليهود الأمّيّين الذين لا يفهمون من الدلالات في التوراة إلّا ما يقرأ لهم: إنّ هذا الذي اختلقوه وافتروه هو من عند الله سبحانه وتعالى، وكانوا يفعلون ذلك بغرض نيل منافع دنيويةٍ حقيرةٍ وخسيسةٍ، ومن أجل أن تظلّ لهم على سائر اليهود رئاسةٌ

وهيمنةٌ وسلطانٌ، وكان اليهود يعودون إلى هؤلاء الأحبار يستفتونهم فيما يحلّ ويحرم، وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يسألهم ويستفهم إنكارًا عليهم وتوبيخًا لهم: أنّى لكم هذا الذي تزعمونه؟ أعهدًا اتخذتموه عند الله والله لا يخلف عهده، أم تقولون هذا من عند أنفسكم وتكذبون به على الله وتدّعون ما لا تعلمون؟

أمّا الاستفهام الذي جاء في الآية: ﴿أتّخذتم عند الله عهدًا﴾، فقد جاء بغرض إفادة التقرير والتوبيخ؛ أي التقرير به على معنى طلب الاعتراف بأحد الأمرين أيّهما واقع: اتّخاذكم العهد عند الله، أم قولكم على الله ما لا تعلمون. والأمر الأوّل لم يقع، فهم لم ينهضوا باتّخاذ عهدٍ عند الله، فلم يبق إلّا أن يعترفوا بالأمر الثاني، وهو أنّهم يقولون على الله الكذب في ادّعائهم أنّ النّار لن تمسّهم إلّا أيّامًا قليلةً معدودةً. كما يفيد توبيخ أحبار اليهود على كذبهم وافترائهم.

وإفادة هذا الاستفهام التقرير والتوبيخ قائمةٌ على أنّ (أم) متصلةٌ عاطفة؛ أي عطفت الجملة التي بعدها على الجملة الواقعة بعد همزة الاستفهام. وهناك نسبةٌ كبيرةٌ من المفسّرين يجيزون أيضًا أن تكون (أم) منقطعةً، ويفسّرها بعضهم بـ (بل) والهمزة، ويكون تقدير الكلام على رأيهم: أتخذتم عهدًا عند الله فلن يخلف الله عهده، بل أتقولون على الله ما لا تعلمون؟ وعلى هذا يكون استفهام (أتخذتم) للإنكار بمعنى النفي، أي: ما اتخذتم عهدًا عند الله، ويكون استفهام (بل أتقولون) للتوبيخ. وقد ذهب السيوطيّ في تفسير

> **والحقيقة أنّ المعاني البلاغيّة التي يخرج إليها الاستفهام، كالإنكار والتّوبيخ والتّعجّب والتّحسّر والتّهديد وغير ذلك، يكاد يقع الإجماع على أنّ هذه المعاني ليس لها قواعد موضوعةٌ مضبوطةٌ منظّمةٌ يحتكم إليها، وإنّما يعتمد في إدراكها على التّذوّق الأدبيّ الذّاتي.**

الجلالين إلى أنّ استفهام (أتخذتم) لإنكار الاتّخاذ ونفيه، وأنّ (أم) للإضراب الانتقالي، ويكون تقدير الكلام على رأيه: ما اتخذتم عند الله عهدًا، بل تقولون على الله ما لا تعلمون.

والرأي الأقوى –كما يرى الباحث عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي– أن تكون (أم) متصلةً، وأن يكون الاستفهام للتقرير والتوبيخ؛ ذلك لأنّه هو المتبادر إلى الذهن، ولهذا قدّمه معظم المفسّرين، وبعضهم لم يذكر غيره، ولأنّ فيه حمل المخاطبين على الاعتراف بافترائهم وذنوبهم وأخطائهم، وهذا ما يقتضيه المقام، وتستدعيه بلاغة الكلام. وقد نبّه الباحث عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي إلى عدّة قضايا، ومن بينها:

أوّلًا: همزة (أتّخذتم) هي همزة الاستفهام، والأصل (أإتّخذتم) بهمزتين: الأولى همزة الاستفهام وهي مفتوحةٌ، والثّانية همزة الوصل وهي مكسورةٌ، فحذفت همزة الوصل تخفيفًا واستغناءً عنها بهمزة الاستفهام.

ثانيًا: (اتّخذ) هذا الفعل تارةً يتعدّى إلى مفعولين اثنين، وتارةً إلى مفعولٍ به واحد، وهنا تعدّى إلى مفعولٍ به واحد هو (عهدًا)، وأمّا (عند) فظرفٌ متعلّق بـ (اتّخذ).

ثالثًا: الفعل الماضي (اتّخذ) الذي دخلت عليه همزة الاستفهام فعلٌ خماسيٌّ على وزن (افتعل)، وقد اختلف في فعله الثلاثيّ المجرّد؛ فذهب الجوهريّ إلى أنّ فعله الثلاثيّ المجرّد هو (أخذ يأخذ) من باب نصر ينصر، فالحرف الأول فيه هو الهمزة، وأصل (اتّخذ) على رأيه (إأتخذ) بهمزتين: الأولى همزة وصلٍ زائدة، والثانية أصليةٌ هي فاء الكلمة، فاجتمعت همزتان ثانيتهما ساكنة، وقبلها همزةٌ مكسورة، فقلبت الثانية الساكنة ياءً لمجانسة الكسرة قبلها، فصارت الكلمة (إيتخذ)، فوقعت الياء التي هي فاء الكلمة قبل تاء الافتعال، فأبدلت تاءً وأدغمت في تاء الافتعال، فصارت الكلمة اتّخذ.

وقد استشهد الباحث اللّبدي بما ذهب إليه ابن الأثير، حيث أشار إلى أنّ فعل (اتّخذ) على وزن افتعل، وهو مأخوذٌ من (تخذ يتّخذ) من باب علم يعلم، فالحرف الأول فيه التاء، وليس في الكلمة إبدال(5).

أمّا الموضع الثاني من مواضع الهمزة الداخلة على (اتّخذ(، فقد ورد في قوله تعالى: ﴿قل من ربّ السّماوات والأرض﴾ [الرّعد: 16].

ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى رسوله صلّى الله عليه وسلّم بأن يسأل المشركين من قومه: (من ربّ السّماوات والأرض)، والهدف من هذا السؤال أن يقرّوا بما لا مفرّ من الإقرار به، فيقولوا: ربّنا الله، ثم يأمره عزّ وجلّ أن يجيب هو نفسه عن هذا السؤال بقوله: (هو الله)، للتنبيه على أنّ المشركين يقرّون بهذا الجواب ولا يقدرون على إنكاره.

ثمّ يأمره الله تعالى أن يقول للمشركين ما يتضمّن: وإذا كنتم تقرّون بأنّ الله هو ربّ السّماوات والأرض، فلم تتّخذون الأصنام آلهةً تعبدونها من دون الله، وهم ليس لهم أيّ نفعٍ أو ضرٍّ، ولم تتركون عبادة ربّ السّماوات والأرض؟ وهناك إشارةٌ واضحةٌ إلى أنّ الظّلمات والنّور لا يستويان، وكذلك الشّرك والإيمان لا يستويان. قل لهم توبيخًا لهم، وتهكّمًا بهم: أخلقت أصنامكم التي تعبدونها من دون الله أشياء كما خلق الله؟

أمّا الاستفهام: (أفاتّخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا) فقد جاء مفيدًا الإنكار والتوبيخ والتهكّم؛ فالإنكار بمعنى: لا ينبغي لكم أيّها المشركون أن تتّخذوا من دون الله أصنامًا آلهةً ليس لها القدرة على شيءٍ، وأن تنصرفوا عن عبادة الله سبحانه وتعالى، الذي تعترفون بأنّه ربّ السّماوات والأرض، خلقها وخلقكم وخلق أصنامكم، وهو خالق كلّ شيء. ويفيد التهكّم بهم وتوبيخهم على جهالتهم وسفاهتهم وضلالتهم في عبادتهم ما لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر ولا يقدر على شيء.

أمّا الفاء الواقعة بعد همزة الاستفهام في (أفاتّخذتم) فهي عاطفة، وقد وقع خلافٌ واختلافٌ في المعطوف عليه؛ فعلى رأي سيبويه والجمهور يكون المعطوف عليه هو ما قبل الهمزة، وعلى رأي الزمخشري يكون المعطوف عليه مقدّرًا بعد الهمزة يدلّ عليه السّياق.

في حين أنّ الموضع الثالث من مواضع همزة الاستفهام الداخلة على (اتخذ) قد ورد في قوله تعالى: ﴿هذا وإنّ للطّاغين لشرّ مآبٍ ۝ جهنّم يصلونها فبئس المهاد﴾ [ص: 56-55].

وقد أقرّ أربعةٌ من القرّاء السّبعة، قوله تعالى: (أأتّخذناهم سخريًّا أم زاغت عنهم الأبصار) بهمزة القطع في «أأتّخذناهم» على أنّها همزة الاستفهام، استغني بها عن همزة الوصل، ويكون الاستفهام على هذه القراءة مفيدًا الإنكار والتّوبيخ والتّحسّر، على معنى أنّ الطّغاة ينكرون على أنفسهم يوم القيامة، وهم يعذّبون في النّار، سخريّتهم في الحياة الدّنيا بأولئك الذين آمنوا بالله وصدّقوا الرّسل، ومع هذا الإنكار يؤنّبون أنفسهم على تلك السّخرية، كما يتحسّرون على ما فرّطوا في جنب أولئك الذين كانوا يعدّونهم من الأشرار.

والجملة الاستفهاميّة (أأتّخذناهم سخريًّا) على هذه القراءة جملةٌ استفهاميّةٌ لا محلّ لها من الإعراب.

وقد قرأ ثلاثةٌ من القرّاء السّبعة (اتّخذناهم) بهمزة الوصل، ويجوز على هذه القراءة أن تكون همزة الاستفهام مقدّرةً، فتتّحد القراءتان في الدّلالة على الاستفهام، ويجوز كذلك أن لا تكون همزة الاستفهام مقدّرةً، ويكون الكلام إخبارًا، وتكون جملة (اتّخذناهم سخريًّا) حينئذٍ صفةً ثانيةً لـ«رجالًا».

هذا، وفعل (اتّخذ) في قوله تعالى: (اتّخذناهم سخريًّا) متعدٍّ إلى مفعولين: المفعول الأوّل (هم)، والمفعول الثّاني (سخريًّا)، والياء المشدّدة في (سخريًّا) ياء النّسب، تضاف في المصادر والصّفات للمبالغة في الفعل، وقد زيدت هنا في المصدر للمبالغة في السّخرية(6).

وبالنّسبة إلى الفعل الثّاني من الأفعال الماضية التي دخلت عليها همزة الاستفهام في القرآن الكريم، فهو (أمن)، وقد ورد ذلك في سبعة مواضع، فالموضع الأوّل والثّاني والثّالث يظهر في قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نبيٍّ إلّا أخذنا

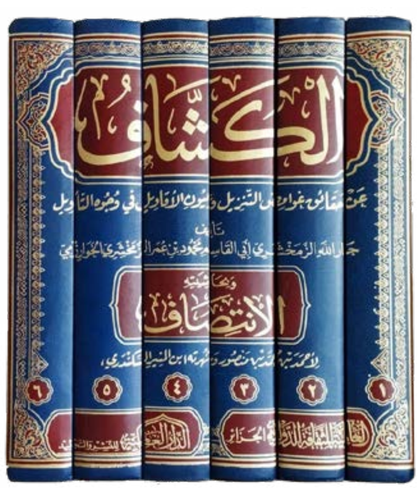


أهْلها بـٱلْبأْسآء وٱلضّرّآء لعلّهمْ يضّرّعون ثمّ بدّلْنا مكان ٱلسّيّئة ٱلْحسنة حتّىٰ عفوا وّقالوا قدْ مسّ ءابآءنا ٱلضّرّآء وٱلسّرّآء فأخذْنٰهم بغْتةً وهمْ لا يشْعرون﴾ [الأعراف: 94–95].

وقد أفاد استفهام (أأمن) في مواضعه الثلاثة الإنكار والتّوبيخ والتّعجيب والتّهديد والوعيد؛ حيث إنّه أفاد الإنكار بمعنى: لا ينبغي لأهل تلك القرى الذين جاءهم الأنبياء المرسلون: نوحٌ وهودٌ وصالحٌ ولوطٌ وشعيبٌ، لا ينبغي لهم أن يأمنوا عقاب الله تعالى وعذابه، وقد اجترحوا ما يستحقّون عليه العقاب والعذاب من كفرهم بالله تعالى، وتكذيبهم أولئك الأنبياء المرسلين، وتكبّرهم عمّا دعوهم إليه، وتماديهم في العناد والغرور. كما أفاد توبيخ تلك القرى على أن يأمنوا العذاب والعقاب، مع أنّهم اقترفوا ما يستحقّون عليه العذاب والعقاب، وأفاد التّعجيب من أمنهم، مع أنّ حالهم تستدعي أن يتخوّفوا العذاب، وأن يتوقّعوا العقاب. كما أفاد هذا الاستفهام كذلك – بطريق التّعريض – التّحذير والتّهديد والوعيد لمشركي مكّة بأن يأخذهم الله كما أخذ أهل القرى من قبلهم لإشراكهم بالله تعالى، وتكذيبهم الرسول ﷺ، وتكبّرهم عن اتّباعه، وتماديهم في العناد والغرور، فليتعظوا بما أصاب غيرهم، وليحذروا أن يصيبهم ما أصاب المشركين المكذّبين من قبلهم.

وقد ذكر الزّمخشريّ في تفسيره الكشّاف أنّ الفاء الواقعة بعد همزة الاستفهام (أفأمن) والواو الواقعة بعد همزة الاستفهام في (أوأمن) حرفا عطفٍ، وأنّ المعطوف عليه قوله تعالى: ﴿فأخذناهم بغتةً﴾ المذكور قبلهما، وأنّ ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضٌ. وهذا دليلٌ على أنّ الزّمخشريّ لم يلتزم مذهبه، وهو أنّ حروف العطف الواقعة بعد همزة الاستفهام تعطف على كلامٍ مقدّرٍ بعد الهمزة يدلّ عليه السّياق، ويدلّ أيضًا على أنّ الزّمخشريّ يذهب أحيانًا مذهب سيبويه والجمهور من أنّ حروف العطف (الفاء، والواو، وثمّ) بعد همزة الاستفهام تعطف دائمًا على ما قبل الهمزة.

والمصدر المؤوّل من (أن يأتيهم) في قوله تعالى: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وهم نائمون﴾ في محلّ نصبٍ مفعولٌ به لـ(أمن)، و(بياتًا) مصدرٌ يجوز أن يكون ظرف زمانٍ على تقدير مضافٍ، أي وقت بياتٍ، ويجوز أن يكون حالًا من ضمير (يأتيهم) على تأويله باسم الفاعل، أي بائتين. وهناك إعراباتٌ أخرى، لكنّ الباحث اللّبدي يعتقد أنّ أفضل هذه الإعرابات أن يكون منصوبًا على الظّرفيّة الزّمانيّة ليجانس (ضحًى) في الآية التي بعدها. وقوله: (وهم نائمون) جملةٌ في محلّ نصبٍ على الحال، وصاحب الحال (هم) في (يأتيهم)، ورابط جملة الحال بصاحبها الواو و(هم) في الجملة الحاليّة.



و(ضحًى) في قوله تعالى: ﴿أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحًى وهم يلعبون﴾ ظرف زمانٍ منصوبٌ، وعلامة نصبه فتحةٌ مقدّرةٌ على الألف للتّعذّر، وقد حذفت هذه الألف لالتقاء الساكنين(7)، ومن تذوّقات المفسّرين البلاغيّة ما ذكره (أبو حيّان) في تفسيره البحر المحيط؛ حيث أشار إلى أنّ لفظ (أهل القرى) في قوله تعالى: ﴿أفأمن أهل القرى﴾، وفي قوله تعالى: ﴿أوأمن أهل القرى﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ولو أنّ أهل القرى﴾ قد تكرّر، لأنّ في ذلك التكرار من التّسميع، والإبلاغ، والتهديد، والوعيد ما لا يكون في الضمير لو جاء: (أفأمنوا) أو (أوأمنوا)، فإنّه متى قصد التفخيم والتعظيم والتهويل جيء بالاسم الظاهر.

وقد قدّم الباحث اللّبدي شروحاتٍ مفصّلةً تتّصل بجملةٍ من الأفعال الماضية التي دخلت عليها همزة الاستفهام في القرآن الكريم، مثل (آمن) الذي ورد في ثلاثة مواضع، و*(بشّر)* الذي ورد في موضعٍ واحدٍ، وهو قوله تعالى: ﴿ونبّئْهمْ عن ضيْف إبْرٰهيم ۝٥١ إذْ دخلوا عليْه فقالوا سلٰمًا قال إنّا منكمْ وجلون ۝٥٢ قالوا لا توْجلْ إنّا نبشّرك بغلٰمٍ عليمٍ ۝٥٣ قال أبشّرْتموني علىٰ أن مّسّني ٱلْكبر فبم تبشّرون ۝٥٤ قالوا بشّرْنٰك بٱلْحقّ فلا تكن مّن ٱلْقٰنطين ۝٥٥ قال ومن يقْنط من رّحْمة ربّه إلّا ٱلضّآلّون﴾ [الحجر: 51–56].

فقد أفاد استفهام (أبشّرتموني على أن مسّني الكبر) الإنكار بمعنى «ما كان

ينبغي»، وأفاد الاستبعاد والتّعجّب؛ إذ أنكر إبراهيم عليه السّلام في بداية الأمر هذه البشارة، واستبعدها، وتعجّب منها، لأنّه تقدّم في السّنّ، وأصابته الشّيخوخة، وأصبحت امرأته عجوزًا عاقرًا.

وفي قوله: (على أن مسّني الكبر) على حرف جرّ، و❊(أن)❊ مصدرية، تؤول هي والفعل بعدها بمصدر، وهذا المصدر في محلّ جرّ بـ (على)، و❊(على)❊ ومجرورها في محلّ نصب على الحال من ياء المتكلّم في (أبشّرتموني)، و❊(على)❊ هنا بمعنى «مع»، أي: بشّرتموني مع مسّ الكبر إيّاي(8).

كما ورد كذلك الفعل (بعث) في موضعٍ واحد، وهو قوله تعالى: ﴿وما منع النّاس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلّا أن قالوا أبعث الله بشرًا رسولًا﴾ [الإسراء: 94-95].

وقد أفادت همزة الاستفهام في (أبعث الله بشرًا رسولًا) الإنكار والتّعجّب، حيث أنكر الكافرون وتعجّبوا أن يبعث الله إلى البشر رسولًا يكون بشرًا مثلهم، وما كان ينبغي على زعمهم، ومن بين الأفعال الماضية التي دخلت عليها همزة الاستفهام في القرآن الكريم، والتي توقّف معها الباحث اللّبدي في هذا الفصل، الفعل: (جاء)، والذي ورد في خمسة مواضع، والفعل (جعل)، وقد ورد في ثلاثة مواضع، والفعل (حسب)، وقد ورد في ثلاثة مواضع، والفعل (خرق)، وقد ورد في موضعٍ واحدٍ، والفعل (أذهب)، وقد ورد في موضعٍ واحدٍ، والفعل (رأى)، الذي جاء على أربعة أساليب: الأسلوب الأوّل: (أرأيت)، والأسلوب الثّاني: (أرأيتم)، والأسلوب الثّالث: (أرأيتك)، والأسلوب الرّابع: (أرأيتكم).

وقد درس الباحث(عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللّبدي) في الفصل الثّاني من الكتاب الهمزة الدّاخلة على أدوات الشّرط في القرآن الكريم؛ فالهمزة الدّاخلة على إن الشّرطيّة وردت في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم، الموضع الأوّل في قوله تعالى: ﴿وما محمّدٌ إلّا رسولٌ قد خلت من قبله ٱلرّسلُ أفإين مّات أو قتل ٱنقلبتم علىٰٓ أعقٰبكمۚ ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضرّ ٱللّه شيـًٔاۗ وسيجزى ٱللّه ٱلشّٰكرين وما كان لنفسٍ أن تموت إلّا بإذن ٱللّه كتٰبًا مّؤجّلًاۗ ومن يرد ثواب ٱلدّنيا نؤته منها ومن يرد ثواب ٱلءاخرة نؤته منهاۚ وسنجزى ٱلشّٰكرين وكأيّن مّن نبيّ قٰتل معه ربّيّون كثيرٌ فما وهنوا لمآ أصابهم فى سبيل ٱللّه وما ضعفوا وما ٱستكانواۗ وٱللّه يحبّ ٱلصّٰبرين وما كان قولهم إلّآ أن قالوا ربّنا ٱغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فىٓ أمرنا وثبّت أقدامنا وٱنصرنا على ٱلقوم ٱلكٰفرين فـٔاتىٰهم ٱللّه ثواب ٱلدّنيا وحسن ثواب ٱلءاخرةۗ وٱللّه يحبّ ٱلمحسنين﴾[آل عمران:144-148].

فقد أفاد الاستفهام في (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم(العتب والإنكار؛ فقد عتب الله سبحانه وتعالى على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ أن يصيبهم الفزع والهلع وأن يفرّوا من المعركة، حين قيل لهم في معركة أحدٍ إنّ محمّدًا قتل، وإعراب هذا الاستفهام: الفاء عاطفةٌ، عطفت الجملة الشّرطيّة التي بعدها على الجملة الخبريّة التي قبل الهمزة، و❊(مات)❊ فعل الشّرط، فهو في محلّ جزمٍ، و❊(انقلبتم)❊ جواب الشّرط، فهو في محلّ جزمٍ أيضًا، والجارّ والمجرور (على أعقابكم) في محلّ نصبٍ حالٌ من فاعل (انقلبتم)، والتّقدير: انقلبتم راجعين. وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ فعل (انقلبتم) ليس جواب الشّرط، وإنّما هو الفعل المستفهم عنه، فهو مدخول الهمزة، فينوى به التّقديم، وتقدير الكلام عند يونس: أتنقلبون إن مات أو قتل، وجواب الشّرط عنده محذوفٌ دلّ عليه مدخول الهمزة المتأخّر لفظًا المتقدّم تقديرًا، وعلى مذهبه أكثر كثيرٌ من المفسّرين الأخذ به في هذه الآية(9).

والموضع الثّاني لهمزة الاستفهام الدّاخلة على إن الشّرطيّة ورد في قوله تعالى: ﴿وما محمّدٌ إلّا رسولٌ قد خلت من قبله ٱلرّسلُ أفإين مّات أو قتل ٱنقلبتم علىٰٓ أعقٰبكمۚ ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضرّ ٱللّه شيـًٔاۗ وسيجزى ٱللّه ٱلشّٰكرين وما كان لنفسٍ أن تموت إلّا بإذن ٱللّه كتٰبًا مّؤجّلًاۗ ومن يرد ثواب ٱلدّنيا نؤته منها ومن يرد ثواب ٱلءاخرة نؤته منهاۚ وسنجزى ٱلشّٰكرين وكأيّن مّن نبيّ قٰتل معه ربّيّون كثيرٌ فما وهنوا لمآ أصابهم فى سبيل ٱللّه وما ضعفوا وما ٱستكانواۗ وٱللّه يحبّ ٱلصّٰبرين وما كان قولهم إلّآ أن قالوا ربّنا ٱغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فىٓ أمرنا وثبّت أقدامنا وٱنصرنا على ٱلقوم ٱلكٰفرين فـٔاتىٰهم ٱللّه ثواب ٱلدّنيا وحسن ثواب ٱلءاخرةۗ وٱللّه يحبّ ٱلمحسنين﴾ [آل عمران:144-148].

وفي قوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشرٍ مّن قبلك ٱلخلدۖ أفإين مّتّ فهم ٱلخٰلدون﴾ [الأنبياء: 34].

فالاستفهام (أفإن متّ فهم الخالدون) يفيد الإنكار والاحتقار؛ يفيد الإنكار بمعنى النّفي، وعلى معنى: لن يخلّد الله تعالى هؤلاء المشركين في الحياة الدّنيا، فكلّ نفسٍ ذائقة الموت، ويفيد الاحتقار

على معنى: إذا كنت أنت يا محمّد، على علوّ مكانتك ومنزلتك، وعظيم قدرك عند الله تعالى، سوف تموت، أفيخلّد الله تعالى هؤلاء المشركين وليس لهم من الفضل ما يزن مثقال ذرّةٍ؟ وإعراب هذا الاستفهام (أفإن متّ فهم الخالدون) الفاء عاطفةٌ، عطفت الجملة الشّرطيّة التي بعدها على الجملة الخبريّة التي قبلها، و﴿(متّ)﴾ مؤلّفةٌ من (مات) وهو فعل الشّرط في محلّ جزمٍ بـ (إن)، ومن التّاء ضمير المخاطب المبنيّ على الفتح في محلّ رفعٍ فاعل، وجملة (فهم الخالدون) في محلّ جزمٍ جواب الشّرط، وجواب الشّرط هذا (فهم الخالدون) هو مورد الاستفهام ومصبّه ومتعلّقه، وهو أيضًا موضع ما أفاده هذا الاستفهام من معانٍ، وقد قرئ فعل الشّرط السّابق (متّ) بضمّ الميم وكسرها، والموضع الثّالث لهمزة الاستفهام الدّاخلة على (إن) الشّرطيّة في القرآن الكريم ورد في قوله تعالى: ﴿واضرب لهم مّثلًا أصحٰب ٱلقرية إذ جآءها ٱلمرسلون إذ أرسلنآ إليهم ٱثنين فكذّبوهما فعزّزنا بثالثٍ فقالوٓا إنّآ إليكم مّرسلون قالوا مآ أنتم إلّا بشرٌ مّثلنا ومآ أنزل ٱلرّحمٰن من شيءٍ إن أنتم إلّا تكذبون قالوا ربّنا يعلم إنّآ إليكم لمرسلون وما علينآ إلّا ٱلبلٰغ ٱلمبين قالوٓا إنّا تطيّرنا بكمۖ لئن لّم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم مّنّا عذابٌ أليمٌ قالوا طٰٓئركم معكمۚ أئن ذكّرتمۚ بل أنتم قومٌ مّسرفون﴾ [يس:13-19].

فـ(ذكّر) في (أإن ذكّرتم) هو شرط (إن)، وأمّا جواب (إن) فمحذوفٌ دلّ عليه الكلام السابق، والتقدير: (أإن ذكّرتم تطيّرتم وتوعدتم بالرّجم والتّعذيب)، وهذا الجواب المقدّر المحذوف هو مصبّ الاستفهام ومورده ومناطه، وهو أيضًا موضع ما أفاده هذا الاستفهام من معانٍ. وقد أفاد استفهام (أإن ذكّرتم) الإنكار والتعجّب والتوبيخ: فأفاد الإنكار بمعنى ما كان ينبغي لكم أيها المشركون أن تتشاءموا بنا وأن تطّيّروا وأن تجعلوا من دعوتنا إياكم إلى عبادة الله وحده، ونهينا إياكم عن عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، لا ينبغي أن تجعلوا من ذلك طيرةً وشؤماً وتهديداً بالرّجم بالحجارة ووعيداً بتعذيبنا بالعذاب الأليم، وقد أفاد هذا الاستفهام أيضًا التعجّب من أن يتشاءم هؤلاء المشركون، وأن يطّيّروا برسل الهدى والدعوة إلى الإيمان بالله.

وأمّا همزة الاستفهام الدّاخلة على (إذا) الشرطية في القرآن الكريم، فقد وردت في ثلاثة عشر موضعًا، ومن بينها قوله تعالى: ﴿ولكلّ أمّةٍ رّسولٌۖ فإذا جآء رسولهم قضي بينهم بٱلقسط وهم لا يظلمون ۝٤٧ ويقولون متىٰ هٰذا ٱلوعد إن كنتم صٰدقين ۝٤٨ قل لّآ أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا إلّا ما شآء ٱللّهۗ لكلّ أمّةٍ أجلٌۚ إذا جآء أجلهم فلا يستـٔخرون ساعةً ولا يستقدمون ۝٤٩ قل أرءيتم إن أتىٰكم عذابه بيٰتًا أو نهارًا مّاذا يستعجل منه ٱلمجرمون ۝٥٠ أثمّ إذا ما وقع ءامنتم بهۦٓۚ ءآلـٰٔن وقد كنتم به تستعجلون ۝٥١ ثمّ قيل للّذين ظلموا ذوقوا عذاب ٱلخلد هل تجزون إلّا بما كنتم تكسبون ۝٥٢﴾ [يونس:52-47].

وقد أفاد الاستفهام (أثمّ إذا ما وقع آمنتم به) التّوبيخ والإنكار(10)؛ أفاد الإنكار بمعنى لا ينبغي ولا يصحّ ولا يليق أن تؤمنوا بالعذاب حين وقوعه بكم؛ لأنّ الإيمان في هذه الحالة غير مجدٍ ولا مقبولٍ، وأفاد كذلك توبيخهم على تأخير الإيمان إلى زمن رؤية العذاب واقعًا بهم حين لا يقبل إيمانٌ، ومورد الاستفهام ومصبّه ومتعلّقه هو جواب إذا، وهو(آمنتم به) مقيّدًا بشرطها، وهذا الجواب أيضًا موضع ما دلّ عليه الاستفهام من إنكارٍ وتوبيخٍ.

خاتمة:

إنّ دراسة مختلف القضايا المتّصلة بالقرآن الكريم من الجوانب الأسلوبية والموضوعية، لهي دراسةٌ شائقةٌ حقًّا، وما زالت تستحقّ الدراسات تلو الدراسات. وتبدو أهمّية هذا الموضوع من جوانب شتّى؛ فالقرآن الكريم كتابٌ يشبه بعضه بعضًا في قوّة نسجه وعمق تأثيره وإحكام بلاغته، وهو مثانٍ، فيه من المعاني ما يثنّى في مواضع مختلفةٍ ومناسباتٍ عديدةٍ، فيكون لهذا التكرار أثره في الهداية والإرشاد، وهو بتشابهه وتكراره يؤثّر في النفس أكبر الأثر؛ حتى لتقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم، وتنفعل له قلوبهم.

فحروف القرآن الكريم هي حروف العرب نفسها، لكنّ هذه الحروف حينما دخلت في كلمةٍ منه كانت كاللآلئ، وحينما سلكت في نظمه تحوّلت إلى جواهر، فهو ينتقي أصواتها، ويتخير حروفها صافية الذوق في مخارجها، لذيذة السّماع على مستقبلها، طيبة المجرى على اللسان، معتدلةً في الوزن، نازلةً على أحسن هيئةٍ في الإيقاع، قوية الإيحاء، شديدة البعث لما تتضمنه من المعاني المرادة والأهداف المقصودة، وهذا من جهة حروف المعجم.

أمّا من جهة حروف المعاني، فقد استعملها القرآن على قدر الضرورة، ووفق الحاجة، فلم يزد فيها زيادةً ترهق السامع أو تشعره بالملل، أو تحسّ فيها بالغثاثة والثقل، كذلك لم يقلّل منها بحيث يفتقر السامع إلى طلب المزيد منها أو الحاجة إليها، وكان كلّ حرفٍ في موضعه بحيث لا يستغنى عنه، أو يستبدل به غيره(11).

وقد دأب العديد من العلماء العرب على مدارسة القرآن العظيم من شتّى الجوانب، وقد ركّزوا في دراساتهم على قضايا مهمّةٍ جدًّا، وهناك من ركّز على الأمثال في القرآن الكريم؛ حيث تحتلّ الأمثال مكانةً عظيمةً، وتكتسي أهمّيّةً كبيرةً في القرآن الكريم، وقد تجلّت أهمّيّتها من خلال الإكثار من سردها في كتاب اللّه العزيز؛ إذ بلغت أكثر من أربعين مثلًا، كما أنّ هناك كثافةً في الآيات الّتي تشيد بتلكم الأمثال، وتبيّن مكانتها وفضلها.

ولا يختلف اثنان في أنّ معرفة الأمثال في القرآن الكريم وتدبّرها، واستخلاص العظة والعبرة منها، يعدّ من أبرز العلوم وأهمّها وأرقاها، وهذا ما نبّه إليه عددٌ غير قليلٍ من العلماء، ومن بينهم الماورديّ؛ الّذي نبّه إلى أنّ من أعظم علوم القرآن علم أمثاله، والنّاس في غفلةٍ عنه لانشغالهم بالأمثال وإغفال الممثّلات. وقد أكّد الإمام الشّافعيّ أنّه من ضمن ما يجب على المجتهد معرفته في علوم القرآن.

ولا شكّ في أنّ الأغراض من ضرب الأمثال في القرآن الكريم كثيرةٌ ومتعدّدةٌ، ولها وقعٌ شديدٌ مغايرٌ لما يؤثّر به الكلام الإنشائيّ والإخباريّ؛ فلذلك كثرت وتعدّدت الأمثال في القرآن الكريم، وقد ورد التّنبيه في القرآن إلى ضرورة العناية بها وتدبّرها؛ نظرًا إلى ما تحمله في أطوائها من حكمٍ ودلالاتٍ غزيرةٍ، فضلًا عن أسلوبها المشوّق وجزالة عباراتها.

ومن أهمّ الأغراض من ضرب الأمثال في القرآن الكريم: زيادة الإفهام، والتّذكير، وتصوير المعاني، وتقريب الصّورة إلى ذهن المخاطب، كما أنّها طريقةٌ من أبرز طرق الإقناع وتعليم البيان، وشحذ ذهن المخاطب، وإيقاظ فكره، ولفت نظره إلى المراد، مع التّأثير في قلبه، وتثبيت المعاني في الذّكر، إضافةً إلى الوعظ والتّذكير، والتّرغيب والتّرهيب، والمدح أو الذّمّ، والتّعظيم أو التّحقير(12) .

والحقيقة أنّ كلّ لغةٍ من اللّغات في العالم لها من الإمكانات ما لنظيراتها، وكلّ لغةٍ ذات قابليّةٍ لسانيّةٍ آليًّا لأداء ما يريد به قومها من وظائف دنيويّةٍ ودينيّةٍ وإبداعيّةٍ وجماليّةٍ.

الهوامش والمراجع:

(1) د.عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، الرصيفة، الأردن، 1992م، ص:07.

(2) ابن منظور : لسان العرب، المجلد الرابع، ص : 264، دار صادر، بيروت، 2000 م. ود.جميل صاليبا : المعجم الفلسفي، ج1، ص : 51، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982 م.

(3) ينظر على سبيل المثال: الزمخشري : أساس البلاغة ،ص:146 ،و الرّاغب الأصفهاني:مفردات ألفاظ القرآن، حققه وعلق عليه: مصطفى بن العدوي، منشورات مكتبة فياض للتجارة والتوزيع، المنصورة، مصر،ط:01، 1430هـ/2009م ،ص:185 ،و إبراهيم (محمّد إسماعيل) : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط:02، د، ت ،ص:150.

(4) الأزهري : تهذيب اللغة ، منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة ،القاهرة ،مصر ،1387هـ/1967م، ج:5 ،ص:288.

(5) د.عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، ص:12 وما بعدها.

(6) د.عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، ص:19.

(7) د.عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، ص:21-22.

(8) د.عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، ص:40.

(9) د.عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، ص:261.

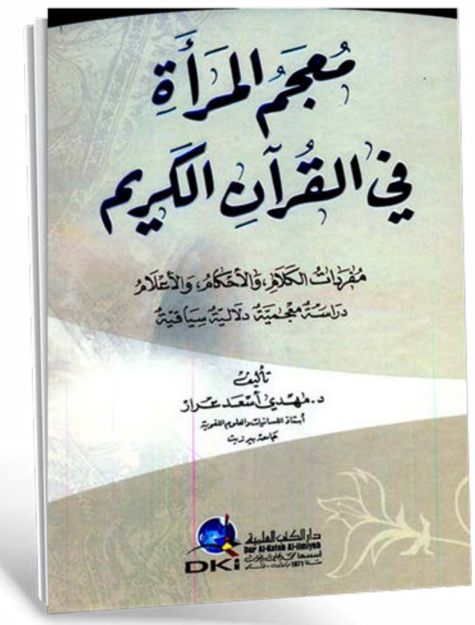
(10) د.عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، ص:268.

(11) عبد الفتاح لاشين: من أسرار التعبير في القرآن حروف القرآن، منشورات شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، ط:01، الرياض، المملكة العربية السعودية،1403هـ/1983م، ص:01-02.

(12) فؤاد أحمد زمرلي: مقدمة كتاب: الأمثال في القرآن الكريم لابن قيّم الجوزية، حققه وخرج أحاديثه، وعلق عليه: فؤاد أحمد زمرلي، منشورات دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط:01، 1434هـ/2013م، ص:46 وما بعدها.

وقفـةٌ معَ الأعْمـالِ الـفائِـزةِ فـي جـائِـزَةِ الشّارقَة للدّراساتِ اللّغويّة والمُعجَميّة

فَرع الدِّراسات المعجميَّة (الدَّورة الخامسة- 2022)



معجم:

المرأة في القرآن الكريم:

مفردات الكلام، والأحكام، والأعلام

دراسة معجميَّة سياقيَّة دلاليَّة

للأستاذ الدّكتور: مهدي عرار



هبة هشام
باحث لغويّ في مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

مِنْ بَينِ عَدَدٍ مِنَ الدِّراساتِ المُعجميَّة الرَّصينة، حازَتْ دِراسَةُ الأستاذ الدّكتور مهدي أسعد عرار بعنوان: (معجم المرأة في القرآن الكريم: مفردات الكلام، والأحكام، والأعلام- دراسة معجميَّة سياقيَّة دلاليَّة) المَرْكَزَ الثّاني ضِمْنَ فِئَةِ الدِّراساتِ المُعْجَمِيَّة في جائِزَةِ الشّارِقَةِ للدِّراساتِ اللُّغَوِيَّةِ والمُعْجَمِيَّةِ خلالَ دَوْرَتِها الخامِسَة للعام 2022م، وتحتَ مِحْوَرِ المُعجَمِ المُختَصّ في العُلومِ والفُنون؛ ذلكَ أنَّها دراسةٌ معجميَّة مختصَّة بالمرأة في مضمارٍ حدوده القرآن الكريم، انقدحَت فكرتُها في ذهن مؤلِّفِها بعد عملِه في مؤلَّفات أخرى اشتغلَ فيها على دراسَة ألفاظِ القرآن الكريم، فوَردَ على كلمات تختَصُّ بالمرأةِ أو تتَّصِل بها، فوجد فيها حقلاً دلاليًا عريضٌ بابُه، رحْبٌ مِضماره، متعدِّدة مسالِكُه وطرائقه، فَأفضَت به إلى إفرادِ معجمٍ قائمٍ برأسِه للمرأة، مُشتَملاً على كُلِّ ما يَخُصُّها فيه من كلامٍ وأحكامٍ وأعلامٍ.

ارتضى المؤلِّفُ أن يكون مُعجَمُه هذا مؤتلفًا من قُطبَين عريضَين، موزَّعًا بين مطلَبَين من القول، أحدُهما: مطلب للحديث عن ألفاظٍ قالَتْها المرأة، أو أوصافٍ أُسبِغَت عليها، أو أفعالٍ أُمِرَت بها أو أتَتْها، أو ألفاظٍ اختصَّت بالمرأة، أو اختصَّت هي بها، أمّا المطلب الثّاني فمخصَّص للقول في أعلامِ النِّساء الوارِدَة في القرآن الكريم وُرودَ تلميحٍ أو تصريحٍ أو في مناسبة نزول، كما رتَّبَ المؤلِّفُ موادَّه ومداخِلَه المعجميَّة وفقًا لنهجِ معاجم الألفاظ، ولم يكُن اتّباعُه هذا النَّهج مقصودًا لها في الرُّؤية أو التَّصنيف والتَّرتيب، إنَّما عدَلَ عنه إلى نهجٍ آخر قائم على اجتراح أوصافٍ مخصوصةٍ بناءً على تصيُّد الكلمات المختصَّة بالمرأة في التَّنزيل العزيز أسماءً وأفعالًا وصفاتٍ وأعلامًا، فعَمِدَ إلى إثبات المادَّة الأصل في مفتَتح كلِّ مباحثة، ثمَّ إتباعها بأوصاف نصيَّة كما ورَدَت في القرآن الكريم، أو أوصاف اصطنَعها بنفسه بناءً على ما وردَ من آيات تحت تلك المادَّة، فكانت هذه الأوصاف مداخل معجميّة رئيسة، ورتَّب موادَّ المعجم ترتيبًا أبتثِيًّا على حروف التَّهجّي، ورتَّب المداخل المعجميَّة وفقًا للألفاظ لا المعاني، فلم يُدخِل تحتَ أيِّ وصفٍ ما ليسَ من اشتِقاقِ جذرِه، ومثال ذلك مادَّة (ولد) وتحتها الوصف: (المرأة الوالدة) فلم يَذكُر تحت هذا الجذرِ وتلك المادَّة أيًّا من المعاني والآيات التي وردَ فيها معنى (الوالدة) كالأمّ مثلًا؛ ذلك أنَّ منهجه هو التَّعويل على الألفاظ اعتمادًا على الجذور لا المعاني، والتماس ألفاظ المرأة كما وردت في التَّنزيل وتنظيمها وفقًا لجذورها، ولم يُثبِت في المداخل المعجميّة الأفعال أبدًا، ولا الأسماء إلّا في بضعة مواضع، فكلّ المداخل أوصاف تبتدئ غالبًا بلفظ امرأة متبوعة بكلمة هي صفة حسب الوارد في القرآن الكريم إمّا بنصّه، مثل وصف (المرأة الحمّالة) في قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ [المسد: 4]، أو من اصطناع المؤلِّف بناءً على الوارد في نصّ التّنزيل العزيز مثل وصف (المرأة المعتَزَلَة) في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: 222].

تجدرُ الإشارة إلى أنَّ للقراءات القرآنيَّة حضورًا لم يُغفله المؤلِّف في معجمِه هذا، بيدَ أنَّها لم تَكُن مقصودَة لِذاتِها، إنَّما ورَدت في ثِنيِ المباحث المعجميَّة أنّى كان لها أثرٌ في المعنى والتَّعريف والصّياغة الصَّرفيَّة، وبناءً على ما سبق يمكن القول بأنَّ ترتيب المعجم وفق شواهد من التَّنزيل العزيز إنَّما قامَ على أمور، أوَّلها: إثبات المادَّة (الجذر) في مُفتَتح المبحث، وثانيها: العمل على تعيين المداخل المعجمية التي جاءت على صورة أوصاف مختصَّة بالمرأة كأن يقول: المرأة الطّاهر، والمرأة المتطَهِّرة، والمرأة المُطَهَّرَة تحت مادَّة (طهر)، ثمَّ النَّظر إلى الدّلالة المعجميّة أوّلًا، فالدّلالة الصّرفيَّة ثانيًا، فالدّلالة السّياقيّة ثالثًا، ثمَّ الالتفاتُ باقتِضابٍ إلى الحكمِ الفقهيّ المُستَنتَجِ من تركيب الكلام في سياقِه الشَّريف، مع الإشارة إلى أنَّ الأحكام الفقهيَّة المختصَّة بالمرأة في التَّنزيل العزيز ليست مطلبًا من مطالب هذا المعجم، بل هي تابعة للمفردات والأوصاف اللُّغويَّة التي اصطنَعها المؤلّف بناءً على الكلمات القرآنيَّة، وهكذا يغدو الحديث عن الأحكام الفقهيَّة فرعًا لا أصلًا رئيسًا، وخادمًا لشرح الدّلالة اللّغويَّة والسِّياقيَّة لا مطلبًا يُقصَد، كما



يُضافُ إلى ذلك كلّه -أحيانًا- التماس المؤلّف بعض النُّكت البلاغيَّة المُفضِيَة إلى تجلّي مظهر من مظاهر الإعجاز اللّغويّ.

أمّا المطلب المُخصَّص للأعلام فقد ارتضى المؤلّف ترتيبَه وفق أقسامٍ ثلاثة، أوّلها: المرأة الوارد ذكرها من البيت النّبويّ الشّريف، ويَقصِد به كلّ امرأة وَرد ذكرها في القرآن الكريم ممَّن لهُنَّ صلة قرابة بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلَّم، كنساء النَّبيّ، وبناته، وعمّاته وبنات عمّه، وغير ذلك. وثانيها: المرأة من بيوت الأنبياء ممَّن ورد ذكرهنَّ صراحة في القرآن الكريم بصرف النَّظر عن ذكر الاسم أو عدَمِه، مثل زوج أبينا آدم عليهما السّلام، وأخت الكليم موسى وأمّه، وابْنَتا الشَّيخ الكبير وغيرهما، وثالثها: المرأة عامَّة في القرآن الكريم على اختلاف أحوالِها، زوجًا، وأُمًّا، وأختًا، وبنتًا، ومُجادِلَة وشاكِيَة ومُحاوِرَة، مع التّنبيه إلى أنَّ ذكر هذه الأوصاف ليس مقصودًا لذاته، إنَّما عُنِيَ به امرأة مخصوصة معلومٌ سياقُها على وجهِ التَّعيين، كما لا يُقصَدُ من هذا المطلب بأقسامه الثَّلاثة الترجمة لكلّ امرأة وردَ لها ذكرٌ تصريحًا أو تلميحًا، بل رصدُ الاسم أوّلًا، ثم تعيين سياق وروده الشَّريف في النَّظم القرآنيّ ثانيًا، وتجلية ما تضمَّنه السّياق من حكمٍ فقهيّ أو خبرٍ قصصيّ، أو مناسبة نزول ثالثًا.

قَدَّمَ المؤلِّفُ هذا المعجم توسعةً لآفاق البحث المعجميّ في التَّنزيل العزيز، مجتهدًا في الكشف عن صورة المرأة كما أرساها كلام الحقّ سُبحانَه، عبر التوغّل في ألفاظها وأسمائها، وتتبُّع مساراتها الدّلاليَّة، وتفكيك أنماط حضورها في السّياقات المختلفة تشريعًا وسردًا ووعظًا وبيانًا وغير ذلك، فلم يقفْ جهدُه عند حدودِ الجمع والتَّعريف، بل انفتحَ على أفق التَّحليل والاستشكال، محرِّرًا الألفاظ من أَسْرِ القراءة التَّجزيئيَّة، ومُوصِلًا إيّاها بجذورها البلاغيَّة والنَّصِّيَّة، وبسياقاتها التَّاريخيَّة والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة إلى الكشف عن شبكةٍ غنيَّة من العلاقات التي تنسُجها المرأة مع النصّ، بما تحمل من رموز وأبعاد إنسانيَّة ووجوديَّة، فأبرزَ بذلك التَّنوُّع القرآنيَّ في تصويرها، وفتحَ أُفُقًا رحبًا لحوارٍ متكافئٍ بين التُّراث العربيِّ الإسلاميِّ وأدوات البحثِ المعاصر، كما سَعى إلى إعادةِ بناء رؤيةٍ قرآنيَّة متكاملة للإنسان والعالم من خلال المرأة ذاتها، ومن هنا يتراءى هذا المعجم أداةً علميَّة رصينة، ومرجعًا لا غِنى عنه للباحث الطّامح إلى الغوص في أعماق النَّصِّ القرآنيّ الكريم، وإدراك ما تنطوي عليه ألفاظه من دُرَرٍ مكنونَة، مصحوبًا برجاء مؤلِّفه أن يُهيِّئَ له الله جلَّ شأنه من يتولّاه بالمراجعة استدراكًا وتصحيحًا ونقدًا أمينًا لما يَردُ عليه.

حِكَمٌ وَآدابٌ

قال أبو الفتح البُسْتي:

أَحْسِنْ إلى النّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلوبَهُمُ ... فَطالَما اسْتَعْبَدَ الإنْسانَ إحْسانُ
أَقْبِلْ على النَّفْسِ واسْتَكْمِلْ فَضائلَها ... فَأَنْتَ بالنَّفْسِ لا بِالجِسْمِ إنْسانُ
وكُنْ على الدَّهْرِ مِعْوانًا لِذي أَمَلٍ ... يرجو نَداكَ فَإنَّ الحُرَّ مِعوانُ

المَرْءُ بأصْغَرَيْهِ قَلْبِهِ ولِسانِه

قالَ محمَّد بن الغار: دخلَ رجلٌ على سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين، فتكلَّم عندَه بكلامٍ أُعجِب به سليمان، فأرادَ أن يختَبِره لينظر عقله أهو على قدْرِ كلامِه أم لا، فاختَبَره فوجدَه مضعوفًا، فقال:

«فَضْلُ العقلِ على المنطقِ حكمة، وفَضْلُ المنطق على العقل هجنة (أي عيب)، وخير الأمور ما صدّق بعضُها بعضًا».

وقيلَ في هذا المعنى:

وما المرءُ إلا الأصغرانِ: لسانُهُ ... ومعقـولُه، والجسـمُ خَلـقٌ مصـوَّرُ
وإنْ طُــــرَّةٌ راقـتْــكَ فـــرُبَّما ... أَمَـرَّ مـذاقُ العـودِ والعودُ أخضـرُ

وأحسنُ ما قيل في هذا المعنى قولُ زهيرٍ:

وكائن ترى من مُعجِبٍ لك صامتٍ ... زيادتُـهُ أو نقصُـهُ فـي الـتكـلُّم
لسانُ الفـتى نصـفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يبـقَ إلا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ

كائن: لفظة في «كأين» بمعنى «كم»، والمراد: كم ترى من مُعجبٍ لك ساكتٍ، وإنما يُحكَم عليه بالكمال أو النَّقص من كلامه.



وصية الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بمكتبته



عادل عبدالرحيم العوضي
باحث في التراث

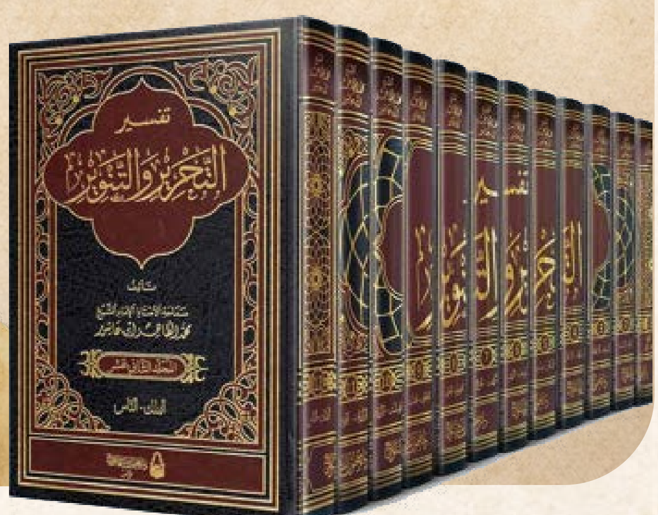
عُنِيَت تونس منذ فجر تاريخها الإسلامي بتأسيس المكتبات وجمع المؤلفات حتى يستفيد الناس منها ويرتووا من مَعِينها، وكان الوازع الديني والدافع الإنساني الأخلاقي يَحُثّانِ أهل الخير والعلم على إنشاء تلك المكتبات وحفظ تلك المؤلفات بها، فتتيسَّر المعرفة من خلالها ويسهل الوصول إليها وتُتاح سبل الاستفادة منها.

وكانت القيروان سبَّاقة ورائدة، وكانت بها مكتبة عموميّة، فيها من نفائس الكتب ما لا يُقَدَّر بثمن، وكان الجامع الأعظم بالعاصمة، جامع الزيتونة مَعْلَماً من أهم المعالم الثقافية.

ودفعت الحاجةُ الملحّةُ الناسَ إلى نسخ الكتب وبيعها التعيُّش من ذلك، زيادة على اكتساب الزّاد المعرفي العلمي، فكان الغني المتطلّع إلى العلم يبذل المال في سبيل التزوّد بالمؤلّفات وكسبها وضمّها إلى مكتبته، وكان الفقير يسعى إلى ذلك أيضاً بطرق أخرى كالنسخ والاطلاع والبيع والاتّجار فيما ينسخ.

وهكذا تكوّنت بالبلاد التونسية المكتبات الخاصّة وانتشرت في سائر أرجائها، وتحدّث بأمرها الناس، وكان جمع الكتب واقتناؤها شَغَفاً وولعاً عند بعض الناس فبذلوا في سبيلها كلّ ما يملكون، ومن بين تلك المكاتب التونسية الخاصة مكتبة الطاهر ابن عاشور، رحمه الله.





التعريف بالمكتبة:

تستمد المكتبة هيبتها ووقارها من أمجادها، ويكفيها فخراً أنها التصقت بعلمين بارزين شهيرين هما: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وابنه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، وتقع بالمَرْسَى بالقرب من العاصمة تونس، وتضمُّ عدداً كبيراً من المخطوطات والمطبوعات تزيد على 4000 كتاب، وعدد المخطوطات يتجاوز 1000 مخطوط، وقد صوَّرَت بعض بعثات معهد المخطوطات بمصر بعضاً منها، بشرط ألا تحقق أو تطبع إلا بعد موافقة الشيخ ابن عاشور رحمه الله.

ويعود أصل المكتبة إلى الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب بوعتور (1824-1907م) ، وهو جدُّ محمد الطاهر ، من أمه.

والمكتبة تشغل قاعة كبيرة بقصر المَرْسَى، ولها فهرس بخط الطاهر بن عاشور نفسه، وفي آخره وصية للشيخ بجَعْلِ المكتبة لابنه الشيخ الفاضل، كما أن لها فهرساً عبارة عن جُذاذات مرتبة على المواضيع، وعلى العناوين، وعلى المؤلفين، وله نظير بدا ر الكتب الوطنية التونسية.

وكانت المكتبة تُفتح يومي الثلاثاء والخميس من كل أسبوع أمام الباحثين الحاصلين على استرخاص من دار الكتب وآل عاشور.

ويبدو أن العائلة قد عملت بالتراضي والتفاهم على أن يكون لكل أفرادها ما يختاره ويرغب فيه من مخطوطات ومطبوعات، والجزء الأكبر من هذه المكتبة موجود الآن بالقصر المذكور بحوزة السيد عبدالملك ابن عاشور (ابن الشيخ الطاهر)، وابنه محمد العزيز ابن عاشور.

وجدير بالذكر أن أغلب مخطوطات المكتبة على هوامشها تعاليق هامة ومتنوعة بخط الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، بجانب مجموعة من النفائس التي تتفرد بها المكتبة.

ولا تتيسَّر الاستفادة الآن من هذه المكتبة العظيمة إلا بصعوبة بالغة، حتى إن الدكتور شاكر الفحام كتب في مقدمة كتابه عن (ديوان بشار بن بُرد) أنه بذل كل جهد، وتوسَّط لدى القائمين على المكتبة بكل رفيع القدر، فلم يظفر بصورة النسخة العاشورية.

ويحدثنا دكتور إياد الطباع عن زيارته الشخصية لهذه المكتبة ووصفه لها، فيقول : " تُعدُّ مكتبة آل عاشور من المكتبات الخاصة الشهيرة ليس في تونس وحسب، وإنما لدى الباحثين في العالم؛ إذ تنفرد بوجود أصولٍ فريدة، وقد قام بنشر بعضها الشيخ محمد الطاهر مثل: (ديوان بَشَّار بن برد)، وقد قدر اللهُ لي زيارة هذه المكتبة ثلاث مرات، كانت أولاها في حياة الأستاذ عبد الملك بن محمد الطاهر ابن عاشور -رحمه الله- الذي تفضَّل وأطلعني عليها؛ ويُقَدَّر عددُ الكتب فيها بنحو خمسة آلاف كتاب؛ منها ألفا كتاب من المطبوع، ونحو ثلاثة آلاف كتاب مخطوط، وقد خُصِّصَ لها غرفةٌ كبيرة، امتدَت أرففُ الكتب إلى دهليز يصل بينها وصالات البيت، ومَقَرُّها في ضاحية المَرْسَى، في قصرِ الإمام ابن عاشور، قرب العاصمة التونسية.

ومن مخطوطات المكتبة نسخة خزائنية من المصحف الشريف كُتِبَت في اثنتين وثلاثين صحيفة بخط مغربي، في كلِّ صفحتين جُزءٌ من أجزاء القرآن، وتختلف زخرفة كلِّ وجهٍ عن الآخر، وقد قامتْ بتصويرها بالألوان الشركة التونسيّة للنشر، ومن مخطوطاتها أيضاً كتابا أبي العلاء المعرِّي: مُعْجِزُ أحمد، واللامعُ العزيزي.

وتحفل كثير من كتب المكتبة بتعليقاتِ الشيخ محمد الطاهر وحواشيه وتقييداته، ولا عجب في ذلك، فقد كانت المأوى الهنيء له، والسَّكن الذي ترتاحُ نفسه إليه، والمنهل الذي لا يَضَنُّ عليه بشيء من عطائه؛ ذلك أنَّ الشيخ كان يشرف على تزويدها والعناية بها بنفسه، ويستقصي الكتب الفريدة والثمينة والمطبوعات الهامة ليزوّد بها مكتبته طيلة حياته.

وللمكتبة فهارسُ خاصة بمحتوياتها، موضوعة تحت نظر القادم بكل ترحاب وبشاشة وضيافة، وعنها نسخة في دار الكتب الوطنيّة التونسية في العاصمة التونسيّة. ويقوم الآن على رعاية المكتبة الدكتور محمد العزيز بن عبد الملك بن محمد الطاهر ابن عاشور، وما زالت ملكاً لآل عاشور، لم يتم التصرف فيها.

ترجمة المُوصي:

هو العلامة المفسر محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور الشريف، ولد في تونس سنة (1296 هـ/ 1879 م)، من أسرة علمية عريقة.

برز في عدد من العلوم ونبغ فيها كالشريعة واللغة والأدب ، وكان متقناً للُغة الفرنسية ، وعضواً مراسَلاً في

مجمعي اللغة العربية بدمشق والقاهرة، وتولى مناصب علمية وإدارية بارزة كالتدريس والقضاء والإفتاء ، وجرى تعيينه شيخاً لجامع الزيتونة.

وألف عشرات الكتب في التفسير، والحديث ، والأصول ، واللغة ، وغيرها من العلوم ، منها تفسيره المسمَّى: «التحرير والتنوير»، و «مقاصد الشريعة» ، و «كشف المغطا من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطا»، و «أصول الإنشاء والخطابة»، و «النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح»، وغيرها من الكتب النافعة.

توفي في تونس سنة (1394 هـ /1973م)، عن عمر يناهز الثامنة والتسعين.



ترجمة المُوصى له:

هو محمد الفاضل ابن الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن محمد ابن عاشور، أحد الأئمة الاعلام في تاريخ تونس المعاصر ومن أعلام الفكر الإسلامي الحديث، موسوعي الثقافة، وخطيب لامع، وسياسي محنك، ولد بالمَرْسَى من ضواحي تونس الشمالية أو بتونس في (2 شوال سنة 1327هـ/ 16 أكتوبر 1909م).

وقد تربّى في أحد بيوت الدين والعلم، إذ كان والده محمد الطاهر ابن عاشور من كبار العلماء في تونس، كما أن صهره والد زوجته هو محمد عبد العزيز جعيط الذي سبقه في منصب مفتي الجمهورية.

وبدأ حفظ القرآن الكريم وهو في الثالثة من عمره حتى أتمه في سنٍّ التاسعة، كما حفظ بعض المتون في النحو ثم تعلم اللغة الفرنسية على أيدي معلمين خصوصيين.

وفي سنة 1922 م بدأ دراسة مبادئ القراءات والتوحيد والفقه والنحو، ثم التحق بجامع الزيتونة إلى أن أحرز شهادة التطويع سنة 1347هـ/1928م.

ثم التحق بالتدريس بجامع الزيتونة سنة 1351هـ/1932م، وارتقى سلّم المدرسين الزيتونيين حتى سُمّي مدرساً من الطبقة الأولى.

وبعد الاستقلال (1956م) أُسندت إليه عمادة كلية الشريعة وأصول الدين في جامعة الزيتونة سنة 1381هـ/1961م، واستمر بها إلى وفاته في (12 صفر 1390 هـ - 19- إبريل 1970م).

كما اشتغل مناصب قضائية من بينها أنه ترأّس المحكمة الشرعية العليا، وتولّى منصب مفتي الجمهورية التونسية.

نسخة الوصية:

من اهتمام العلماء بمكتباتهم وَقْفُهَا أو هبتها لكي تُصان من التلف والضياع بعد موتهم، وهذا ما فعله محمد الطاهر ابن عاشور بأن كتب نصَّ هِبَتِهِ لمكتبته وجميع ما فيها من مخطوطات وكتب وأوراق و تحف لابنه محمد الفاضل، ولكن قدَّر الله أن تُوفي ابنه المذكور في حياته.

وجاءت الوصية في آخر فهرس مكتبة محمد الطاهر ابن عاشور الذي أعدَّه بنفسه ، وكتبه بخطه ، وحسناً فَعَلَتْ بعثة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة بتصويرها هذا الفهرس ، برقم (72 مكتبات).

وقد وصف الفهرس الدكتور إبراهيم شبوح ضمن بحثه (فهرس الفهارس المصورة لمعهد المخطوطات العربية).

فهرس مكتبة الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور

وضعه صاحب المكتبة الطاهر ابن عاشور، ويشتمل على المخطوط والمطبوع، وقد صدَّر كل فنٍّ بمقدمة للتعريف به على منهج صاحب كشف الظنون.

وطريقته أن يذكر رقم الكتاب، ثم اسمه، ومصنفه ، وقد يترجم له ، ثم يتناول المخطوطات بأوصاف على جانب كبير من الدقة، ولا يخلو الفهرس من هوامش ومقحمات جيدة.

ورتبه على الموضوعات:

(1) علوم الشريعة، وفيها (19) فرعاً.

(2) علوم العربية، وفيها(7)فروع.

(3) علوم المدنية والعمران، وفيها (4) فروع.

(4) العلوم الفلسفية، وفيها (3) فروع.

(5) الرياضيات، وفيها (4) فروع.

(6) الطبيعيات، وفيها (5) فروع.

(7) ما وراء الطبيعة، وفيها فرعان.

(8) المشتركات، وتشمل المجاميع والتآليف المشتركة.

(9) اللغة الأجنبية.

والحقُّ أن هذا الفهرس يحتاج إلى دراسة مفردة ، فهو من الفهارس النادرة؛ لما فيه من معلومات ووصف للمخطوطات بطريقة علمية مفيدة.

والوصية مكتوبة بخطِّ الشيخ ، وهو خط مغربي ، واحتاجت على قلة أسطرها إلى نظر طويل في مواطن منها ، كما أن المُوصي استخدم بعض الكلمات العامية التونسية فيها، ونرجو أن نكون أصبنا في قراءتها على وجهها .

نَصُّ الوصيةِ

الحمدُ للهِ، والصَّلاةُ والسلامُ على سيِّدِنا محمدٍ وعلى آلِه وصَحْبِه. يقولُ محمدٌ الطاهرُ ابْنُ عاشورٍ: وَهَبْتُ لابْنِي الابْنِ الشيخِ محمدٍ الفاضلِ ابْنِ ابْنِ عاشورٍ جميعَ الكتبِ العلميةِ والأدبيةِ وغَيْرِها مِنَ الكتبِ باللغةِ العربيةِ وغيرِها مِنَ اللُّغاتِ المخطوطِ منها والمطبوعِ، وهي المذكورةُ أسماؤُها وصفاتُها بهذا الدَّفْتَرِ، المُلْصَقَةِ به هذه الورقةُ الموضوعةُ في سبعِ خزائنَ وعلى ثمانيةٍ وعشرينَ رَفًّا، وعلى سُطوحِ الخزائنِ المذكورةِ الكائنِ جميعُها بالبيتِ المُعَدِّ لخَزْنِ الكتبِ الجَوْفِيِّ الفَتِحِ بالطَّاقِ العُلْوِيِّ من القَصْرِ بسانيتنا ببَلَدِ المَرْسَى وما تحتوي عليه تلكَ الخزائنُ من الأوراقِ والوثائقِ والصُّورِ، وما يحتوي عليه ذلك البيتُ من الصُّورِ والمُعَلَّقَاتِ والتُّحفِ، وكذلك الكتبُ والوثائقُ الموضوعةُ بالخَزائنِ الثلاثِ الكائنةِ بالبَيْتِ الجَوْفِيِّ الفَتْحِ الكائنِ بالقِسْمِ الخارجيِّ بالجَناحِ القِبْلِيِّ من البناءِ الذي به بابُ السَّانيةِ المذكورةِ، وكذلك جميعُ الأوراقِ الموضوعةِ بخِزَانَةٍ صُغْرَى مُعَدَّةٍ للأوراقِ كائنةٍ بالبيتِ الجَوْفِيِّ الفَتْحِ المذكورِ أولاً بالقَصْرِ المذكورِ هِبَةً تامَّةً شَرْعِيَّةً أخرجتُ بها جميعَ المذكوراتِ عن مِلْكِي وصَيَّرْتُها بها مِلْكاً للشيخِ الموهوبِ لهُ المذكورِ. وكَتَبْتُ هذا إنشاءً للهِبَةِ المذكورةِ وإيجاباً لها لا على قَصْدِ التَّأَمُّلِ، وجعلتُ إمضاءَهُ عَقِبَ هذا علامةً على إتمامِ الهبةِ المذكورةِ. صحَّ. مُحَمَّدٌ الطاهرُ ابْنُ عاشورٍ. وقد حَوَّزْتُه بتلك الخزائنِ والرُّفوفِ المذكورةِ كُلِّها فقَبِلَهُ مِنِّي وحَازَه عنِّي. صَحَّ. مُحَمَّدٌ الطاهرُ ابْنُ عاشورٍ.

المصادر والمراجع:

(1) الموسوعة التونسية المفتوحة.

(2) نظرات في ديوان بشار بن برد، شاكر الفحام، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط2، 1983م.

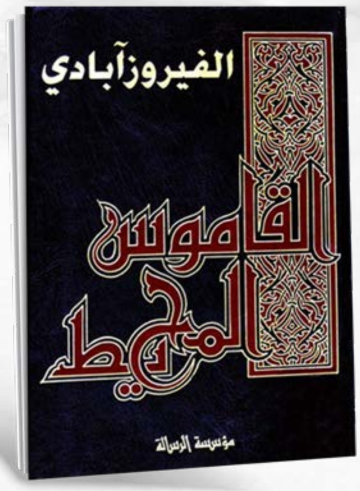
(3) بعثة معهد المخطوطات إلى تونس، مجلة معهد المخطوطات، ربيع الثاني 1376هـ/ نوفمبر 1956م، مج2، ج2.

(4) المخطوطات التونسية وصيانتها، محمد أبو الأجفان، مجلة الحياة الثقافية، يناير 1990م.

(5) مخطوطات دار الكتب الوطنية بتونس، جمعة شيخة، مجلة معهد المخطوطات، محرم 1418هـ/ مايو 1997م، مج41، ج1.

(6) محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، دار القلم، ط1، 1426هـ/2005م.

(7) تعريفات العلوم للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، د.ط، د.ت.



شَرْحُ (القَامُوس المُحِيط) بِحَاضِرَةِ سِجِلْمَاسَةَ العَالِمَةِ

د. أيوب بن مسعود
باحث

الكتابُ مطلَعُ كُلِّ حُسْن، ولله درُّ الجاحظِ إذ يقولُ: «الكتابُ قد يَفضُل صاحبَه، ويتقدَّمُ مؤلِّفَه، ويُرجِّحُ قلمَه على لسانه بأمور: منها أنّ الكتاب يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهرُ ما فيهِ على كل لسان، ويوجدُ مع كلِّ زمان، على تفاوتِ ما بين الأعصار، وتباعُدِ ما بين الأمصارِ؛ وذلكَ أمرٌ يستحيلُ في واضعِ الكتاب، والمُنازعِ في المسألة والجواب»(1). استدْعينا هذا السّندَ ليكون مثالاً دالًّا على شُيوع الكتابِ وبقائِه، ولِننتهيَ أيضًا إلى تقريظ الزَّبيديّ لكتابِ القاموسِ المحيطِ للإمامِ مجدِ الدّين الشّيرازي؛ وإنّا نحرصُ هنا على استلالِ فائدةٍ خُصَّتْ بهذا الكتابِ الذي: «إذا حُوضِر بِهِ فِي المحافل فَهُوَ بَهاءٌ، وللأفاضل مَتى ورَدُوه أُبَّهة، قد اخترق الآفَاق مُشَرِّقًا ومُغَرِّبا، وتدارك سَيرُه فِي الْبِلَاد مُصَعِّداً ومُصَوِّبا ...، وَجَلَّت مِنَنُه عِند أهل الفنّ وبُسِطَتْ أياديه، واشتهر فِي المدارِس اشتهارَ أَبي دُلَفَ بَين مُحتضَرِه وبادِيه»(2).

بعْد طُولِ نظرٍ في خُطبة الزَّبيديّ، لحظْنا أنَّ المقاصدَ الثّاويَةَ وراء خطابِه تتمثّلُ في تدَبُّرِ القاموس المحيط بوصْفِه صناعةً أو على الأقل بوصْفِه فنًّا من فنونِ العلِم: خدمةً وتحصيلاً وتكميلاً. وقد قالَ فيه: «...أجلَّ مَا أُلّف فِي الْفَنّ، لاشْتِمَاله على كلِّ مُستحسَن، من قُصارَى فصاحة العَرَبِ العَرْبَاء، وبيضةِ منطِقها وزُبدة حِوارِها، والرُّكْنَ البديع إِلَى ذَرابة اللِّسَان، وغَرابَةِ اللَّسَن، حَيْثُ أَوْجَزَ لفظَه وأشْبَعَ مَعْنَاهُ، وقَصَّرَ عِبارَته وَأطَال مَغْزاه، لَوَّح فأَغرَقَ فِي التَّصْرِيح، وكَنى فأغنى عَن الإفصاح، وقَيَّدَ مِن الأوابد مَا أَعرض، واقتنصَ من الشوارد مَا أكثب، إِذِ ارْتبط فِي قَرَنِ تَرتيب حُرُوف المعجم ارتباطاً جنحَ فِيهِ إِلَى وَطْءِ مِنهاجٍ أَبْيَنَ من عَمود الصُّبح، غيرَ مُتجانِفٍ للتطويل عَن الإيجاز»(3) ، ولمّا كان كذلك، تصَدَّرَ لكشفِ لطائفِهِ وفوائده طبقةٌ عاليةٌ من أهل العلِم، قالوا برأيهم: شرحًا وتفسيرًا، مِنهمُ: «الإمام اللّغويُّ أبو



العبّاس أحمدُ بنُ عبد العزيز الفِيلاليّ، المُتشرّف بخلْعةِ الحياة حينئذٍ، شرحهُ شرحًا حسنًا، رقَى به بين المحقّقين المقامَ الأسنَى، وقد حدّثنا عنه بعضُ شيوخنا»(4).

تشهدُ العِبارَةُ أنّ أبا العبّاس مرجعٌ في هذا الباب أصيلٌ، والمعلومُ أنّه قيّدَ توليفاتٍ متعدّدةً لم ترَ نُور النّشر والتّداوُلِ بعدُ، منها: (إسعافُ اللُّبِّ الأنُوس بالأهمِّ المأنوسِ من مُصطلحِ صاحبِ القاموس)، وكتابُ (إضاءة الأدْموس ورياضةُ الشّموس في اصطلاح القاموس)، و(فتحُ القُدّوس في شرح خُطبةِ القاموس) (5)، وغيرها.

نرى إذن أنَّ المُقدمةَ البانية لخطاب أبي العبّاس تُراجعُ بعضَ شُروح القاموس، التي لم تُباحث خُطبتَه، مُؤْثِرًا ما للخُطبَةِ من وقعٍ جماليٍّ خاصٍّ صَوَّرهُ جهازُ القراءةِ عند أبي العبّاس، يكادُ يُضاهي القاموسَ نفسَه، ذلك أنَّ خطابَ المقدّمة يثوي في بِنْيته الكلّيّةِ ما يؤكّدُ أنّ الخطبةَ يَحقُّ: «أن تُسمّى وحدَها قاموسًا»(6)، ألا ترى أنَّ الشّروحَ والرّوايات التي تأمّلتِ القاموسَ اعتراها كثيرٌ منَ النّقص والتّصحيف، ممّا ردّهُ إلى تقْييد كتابه «فتحُ القُدّوس في شرح خطبة القاموس»، وذلك بعد تأمُّلِ مَظانِّ الإشكالِ.

هذا الكتابُ الذي نستلُّ قضاياهُ من ظُلماتِ الخزائن، يحملُ في أطوائه شرحًا وافيًا للقاموس -وما أحوجَ الدّارسَ العربيَّ إلى الرّجوع إلى الكلمة لِيعرفَ رسْمَها ومعناها- ويُصوّر بدِقّةٍ قيمةَ الكتاب قائلاً بلفظه: «إنّي لما رأيتُ كتابَ القاموسِ يجري من كُتب اللّغة مجْرَى الغُرّة منَ الأدْهمِ لِما تفرّد به منَ الجمع الوافي والضّبط الشّافي، وحسنِ الإيجازِ اتّخذتُه غرّة، وجعلتُه عمرةً أرجعُ إليها في تفسير ما أشكلَ وضَبْطِ ما اشتبهم، فألْفَيْتُهُ يُقرِّبُ الأقصى بلفظٍ مُوجَز، ويبسطُ البَذل بوعدٍ زانتْه حِليةُ الإنجاز»(7).

رأيتَ أنّ (فتح القدّوس في شرح خطبة القاموس) منَ الكُتب التّأسيسية في هذا العلم، وهو بالنّسبة إلى دارس الفكر الأدبيّ بتافيلالت فتحٌ كبيرٌ، يؤكّدُ صحّةَ الفرضيّةِ التي عَدَدْناها مُتّكأً، إذْ تمثّلتْ في دور تافيلالت العالمةِ في حمْلِ ألويةِ علوم العربيّة قديمًا.

ونُقدِّمُ هنا بعضَ الأبياتِ التي تحدّث فيها محمّد بن عبد العزيز عن أهمّيّة القاموس، حيث يقول:

أقولُ لِطالبِ اللّغةِ الحَفِيِّ
بِعَزْمٍ كالحُسامِ المَشْرَفِيِّ



سِجِلْمَاسَة - المغرب

> **إنَّ أكثرَ خزائنِ تافيلالت العلميّة تَعرّضت للنّهبِ أوِ الحرقِ أوِ الغرق، وهذا من دواعِي الجهلِ عند بعضِ النّاسِ، الذين جعلوا من مخطوطات العلماء حَطبًا لِموقدِ النّار، ولَكم من مخطوطاتٍ أُحْرِقت من أجْلِ كسرةِ خُبْزٍ، وأمّا ما سَلِمَ منها فبقي مُتوارثًا عند ورثةٍ يجهلون قيمةَ العلْم أو ظَلَّ هذا العلْمُ في رفوفِ الزّوايا منسيًّا مُهمَلاً.**

فَدَيْتُكَ لا سَبيلَ لِذاكَ إلّا
مِنَ القاموسِ ذي الصُّنْعِ البَديِّ
حوى القاموسُ بَيْنَ الكُتْبِ فَضْلا
مُبينًا للأريبِ الألمعِيِّ(8)

لم تكن غايتُنا تسويدَ الأوراقِ بأسماءِ الأعلام، إنّما سُقْنا بعضَ القضايا لندُلَّ الباحثين العربَ عمومًا، والمغاربةَ على وجه الخُصوص على ميدانٍ بِكْرٍ ينبغي تأمُّلهُ قبل أن يَضوعَ عبيرُه بَيْنَ من لا ينتمي إلى هذا القُطر، فتكونَ مذمّةً حقيقيّةً تُمَزِّقُ نرجسيّةَ الباحثِ المغربيّ، وتنعتُهُ بالإهمالِ.

لا بدَّ لدارسِ التّراثِ السِّجلماسيّ وهو يصفُ واقعَ الحالِ، أن يقفَ عند أسبابِ النُّكوصِ التي أدّت إلى التّراجعِ العلميِّ في قُطْرِ تافيلالت، وقد قُلْنا بالتّراجُع؛ لأنّ القولَ بالعلْمِ في تافيلالت قديمًا معلومٌ، كما أنَّ شهادةَ العالمِ الحُجّةِ في الثّقافةِ المغربيّة تدْفعُ الظّنونَ، للتّبيينِ عن عالميّةِ تافيلالت/ سِجلماسة، وأحقِّيةِ علمائها بالمعرفة، وهذا من حقِّ السّابقِ على اللّاحق؛ إذ لا بدَّ أن نحافظَ على الأثرِ الماديّ، وَإشاعتِه في الآفاق.

وختامًا، لا ريب أنَّ الهلاليّ منَ العلماء المغاربةِ الذين اعتنَوا بالدّراساتِ اللُّغويّةِ، وخَصُّوا كتابَ (القاموسِ) بالبحثِ والتّعليقِ،وَ ما يُؤَرِّقُ، أنّه لم يخْرج إلى نورِ التّداوُل رغْمَ عُمْقِه، وهذا الّذي لم يُكْشَفْ بعدُ عن أصالةِ الأدب العربيّ في قُطرِ تافيلالت، خاصّةً وأنَّ أكثرَ التّوليفات جنتْ عليها دواعِي الأيّام، ولم يكتَرِثْ لها الدّارِسُ المغربيّ عمومًا، والفيلاليّ على وجهٍ خاصٍّ، ونحنُ لا نقصدُ في هذا المنْحَى الدّراساتِ التّاريخيّةَ، أو الفقهيّةَ، إنّما الفكرُ الأدبيُّ باعتبارِهِ لَبِنةً تأسيسيّةً في تاريخِ الأدبِ المغربيّ، تُحيطُ بالعلومِ والفنونِ في الثّقافةِ العربيّةِ، ولا يَسعُنا إلّا أن نذكرَ أنَّ شرحَ القاموسِ أظهرَ وعيًا مُتقدّمًا عندَ المغاربةِ بِلسانِ العربِ، ويكفي أن نُحيلَ إلى: أبي عبد الله محمّد بنِ أحمد الشّاذليّ، ومحمّد بن أحمد بنِ المسناويّ الدّلائيّ، وأبي العباس أحمد الصّدّيقيّ السِّجلماسيّ، ومحمّد بنِ الطّيّب الشّركيّ الفاسي، الذي تَحمَّلَ عنه الهلالي، حيث قال في حقه: «أشدُّ من رأيته عنايةً بعلم اللّغة، وأحرَصُهم على مدى سوابقِها أن يبلُغَه»(9).

من الذين باحثوا القاموسَ محمّد الحبيب بن عبد القادر الفيلالي، يذكر المختارُ السّوسي أنّه مكث بمكّة والمدينة المنوّرة «مدرّسًا فيهما ومُفتيا لأهل المغرب»(10)، ولَه نظمٌ في اصطلاح القاموس سمّاه «الأَنْفَسُ المانوسُ».

وقد نَظَمَ العملَ الهلاليّ: (إضاءة الأدموس) محمّد بن عبد القادر الكَردودي، ترجمته في سَلوة الأنفاس،





سِجِلْمَاسَة – المغرب

> تـصـدَّرَ لكشـفِ لطائف الـقـامـوس المـحيـط وفوائده طبقةٌ عاليةٌ من أهل العلم، قالوا برأيهم: شرحًا وتفسيرًا

333/2، كما أنّ محمّد الأمين بن عبد الله [ترجمته في الأعلام 6/33 ــ 40] نظَم ما أبدعَه الهلاليّ في أرجوزة سمّاها (استضاءة الشّموس فيما حوت إضاءةُ الأدموس).

يتّضحُ إذن أنَّ هذا العالِم ممّن قَلَّ نظيرُهُ: علمًا وتَمَكُّنًا، ويَشهدُ على ذلكَ حُظوتُه عند العلماء، يُروَى أنَّ السّلطان محمّد بنَ عبد الله لمّا تمّت بيعتُه، سَألَ أبا حفْصٍ الفاسيّ عن أعلمِ النّاسِ، فقال: «الأحمدون يعني أحمد بن عبد العزيز الهلاليّ السِّجلماسيّ، وأحمد بن عبد الله الغربيّ الرّباطيّ، وأحمد بن محمد الورزازيّ»(11)، وقد قيل هذا الرّأي بحضرة التّاودي بنِ سوْدَةَ رحمه الله، وغيره.

وإضافةً إلى ما لأبي العبّاس من توليفاتٍ، نقول إنّه ألّف رحلةً حجازيّةً(12)، وله ثبتٌ وفهرستان، وقد سبقَ للأستاذ: أبي زكرياء محمّد صغيري أن حقَّقَ الفهرسةَ الكبرى(13). ومنَ المقرّر المعلوم أنَّ فهارس أحمدَ بنِ العباس المذكورِ تَحمَّلَ أخبارَها عن ابنِ عبد السّلام النّاصريّ، نقلاً عنِ التّاودي بنِ سُوْدة، والحُضَيكي، ومحمّد بن أبي القاسم(14).

هذه ورقاتٌ من عطاء علَم من أعلام تافيلالت، أسْعَفَتنا بِكَشْفِ دسَّتهُ ظُلماتُ الأيّام، تجلّى في دورِ الخزائنِ العلميّة ببلاد تافيلالت التي تحوي كثيرًا منَ المخطوطاتِ والكُتبِ النّادرة التي تملَّكها العلماءُ أوِ اشتروها وهم في الأقطار النّائية، نذكرُ على سبيل التّمثيلِ مخطوطاتِ أبي العبّاس أحمدَ بنِ عبد العزيز الهلالي رحمه الله التي كانت موجودةً بالزّاوية الزّينيّة، «حيث دارُه، وهي زاويةُ سيدي علي بن أبي زينةَ بوادي المالحِ بتافيلالت»(15)، وهو جدُّه من جهة والدتِه كما بيّن صاحبُ المُقتبَس الأسنى(16).

على أنَّ الانفتاح على الخزائن العلميّةِ في هذا البلدِ يَفتحُ هِلالاً للوِرَاقةِ والورَّاقين والنِّسَاخَة، ذلك أنَّ هذا المُعطى لا يعدُو أن يكونَ حديثًا باللّسانِ بحاضرةِ تافيلالت، حيثُ يدخلُ هذا العلمُ في بابِ المعدومِ، لولا تنبيهُ محمّد المنوني رحمه الله إلى الورّاقين المعتمَدين في نسخِ القاموسِ بتافيلالت، لمّا قال بلفظه: «أحمدُ بنُ أبي القاسم بنِ محمّد الخياط بنِ إبراهيم الدّكاليّ المشترانيّ كان بقيْدِ الحياة أواسطَ عام 1203هـ/1789م، كتَبَ بخطِّهِ نسخةً منَ القاموس المحيط في مجلّدين وفرغَ منِ انتساخِهما في منتصف شعبان عام 1203ه بسِجِلماسة، وقد سلسلَ في ختام المجلّدَين أصولَ هذه النسخة: واحدًا فواحدًا حتّى الأصلِ الذي عليه خطُّ المؤلّف، وهو يذكرُ أنّه كتبَ نُسختَه هذه من أصلٍ بخطِّ محمّد الملقّب بالقُرشيّ بنِ عبد الملك بنِ الحاج السّجلماسيّ...، ووقع الفراغُ من كتابتِه ضَحْوةَ الخميس 8 مِنْ ذي القعدة عام 1137ه»(17)، وقد خطّ محمّد بنُ عبد السّلام الفاسي(18) مُستهَلَّ القاموس المحيط وصولاً إلى آخر حرفِ الطّاءِ، وقد ذَيَّلَهُ بكتابِ



إضاءةِ الأدموسِ ورياضةِ الشّموسِ من اصطلاح صاحب القاموس لابن عبد العزيز الهلالي، وقد فرغَ من كتابة السِّفْرَيْنِ في فاتح شعبان لسنة 1173هـ(19)، كما أنّ محمّد بن صالح الفيلالي نسخ لأستاذه الهلالي رسالةً في اسم الجنس(20).

نختلِفُ إلى ما تفرّق في فهارس المخطوطات، استنادًا إلى ما أملاهُ محمّد المنوني في تاريخ الوِراقة المغربيّة، للتّبيين عن حضور ورّاقي تافيلالت، علمًا أنّ قضيّة الورّاقين من أهمِّ الإشكاليّات في تاريخ تافيلالت العالِمة، التي ينبغي للمُشتغلين بتُراثِ تافيلالت أن يهتمُّوا بها، خاصّةً أنَّ كتابةَ التّوليفاتِ بابٌ عسيرٌ سُلَّمُهُ، ولا يمكنُ الحديثُ عنِ الخزاناتِ العلميّةِ دون توجيه النّظرِ إلى ما قدّمتهُ أيدي النّساخين في هذا البلد، علمًا أنّه لم يبقَ من هذه الخزائن إلّا الفُتات، ذلك أنَّ أكثرَ خزائن تافيلالت العلميّة تَعرّضت للنّهبِ أوِ الحرقِ أوِ الغرق، وهذا من دواعِي الجهلِ عند بعضِ النّاس، الذين جعلوا من مخطوطات العلماء حَطبًا لِموقِدِ النّار، ولَكَم من مخطوطاتٍ أُحْرِقت من أجْلِ كِسرةِ خُبْزٍ، وأمّا ما سَلِمَ منها فبقي مُتوارَثًا عند ورثةٍ يجهلون قيمةَ العلْمِ أو ظَلَّ هذا العلْمُ في رفوفِ الزّوايا منسيًّا مُهمَلًا، والله المستعان.

---

(1)الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي ط 2، مصر، 1965م ج1/85.

(2)محمد الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، 1965م، ج1/2.

(3) تاج العروس، ج1/2.

(4) نفسه، ج1/3.

(5)يُنظر: مخطوط رقم: Manus 803، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود.

(6) مخطوط: أحمد بن عبد العزيز بن علي الهلالي، فتح القدوس في شرح خطبة القاموس، رقم المخطوط: Manus 026، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود الدار البيضاء. الورقة 1.

(7)ينظر: مخطوط: فتح القدوس، الورقة 1.

(8)محمد البشير ظافر الأزهري، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة، مطبعة الملاجئ العباسية، سنة 1325 هـ، ج1/20.

(9) ينظر فتح القدوس في شرح خطبة القاموس.

(10)المختار السوسي، المعسول، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، 1963م. ج8/206.

(11)عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ط2، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982) ج2/1100.

(12)سماها: التوجه لحج بيت الله الحرام، وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام. مخطوط رقم: 2893 بالخزانة الملكية

(13) دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، سنة: 2018م.

(14)يذكر محمد بن صالح أن محمد بن أبي القاسم :»كان من تلاميذ شيخنا، فلازمه مدة إقامتنا عند السيد المعطي ليلا ونهاراً«. ينظر: المعسول، مرجع مذكور، ج6/ 35.

(15)حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغاربية: المغاربة الأعلام في البلد الحرام، دار اليازوري العلمية، 2017م، ص:150.

(16)أبو عبد الله محمد الحبيب، المقتبس الأسنى في بيانِ طرف من معاني نظم الأسماء الحسنى،)بيروت، دار الكتب العلمية، 2021م(، ص: 62.

(17)قبس من عطاء المخطوط، ص:1010.

(18)له القطوف الدانية في شرح دالية ابن المبارك السجلماسي، ينظر: الخزانة الملكية، رقم المخطوط:997. ورقم: 11007.

(19)مخطوط رقم 3/49 خزانة ابن يوسف مراكش.

(20)مجموع رقم: 2805، المكتبة الوطنية.



مِن أعْلامِ العَربيّة

- إيلْيا أبو ماضي (1376هـ=1957م)

- محمد بن عيسى بن محمود بن محمد بن كنان الحنبلي (1153هـ=1740م)

- ابنُ عُصفورٍ الأَنْدَلُسِيّ أُستاذُ العَرَبِيَّة (669هـ= 1272م)

إيلْيا أبـو ماضـي

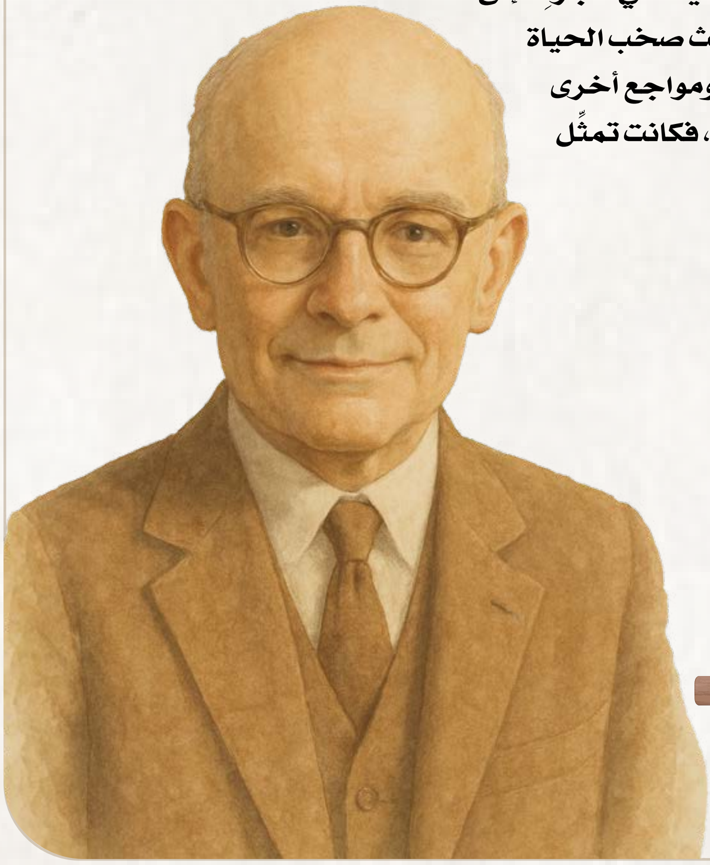
(1376هـ=1957م)



د. عمار ربيع
كاتب وباحث

بين يدي التَّرجمة:

على ربى لبنان السّاحر، وبين جَنَبات وديانه المترعَة بالخصبِ والنَّماء، وفي أفياء طيرِه السّابح المغرِّد، وظلال كرمه الشّادي بالحبِّ والتَّسامح، أطلَّ طفل يمتلئ قلبه رقَّة وصفاء، ورهافة ورواء، وعقله تأمُّلًا وتفكُّرًا فيما حوله. لم يتح له ما أتيح لأقرانه من التَّعلُّم بما يكفي، لشظف كانت تُعانيه عائلته، هاجر صبيًّا إلى مصر، لعلَّ يد القدر تغيُّر بعضًا من حياته، فواكبَ حياة ثقافيَّة زخمة ونشر بها كثيرًا من روائع شِعره. لقد كان إيليا أبو ماضي الشّابّ الطَّموح لا ينفكُّ يبتعدُ بخيالِه وفكرِه عن بلده الذي ترك، فأنشأ دواوينَه الأولى يذكر مراتع صباه. ثم يمضي الفتى بعيدًا في هجرتِه إلى الغرب، حيث الحرّيَّة والحضارة والرُّقيّ، وحيث صخب الحياة وضوضاؤها، فرأى عالَمًا آخر وبشرًا آخرين، ومواجع أخرى كثيرة، دوَّنها صورة ونغمًا في شعره المهجريّ، فكانت تمثِّل ذُروَة نُضجِه وفلسفته في الحياة.





الاسْم الكامِل مع الكُنية واللَّقب:

هو الشّاعر إيليّا ضاهِر إيليّا طانيوس أبو ماضي، عُرِفَ بشاعر المهجر، فقد ملأ سماء أمريكا مهجر كثير من العرب بشاعريَّة فذَّة، غنَّت للوطن وتغنَّت به، وسكنَت روحُه في كلِّ زاوية من زوايا شِعْره، ونثرَت قصائده جمال لبنان في كلِّ الدُّنيا، كما عُرِف بالشّاعر الفيلسوف.

النِّسْبَةُ والأصل والبلد:

هو شاعر لُبنانيّ الأصل، ولكنّ لبنان في ذلك الزّمن كان ضمن نطاق سوريَّة الكُبرى، الّتي كانت تحت وطأة الاستعمار العثمانيّ، مسيحيّ العَقيدة، ولكنَّه كان مُشبعًا بعقيدةِ التَّسامُح التي سادَت وطنَه لبنان، موطنه الأوَّل قرية صغيرة من قرى لبنان، من المتن الشَّماليِّ فيه، قريبة من «بكفيا»، في سفح «جبل صنين» بالمتن الشَّماليّ، بلدة غارقة في الخضرة، منتشية بجمال الطَّبيعة الممتدة من حولها.

المولد:

ولد إيليّا أبو ماضي في قرية «المحيدثة» بلبنان سنة 1306هـ/1889م وقيل 1306هـ/ـ 1890م، في أسرة ريفية فقيرة.

شذرات من سيرته وشمائله وأخلاقه:

الشّاعر إيليا أبو ماضي، شاعر الطَّبيعة والحبّ والفَلسفة، رجل أحبَّ الحياة، وتذوَّق طيبها، ولكنَّه كان يُعاني فيها من ألم الظُّلم والتَّمييز والفقر، شاعر صنع شاعريَّته الفذَّة المتأمِّلة في ما حوله من الطَّبيعة والنّاس، فوصفَ جمال الحياة وأبدع فيه، ووصف تناقُض النَّفس أحيانًا وحيرتها، بين الخير والشَّرِّ، والبذل والبخل، والظُّلم والعدل، والرَّغبة والرَّهبة، فكان شعره في كلِّ مراحل حياته انعكاسًا لما حوله، رحلَ إلى المهجر فلقيَ حياة تعجّ فيها المذاهب والأفكار والرُّؤى، بدا له القهر والظُّلم وبدت له الإنسانيَّة والرَّحمة، أهمَّته قضايا وطنه وقضايا أمَّتِه والإنسانيَّة جميعًا، فكان شعره وصفًا موجَّهًا ومعالجًا لكثير من الأدواء التي سكنت جسد مجتمعه، عاشَ طيلة حياته شاعرًا ملهمًا وفيلسوفًا فذًّا، ينظرُ فيما حوله فيصف ما تراه عينه بعقله المتَّزن، فيصف الطَّبيعة تارة، والنّاس كبيرهم وصغيرهم تارة أخرى، سيّدهم ومسودهم، غنيُّهم وفقيرهم، مهمُّهم ومهمَّشهم، يَصِف المدن والقُرى والشُّعوب، يصف العُبّاد والنُّسّاك كما يصف اللُّصوص والأفّاقين، ويضع في كل هذا موازين لمجتمعه ويؤسِّسُ للعلاقات بين أفراده، كان له شعرٌ كثير، ولكنَّه لم يفقد قوَّته وجزالته وأسلوبه المتميِّز، صاغَه على كلِّ البحور العربيَّة وفي جميع الأغراض الفنيَّة. فكان شعره مدرسة قَلَّ أن تضاهيها مدرسة.

شخصيّته العلميّة:

رجل عصاميُّ النَّشأة، لم يعرف من المدارس إلا المدرسة الابتدائيَّة التي لم يكمل بها تعليمه، فقد اضطرَّه شظف الحياة، أن يجد لعائلته مورد رزق بعيدًا عن لبنان الذي ضاقت فيه الحياة، إثر ما كان يُعانيه من التَّضييق الاستعماريّ العُثمانيّ.

والده ضاهر أبو ماضي، وله خمسة إخوة هم: مراد وميتري وطانيوس وإبراهيم وأوجني، كان ريفيًا مُربِّيًا لدود القزِّ وأشجار التّوت، نشأ في عائلة بسيطة الحال، التحق بمدرسة «المحيدثة» الابتدائيَّة، وتركها في سن الحادية عشر من عمره عندما اشتدَّ بالعائلة الفقر، رحل إلى مصر واستقرَّ بالإسكندريَّة، حيث كان عمه (نعّوم)، يمارس بعض الأعمال التِّجاريَّة البسيطة، مثل بيع السَّجائر، إذ يروي عنه الناعوري قوله: «في الإسكندريَّة تعاطيت بيع السَّجائر في النَّهار في متجر عمّي، وفي اللَّيل كنت أدرس النَّحو والصَّرف على نفسي تارة وعلى بعض الكتاتيب تارة أخرى».

لقد كان إيليا منذ صغره محبًّا للعلم والتَّعلُّم، شغوفًا بالأدب والشِّعر، يستغلُّ أوقات فراغه في حفظ الشِّعر ونظمه، ومطالعة كتب الأدب ودراستها. تأثَّر ببيان القرآن الكريم وبأفكار أبي العلاء المعرّي وبشِعْرِ أبي نواس، وقد رآه الأستاذ أنطون الجُميِّل ذات مرَّة يكتُب الشِّعر أثناء عمله، فأعجِب بشِعره وحرص على نشره في مجلة الزُّهور التي كان يصدرها، كما كان ينشر في جريدة المقتطف وكانت تلك الخطوة فاتحة خير عليه، فظلَّ يكتب الشِّعر وينشرُه طيلة ثمانية أعوام، ثم جمعه في ديوان أطلق عليه اسم: «تذكار الماضي».

وفي سنة 1911م، انتقل الشّاعر إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وأقام بمدينة سنسناتي في ولاية أهايو، حيث عَمِلَ في التِّجارة مع أخيه مراد، ومنها إلى نيويورك ليعمل في المجال

الأدبيِّ، فعَمِلَ في الرّابطة القلميَّة التي أسَّسَها جبران خليل جبران، ثم تنقَّل بين عديد المجلات و الجرائد التي كان يصدرها بعض المثقَّفين العرب، وكان أوَّلها مجلَّة الفتاة العربيَّة التي أسَّسها شباب فلسطينيون، وظلَّ يتنقَّل بين المجلّات والجرائد حتى أسَّسَ مجلَّته « السمير» سنة 1929م، وكانت حياته في البدء ضيِّقَة عسرة، حتى كان زواجه من ابنة بعض الأثرياء. لم يكن أبو ماضي مجيدًا للإنجليزيَّة بما يمكِّنُه من خوض غِمار الكتابة أو النَّقد أو المشاركة بها في الحياة الثَّقافيَّة في بلاد المهجر.

دُفِعَ أبو ماضي للهجرة إلى أمريكا التي كانت قبلة في ذلك الزمن، ما كان يعانيه من العسر وما كان يعيشه الوطن العربيُّ من التضييق على معارضيه، يقول في قصيدة «وداع وشكوى» وهو بالسفر (من الكامل):

نيويوركُ يا بِنْتَ البِحارِ بنا اقْصِدي
فلعَلّنا بالغَرْبِ ننْسى المَشْرِقا
وطَنٌ أرَدْناهُ على حُبِّ العُلى
فأبى سِوى أنْ يسْتَكينَ إلى الشّقا
كالعبْدِ يَخْشى بَعْدَ ما أَفْنى الصِّبا
يَلْهو بِه ساداتُهُ أنْ يُعْتَقا
أَوَكُلّما جاءَ الزّمانُ بمُصْلِحٍ
في أَهْلِهِ قالوا طَغى وتَزَنْدَقا

النّسبة إلى المذهب:

إيليا أبو ماضي شاعر رومانسي حالم، أَحَبَّ الطَّبيعة فغنّاها أجملَ شعره، ورأى في هدوئها وروعتها ما تقرُّ به نفسه. أعجبته بساطتها وجمالها وبعدها عن أدران الحياة وأكدارها، فكان ينشد الراحة بين أفيائها، والهدوء بين مناظرها، فألهمته صورًا رائعة، وأخيلة مجنحة ومعاني ترقى بالإنسان إلى مراتب السُّموِّ والجلال.

كان لبنان في نظر أبي ماضي خريدة نفيسة من خرائد الزمان، ودرَّة غالية من درر الكون، فلا شمس تشبه شمسه، ولا ماء أعذب من مائه، ولا جبال أكثر شموخًا من جباله، ولا سهول أمرع من سهوله، وفوق كلّ ذلك، فلبنان أبي ماضي كان انفتاحًا على الحضارة، وتفاعلاً إنسانيًا، ووحدة مشتركة تصهر جميع أبنائه في بوتقة واحدة لا زيف فيها ولا خلاف ولا ضغينة.

أحبَّ شاعرنا الحياة وتفاءل بها فإذا هو نهر ينساب في الغدران، وروض رياض يفوح عطرًا وعبيرًا، ونجم ساطع يمزق جلباب الظلام، وفجر يشع على الكون حبًا وبشاشة ونورًا، ولم يدع أبو ماضي فرصة إلا ودافع بشعره عن مظلوم، أو انتصر لصاحب حق، أو زال كرب مكروب، أو شدَّ أزر ضعيف، وكغيره من الشُّعراء المجدِّدين، لم يتمسَّك الشاعر إيليا أبو ماضي بنهج الأقدمين في شعرهم، وإن كانت بدايته تقليديَّة تأثَّر فيها بأشعار البحتري وأبي تمام وأبي نواس، كقوله متغزلا (من البسيط):

بيضٌ تَرائِبُها سودٌ ذَوائِبُها
زُجٌّ حَواجِبُها كُحْلٌ مآقيها
قامَتْ تُصافِحُني والرِّدْفُ يَمْنَعُها
والوَجْدُ يَدْفَعُها والقَدُّ يُثْنيها
باتَتْ تُكَلِّمُني مِنْها لواحِظُها
بما تُكِنُّ وأَجفاني تُناجيها
تقولُ والدَّمْعُ مِثْلُ الطَّيْرِ مُنْتَثِرٌ
على خُدودٍ خَشيتُ الدَّمْعَ يُدْميها

ولكنه بعد هجرته، عمل من خلال جماعته الأدبية «الرابطة القلمية» على تسطير نموذج متميز للقصيدة، لا يحتفي فيه بشكلها ولا بلفظها وإيقاعها، بل بصورتها وتعبيرها وما تبثه من فيض المشاعر والأحاسيس، يقول معبرا عن نهجه (من الرمل):

يا رَفيقي أنا لَولا أنتَ ما وَقَّعْتُ لَحْنا
كُنتَ في سِرِّيَ لَمّا كُنتُ وحدي أَتَغَنّى
أُلبِسُ الرَّوضَ حُلاهُ إنَّهُ يوماً سَيُجْنى
هَذِهِ أَصْداءُ روحي فَلْتَكُنْ روحُكَ أُذْنا

التّجربة/ المسيرة الشّعريّة:

مرَّت مسيرة الشّاعر الكبير إيليا أبي ماضي بمراحل متعدِّدَة ، كان أوّلها مرحلة وجوده في مصر، وهي تمثِّل بداياته الشعريَّة الأولى، ففي الاسكندرية أطلق الشّاعر العنان للسانه الشّاعر وقلبه المتحسّس لمواطن الجمال ، فكان شعره فيها ابتدائيًّا بسيط الأفكار تقليديَّ المذهب، بدأه بقصائد الوصف، فقد نشأ الطفل إيليا في لبنان بين بساتين وغابات مخضرة على سفح جبل يكسوه نور من صفاء الطبيعة وسحرها، فيعب في نفسه من هذا الحسن ويدَّخره ليلهج به لسانه



أعضاء الرابطة القلمية



جبران خليل جبران

وهو يتمرس قول الشعر، وقد نزل مصر، فيقول في قصائده الطفولية « قصيدة الطبيعة» واصفا ما حوله (من مخلع البسيط):(1)

روضٌ إذا زُرْتَهُ كَئيبا
نَفَّسَ عنْ قَلْبِكَ الكُروبا
إذا بَكاهُ الغَمامُ شَقَّتْ
منَ الأَسى، زَهْرُهُ الجُيوبا
وشّاهُ قَطْرُ النّدى
فأَضْحى رِداؤُهُ مَعْلَمًا قَشيبا

وفي قصيدة أخرى يصف النيل «يا نيل»(من الطويل) :

فثَمّ جَلالٌ يملأُ النَّفسَ هَيْبَةً
وثَمّ جَمالٌ يملأُ العيْنَ باهِرُهْ
وأَلْحَظُ شَمْسَ الأُفْقِ وهْيَ مُطِلَّةٌ
تُسايِرُ فيها ظِلُّها إذْ تُسايِرُهْ

وكان في هذه المرحلة يميل إلى تقليدِ من سبَقوه من شعراء الإحياء كشوقي والبارودي وصبري وحافظ وغيرهم، فتناول كلّ ما عرفه الشعر العربي القديم من الأغراض و الموضوعات، من الوصف إلى الهجاء والمديح والغزل والفخر والرثاء والتغني بالوطن، ومعالجة كثير من القضايا الإنسانية، كالظلم والتحرر وحب الأوطان وقصائد متنوعة غنية بالقيم والأخلاق كالتسامح و التعاون والعجب وغيرها، وكان للفلسفة والتأمل في الحياة والنَّفس والدّين نصيب واسعٌ خاض فيه الشّاعر تجاربه الشعرية.

- فمن الهجاء يقول وهو يهجو أحد الشعراء (من البسيط):

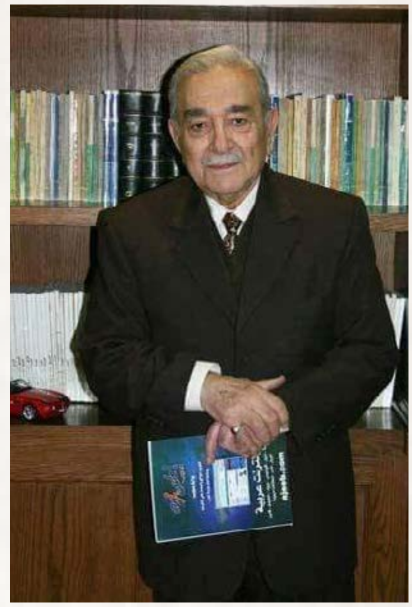
يا أَيُّها النّابحُ العاوي بلا سَبَبٍ
أَما لِنَفْسِكَ ذو وُدٍّ فَيَنْهاها
إنْ كانَ غَرّكَ أَنَّ الحِلْمَ شيمَتُنا
فربّما خالَفَتْ نَفْسٌ سَجاياها

وكان الرثاء من الأغراض التَّقليديَّة التي نَظَم فيها الشّاعر كلّما أصابه الفقدُ في أحد أقاربه أو أصدقائه أو معارفه، فقال في رثاء أبيه، حينما بلغه نعيه (من الطويل):

طَوى بَعْضَ نَفْسي إذْ طَواكَ الثَّرى عَنّي
وذا بَعْضُها الثّاني يَفيضُ بها جَفْني
أَبي، خانَني فيكَ الرّدى فتَقَوَّضَتْ
مَقاصيرُ أَحْلامي كَبَيْتٍ منَ التِّبْنِ
وكانَتْ رياضي حالياتٍ ضَواحكًا
فأَقْوَتْ وعَفّى زَهْرَها الجَزَعُ المُضْني

وكان الرثاء من الأغراض التقليدية التي كتب فيها الشاعر كلما أصابه الفقد في أحد أقاربه أو أصدقائه أو معارفه، قال في رثاء أبيه، حينما بلغه نعيه (من الطويل):

طَوى بَعْضَ نَفْسي إذْ طَواكَ الثَّرى عَنّي
وذا بَعْضُها الثّاني يَفيضُ بها جَفْني



عبدالكريم الأشتر

أَبي، خانَني فيكَ الرَّدى فتَقَوَّضَتْ
مَقاصيرُ أَحْلامي كَبَيْتٍ منَ التِّبْنِ
وكانَتْ رياضي حالياتٍ ضَواحكًا
فأَقْوَتْ وعَفّى زهْرَها الجَزَعُ المُضْني
فليسَ سِوى طَعْمِ المَنِيَّةِ في دَمي
وليسَ سِوى صَوْتِ النّوادِبِ في أُذْني
فأَعْظَمُ مَجْدي كانَ أَنَّكَ لي أَبٌ
وأَكْبَرُ فَخْرٍ كانَ قولُكَ: ذا ابْني

وأمّا الغزل فقد كان الشاعر رقيقًا فيه، عذب الكلام، ينسج على منوال المتقدّمين تارة، وعلى هدْي المحدثين تارة أخرى، يقول في قصيدة متغزلاً (من الكامل):

ولقَدْ عَلِقْتُ منَ الحِسانِ مَليحَةً
تَحْكي الهِلالَ بحاجِبٍ وجَبينِ
كَلِفَتْ بها نَفْسي ودونَ وِصالِها
وَصْلُ المَنونِ، وثَمَّ لَيْثُ عَرينِ
حَسْناءُ أَضْحى كُلُّ حُسْنٍ دونَها
ولذاكَ عُشّاقُ المحاسِنِ دوني
أَشْبَهْتِ «ليْلى العامِريَّةَ» فاكْتُمي
خَبَرَ الّذي قد صارَ كالمَجْنونِ

كما تغنّى الشاعر بوطنه الأول لبنان، وحنّ إلى الرجوع إليه حنين الطفل إلى أمه، وصوّر جماله في كلِّ أوانه، فيقول (من الكامل):

اثْنانِ أَعْيا الدَّهْرَ أَنْ يُبْليهِما
لبنانُ والأَمَلُ الّذي لذَويهِ
نَشْتاقُهُ والصَّيْفُ فَوْقَ هِضابِهِ
ونُحِبُّهُ والثَّلْجُ في واديهِ
هذا الّذي صانَ الشَّبابَ منَ البِلى
وأَبى على الأَيّامِ أنْ تَطْويهِ
وَطَني ستَبْقى الأَرْضُ عِنْدي كُلُّها
حَتّى أَعودَ إِلَيْهِ- أَرْضَ التّيهِ
سَأَلوا الجَمالَ فقالَ هذا هَيْكَلي
والشِّعْرَ، قالَ بَنَيْتُ عَرْشي فيهِ

لقد كان للقضايا الوطنية حظٌّ كبير في شعر أبي ماضي، فهو الشاعر العاشق لوطنه الصغير لبنان وكل بلاد الشام، وكان لفلسطين وقضيَّتها العادلة حضور في شعره، يقول (من المتقارب):

دِيارَ السّلامِ وأَرْضَ الهَنا
يَشُقُّ على الكُلِّ أنْ تَحْزَنا
فخَطْبُ فِلِسْطينَ خَطْبُ العُلا
وما كانَ رُزْءُ العُلا هَيِّنا
يُريدُ اليَهودُ بأَنْ يَصْلُبوها
وتَأْبى فِلِسْطينُ أَنْ تُذْعِنا
وتَأْبى المُروءَةُ في أَرْضِها
وتَأْبى السُّيوفُ وتَأْبى القَنا
فلَيْسَتْ فِلِسْطينُ أَرْضًا مَشاعًا
فتُعْطى لمَنْ شاءَ أَنْ يَسْكُنا

كما خصَّص الشّاعر نصيبًا غير قليل من شعره لتوجيه بناء المجتمع ورصِّ صفوفه وإصلاح خلَلِه سواء أكان في نفوس أبنائه أو في علاقاتهم بعضهم ببعض، فيقول في قصيدة يوجِّهُها للشَّباب يدعوهم إلى العمل والجدّ وصناعة مجد لأنفسهم بدل التَّفاخر بأنسابهم، فيقول: في قصيدة (الفتى الأفضل) (من المتقارب):

مَضى زَمَنٌ كانَ فيهِ الفَتى
يُباهي بما قَوْمُهُ أَثَّلوا
ويَرْفَعُهُ في عُيونِ الأَنامِ
ويَخْفِضُ في قَدْرِهِ المَنْزِلُ
فلا تَقْعُدَنْ عنْ طِلابِ العُلا
وتَعْذِلْ بلادَكَ إِذْ تَعْذِلُ
فثابِرْ بجِدٍّ على نَيْلِها
فليسَ يخيبُ الّذي يَعْمَلُ
إذا كُنْتَ في وَطَنٍ خامِلٍ
وفُزْتَ فأَنْتَ الفَتى الأَفْضَلُ

وفي قصيدة الحجر الصغير، يوجِّه الشّاعر دعواه وحكمته إلى المجتمع عامَّة، وإلى من يظنُّ نفسه فيه هينا لا شأن له خاصَّة، فيذكِّره بقصَّة الحجر



الصغير علـى جدار السـدِّ العظيم، الذي أحسَّ بهوانه وعدم جـدواه فقرَّر التَّخلي عـن مكانه من الجدار، فإذا الماء يتسلل مـن موضعه ويغمـر المدينـة ويجرفها، يقول (مـن الخفيف):

سَـمِعَ اللَّيْـلُ ذو النُّجـومِ أَنينـًا
وهـوَ يَغْشـى المَدينَـةَ البَيْضـاءَ
كانَ ذاكَ الأنينُ مِنْ حَجَرٍ في السُّـدْ
دِ يَشْـكو المَقـادِرَ العَمْيـاءَ
أَيُّ شَـأْنٍ -يقـولُ- في الكَوْنِ شَـأْني
لَسْـتُ شَـيْئًا فيـهِ ولَسْـتُ هَبـاءَ
حَجَـرٌ أَغْبَـرٌ أنـا وحَقيـرٌ
لا جَمـالاً لا حِكْمَـةً لا مَضـاءَ
فلأُغـادِرْ هـذا الوُجـودَ وأَمْضـي
بِسَـلامٍ فقَـدْ كَرِهْـتُ البَقـاءَ
وهَوى مِـنْ مَكانِهِ وهُوَ يَشْـكو الـأَرْ
ضَ والشُّـهْبَ والدُّجـا والسَّـماءَ
فَتَـحَ الفَجْـرُ جَفْنَـهُ فـإِذا الـطّو
فـانُ يَغْشـى المَدينَـةَ البَيْضـاءَ

خصائص شعره:

إذا أردنـا أن نتـتبَّع خصائص شـعر أبـي ماضـي منـذ ارتبـط بالرّابطـة القلميَّـة، فإنَّنـا سـنجد الكثيـر مـن مميّزاتهـا عنده، فهنـاك الشِّـعر التّأمليُّ الرّوحـي الـذي يغلـب علـى مقطوعاته في ديوانـه الجداول من مثل: الناسـكة، نار القرى، الزمـان، وغيرها؛ إذ أصبحت المـادَّة لا تعني شـاعرنا بكثيـر أو قليل، فهـو شـاعر يعيـشُ بالـرّوح ويهتـمُّ با لنَّفس .

تقسـم مسـيرة أبي ماضي الشـعرية إلـى قسـمَين: قسـم مـا قبـل الهجـرة، وفيه لم يكن لشـعره خصائـص مميّزة، والقسـم الثانـي ما بعـد الهجـرة، وفيه أظهـر شـاعريَّته النّاضجـة فكريًّـا، والمتحـرِّرة أسـلوبًا، وأهـم مـا نلاحظه في شـعره هـذا، الأسـلوب الحـواريّ، إذ نـراه يخاطِـب أناسًـا يعرفهـم ويأخـذ منهم ويأخـذون منه، كلّ ذلك في شـعر متماسـك لغتـه قويَّـة جميلـة رصينـة مسـتمدَّة مـن ثقافـة لغويَّـة عاليـة، وموسـيقا عذبـة ذات هـدف.

فلسفة أبي ماضي:

جعـل أبو ماضي من شِـعره مُنطَلَقًا لأفكـاره الفلسـفـيَّة التي صاغها ببلاغة وسهولة ومـرونة وبيان، فلسفـتـه في الكـون، وما وراء الطَّبيعة، وفي الوجـود والعدم، وفي الـرّوح والحقيقة، جميعها اعتمـدَت علـى مبـدأ اعتنَقَه عـدد من الفلاسـفة، الذيـن رأوا فـي البحـث عن هـذه الأمـور مسـألة عقيمـة، لا تـؤدّي بصاحبهـا إلـى حـلِّ تلـكَ الأسـئلة الّتي راوَدت المفكّريـن منـذ زمن بعيـد جدًّا، فالفكـر فـي نظرهـم لا يسـتطيع أن يتخطّـى حـدودَه الماديَّـة ليصل إلـى اكتشـاف حقائـق مجهولة تتعـدّى قواه الفكريَّـة، ويقول في قصيدته الطلاسـم (مـن مجـزوء الرمل):

جِئْتُ لا أَعْلَمُ مِنْ أَيْـنَ، ولَكِنّي أَتَيْت
ولَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدّامي طَريقاً فمَشَيْتُ
وسَـأَبْقى سائِرًا إنْ شِئْتُ هذا أَمْ أَبَيْتُ
كَيْـفَ جِئْتُ، كَيْـفَ أَبْصَرْتُ طَريقي
لَسْتُ أَدْري؟

عشق الطَّبيعة:

لا نظـنُّ أنَّ شاعـرًا أحـبَّ الطَّبيعة أكـثر ممـا أحبَّـهـا أبـو ماضـي، حتّى انعـكسَ جمالهـا في جمـال نفسـه، وصـفـاء سمائـهـا فـي صفـاء ألحانه، وانعكسـت عذوبـة مائـهـا فـي عذوبة ألفـاظه، ودقّـة نواميسـها في دقّـة ملاحظاتـه، وكأنَّ الطَّبيـعـة شـعَرَت بصدق حبِّـه لها، فباحـت لـه بأسـرار سحرهـا، وأباحـت له صوغها شعـرًا.

كان أبـو ماضـي يرى في كائنـات الطَّبيعة الأصدقـاء الأوفـياء له، إذ كان كلَّـما بثَّهم شكـواه يجدُ عـندهم آذانًا صاغية، وقلوبًـا مفتوحـة واعية، وكثيرًا ما كان يلتـقـي بأصدقـائه هؤلاء إمّا في

> لم يُتح لإيليا أبي ماضي ما أُتيح لأقرانه من التعلّم بما يكفي، لشظف كانت تعانيه عائلته، فهاجر صبيًّا إلى مصر لعلّه يُغيّر بعضًا من حياته، فواكب هناك حياةً ثقافيّة زخمة.

أماكنهم المعتادة في البرّية، أو في منزل أحد الرِّفاق والأقرباء، وقد فُجعت عيناه ذات يوم برؤية زهرة مسجونة في إناء في أحد الصّالونات الفخمة، فتألّم أشدَّ الألم لرؤيتها؛ لأنَّه لم يستطِع تخليصَها من سجنها وعذابها. فأنشد (من الطويل):

لَعَمْرُكَ ما حُزْني لمالٍ فقَدْتُهُ ... ولا خانَ عَهْدي في الحَياةِ حَبيبُ
ولكِنَّني أَبْكي وأَنْدُبُ زَهْرَةً ... جَناها وَلوعٌ بالزُّهورِ طَروبُ
رآها يَحُلّ الفَجْرُ عِقْدَ جُنونِها ... ويُلْقي عَلَيْها تِبْرَهُ فيَذوبُ

التَّجديد في شعره:

كان الخروج عن الشَّكل التَّقليديِّ للقصيدة الكلاسيكيَّة أحد مظاهر التَّجديد عند شعراء المهجر، وفي ذلك تمرُّدٌ عن التَّصوُّر السّائد لدى الشُّعراء، فنرى أبا ماضي يصرِّحُ عن رؤيته لهذا الشِّعر وخروجه عن رؤية المتقدِّمين في حصر الشِّعر في قالبه القديم، ويرفض انتسابه إلى الشَّكليّين، يقول (من الرمل):

لستَ منّي إن حَسِبْتَ الشِّعرَ ألفاظاً وَوَزْنا ... خالَفَتْ دَربُكَ دَربي وانْقَضى ما كانَ مِنّا
فَانطَلِق عَنّي لِئَلّا تَقتَني هَمّاً وَحُزنا ... وَاِتَّخِذ غَيري رَفيقاً وَسِوى دُنيايَ مَغنى

ثم ينتقد في بيتٍ آخر ما عرفه الشعر الأوَّل من بعض القوالب كالمقدمة الطللية فيقول (من البسيط):

لَيْسَ الوُقوفُ على الأَطْلالِ مِنْ خُلُقي ... ولا البُكاءُ على ما فاتَ من شِيَمي

الولاياتُ والمناصب التي تبوَّأها:

- كان عضوًا نشطًا في الرّابطة القلميَّة التي أسَّسَها جبران خليل جبران سنة 1920م، وكان شاعرنا أحد مؤسِّسيها.
- انتُخِب رئيسًا لنادي الموسيقا العربيَّة سنة 1933.
- منحته الحكومة اللبنانية وسامَي: الأرز والاستحقاق.
- أقيمت له في دمشق حفلات تكريم، ومنحه هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية السورية وسام الاستحقاق الممتاز في 1949م.
- أُطلِق اسم الشاعر إيليا أبو ماضي على أحد الشوارع في الأردن، كما أُطلِقَ اسمه أيضًا على أحد الشوارع بمدينة القاهرة الجديدة في مصر.

المُؤلَّفات:

له مؤلَّفات كثيرة نذكر منها:

الدّواوين:

تذكار الماضي (الإسكندرية 1911م): ديوان صغير كان أول أعماله الشعرية نظمه ولم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، نشر بالقاهرة سنة 1911م، تناول فيه موضوعات مختلفة، أهمها الظلم الذي تعانيه الشعوب من حكامها، وكتب إيليا أبو ماضي في إهدائه للكتاب» أيتها الأمة الودودة، هذا ديواني الذي نظمته تحت سمائك وبين مغانيك، أرفعه إليك، لا طلبا للمثوبة، ولا ابتغاء للشكر، ولكن إظهارا لما تكنه جوانحي من العطف عليك، والتعلق بك».

«الجداول» (نيويورك 1927): صدر في نيويورك عن مطبعة مرآة الغرب عام 1927م مع مقدمة للأديب ميخائيل نعيمة بارك فيها الشاعر وشاعريته، وقد اشتمل الديوان في معظمه على قصائد ذاتية وإنسانية تميزت بطرافة صورها وأخيلتها، ويعد هذا الديوان مرحلة تطور وتحوّل في شعر أبي ماضي ونضجه من حيث جدّة الموضوعات، وتوازن المبنى والمعنى، والعناية بالقوافي، واستخدام الأبحر القصيرة والمجزوءة.

«الخمائل» (نيويورك 1940): من أكثر دواوين أبي ماضي شهرةً ونجاحاً، صدر في نيويورك عن مطبعة مرآة الغرب عام 1940م، ويعد امتدادًا للجداول من حيث الأسلوب والفكر والموضوعات التأملية

والإنسانية، وتنويع الأوزان والقوافي، إلا أن الإلحاح فيه على الدعوة إلى التفاؤل والتمتع بالحياة أشدّ وأوضح. وهو آخر ديوان صدر له في حياته.

«تبر وتراب» (1960): هو ديوان جمع قصائده صديقه جورج صيدح وطبعه بعد وفاة الشاعر. من المجلات والصحف التي نشرت فيها، وهو ديوانه الخامس والأخير.

القصائد المنشورة:

وهي قصائد كانت في أغلبها قصائد مناسبات عزف الشاعر عن تضمينها دواوينه، وفيها بعض أشعار الهجاء التي لم يحب الشاعر أن يكون له مكان في دواوينه التي قدمت منهجه الشعري ورؤيته له. وقد جمع الأستاذ جورج ديمتري هذه القصائد في كتاب سماه: (إيليا أبو ماضي (1889-1957) دراسات عنه وأشعاره المجهولة)، كما كان له عددٌ من القصائد المتميّزة، نذكر منها: فلسفة الحياة، قصيدة المساء، قصيدة فلسفة الحياة، الغابة المفقودة، ابتسم.

مجلّة السّمير:

أنشأ مجلته السّمير في 1929م بنيويورك، وكانت أوسع المجلّات العربيَّة انتشارًا في زمانها، ويتوّج صدر مجلّته بيتان يمثِّلان شعار المجلَّة، يقول فيهما (من الرمل):

أنا أُهْدي إِلَيْكُمْ وَرَقًا ... غَيْرُكُمْ يَرْضى بِحِبْرٍ ووَرَقْ

إِنَّما أُهْدي إِلى أَرْواحِكُمْ ... فِكَرًا تَبْقى إِذا الطِّرْسُ احْتَرَقْ

منزلته ومكانته وأقوال العلماء فيه:

كان إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأوَّل، وفيلسوف الشَّرق بلا مُنازع، غلبت عليه نزعة التَّفاؤل، وحبّ الحياة والحنين إلى الوطن، ويلاحظ غلبة الاتّجاه الإنسانيّ على سائر أشعاره، ولاسيما الشّعر الذي قاله في ظلِّ الرّابطة القلميَّة وتأثَّر فيه بمدرسة جبران.

قال عنه محمَّد عبد الغني حسن متحدِّثًا عن ديوانه الجداول: «فلقي من الرَّواج والتَّرحيب ما اقتضى إعادة طبعه في زمن يسير، وقد انعقد الإجماع على أنَّ إيليا أبا ماضي هو بلا جِدال أمير شُعَراء العرب في المهجَرِ لو بقي في دولة الشِّعر أُمراء».

قال عنه ميخائيل نعيمة: «فقلمه للتَّحرير طلبًا للكفاف كان غير قلمه للشِّعر طلبًا للتَّفريج عن النَّفسِ المتشوِّقَة إلى أكثر من الكفاف».

قال عنه عبد الكريم الأشتر: «إنَّ أبا ماضي وسَّع من مساحة الفِكر في شعره، وكساه ثوبًا لُغويًّا، شفَّ في أسلوب طرحه، عن جماليّات الطَّبيعة التي لم يبعد عنها حياته كلّها، وقربه من وجدان القارئ في وقت واحد، وهيَّأه للتَّفكير في قضاياه، واتخاذ مواقف منها، فبقي شِعْره، لهذا الذي نقوله، محتفظًا -في ساحة الشِّعر العربيِّ- بقدرته على التَّأثير، ومحتفظًا بخصائصه أيضًا».

قال جبران خليل جبران وهو يُقدِّم لديوانه الثّاني: «وإيليا أبو ماضي شاعر، وفي ديوانه هذا سلالم بين المنظور وغير المنظور، وحبالٌ تربط مظاهر الحياة بخفاياها، وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي إن لم تشفها تظلُّ ظمآنًا حتّى تملّ الآلهة البشر، فتغمرهم ثانية بالطّوفان».

الوفاة:

توفي إيليا أبو ماضي يوم السبت (1376/05/02هـ) الموافق لـ (23/ 11/ 1957م)، في نيويورك، وذلك إثر سكتة قلبية مفاجئة.

المصادر والمراجع:

1- أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية: جورج صيدح، مطابع دار العلم للملايين، بيروت 1957م.

2- إيليا أبو ماضي (1889-1957) دراسات عنه وأشعاره المجهولة كتاب جورج ديمتري سليم: نبيل فرج

3- إيليا أبو ماضي حياته وشعره (الأعمال الشعرية الكاملة): جمع وتقديم: عبد الكريم الأشتر، مؤسسة عبد العزيز البابطين، الكويت، سنة 2008م.

4- إيليا أبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث. عيسى الناعوري. منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط، سنة 1977م.

5- إيليا أبو ماضي: جورج ايستسفانوس، دراسة مقدمة إلى الدائرة العربية في جامعة بيروت الأمريكية لنيل ماجيستير في الأدب العربي.

6- الجداول والخمائل وتبر وتراب، إيليا أبو ماضي، دار كاتب وكتاب. بيروت. 1988م.

7- الشعر العربي في المهجر: إحسان عباس، وآخر، دار صادر.

8- في الغربال الجديد: ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، سنة 1983م.

9- مفهوم الشعر عند شعراء الرابطة القلمية: أحمد بوزيان، مجلة فصل الخطاب، مج:6، عدد:2، جوان 2017م.

محمد بن عيسى بن محمود بن محمد بن كنان الحنبلي

(1074 هـ = 1663 م)



محمد بن عيسى بن محمود بن محمد بن كنان الحنبلي، أحد العلماء الأتقياء والصلحاء العاملين، نشأ في كنف والده وخلفه على مشيخة الطريقة الخلوتية وفي العلم. وقرأ على جماعة من العلماء. يبرز ابن كنان عالمًا على علم غزير وتمكن، وهو وإن كان تركيزه في التصنيف على مجمل التواريخ غير أنه يُبرز قدرة على الكتابة بالعربية وله كتاب في البلاغة.



د.عامر برادعي
كاتب وباحث

الاسْمُ الكامِلُ مع الكُنية واللقب:

محمد بن عيسى بن محمود بن محمد بن كنان الكناني نسبة إلى جده «كنان»(1)إن محقق كتاب «المروج السندسية» ذهب في مقدمته إلى أن النون بالتشديد. وكذلك ضبطه الزركلي مع فتحة الكاف.

– ويطلق على ابن كنان أيضا: ابن زين التقاة.(2)

(1) [المرادي، سلك الدرر. 4 / 86]، (2) [ابن كنان، المروج السندسية الفسيحة. 63 – 64،الزركلي، الأعلام. 6 / 323.]

النِّسْبَةُ والأصل والبلد:

ورد في ابن كنان أنه دمشقي صالحي منسوب إلى الصالحية من دمشق . والصالحية كانت مدينة كبيرة في ذلك العهد كما وصف ابن كنان حدودها.(1)ونقل محقق المروج أنه كتب في طرة مخطوطة الكتاب المذكور في نسب ابن كنان أنه : العباسي(2). والراجح أن هذه النسبة منتقلة من شيخ والده(3).

(1) [ابن كنان، المروج السندسية الفسيحة. 65.]، (2) [ابن كنان، المروج السندسية الفسيحة. (مقدمة التحقيق) : و.]، (3) [المحبي، خلاصة الأثر. 3 / 243.]

المولد:

ولد ابن كنان في دمشق وعاش في كنف والده، ومولده سنة ألف وأربعة وسبعين (1074 هـ)، الموافق لسنة ألف وستمئة وثلاثة وستين (1663 م)(1).

(1) [المرادي، سلك الدرر. 4 / 86، ابن حميد النجدي المكي، السحب الوابلة على

ضريـح الحنابلـة. 3 / 1028.]

شذرات من سيرته وشمائله وأخلاقه:

خلـف ابـن كنـان والده على مشـيخة الطريقـة الخلوتيـة وفـي العلـم. ويبرز ابن كنـان عالمًا على علـم غزير وتمكن، وهـو وإن كان تركيـزه فـي التصنيـف علـى مجمـل التواريـخ غيـر أنـه يُبـرز قـدرة علـى الكتابـة بالعربيـة بـخلاف كتابـة أقرانـه التي فيها عامية الأسـلوب وخسـوف الجمل والعبـارات .

– وابن كنـان ورث والده في مشـيخة طريقـة الخلوتيـة الصوفيـة، وعـرف بالاستقامة المنافية للخروج عن العدالة، فهـي الالتـزام بالشـرع. وذُكر عنـه أنه لازم الأذكار الشـرعية(1).

(1) [المرادي، سلك الدرر. 4 / 86.]

شخصيّته العلميّة:

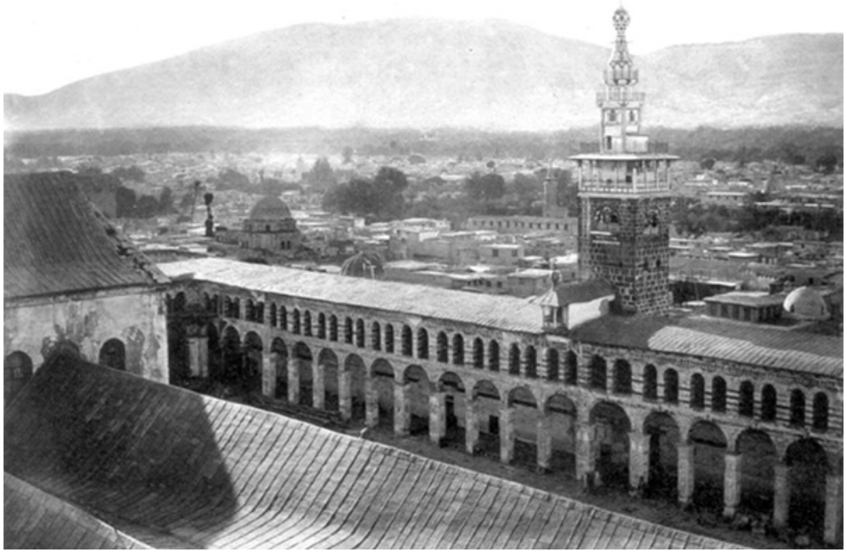
تكونت شـخصية ابن كنـان من خلال أمـور: أحدها تعلمـه الطريقـة الخلوتية الصوفيـة. وهي ذائعة منتشـرة في بلاد الإسلام أيـام العثمانيين، والثاني تضلعه مـن معـارف الثقافـة الإسلاميـة بأيدي الشـيوخ الأجلاء، والثالـث مباحثاتـه مع العلماء(1).

(1) [المرادي، سلك الدرر. 4 / 86.]

الأشياخ والأساتيذ:

– من شيوخه المهمين:

– والده عيسـى بن محمـود بن محمد بن محمـد الحنبلي الصالحي الدمشـقي الخلوتـي، تعلم العلم بأيـدي علماء أجلاء من عصره منهم الشـيخ مرعـي البهوتي الغـزي ومحمـد الخلوتـي والشـمس البابلـي منصـور والشـيخ منصـور



الجامع الأموي بدمشق قديمًا

المحلـي الصابونـي الـذي قطـن عنـده فـي جامـع الصابونية وكان يحبـه جدًّا، وكانـت تعتريه أحـوال صوفيه فيسـيح هائمًـا على وجهه يأكل حشـائش الأرض حتـى يصحو فيرجـع إلى زاوية الشـيخ منصـور، وظل كذلـك إلى موت الشـيخ يسـتظهر القـرآن فـي الجامـع، وخلفه الشـيخ محمـد العباسـي الـذي أخـذ عنـه الطريقـة الخلوتيـة وخلفـه عليهـا شـيخًا لتلك الطريقـة . وقـد خلفه ولده المترجـم لـه علـى الطريقـة الخلوتية أيضًـا . وعـرف عنـه جميـل السـيرة والفصاحة وحسـن قـراءة القـرآن أداءً، وتنسـب إليـه كرامـات، وكان مغرمًـا بزيـارة الأوليـاء. مات يـوم الاثنين لأربع ليال بقين من شـوال سـنة (ت : 1093 م) ودفـن في قبـر أعده لنفسـه بجانب شـيخه العباسـي في مقبـرة الفراديس، وكانت جنازته حافلـة(1).– إبراهيم بن حسـن الكورانـي(ت : 1101 هـ) فـي المدينـة المنـورة ودفن فـي البقيع: أخذ ابن كنـان عنه علم الحديـث. وكتبه كثير

> تكونت شخصية ابن كنان من خلال أمـور: أحدها تعلمه الطريقة الخلوتية الصـوفـيـة. وهـي ذائعـة منتشرة في بلاد الإسلام أيام العثمانيين.

تنـوف على المئـة(2).

– عثمـان القطـان: لازمـه مـدة عنـد المئذنـة الغربيـة مـن الجامـع الأمـوي، وكان مـن أعلـم علمـاء زمانـه .

– عبـد الغني النابلسـي: وهـو مؤلف مكثـر، ولكنـه علـى اعتقـاد ابـن عربي واهتمامـه بـه، وكان شـاعرًا أديبًـا متصوفًـا.

– أبـو المواهـب الحنبلـي: وكان أعلم أهـل الشـام بالحديث .

– عبـد اللـه المقدسـي: وقـرأ عليـه

مبادىء شرح إيساغوجي في المنطق.
– محمد الصالحي الهلالي: وقرأ عليه في علم الأزياج والفلك.(3)
– خليل المَوْصلي: وقرأ عليه شيئًا من « جمع الجوامع» وهو في أصول الفقه، وكذلك قرأ عليه « الرسالة الأندلسية » في العَروض، وهذه لها نسخ متعددة وشروح وصلتنا، ومؤلفها ابن أبي الجيش الإسكندري عبد الله بن محمد الأنصاري الخزرجي (ت : 549 هـ)(4).

(1) [المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. 3 / 243 – 244 .]، (2) [ابن كنان، المواكب الإسلامية. 1 / 129، المرادي، سلك الدرر. 1 / 5 – 6.]، (3) [ابن كنان، المواكب الإسلامية. 1 / 129 – 130، ابن كنان، يوميات شامية. 415 – 416 .]، (4) [محمد بن عبد الله النجدي المكي، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة. 3 / 1027 – 1028.]

مراتب العلم والسيادة في بيت العلم:

والد ابن كنان شيخ الطريقة الخلوتية، وقد خلفه ابنه على مشيخة الطريقة. وشيخ الطريقة هنا رجل عالم يعرف أحكام الشريعة الإسلامية، ويلتزم بها، وينظر الناس إليه بتبجيل واحترام، وكذلك الأتباع أو المريدون، فهو عالم ومعلِّم .

– على أنه ورد أن ابن المترجم له محمد سعيد خلف أباه على الطريقة الخلوتية، وغفل المؤرخون عن ترجمة هذا الولد، وورد كلام له في آخر كتاب الحوادث اليومية عن والده. وفي هذا دلالة على أن بيت ابن كنان كبيت أبيه، بيت علم.(1)

(1) [المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، : 3 / 243 – 244،النجدي المكي، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة.: 3 / 1030، ابن كنان، المواكب الإسلامية. 1 / 137.]

تلاميذه:

من تلاميذ ابن كنان:

– عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن أحمد الدمشقي الصالحي البقاعي الأصل العَدَوي المعروف بالسَّقَطي الحنفي (1132 – 1205 هـ = ... – 1790م): أجازه ابن كنان، وكان تعلمه بأيدي علماء كبار أجازوه كذلك . وتخرج عليه علماء أجلاء. تولى مشيخة الحرم السليمي ودرّس في المدرسة العُمرية وتولى إمامتها. ومرقده الأخير بقاسيون(1).

– إبراهيم بن عباس بن علي الشافعي الفرضي الفلكي الخلوتي(ت : 1186 هـ = 1698 م)، إمام المقرئين المجودين في دمشق، كان في المرتبة العليا من الأخلاق، أخذ عن المترجم له الطريقة الخلوتية. دفن في تربة الدحداح في دمشق(2).

– ابن شُقَيشقة عبد الرحيم بن مصطفى بن حسن بن صالح الدمشقي الحنفي إمام الجامع الأموي (ت: 1173هـ): أخذ عن ابن كنان الطريقة الخلوتية، وكان من كبار العلماء الصالحين الزاهدين، ومقرئًا بالقراءات العشر، مات بالطاعون. له كتاب « هدية الله » عبارة عن شرح وِرد الوسائل الذي كان يقرؤه كل يوم، وهو من أوراد الطريقة الخلوتية .(3)

– خليل المَوْصلي بن عبد الرحمن بن أبي الفضل بن بركات الدمشقي الميداني الشافعي الصوفي (ت : 1114 هـ): عالم كبير أخذ العلم عن ابن كنان، وكان قد تعلم معارف الثقافة الإسلامية والعلوم الوضعية والهندسة والفلك والحساب والهيئة والمساحة وغيرها.(4)

(1) [البيطار، حلية البشر. 2 / 916 917–.]، (2) [المحبي، سلك الدرر. 1 / 8 – 9.]، (3) [المحبي، سلك الدرر. 3 / 10 – 11.]، (4) [المحبي، سلك الدرر. 2/ 85.]

مجالس التدريس:

كان تدريس ابن كنان يسير في مجالس التدريس في الزوايا أو التكايا كما في زاوية والده.

النسبة إلى المذهب:

مذهبه حنفي. والدليل على ذلك فهو في مقدمة مخطوطة كتابه « المواكب» إذ وصف بأنه حنفي(1)

(1) [ابن كنان، المروج السندسية الفسيحة. (المقدمة) : و، ابن كنان، المواكب الإسلامية. 1 /132، النجدي المكي، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة. 3 / 1030 .]

المناهج التي تبرز شخصيته العلمية:

صنف ابن كنان مؤرخًا، وهذا باعتبار المنهج النقلي أو السمعي من الثقافة الإسلامية، وهو البارز في كتبه: المواكب، والمروج، ويوميات شامية، وله كتب أخرى مخطوطة بهذا الخصوص.

– والناظر في هذه الكتب الثلاثة المزبورة يلحظ علمًا وفيرًا وحصائل من المنقول والمكتوب وحتى الخبرة والمعاينة.

- وفضلاً عن ذلك فإن تدريسه في مدارس متعددة يبرز مقدرة وكفاية في علم المنقول، فضلاً عن إلمامه بالعلوم الأخرى الوضعية،(1).

(1) [ابن كنان، المواكب الإسلامية. 1 / 130 - 131.]

المُصنّفات:

لابن كنان مصنفات متعددة منها:

- المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية: والكتاب مطبوع بتحقيق محمد أحمد دهمان (1947م)، وهو تاريخ فيه ما هب ودب عن أمور الصالحية التي كانت مدينة ممتدة أيام ابن كنان. وفيه يسمي وينقل الروايات عن علماء مثل ابن عبد الهادي، ويذكر أسانيده للمرويات المتقدمة. فهو كتاب تاريخ موثق .

- يوميات شامية: مطبوع بتحقيق أكرم حسن العلبي، وهو تاريخ يوميات لدمشق مابين (1111 - 1153 هـ = 1699 - 1740 م). وفيه حوادث اليوميات وتراجم وروايات، وهو بمنهج التاريخ مثل المروج السندسية. وقد تتبع أمور الاقتصاد والسياسة وحتى أعماله هو ومحامل الحج والمدارس والأماكن العامة والخاصة.

- المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية: وهو كتاب مطبوع تاريخي محقق في دمشق (1993 م) في مجلدين. وقد ذكر فيه بناء الشام ومحلاتها وحماماتها ومتنزهاتها وجوامعها ومحاسن الأمكنة المهمة فيها. وقد ذكر في مقدمة كتابه مصادره الكثيرة المتنوعة الموضوعات، ومنها ماهو مشتهر ونادر .

> ترك ابن كنان أثرًا عامًا في عصره بتدريسه ما يزيد على خمسين سنة، فضلاً عن كتبه التي أرخ فيها لبلاد الشام.

- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين من حيث أساليب معاشرتهم ومعاملتهم: ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية ونسخة في الجامعة الأميركية في بيروت.

- الاكتفاء في ذكر مصطلح الملوك والخلفاء: وهو مختصر الكتاب السابق، ومنه نسخة مخطوطة في برلين.

- وكتبه تبلغ بضعة وعشرين كتابًا، وأما كتاب «الدر المنضَّد في ذكر أصحاب الإمام أحمد» المنسوب إليه، فقد ذكر محقق السحب الوابلة أنه بالدليل القاطع ليس له، وإنما هو مختصر العُليمي لكتابه « المنهج الأحمد»، وقد طبع الكتاب كذلك في مكتبة الخانجي بمصر كذلك بتحقيق المذكور (1410 هـ) .(1).

- زين الربيع في علم المعاني والبيان والبديع.(2)

(1) [ابن كنان، المواكب الإسلامية. 1 / 148 - 152، النجدي المكي، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة. 3 / 129 (حـا) .]، (2) [كحالة، معجم المؤلفين.11 /108.]

منزلته ومكانته وأقوال العلماء فيه:

يعتبر ابن كنان عالمًا موسوعيًّا تضلع من معارف الثقافة الإسلامية والعلوم الكمالية الوضعية، وهي سمة بارزة في مصنفاته التي بين أيدينا.

- قال عنه المرادي في « سلك الدرر» : « أحد العلماء الأتقياء، والصلحاء العاملين ... واستقام إلى أن مات، ولازم الأذكار» . وقد أثنى المرادي على يوميات ابن كنان وذكر أنه استفاد منها في كتابه.(1)

(1) [النجدي المكي، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة. 3 / 1029 - 1030، المرادي، سلك الدرر. 4 / 85.]

الأثر العامّ والبصمة الكبرى:

ترك ابن كنان أثرًا عامًّا في عصره بتدريسه ما يزيد على خمسين سنة، فضلاً عن كتبه التي أرخ فيها لبلاد الشام ما وصلنا من نوادر الكتب التي لا تعرف عنها شيئًا اليوم إلا ما رواه هو منها،

الدّراسات والأبْحاث العلميّة والنّقديّة:

أغفل الباحثون العناية بابن كنان فلم تظهر دراسة علمية متخصصة بحسب ما بأيدينا.

الوفاة:

توفي ابن كنان في دمشق سنة ألف ومئة وثلاثة وخمسين (1153 هـ)، الموافق لسنة ألف وسبعمئة وأربعين (1740 م) . ودفن بسفح قاسيون بالصالحية.(1)

(1) [سلك الدرر، المرادي : 4 / 85، معجم المؤلفين، كحالة: 11 / 108 .]

ابنُ عُصفورٍ الأَنْدَلُسِيّ أُستاذُ العَرَبِيَّة

(ت 669هـ=1272م)

د.رفيق سربيس
كاتب وباحث

كانت بلاد الأندلس في بداية القرنِ السّادس الهجريّ تزخر بالحياة العلمية والفكرية، في ذلك الزّمنِ نضَجَت كثيرٌ من العلوم العربيّة، وحاز علما النّحو والصّرف فيه السّبقَ لأهمّيتهما في فهم مختلف العلوم اللّغويّة والشّرعيّة، فقد اهتمّ المسلمون بعد فتوحات الأندلس بتعليم النّاس تعاليم دينهم الإسلاميّ، ولأنّ العربيّة وعاء الدّين والسّبيل إلى فهم تلك التّعاليم، فقد حظيت بعناية بالغة من علماء المسلمين، وكانت طريقَهم إلى إيصال مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم، فأثّر ذلك كثيرًا في أبناء الأندلس، وأوقد فيهم حُبَّ العربيّة وعلومَها، وقد برز فيها جلّةٌ من علمائهم حتّى صار لهم شأنٌ ومذهبٌ يبارون به مذاهبَ المشرق وأعلامهم في فنون العربيّة، وكان ابنُ عُصفور الإشبيليُّ واحدًا من الجلّة التي أنجبت تلك البلاد، وعَلَمًا فذًّا أفاد كثيرًا من العباد، نحا بطلّاب العربيّة نحو طريق النّحو، وصرفهم إلى علم الصّرف بعد ما انصرفوا عنه أو كادوا، فأجاد وأفاد، ورفع في الفنّين رايةَ الاجتهاد، وتبعه بعد ذلك في بلاد الأندلس وغيرها كثيرٌ من الأمجاد.



أولاً: الاسْمُ الكاملُ

علِيُّ بْنُ مُؤْمِنِ بْنِ مُحَمَّدِ بن عَلِيٍّ ابْنُ عُصْفورٍ أبو الحَسَنِ الحَضْرَمِيُّ الإِشْبيلِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ. [محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التّونسيين، 3/391]

ثانيًا: النِّسْبَةُ والأصْلُ والبَلَد

ابن عُصفورٍ -بضمٍّ العين- التي اشتهر بها أبو الحسن هو لقَبٌ اشتهرت به قبيلته، فكان يُقال لهم: بَنو عُصفورٍ كما سيأتي من كلام ابنِ حزم في بيان حَضْرَمِيَّتِهِ.

الحضرمِيُّ نسبةً إلى حَضْرَمَوْتَ. قال ابن حزم في جمهرة أنساب العرب: «ويُقالُ إنّ حَضْرَمَوْتَ هو ابْنُ يَقْطِن أَخي قَحْطان، والله أعلم... ومِنْهُم، بقيَّةٌ من إشبيلية: بنو عُصفور، وهو لَقَبٌ». [ابن حزم، جمهرة أشعار العرب.461]

الإشبيلِيُّ نسبة إلى إِشْبِيلِيَة: بالكسر، ثُمَّ السُّكونِ، وكسرِ الباءِ المُوَحَّدةِ، وياءٍ ساكنةٍ، ولامٍ مكسورةٍ، وياءٍ خفيفة: مدينةٍ كبيرةٍ من أعظم مُدُن الأَنْدَلُس. [ياقوت، معجم البلدان. 2/544]

الأَنْدَلُسِيُّ نسبة إلى الأَنْدَلُسِ بفتحِ الدّالِ وقيل بضمّها جزيرةٍ كبيرةٍ تَغلبُ عليها المياهُ الجارية والشَّجر والثَّمر والرُّخْصُ والسَّعَةُ في الأحوال، وتسمّى حاليا: إسْبانيا. [ياقوت، معجم البلدان. 1/262-263]

ثالثًا: المَوْلِدُ

وُلِدَ ابنُ عُصفور الأندلسيّ بمدينة إشبيليةَ سنةَ (597هـ) سبعٍ وتسعين وخمسمئةٍ للهِجْرَةِ الموافق لـ (1200م) مئتين وألف للميلاد، وتُسمّى هذه السّنة بعام السّيل الكبير، وذلك لسيل عظيمٍ أتى على إشبيلية وقتها، وبها ترعرع وأخذ العلمَ عن مشايخها في بداية الطّلبِ، ونشأ يحبّ العربيّة ويعشق النّحو والصّرف حتى صار حاملَ لوائها وناصرَ رايتها. [الذهبي، تاريخ الإسلام، 49/290، صلاح الدين ابن شاكر، فوات الوفيات، 3/109، محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التّونسيين، 3/391]

رابعًا: شَذرات من سيرته وشمائله وأخلاقه

حُبِبَ إلى ابن عُصفور العَربيّة منذ صغره فلازم أساتذة بلدته إشبيلية حتّى استدّ ساعده وقويت قريحته، وقد عُرف بكثرة المطالعة فكان أصبر أقرانه عليها، وكان كريم الخلق متواضعًا لم يفخر بنفسه رغم تصدّره للتّدريس مبكّرًا وجولاته عبر بلاد المغرب التي حقّقت له شهرة واسعة لاسيّما تخصّصه في فنّ الصّرف الذي أرهقت مسائله كثيرا من طلبة العلم بل كثيرا من العلماء آنذاك، وكان من العلماء النّوادر الذين اجتمع لديهم الحفظ مع الفهم والإتقان قال عنه معاصره أبو العباس الغبريني (714هـ): «جمع -رحمه الله- بين الحفظ والإتقان، والتّصوّر وفصاحة اللّسان. هو حافظ متصوّر لما هو حافظ له، قادر على التّعبير عن محفوظه، وهذه هي الغاية، وهي أن يكون المرء حافظا له متصوّرا معتبرا، وقلّ أن يجمع مثل هذا إلّا الآحاد».

وكان يجول بلاد الأندلس ومعظم بلاد المغرب يدرّس ويُقْرِئُ، فلذلك لم تخلُ جولاتُه تلك من قصص طريفة أو مواقفَ ظريفة، ومن تلك الطّرائف



الملاح قصّة ذكرها ابنُ عاشور في كتابه (التّحرير والتّنوير) قال: «وحكى الشّيخُ ابنُ عَرفَة في تفسيره عن شيخه ابْنِ الحباب قال: أخبرنا شيخنا أحمد بن يوسف السّلمي الكناني قال: قلت لشيخنا ابن عصفور: لم أَكْثَرْتَ في شرحك للإيضاح من الشّواهد على كائن؟ فقال: لأنّي دخلت على السّلطان الأمير المستنصر (يعني محمد المستنصر ابن أبي زكرياء الحفصي والظاهر أنّه حينئذ ولي العهد) فوجدت ابْنَ هشام (يعني محمّدَ بنَ يحيى بنِ هِشام الخضراوي نزيلَ تونسَ ودفينَها المتوفى سنة (646هـ) فأخبرني أنّه سأله عمّا يحفظ من الشّواهد على قراءة (كائن) فلم يستحضر غير بيت الإيضاح:

وكائِن بالأباطحِ من صديقٍ يراني لو أُصِبْتُ هو المُصابا

قال ابنُ عُصفور: فلما سألني أنا قلت: أحفظ فيها خمسين بيتا فلمّا أنشدته نحو عشرة قال: حسبُك، وأعطاني خمسين دينارا، فخرجت فوجدت ابنَ هشام جالسا بالباب فأعطيته نصفَها»؛ والقصّة هذه تدلّ



علـى علمـه الغزير فـي النّحـو، وكرمه وتواضعـه.

ومـن قبيل ذلـك أيضًا ما ذكـره ناظر الجيـش (778هـ) فـي كتابـه (تمهيد القواعـد بشـرح تسـهيل الفوائـد) حين شـرحَ مسـألةَ ما يُنصب بعامل محذوفٍ وجوبًـا قـال: «ويقـال: إنَّ بعـضَ ملوك العـرب سـأل ابـنَ عُصفـور عـن هـذه المسـألة، وكان ذلـك بحضـرة جمعٍ من النُّحـاة، فشـرع فـي ذكـر مـا ينتصب بعامـل واجبِ الحـذفِ إلـى أن أتى على جميـع مـا تضمَّنتـه أبـوابُ العربيَّة من ذلك في مجلسـه علـى الفَـورِ، دون تَرَوٍّ فقضـى منـه حينئـذ العجب، وشـهد له بالتَّبريـز فـي هـذا الفـنّ». [ابـن عرفـة، تفسـيره، 1/426، الغبريني، عنـوان الدراية، 318، ابـن عاشـور، التحريـر والتنويـر، 4/117، ناظر الجيـش، تمهيـد القواعـد، 4/1759]

خامسًا: شَخْصِيَتُهُ العِلْمِيَّة

ابـنُ عُصفـور الأندلسـيّ نـادرة مـن نـوادر أهـل الأندلـس فـي زمانـه فـرّغ نفسـه لدراسـة علوم العربيّة فبـرّز فيها وصـار علمًا مـن أعلام النّحـو والصّرف مجتهـدًا ومحقّقًـا جمـع بيـن الحفـظ والفهـم فأتقـن وأبدع وأملـى من حفظه كثيـرًا حتّـى شـهد لـه بذلـك الدّانـي والقاصـي.

ولم يكـن طريقـه في تحصيـل العلم سـهلاً ميسـورًا، فقـد صبر علـى الطّلب وملازمـة شـيوخه سـنوات عديـدة لزم فيهـا أبـا الحسـن الدّبّـاج ثـمّ أبـا عليٍّ الشّـلوبين نَحْـوًا مـن عشـر سـنوات، وصحبتُـه لشـيخه تلك السّـنوات الطّوال دليـلٌ علـى صبـرٍ وتفـانٍ قـلّ لهما من نظيـر، وهـو دليل أيضًـا على اكتسـاب المَلَكَـة والخبـرة، وقـد قـال الشّـافعيّ -رحمـه اللـه- ويُنسـبُ لغيره:

أخـي لَـنْ تَنـالَ العِلْـمَ إلاَّ بِسِـتَّةٍ
سـأُنْبيكَ عَـنْ تَفصيلِها بِبَيـانِ
ذَكاءٍ وحِـرْصٍ واجْتِهـادٍ وبُلْغَـةٍ
وصُحبَـةِ أُسْـتاذٍ وطـولِ زَمـانِ

وقد حـاز ابن عُصفور السّـتّة بأكملها مكّنتـه مـن اللّغـة العربيّـة عامّـة، ومن علمـي النّحـو والصّـرف خاصّـة حتّـى صـار مَرْجِعًـا لأَهْلَيْهِما في حياة شـيخه الشّـلوبين إلـى أن حدثـت بينهمـا نفرة ووحشـة جعلتـه ينقطع عنـه، ويتصدّر للتّدريـس علـى مـرأى ومسـمع مـن شـيخه، وفـي هذا الشّـأن قصـة يرويها لنا أحمـد المقرّيّ التّلمسـانيّ (1041هـ) قـال: «قـال ابـن علـوان: وذكـر والدي أيضـاً -رحمه اللـه تعالـى-، ومن خطّه المبـارك نقلـت، أن الأسـتاذ أبـا جعفـر اللّبلـيّ المذكـور -رحمـه اللـه تعالـى-، قـرئ عليـه يومًا قـولُ امـرئ القيس:

حـيّ الحمـول بجـانب العـزل
إذ لا يـلائـم شكـلـهـا شـكـلـي

فقـال لطلبتـه: مـا العامـل فـي هـذا الظّـرف؟ يعنـي (إذ) فتنازعـوا القـول، فقـال: حسـبكم، قُرئ هـذا البيـت على أسـتاذنا أبي عليّ الشّـلوبين، فسألنا هذا السّـؤال، وكان أبو الحسـن ابن عُصفور قـد بـرع واسـتقلّ وجلـس للتّدريـس، وكان الشّـلوبين يغـضّ منـه، فقـال لنا: إذا خرجتم فاسـألوا ذلـك الجاهل، يعني ابـنَ عُصفـور، فلمّـا خرجنا سـرنا إليه بجُمعنـا، ودخلنـا المسـجد، فرأينـاه قد دارت بـه حلقـة كبيـرة، وهـو يتكلّـم بغرائـب النّحو، فلم نجسـر على سـؤاله لهيبتـه وانصرفنـا، ثـمّ جئنـا بعـد على عادتنـا لأبـي علـيّ، فنسـي حتّـى قرئ عليـه قـول النّابغة:

فعدّ عمّا ترى إذ لا ارتجاع له

فتذكّر، وقال: ما فعلتم في سؤال ابن عُصفور فصدقنا له الحديث، فأقسم ألّا يخبرنا ما العامل فيه، ثم قال اللّبليّ لطلبته: وأنا أقول لكم مثل ذلك، فانظروا لأنفسكم، قالوا: فنظرنا فإذا المسألة مسألة فحص ونظر، كلّما حكمنا بحكم صدّتنا عنه قوانين نحويّة، حتّى مضت مدّة طويلة، فوفد علينا بتونس المحروسة أحد طلبة ابن أبي الرّبيع، وكان ابن أبي الرّبيع هذا ساكنًا بسَبْتَةَ، وهو أحد طلبة الشّلوبين أيضًا، ومن كبار هذه الطّبقة التي نشأت بعده، قالوا: فتذاكرنا مع هذا الطّالب في مسائل نحويّة، فمرّت هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فقال هذا الطّالب إنّ هذا الظّرف وقع موقع لام العلّة، فعلمنا أنّ هذا هو الذي أراد الأستاذ أبو عليّ، ثمّ ناقشنا الطّالب وقلنا له: إذا جعلته ظرفًا فلا بدّ من العامل، وإذا جعلته واقعًا موقع الحرف كان هذا على شذوذ قول الكوفيّين، والذي يجوز عكسه على مذهب الجميع، وإنّما الأولى أن يقال: إذ حرفٌ معناه التّعليل تشترك فيه الأسماء والحروف كما اشتركت في (عن)، والله أعلم بغيبه». [المقري التلمساني، نفح الطيب، 2/ 209-210]

وفي القصّة تبرز شخصيّة ابن عُصفور العلميّة وكيف كانت حلقته مجمعًا لمسائل النّحو والصّرف يحلّ مشكلها ويشرح غريبها.

وكان له فضل السّبق في إحياء مسائل علم الصّرف التي كان يهابها كثير من أقرانه في زمنه في الأندلس خاصّة وفي المغرب بصفة عامّة، ولم يجلس بإشبيلية بل رحل وجال بلاد المغرب فصار له تلاميذ في مختلف أرجاء تلك البلاد نقلوا عنه تحقيقاته وآراءه ونشروا مؤلفاته بين مختصر لها وشارح، وقد كانَ يُملي تقاييده على بعض كتب النّحو من حفظه، وإن كان قد بلغ في علم النّحو والصّرف مبلغًا جليلاً، فإنّه لم يكن له حظٌّ كبيرٌ في بقيّة العلوم، ولم يشتهر له فيها ما ينبغي ذكره قال عنه أبو جعفر الغرناطيّ (ت: 708هـ) بعدما ذكر بروزه في علوم اللّغة العربيّة: «لم يكن عنده ما يؤخذ عنه سوى ما ذُكر ولا تأهّل بغير ذلك -رحمه الله وعفا عنه-»، وقال الذّهبيّ (ت: 748هـ): «ولا تَعلُّقَ له بعِلْم القِراءات ولا الفقهِ ولا روايةِ الحَديث»، فيبدو جليًّا أنّه فرّغ وقته لعلوم العربيّة وتخصّص فيها وشُغل بها عن غيرها من العلوم لذلك نبغ فيها وحمل رايتها. [أبو جعفر الغرناطي، صلة الصّلة 3/305، الذهبي، تاريخ الإسلام، 49/291]

1. الأشْياخُ والأساتيذُ:

حظِي ابنُ عصفور في بداية الطّلبِ بعالِمَيْن جليلين أخذ عنهما العِلْمَ، أحدُهما: أبو الحسن الدّبّاج (ت: 646هـ)، عالم جليل من أهل الفضل والصّلاح كان حجّةً في العربيّة والأدب متقدّمًا فيهما درّسهما نحوا من خمسين سنة، والآخر: أبو عليٍّ الشّلوبين (ت: 645هـ)، كان إمامًا في العربيّة في الأندلس، وكبير الأساتيذ في زمانه وقد درّس العربية نحوا من ستين سنة لزمه ابن عصفور في أوّج عطائه مدّة عشر



سنوات ينهَلُ من علمه وأدبه، وقد قرأ عليه كتاب سيبويه ولم يتمّه. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 16/399، المراكشي، الذيل والتكملة، 3/167، 3/386]

2. مَراتِبُ العِلْمِ والسّيادة في بَيْتِ العَلَم:

لم يشتهر بالعِلْم من أقارب الأستاذ أبي الحسن ابن عُصفور سوى القليل، منهم: ابنُ أخته محمّدُ بْنُ أحمدَ ابْنِ عُصفور أبو عبد الله الإشبيليّ، قال عنه الذهبيّ في تاريخه: «شيخٌ مطبوعٌ، حُلوُ المجالسة، دَمِثُ الأخلاق، مُتَفَنِّنٌ في الأدب والشِّعرِ واللُّغةِ وله نصيبٌ من علم القرآن والأثر والبلاغة والحساب، وله يد بيضاء في القريض، وفيه ديانةٌ وتعفُّفٌ وخيرٌ وعقلٌ، جالستُهُ مَرَّاتٍ وكان قد أخذ عن علماء المغرب»، وحفيده الفقيه أبو عبد الله محمّد بن عصفور (ت: 862هـ) وقد وليَ نظارة الأحباس سنة (ت: 858هـ)، وابن حفيده أبو البركات محمّد بن محمّد بن عصفور (ت: 904هـ)، وقد كان تولّى إمامة جامع التّوفيق والفتيا فيه. [الذهبي، تاريخ الإسلام، 15/927، الزركشي، تاريخ الدولتين، 139، 148-150]

3. التّلاميذُ:

بعد ما نبغ الأستاذ ابنُ عصفور في علوم العربيّة لاسيّما في علمي النّحو والصّرف وصار مُبرّزًا فيهما -وقد انتفع كثيرا من شيخه أبي عليٍّ الشّلوبين- تصدّر للتّدريس بإشبيلية إلى أن صارت بينه وبين شيخه منافرةٌ ووحشة كما سبق ذكره، فخرج عنها وراح يجول ببلاد الأندلس والمغرب العربيّ، فكان هذا سببًا في كثرة طلبته الذين أخذوا عنه علومَ اللّغة، ومن تلامذته المُبرّزين:

قاسِمُ بْنُ عَلِيٍّ المعروفُ بالصّفّار (ت: 630هـ) صَحِبَ ابْنَ عُصفورٍ مُدّةً وأخذ عنه، ثمّ شرح كتاب سيبويه شرحا مليحا ولم يُكمله.

الشّلوبين الصّغيرُ (ت: 670هـ) المالقيُّ المُقرئ لازم ابن عصفور مدّة إقامته بمالَقَةَ، وهو رَجُلٌ فاضلٌ نبيهٌ كان معروفا بالتّعفف والاقتصاد والاستغناء عن النّاس، وهو مَنْ أكمَلَ شَرْحَ أستاذِه ابْنِ عُصفور على الجُزوليَّة.

ابنُ حَكَمٍ الطّبيريّ (ت: 680هـ) كان نحويًّا أديبًا، حسنَ النّظم والنّثر، مشاركا في الفِقْه والحَديث والرِّجال، ذا حَظّ طيّبٍ في الطِّبّ أيضًا.

ابنُ سعيدٍ المَدلجيّ (ت: 685هـ) أديبٌ إخباريٌّ ورحَّالةٌ جال كثيرا من الأوطان اشتهر بتقييد الفوائد العلمية والأدبية في المغرب والمشرق.

ابنُ عذرةَ الأنصاريُّ عالمٌ في النّحو حاذقٌ نبيهٌ ذو ذهنٍ صاف.

برهانُ الدّين السُّهيليُّ النّحويُّ قرأ النّحو على ابن عُصفور واختصر (المقرّب) وسمّاه (المجرّد) وشرحه شرحا جيّدا.

[الفيروزآبادي، البلغة، 78، 251، السيوطي، بغية الوعاة، 2/210، 1/187، 1/510 لسان الدين ابن الخطيب، نفح الطيب، 4/129، المقريزي، المقفى، 1/153، محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 3/391-392]

4. مجالسُ التّدريس:

نبغ ابن عُصفور في العربيّة مبكّرًا لا سيّما في علمي النّحو والصّرف، وقد وضُح ذلك حين تصدّر للتّدريس مبكّرًا، فكانت له مجالس للتّعليم والإملاء بإشبيلية يحرّر فيها مسائل النّحو وقواعد الصّرف، وكانت حلقته تُقام في المسجد عادةً قد وُصفت بأنّها كانت حلقة كبيرة، وكان فيها مهيبًا لا يجسر الطّلبة على سؤاله لهيبته، وقد ساعد هذا التّدريس في تكوين ملكته اللّغويّة، وفي تمكّنه خاصّة من علم التّصريف ليسهُل عليه الأمر بعد ذلك في تأليف واحد من أفضل مراجع الصّرف ألا وهو كتاب (المُمتع)، ولم يكتف بعقد مجالس بإشبيلية بل رحل كما سبق ذكره إلى مدن أخرى بالأندلس أقام بها يسيرا للإملاء والتّدريس فدرّس في كلّ من (شَريش) و(مالَقَةَ) و(لورَقَةَ) و(مُرْسِيَةَ) مدنٍ معروفةٍ بالأندلس، وكان يقيم في كلّ بلدة أشهرًا يُتيح فيها لطلبة العلم وقتًا للأخذِ عنه وتقييدِ إملاءاته، فقد أملى فيها تقاييده على كتاب الجمل للزّجاجيّ (ت: 337هـ)، وإيضاح الفارسيّ (ت: 377هـ)، والكراسة المنسوبة للجُزوليّ (ت: 607هـ)، وكتاب سيبويه، فعَلا صيتُه هناك واشتهر عِلْمُه وتمكنُّه من علوم العربية، وأقبل عليه طلبة العلم ينهلون من علمه ويرشفون من نبعه، ثمّ انتقل وأقام مدّة في (آنفا) و(أزمور) مدينتين بأقصى المغرب، ثمّ رحل إلى تونس وأقام بها يسيرا، ثمّ إلى بجاية بالجزائر ثمّ رجع إلى تونس ثمّ سافر إلى الأندلس، وقصد



قصر المورق - إشبيلية

لورَقَةَ وعاد إلى غرب الأندلس ثم عبر إلى مدينة سلا بالمغرب الأقصى، وأقام بها يسيرا، ثم عاد إلى تونس وبها توفّي.

5. النّسبة إلى المَذْهَب:

الذي يَدرُسُ آراء ابنِ عصفور النّحويّة أو الصّرفيّة يتبيّن له جليًّا أنّه كان من المحقّقين المجتهدين، ولا غرو أن يصفه المترجمون له بأنّه حامل لواء العربيّة، ومع ذلك فإنّه كان يقف مع البصريين كثيرا في ترجيح بعض المسائلِ النّحويّة وينتصر كثيرا لسيبويه يفعل ذلك تحقيقًا لا تقليدًا وتعصّبًا، وأحيانًا يقف مع الكوفيين أو مع البغداديين بعد بيان أوجُهِ وأدلّة كلّ فريق كما فعل في تقوية قول الكوفيين في جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه مخالفا بذلك البصريين، وينفرد أحيانًا أخرى برأي خاصٍّ يخالف فيه المذهَبَيْنِ، ومن اختياراته النّحويّةِ القولُ بأنّ الأسماءَ قبل التّركيب موقوفةٌ لا مُعْرَبَةٌ ولا مَبنيّةٌ، وقوله في ردّ من أثبتَ مجيءَ (ذو) عند طيّء بمعنى التي في قول شاعرهم:

فإنَّ الماءَ ماءُ أبي وجدّي
وبئري ذو حفرتُ وذو طويْتُ

أي التي حفرت والتي طويت بدليل تأنيث (البئر) قال: «وهذا لا حُجَّةَ فيه، لأنَّه جاء على تذكير البئر، لا على تأنيثها، وذُكِّرَ على معنى القَليبِ، كأنَّه قال: وقليبي الذي حفرته، والذي طويته».

وله اختيارات كثيرة في النّحو والصّرف أكثر من أن تُحصى يذكرها الشّراح بعده في كتبهم، فلا يكاد يخلو كتاب في أيّ فنٍّ كان، سواء كان تفسيرا أو فقها أو أصولاً ممّا يحتاج مؤلّفه في ترجيح مسألة أو بيان إشكال مِنْ إيراد قول من أقوال ابن عُصفور أو ترجيح من ترجيحاته النّحويّة أو الصّرفيّة، وأكثر من أَشْهَرَ اختياراته الإمام أبو حيّان الأندلسيّ، فقد كان لا يفارقه -أعني أبا حيّانٍ- كتابُ المُقرّبِ في النّحو لابن عُصفور. [المقرب، ابن عصفور، 51، شرح جمل الزجاجي، ابن عصفور 1/177، المرادي، توضيح المقاصد، 1/297]

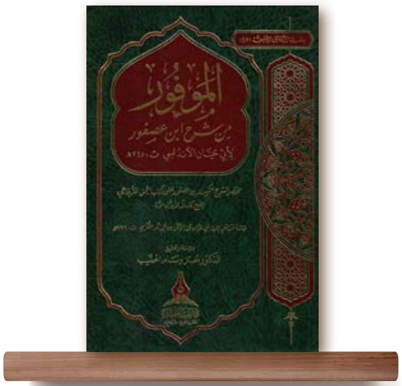
6. المَناهِجُ الَّتي تُبْرِزُ شَخْصِيَتَهُ العِلْمِيَّة:

الجدّية في الطّلب والصّبر على التّدريس:

عُرف عن ابن عُصفور الأندلسيّ أنّه كان لا يمَلّ من المطالعة في تصانيف اللّغة صبّارٌ على ذلك جَلْدٌ لم يلحق به أقرانه في زمنه، وملازمته لشيخه الشّلوبين عشر سنوات طوالٍ كما مرّ تشهد على جلَدِهِ وصبرِهِ، وقد رحل كثيرًا في أرجاء الأندلس ثمّ إلى بلاد المغرب لا يكلّ ولا يتعب يدرّس ويملي، ويناظر ويحرّر، ويختار ويُقرّر.

الثّقة بالنّفس من غَيْرِ غُرورٍ ولا اسْتِعْلاء:

يتمتّع أبو الحسن ابنُ عصفور بشخصيّة قويّة فذّة في علمي النّحو والصّرف يتجلّى ذلك في تمكّنه منهما وتصدّره لتدريسهما مبكّرًا، ورغم صعوبة مسائلِ الصّرف آنذاك، فقد تمكّن من حلّها وتبسيطها لطلابّ العلم عبر تدريسه ومؤلّفاته، وقد مدح هو نفسه مصنّفاته متيقّنًا من دقّة مسائله وتخريجاته.



سادسًا: الوِلاياتُ والمَناصِبُ التي تبوّأها

استخلصه أبو عبد الله مُحَمَّد المسْتَنْصِرُ بْنُ أبي زكرياء الحَفْصِيُّ لما كان أميرا ببجايةَ، وقرّبه، فكان يصاحبه في مجالسه وأسفاره ويُقرِئه، ثمّ لم تولّى المستنصر الملك بعد وفاة أبيه، فاستدعاه ليقيم معه بتونس، واستقرّ بها إلى أن توفّي. [تراجم المؤلفين التونسيين، ص: 3/391-392]

سابعًا: المُصنّفات

ترك لنا ابنُ عصفور المُصنِّف المحقّقُ مؤلّفاتٍ كثيرة في النّحو والصّرف والأدب تدلّ على علو كعبٍ وتمكّنٍ جعلاه إمام أهل زمانه في الأندلس وما جاورها وحاملَ لواء العربيّة فيها، وهي تزيد عن العشرين مؤلّفًا، وقد اشتهر منها كتابان هما:

كتاب المُمتِعُ الكبير في التّصريف: وهو كتاب ماتع مشهور عند علماء الصّرف ألّفه ابتداء بين عامي 625هـ و629هـ للأمير أبي بكر عبد الله بن

عبد العزيز في إشبيلية كما ذكر ذلك في خطبة كتابه، ثمّ راح يزيد فيه ويحرّره ويضبط مسائله إلى أن وافته المنيّة، وقد أثبت تلك الزّيادات والتّحريرات أبو حيان الأندلسيّ ثمّ اختصره في كتابه: المبدع في التّصريف.

وكتاب (المقرَّب) في النَّحْو الذي اشتهر وذاع وسارت به الرّكبان حتّى إنّه إذا ذُكِرَ ابن عصفور يوصف به فيقال: صاحبُ كتاب المقرّب، ويُقال إنَّ مضمونَ الكتاب مَأْخوذٌ من الجُزوليّة التي صنّفها أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجُزوليّ (ت: 607هـ) وهي مقدّمة يسيرة في مبادئ النّحو وزاد فيها ابنُ عُصفور ما أورد صاحبُها عليها، وقد ذكر في خطبة كتابه أنّه ألّفه بإشارة من الأمير أبي زكريا، وقد اعتنى بكتابه هذا جلّة من أهل العلم اختصارًا وشرحًا وتهذيبًا، وعلى شهرته إلّا أنّه لم يسلم من القدح والطّعن، فقد انتقده جماعة من أهل بلده الأندلس منهم إبراهيم بن أحمد الجَزْريّ (ت: 709هـ) ألّف كتابًا سمّاه (المنهج المعرّب في الرّدّ على المقرّب) لكنّه لم يوفّق فيه قال شهاب الدّين التّلمسانيّ (ت: 1041هـ) يصف كتاب (المنهج): «وفيه تخليط كثير وتعسّف»، وممّن انتقده أيضًا أحمدُ بنُ محمَد بنِ الحاج الإشبيليّ (ت: 647هـ) في كتابه: (الإيرادات على المقرب)، وكثير منها لم تقم له قائمة ولا التفت علماء النّحو إليه، وقد قيل: من صنّفَ فقد اسْتَهْدَفَ.

ومن مؤلّفاته أيضًا:

كتاب (شرح المقرّب): كتاب يشرح فيه المُقرّب السّالف ذكره.

وكتاب (مُثُلُ المقرّب): هو كتاب يشرح فيه الأمثلة التي ذكرها في المقرّب ليقرّب بذلك فهم مسائله، وقد أخبر هو بنفسه أنّه ألّفه بإشارة من الأمير أبي يحيى بن أبي زكريا.

وشرح (الكتاب): يشرح فيه كتاب سيبويه (ت: 180هـ).

وكتاب شرح الجمل: يشرح فيه (الجمل) للزّجّاجيّ (ت: 337هـ).

وكتاب شرح الإيضاح: وهو كتاب يشرح فيه (الإيضاح العضدي) لأبي عليٍّ الفارسيّ (ت: 377هـ) وهو كتاب في النّحو.

وكتاب مُخْتَصر المُحتسب: وهو اختصار لـ (المقدمة المحتسبة) في النّحو، التي ألفها ابن بابشاذ طاهر بن أحمد النّحوي (ت: 469هـ).

وكتاب البديع: وهو شرح لـ (الجُزوليّة) لأبي موسى الجُزوليّ (ت: 607هـ).

وكتاب الضّرائر: وهو كتاب في ضرائر الشّعر وتخريجها نحويًّا أو صرفيًّا، وقد نقل عنه البغدادي في كتابه خزانة الأدب.



مدينة إشبيلية

> نبغ ابن عُصفور في العربيّة مبكّرًا لا سيّما في علمي النّحو والصّرف، وقد وضُح ذلك حين تصدّر للتّدريس مبكّرًا.

ومن مؤلفاته: كتابُ المِفتاح وكتاب الهلال وكتاب الأزهار وكتاب إنارة الدّياجي وكتاب مُخْتَصر الغُرَّة، وكتاب مفاخرة السالف والعذار وشرح المتنبّي وسرقات الشُّعَراء وشرح الأَشْعار السِّتَّة وشرح الحماسة بعضها غير مشتهر وبعضها لم يصل إلينا.

[ابن عصفور، الممتع. تح: قباوة، 27، صلاح الدين، فوات الوفيات، 3/110، شهاب الدين التلمساني، نفح الطيب، 4/148]

ثامِنًا: مَنزِلته ومكانَته وأَقْوالُ العُلَماءِ فيهِ

تبوّأ ابن عُصفور الأندلسيّ مكانة عليّة في صرح العربيّة شهد بها كلّ من عرفه أو عرف علمه واطّلع على مصنّفاته، ودونك أخي القارئ جملة من أقوال أهل العلم ممّن ترجم له فبيّن تلك المنزلة بيانًا شافيًا وافيًا:

قال المُراكُشيّ (703هـ) مادحًا له: «وكانَ ماهرًا في علم العربيّة، رَيّانَ من الأدب، حَسَنَ التّصرُّف من أبرَع مَن تخَرَّج على أبي عليٍّ ابن الشَّلَوبين وأحسَنِهم تصنيفًا في علوم اللِّسان، وشَرَحَ «كتابَ سِيبَوَيْه» و«جُمَلَ الزَّجّاجي»، ومصنَّفُه في «التّصريف» جليلٌ نافع و«مُقرِّبُه» في النَّحوِ شاهدٌ بذِكْرِه للعربيّة وإشرافِه على مشهورِها وشاذِّها».

وأثنى عليه الغبريني (714هـ) ثناء عَطِرًا فقال: «ومنهم، الشّيخ الفقيه، الأستاذ النّحويّ التّاريخيّ، المحصِّل الجليل الفاضل، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي عُرِفَ بابن عصفور، شهيرُ الذّكر، رفيع القدر»، وقال أيضا: «قرأ بها على جماعة من أكابر العلماء منهم أبو عليٍّ الشَّلوبين، فحصل ما لم يحصل غيره، وكُلُّ من قرأ على أبي عليٍّ الشَّلوبين ببلده نَجُبَ، وأجلُّهم عندي رجلان، الأستاذ أبو الحسن هذا، والأستاذ أبو الحسن ابن أبي الرَّبيع، وأجلُّ الأستاذين الأستاذ أبو الحسن ابن عصفور، وما أعتقد في المتأخرين من الأساتيذ أجلَّ منه، جمع رحمه الله بين الحفظ والإتقان، والتَّصوُّر وفصاحة اللِّسان. هو حافظٌ متصَوِّرٌ لما هو حافظ له، قادر على التَّعبير عن محفوظه، وهذه هي الغاية، وهي أن يكون المرء حافظا له مُتصوِّرا مُعتبرًا، وقلَّ أن يجمعَ مثلَ هذا إلّا الآحادُ».

وقال عنه أبو جعفر الغرناطيّ (708هـ): «أخذ عنه بعض أصحابنا كتابه في التّصريف المسمّى بالممتع وهو كتاب حسن وتأليف نافع وتقاييده كلّها نافعة لمقرئ العربية على قبول اختياراته للاعتراض والردّ عند من حذق الصّناعة ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه سوى ما ذكر ولا تأهّل لغير ذلك -رحمه الله وعفا عنه-».

وذكره الذّهبيّ (748هـ) في تاريخه فقال: «العلّامة، أبو الحسن الحضرميُّ، الإشبيليّ، حامل لِواء العربيَّةِ بالأندلس»، وقال أيضا واصفًا نهمه في مطالعة الكتب: «وكان أصبرَ النّاس على المطالعة لا يمَلُّ من ذلك»، وأمّا عن مشاركته في العلوم الأخرى فقال عنه: «ولا تَعَلُّقَ له بعلم القراءات ولا الفقهِ ولا رِوايةِ الحَديث».

وذكره أيضا مُحَمَّدُ بنُ شاكرٍ صلاحُ الدّين (764هـ) في فوات الوفيات بمثل ما ذكره الذّهبيّ فقال: «العلّامة ابنُ عصفور النَّحويُّ الحضرميُّ الإشبيليُّ حاملُ لواء العربيَّةِ بالأندلس»، وقال أيضا: «وكان أصبرَ النَّاس على المطالعة لا يملُّ ذلك».

تاسِعًا: الأَثَرُ العامُّ والبَصْمَةُ الكُبرى:

وامتدحه الفيروزآبادي (817هـ) في كتابه البلغة بقوله: «وكان بقيَّةَ الحاملين للواء العربيّة بالمغرب، كثيرَ المطالعة، له تصانيفُ حسنةٌ»، وقال أيضا: «طافَ المغربَ كُلَّه، وأقام بتونس شاغلا للطّلبة، وكان يُملي من صدره».

[المراكشي، الذيل والتكملة، 3/348، الغبريني، عنوان الدراية، 317-318، الذهبي، تاريخ الإسلام، 15/172، صلاح الدين ابن شاكر، فوات الوفيات، 3/109، الغرناطي، صلة الصلة، 305، الفيروزآبادي، البلغة، 218]

تاسعًا: الأَثَرُ العامُّ والبَصْمَةُ الكُبرى:

تَجَلّت شخصيّة ابنِ عُصفور العلميّة في أنحاء:

أوّلًا: تهذيبه لعلم التّصريف توضيحًا واستدراكًا.

عرَفَ عِلْمُ التّصريف نقلةً نوعيَّةً بتصنيفات وتحقيقات العلّامة ابن عصفور، فقد انبرى لغامضه ومعقّده فبيّن وأوضح، وحلّ إشكالات عديدة ونقّح، وقد أخبر هو نفسه بذلك في خطبة الممتع وصرّح، فقال: «وضعت في ذلك كتابًا رفعت فيه من علم التّصريف شرائعَه، وملَّكتُه عاصيَه وطائعَه، وذلّلته للفهم بحُسن التّرتيب، وكثرة التّهذيب لألفاظه والتّقريب، حتّى صار معناه إلى القلب أسرعَ من لفظه إلى السّمع، فلما أتيت به على القِدْح، ممتنعًا عن القَدْح مُشبِهًا للرَّوض في وشي ألوانه، وتَعمُّم أفنانه، وإشراق أنواره، وابتهاج أنجاده وأغواره، والعقد في التئام وصوله، وانتظام فصوله، سميته بـ «الممتع»، ليكون اسمه وَفْق معناه، ومُترجِمًا عن فحواه...».

ثانيًا: تأثيره العلميُّ على مَنْ جاءَ بَعْدَه

لابنِ عُصفور أثرٌ بارزٌ في طلبته بله الباحثين والمؤلّفين، فقد استفادوا منه كثيرا ونقلوا عنه في تحرير المسائل الصّرفية، ومنْ أبرزِ من أظهر ذلك الأثر وأشاعه في الأقطار العربية مشرقِها ومغربها أبو حيّان الأندلسيّ (ت: 745هـ) كان إماما في العربية وغيرها له مصنّفات تزيد عن الخمسين مصنّفًا في اللّغة والفقه والتّفسير، وقد اعتنى كثيرا بآراء ابن عصفور تأييدًا ونقدًا، وشرح بعض كتبه واختصر بعضها حتّى يَظنُّ القارئُ أنّه تتلمذ له وأخذ عنه مشافهة، ومن ذلك اختصارُه للمقرّب، وكتابُه (الموفور في شرح ابن عصفور)، وكتابه (المبدع الملخّص من الممتع) الذي قال فيه: «ولما كان كتاب الممتع أحسن ما وضع في هذا الفنِّ ترتيبًا -يعني: فنَّ الصّرف- وألخصَه تهذيبًا وأجمعه تقسيمًا وأقربه تفهيمًا قصدنا في هذه الأوراق ذكر ما تضمّنه من الأحكام بألخص عبارة وأبدع إشارة ليشرف النّاظر فيه على معظمه في أقرب زمان ويسرّح بصيرته في عقائلَ حسانٍ»، ومن أمثلة نقله لرأي ابن عصفور في الصّرف قوله في (ارتشاف الضّرب) في بيان مذهب الكسائيّ في حركة عين مضارع فَعَلَ إذا كان حلقيّ العين ودلّ على بذٍّ فخرٍ: «وفي كلام ابن عصفور ما يقتضي أن مذهب الكسائيِّ أنّه يجيء (بفَتْحِ العَيْنِ) إذا كانت حرفَ حَلْقٍ».

ثالثًا: أثره في علم النّحو:

أخذ رواد المدرسة النّحويّة بحظّ وافر من آرائه وتحقيقاته البديعة لكثرة مسائله واختلاف مدارسه، وكتابه (المُقرِّبُ) في النّحو يشهد بذلك، فقد اعتنى به طلابه بعده واعتمده النّحويون وغيرهم من أهل التّفسير والفقه في مؤلفاتهم عند تحقيق كثير من مسائل الخلاف، وأكثر من ناقش اختيارات ابن عصفور النّحويّة -تأييدا أو معارضة- أبو حيان الأندلسيّ في كتابه (ارتشاف الضّرب)، فقد تعدّت المسائل التي ذكر فيها ابنَ عصفور المائتين، ومن أمثلة ذلك قوله في باب ترخيم المنادى: «وزعم ابن عصفور أنه لا يجوز ترخيم: صلمعة بن قلمعة، لأنه كناية عن المجهول الذي لا يعرف، وإطلاق النحاة يخالفه...»، وقد شرح المقرّب محمّد بن إبراهيم ابن النّحاس (ت: 698هـ)، وشرحه أيضًا ابن التركماني القاضي تاج الدّين (ت: 744هـ)، ووضع عليه أبو حيّان شرحين سمّى أحدهما (التّدريب في تمثيل التّقريب)، والآخر (تقريب المقرّب) يقول في خطبة الأخير: «وقد جمعتُ في هذه الأوراق من كتاب المُقرّب نفائسَهُ وجَلَوْتُ للخُطّاب عرائسَهُ، وجرّدته أحكامًا مختصرةَ اللّفظِ ميسّرةً للحفظ...»، ويبدو أثرُ المقرّب وغيره من مؤلّفات ابن عصفور أيضا واضحًا في شروحات ابنِ مالك الأندلسيّ (ت: 672هـ)، وحاشية الأشموني على ألفيته، وأيضا في تحقيقات ابنِ هشام الأنصاريّ (ت: 761هـ) النّحويّة في كتابه (مغني اللّبيب)، وقد ذكره ابن عرفة (ت: 803هـ) في تفسيره كثيرا وذكره أيضًا السّيوطي (ت: 911هـ) في كتابه (همع الهوامع) أكثر من مائة وأربعين مرّة، وغيرُهم كثيرٌ جدًّا، فصارت عبارات: «قاله ابن عصفور»، أو «وهو اختيار ابن عصفور»، أو «وهو رأي ابن عصفور»، أو «ورجّحه ابن عصفور»، وغيرُها لا تكاد يخلو منها مصنّفٌ في النّحو أو الصّرفِ أو غيرهما من علوم الشّريعة، فأغلب العلماء الذين جاءوا بعده يستشهدون بكلامه في تحرير مسائلهم إذا كان لها علاقة بنحو أو صرف، وما يزال العلماء والباحثون يعتمدون على مؤلّفات ابن



لابنِ عُصفور أثرٌ بارزٌ في طلبته بله الباحثين والمؤلّفين، فقد استفادوا منه كثيرا ونقلوا عنه في تحرير المسائل الصّرفية، ومنْ أبرزِ من أظهر ذلك الأثر وأشاعه في الأقطار العربية مشرقها ومغربها أبو حيّان الأندلسيّ (ت: 745هـ).

عصفور إلى يومنا هذا. [ابن عصفور، الممتع، 27، أبو حيان، ارتشاف الضرب، 1/157، 5/2229، أبو حيان، تقريب المقرب، 39]

الوفاة:

توفي ابنُ عُصفور ليلة الأحد في (25/11/669هـ) الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة تسعٍ وستّين وستّمئة للهجرة الموافق لـ (11/7/1272م) الحادي عشر من شهر يوليو/تموز سنة اثنين وسبعين ومئتين وألف للميلاد، ولم تكن آخر أيام الأستاذ أبي الحسن سعيدة فيما ذُكِر عنه، فقد قال صلاح الدين ابن شاكر (ت: 746هـ): «ولم يكن بذاك الورع كان الشَّيْخُ تَقِيُّ الدّين بن تيميَّة يدَّعي أنّه لم يزل يُرْجَمُ بالنّارنج في مجْلِس الشّراب إلى أن ماتَ»، ولم يذكر صلاح الدّين مستندَ القصّة ولا يُدرى ما صِحّتُها، وقد ردّ محمّد محفوظ (ت: 1408هـ) هذا الزّعم فقال: «ولم يُوضّح النّاقلون لهذه الحكاية الغريبة مستندَها ولعلّها تلفيقٌ من بعض الخصوم الذين لا يتورّعون عن الكذب والاختلاق، مع أنَّ المترجمين لابن عصفور من الأندلسيّين والمغاربة لم يشيروا إلى هذه الحكاية أدنى إشارة، ولا غمزوا سيرته الشَّخصيَّةَ بأدنى مغمز، وذكر المؤرِّخون التُّونسيُّون سببًا آخر لموته وهم أعرفُ بهذا من غيرهم لوفاته في بلدهم، وكان سببُ موتِه فيما نَقلَ الشَّيخُ القلشاني وغيرُه أنّه دخلَ على السُّلطان محمَّد المستنصرِ الحفصِيِّ يوما وهو جالسٌ برياضِ أبي فَهْرٍ في أريانة في القبَّة التي على الجابية الكبيرة، فقال السُّلطان على جهة الفخر مصراعَ بيتٍ كأنَّه يريد إجازتَه:

قدْ أصْبَحَ مُلْكُنا الغَداةَ عَظيما

فقال ابنُ عُصفور: «بنا وبأمثالنا»، فوَجَدَ مِنْها السُّلطانُ وأَسَرَّها، ولما قام ابْنُ عُصفور ليَخرجَ أَوْعَزَ إلى بعض خواصِّهِ أن يَقْذِفَهُ بثيابه في الجابية، وتثاقل الحاضرون على إخراجه من الجابية المذكورة، وأوصاهم بأن لا يتركوه يصعد مظهرين اللَّعبَ معه فكلّما أراد الصُّعودَ ردُّوه، وكان اليومُ شديدَ البرد، وبعد صعوده أصابه بردٌ وحُمَّى، وبقي ثلاثةَ أيام وماتَ في ليلة الأحد 25 ذي القعدة (669هـ)».

وقد ذكروا لابن عُصفور بيتين كان يتمّثل بهما حين بلغه الكبر كان يقول:

لما تَدَنَّسْتُ بالتّفريطِ في كِبَري
وصِرتُ مُغرًى بشُرْبِ الرّاحِ واللَّعَسِ
رَأيْتُ أنَّ خِضابَ الشَّيْبِ أَسْتَرُ لي
إنَّ البَياضَ قَليلُ الحَمْلِ للدَّنَسِ

قلت: هذا يشهدُ للقولِ الأوّل، ولا يمنع القولَ الثّاني، والله أعلم بالصّواب.

عاشرًا: الدّراسات والأبحاثُ العلميّة والنّقديّة

أقيمت بحوث ورسائل كثيرة اعتنت بمنهج ابنِ عُصفور وقيمته العلميّة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

1- منهج ابن عصفور الإشبيليّ في النّحو والتّصريف للدكتور: جميل عبد الله عويضة تمّ النّشر سنة (1409هـ)، وقد أجاد فيه الباحث وأفاد.

2- اعتراضات ابن عصفور الإشبيليّ

النّحويّة القياسيّة للأستاذة: نهلة فكري.

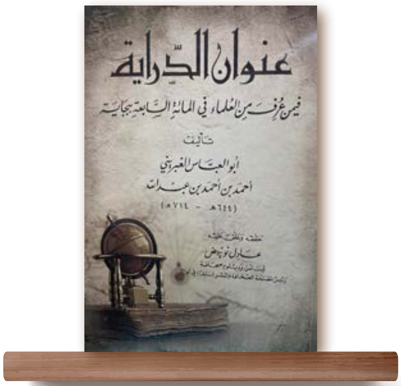
3- بعض الإضافات النّحويّة لابن عصفور الإشبيليّ للأستاذ: بلخير شنين، وقد بيّن في هذا البحث ما يُعتقد أنّ ابن عصفور خالف فيه غيره من مسائل نحويّة وناقشها ببيان الصّواب في ذلك.

4- الآراء الاجتهادية النّحويّة لابن عصفور في كتابه ضرائر الشّعر للأستاذة: ميساء طه خماس، وهو مبحث جيّد تناولت الباحثة فيه كتابًا قليلَ الشُّهرة لابن عصفور يتناول فيه بعض الضّرورات الشّعريّة التي تخالف القواعد النّحويّة أو الصرفيّة.

5- رسالة لنيل درجة الدكتوراة عنوانها: (نقد ابن عصفور آراء الصّرفيين في كتابه الممتع) للباحث: عبد بن سرحان القرنيّ، وهو مبحث صرفيّ نافع ومفيد يقف فيه على أقوال ابن عصفور في مباحث صرفيّة كثيرة.

وغير هذا كثير ممّا تطول التّرجمة بذكره، وممّا لا شكّ فيه ولا ريب أنّ كثرة الرّسائل والمقالات والبحوث التي أنجزت في دراسة آراء ابن عصفور الأندلسيّ النّحويّة أو الصّرفيّة خيرُ شاهدٍ على مكانته العلميّة وغزارته المعرفيّة في الفنّين.





أُقيمَت بحوث ورسائل كثيرة اعتَنت بمنهج ابن عصفور وقيمَته العلميَّة، وكانت خير شاهدٍ على مكانتِه وغزارَتِه المعرفيَّة.

مِنْ عُيونِ الحِكَم

قالَ الإمامُ الشّافعيّ:

تَعلَّمْ فَلَيسَ المرءُ يولَدُ عالِمًا ... ولَيسَ أخو عِلْمٍ كَمَنْ هوَ جاهِلُ
وإنَّ كبيرَ القومِ لا عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغيرٌ إذا الْتَفَّتْ عليهِ الجَحافِلُ
وإنَّ صغيرَ القَومِ إنْ كانَ عالِمًا ... كبيرٌ إذا رُدَّتْ إليهِ المَحافِلُ



أَدَبٌ ونَقدٌ

- جَماليّاتُ الخِطابِ الوَصْفِيِّ فِي مَطالِعِ التَّشْبِيبِ للشّيخِ سُلْطان بنِ صَقْرٍ القاسِمِيِّ
- الـصّحْـرَاءُ فِـي شِـعْـرِ ذِي الـرُّمَّةِ
- هِجَاءُ الكِبَارِ أَقْصَرُ الطُّرُقِ إلَى الشُّهْرَةِ
- (تَحِيّةٌ للشَّمْسِ عِنْدَ شُرُوقِهَا): أنموذجٌ لخطابِ الطّبيعةِ في شِعْرِ عبدِ الرّحمن شُكري
- امرَأةٌ مِنَ الطَّباشِير، لِسَنِيّة صالح (التَّدَاخُلَاتُ بيْنَ الشِّعْرِ والمَعْرِفَةِ العِلْمِيَّةِ)



جَماليّاتُ الخِطابِ الوَصْفِيِّ فِي مَطالِعِ التَّشْبِيبِ
للشّيخِ سُلْطان بنِ صَقْرٍ القاسِمِيِّ

«1780-1866م»



أ.د. سمر الديوب
باحثة وناقدة أدبية

يدرس هذا البحث الخطاب الوصفيّ، وموضوعه، وأسلوبه، ولغته المتّسمة بالشّعريّة، وقد وقع اختيارنا على مطالع في التّشبيب للشّيخ سلطان بن صقر القاسميّ «1780-1866» وقد تولّى حكم الشّارقة عام 1803 بعد عمّه عبد الله بن راشدٍ القاسميّ، وقد قدّر للشّيخ سلطان بن صقر أن يحكم على مدى جيلين كاملين، وشهد في حياته عمليّة التّغيير والانتقال إلى التّحضّر في الخليج.

أمّا محقّق هذه القصائد فهو سمو الشّيخ سلطان بن محمّدٍ القاسميّ، وهذه إحدى تحفه القيّمة في التّحقيق، فقد جمع بين دفّتي الكتاب تحقيقًا لثماني قصائد للشّيخ سلطان بن صقرٍ، اتّسمت بفصاحة لغتها، وإيقاعها الموسيقيّ المائز.

وقد لاحظنا أنّ هذه المطالع الغزليّة قد بنيت على الوصف بالدّرجة الأولى، فآثرنا دراسة الوصف في بنائها منطلقين من جهود النّقّاد المحدثين في ميدان الوصف من غير أن نهمل جهود النّقّاد القدماء، ودرسنا أنواع الوصف في هذه القصائد، ووظائفه، والخطاب الوصفيّ، ووجدنا أنّ الخطاب الوصفيّ في قصائد التّشبيب يؤسّس شعريّةً خاصّةً.

ولم نعثر على أيّة دراسةٍ لهذه القصائد، ورغبنا في التّعمّق في مضمراتها، والبحث عمّا استتر وراء التّشبيب، وذلك لما لمسناه من شعريّةٍ خاصّةٍ في هذه القصائد من جهةٍ، واهتمامٍ جديرٍ بعناية الدّارسين للمحقّق من جهةٍ أخرى.

مقدّمةٌ

ندرس في هذا الجزء من الدّراسة الخطاب الوصفيّ، وموضوعه، وأسلوبه، ولغته المتّسمة بالشّعريّة في تشبيب الشّيخ سلطان بن صقرٍ القاسميّ، ونحاول أن نثبت أنّ دراسة الوصف تتجاوز النّظر إليه على أنّه مجرّد ظاهرةٍ فنّيّةٍ ودلاليّةٍ تثقل النّصّ الأدبيّ، وتهدّد بنيته بالحشو الّذي لا يضيف جديدًا إلى عدّه فاعليّةً في إنتاج هذا النّصّ الغزليّ، وتوليد معناه، وصناعة صورته؛ لذلك سنمهّد لمصطلح الوصف قديمًا وحديثًا، وننظر إلى بناء التّشبيب على الوصف، وإسهامه في تشكيل عناصره الفنّيّة والدّلاليّة بعينٍ ناقدةٍ، وسنبحث -في دراسةٍ لاحقةٍ- في نظام الوصف، ومنطقه الخاصّ، والوحدة الوصفيّة، وخصائصها.

ويشتمل النّصّ الأدبيّ على خطاباتٍ متنوّعةٍ من سرديٍّ إلى وصفيٍّ إلى حجاجيٍّ. وتفترض دراسة الخطاب الوصفيّ في نصٍّ شعريٍّ تعدّد مداخل النّظر فيه، وتنوّع مقاربات التّحليل من جهة الشّكل، والمضمون، والدّلالة،

والمصطلح.

ومن الملاحظ أنّ الدّراسات الوصفيّة تأخذ اتّجاه الدّراسة الجزئيّة، أو تتبع الظّاهرة على مستوى العصر كلّه، وهي أمورٌ لا تحيط بأوجه التّشاكل والتّباين في الخطاب الوصفيّ، ولا توصل إلى إدراك جوهر الوصف، أو الحديث عنه من جهة الموصوفات، ودراستها دراسةً نقديّةً؛ لذلك نهدف في هذا المقام إلى النّظر في هذا التّشبيب على أنّ الوصف فيه خطابٌ أساسٌ، له وحداتٌ وصفيّةٌ ترتبط بجملة علاقاتٍ. كما أنّ هذه الوحدة تتّسم بجملة سماتٍ منها خاصّية الانغلاق، والاستقلاليّة. وهي أمورٌ يتباين فيها الخطاب الوصفيّ عن الخطاب السّرديّ.

وقد تناول النّقّاد العرب القدماء الوصف من زاويةٍ مختلفةٍ عن تناول النّقّاد المحدثين له. وتحاول هذه الدّراسة أن تفيد من جهود النّقّاد المحدثين في دراسة الوصف، وأن تطبّقها على نصوصٍ شعريّةٍ تندرج في فنّ الغزل من دون أن يكون هناك تجاوزٌ للنّظرة النّقديّة العربيّة فيما يتعلّق بالوصف. وهو الأمر الّذي يجعل هذه الدّراسة تتأرجح بين موقعين: موقع أصحاب النّظريّة، وموقع النّاظر إليها من زاويةٍ نقديّةٍ.

وتدخل هذه الدّراسة في حقل الدّراسات الشّعريّة. وهو من الحقول الّتي لم تستقرّ بعد على الرّغم من وجود جهازٍ نظريٍّ ومفهوميٍّ على جانبٍ كبيرٍ من الأهمّيّة.

ولا تقيّد هذه الدّراسة نفسها بمنهجٍ محدّدٍ؛ لأنّ تبنّي أحد المناهج يعني إقصاء ما سواه. ولعلّ هذا الموقف



المنهجيّ يتّفق وانفتاح الخطاب النّقديّ الحديث على مفاهيم كثيرةٍ تتألف في إطاره بقصد معالجة الأثر المدروس من شتّى زواياه مع ميلنا إلى معطيات التّأويل في كثيرٍ من المواضع.

الوصف: كلامٌ في المصطلح

يعدّ الوصف مكوّنًا من مكوّنات الخطاب، وعنصرًا من عناصره. وقد تحدّث النّقّاد العرب القدماء عن الوصف، وارتبط لديهم بالشّعر. فعدّوه معيار جودة الشّعر، ومجالاً للتّفاضل بين الشّعراء. وقد ارتبط الوصف بالشّعر؛ لأنّ العرب لم تعرف الرّواية إلّا في العصر الحديث. فنجد حضوره واضحًا في الرّواية العربيّة في مراحل تطوّرها.

وقد اهتمّ النّقّاد القدماء بالوصف بخلاف النّقّاد المحدثين الّذين انصرفوا عنه - إلّا أقلّهم - إلى السّرد والخطاب. فقد نهضت الرّواية - على سبيل المثال - على الوصف، لكنّ النّقد غيّبه.

يثير الاهتمام أنّ الشّاعر لم يضع عنوانًا لأيّة قصيدةٍ، ما يعني أنّ هذه القصائد جميعها ينتظمها خيطٌ شعوريٌّ واحدٌ، وخطّة وصفٍ واحدةٌ.

وارتبط الوصف بالمحاكاة، والتّصوير، والتّخييل. وقد أفادت المادّة -معجميًّا- معاني الكشف، والإيضاح، والحسن، والاتّصاف، إذ يقال: «وصف الشّيء له وعليه وصفًا، وصفةً: حلّاه... والوصف وصفك الشّيء بحليته ونعته...».

يأخذ التّعريف السّابق بعين الاعتبار البعد التّداوليّ: الكشف والإيضاح. ومن هنا علاقته بالبلاغة. ويعني الكلام السّابق أنّ كلّ ما دلّ على الصّفات

والهيئات مدرجٌ في الوصف، يحمل معنى الإبانة والكشف من جهةٍ، ومعنى الإخبار الّذي يخصّص الموصوف من جهةٍ أخرى. ويمكن أن نمثّل لتعريف الوصف بما يأتي:

إخبارٌ عن الصّفات ⍰ تدقيقٌ في الصّفات ⍰ ارتباطٌ بالحواسّ، أو بالمشاعر.

وقد ارتبط الوصف بالمستوى الأدبيّ البلاغيّ. وهو الأمر الّذي نجده لدى البلاغيّين القدماء، فربطوا الوصف بشكل التّعبير، وبالنّظام والتّرتيب في الكلام، فقد رأى قدامة بن جعفرٍ أنّ الوصف محسّنٌ. ومن شروطه لديه أن يكون سمحًا، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة. يقول: « الوصف إنّما هو ذكر الشّيء بما فيه من الأحوال والهيئات. ولمّا كان أكثر وصف الشّعراء إنّما يقع على الأشياء المركّبة من ضروب المعاني كان أحسنهم وصفًا من أتى في شعره بأكثر المعاني الّتي الموصوف مركّبٌ منها، ثمّ بأظهرها فيه وأولاها حتّى يحكيه بشعره، ويمثّله للحسّ بنعته».

يعني الكلام السّابق أنّ الوصف قد عدّ مقياسًا من مقاييس الشّعريّة، وارتبط بحقيقة الموصوفات، لكنّه حديثٌ عن الصّفة الّتي تتبع الموصوف، لا حديثٌ عن أثر الوصف ووظيفته في النّصّ الأدبيّ: أي المحاكاة والتّمثيل بالحسّ من أجل أن يستحضر السّامع الشّيء ووظيفته. فيرتبط الوصف بالأحوال والهيئات؛ أي بالصّورة الخارجيّة، ويتحوّل الموصوف من شكلٍ ماديٍّ إلى شكلٍ فنّيٍّ له خصوصيّةٌ لغويّةٌ. والوصف – لدى قدامة – مركّبٌ، لا مفردٌ، ويعني ذلك أنّ المبدع المبرّز من أتى بأكثر المعاني للموصوف المركّب مع التّركيز على النّقل الأمين للواصف، فعلاقة الوصف بالموصوف علاقة مقاربةٍ ومماثلةٍ.

أمّا في العصر الحاضر فقد ربط إبراهيم فتحي في معجمه الوصف بالحواسّ قائلاً إنّه «شكلٌ من أشكال القول، ينبئ عن كيف يبدو شيءٌ ما، وكيف يكون مذاقه، ورائحته، وصوته، ومسلكه، وشعوره».

لقد أدرك النّقّاد المحدثون أنّ للوصف قيمتين: فنّيّة، ونقديّة. مع أنّهم تأرجحوا بين النّكران والرّضا عن أهمّيّته، ووظيفته في بناء النّصّ الأدبيّ، لكنّ الوصف ظلّ مستعليًا على مواقف النّقاد، فلم يرتبط بجنسٍ أدبيٍّ محدّدٍ، ولم ينظّم سلفًا في شكلٍ خاصٍّ، ولا يؤدّي وظيفةً واحدةً في الخطاب، ولا يتجلّى في شكلٍ واحدٍ. وقد تنوّعت مواقف النّقّاد المحدثين من الوصف، وربّما أمكن لهذا الجزء من الدّراسة الوقوف عند بعضٍ من جهودهم في هذا المجال بهدف تحليل الوصف في تشبيب الشّيخ سلطان بن صقرٍ القاسميّ.

الوصف في «الطّيب في التّشبيب»:

تعدّ الكتابة في حدّ ذاتها ذات بعدٍ قصديٍّ سواءٌ أتوسّلت بالوصف أم بغيره؛ لذا لابدّ أن يجد خطابها الخاصّ في الوصف فضاءً تتحرّك فيه العناصر الدّلاليّة.

ويتألّف كتاب (الطّيب في التّشبيب) من عددٍ من قصائد المرحوم الشّيخ سلطان بن صقر بن خالدٍ القاسميّ، حاكم الشّارقة السّابق، وهو أحد دواوينه، ويقول المحقّق الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّدٍ القاسميّ: «بعد دراسةٍ وتحقيقٍ لتلك القصائد وجدتها في المدح والتّمدّح، وكانت قصائد الشّيخ سلطان بن صقرٍ القاسميّ منها، عددها ثماني قصائد، وقد شبّب قصائده؛ أي حسّنها وزيّنها بذكر النّساء، والعادة أن يكون التّشبيب في مبتدأ قصائد المدح، فكأن الشّيخ سلطان بن صقرٍ القاسميّ قد أتى بالطّيب من كلامٍ ونحوه، في بداية كلّ قصيدةٍ؛ أي في التّشبيب من القصيدة، فاستخلصت ذلك، وحقّقته لفظًا ونحوًا، بعد أن أغفلت بقيّة كلّ قصيدةٍ، وأطلقت عليه «الطّيب في التّشبيب»، وجعلته عنوانًا لهذا الكتاب.

أمّا الشّيخ سلطان بن صقرٍ القاسميّ فقد أتى بالفرائد، أي الألفاظ الّتي تدلّ على عظم فصاحته، وجزالة منطقه،

”

تبيّن أنّ الخطاب الوصفيّ هو خطاب معرفةٍ، لا خطاب رؤيةٍ بصريّةٍ. وقد أتى مشبّعًا بذاتيّة الواصف الشّاعر، ولا يقتصر الواصف على الرّؤية البصريّة، بل يتعدّاها إلى الحواسّ الأخرى؛ لأنّه تشكيلٌ فنّيٌّ، أساسه الرّؤية البصريّة.

وأصالة عربيّته، وخلوها من الرّكاكة، حتّى إذا ما أتى بالوصف أمكن وصفه، فمن وصفه للمرأة صار معروفًا بحسن صفاتها، وأخلاقها الحميدة الّتي تتحلّى بها..»

يقول:

من الخرّد البيض، لم تدر ما الخنى من الفسق، والتّدنيس سالمةً، سلم مفلّجة الأسنان، تركيّة القفا مدملجة الخلخال، زاهية القدم بخصرٍ لطيف الطيّ، زاهٍ بمنطق من الذّهب الإبريز، بالماس قد نظم

لجأ الشّاعر إلى الجمل الاسميّة الّتي يصف فيها جمال المرأة وصفًا حسّيًّا، وهو وصفٌ ينتمي إلى الذّائقة العربيّة القديمة فيما يتعلّق بجمال المرأة، فوصفها بأنّها بكرٌ، لا تعرف الفسق والفجور، وانتقل إلى وصف الأسنان، وجمال الخصر، والقدم، لباسها من الذّهب الخالص، فهي فتاةٌ حازت جمال الخلق والخلق، اجتمعت فيها عناصر الكمال، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الكمال على المستويين الدّاخليّ والخارجيّ مرتبطٌ أشدّ الارتباط بالجزء المقتطع من القصيدة، وهو المدح، وبهذا الشّكل يعدّ هذا الوصف تمهيدًا بطريقةٍ غير مباشرةٍ للمدح؛ إذ يحوز الممدوح صفات الكمال والجمال، وقد يكون الوصف إضفاء قيمةٍ إيجابيّةٍ على ما استتر في النّصّ، فمجتمعه حاضرٌ في ذهنه، وهو يريد له أرقى صفات الكمال والجمال.

وقد بدأ بجملةٍ اسميّةٍ ركّز فيها على النّقاء، والصّفاء الخالصين، وممّا لا شكّ فيه أنّ التّشبيب في بدء قصائده يتعدّى غرض التّشبيب إلى ربطه بالغرض الرّئيس وهو المدح، ويؤدّي هذا المشهد الوصفيّ وظيفةً حجاجيّةً، فهو بعدٌ حجاجيٌّ يظهر بالتّأويل.



الشيخ سلطان بن صقر القاسمي -رحمه الله-

ويتابع الشّاعر وصف ثغرها الّذي يعدّ درّ اللآلئ، وإعجازها الضّخمة، أمّا وجهها فكالبدر داخل شعرٍ أسود فاحمٍ، وعيناها كعيني الشّادن، البرّاقتين كالدّرّ، ويصف جيدها وخصرها وصدرها إلى أن يصل إلى مبتغاه مع البيت الأخير، فيقول:

فأقسمت ما أنسى الوداع وليلةً حظيت بمن أهواه، ما حاسدٌ ينم

نلاحظ غلبة الجمل الاسميّة على الخطاب الوصفيّ، وتحيل إلى ثبات الصّفات في الموصوفة/ المرأة، لكنّ الحركة تظهر في البيت الأخير حين وصل إلى غايته، وحظي بها، وجعل الحسّاد أرقين، ويحيل هذا الأمر إلى بعد نظر الشّاعر الّذي شعر أنّ السّكون الطّافح لا بدّ أن ينقلب إلى ضدّه، أي إلى حركةٍ، فأمام هذا الثّبات في الموصوفات وصلنا إلى الحدّ الّذي يجب أن تنتهي إليه، فقد أمعن في وصفه، وطال أفق ترقّب المتلقّي إلى الحركة النّاجمة عن السّكون الممتدّ إلى أبياتٍ، فتطلّع إلى ما وراء السّكون، وقدّم مشهده الوصفيّ بناءً على هندسةٍ وصفيّةٍ بدأت بالنّقاء الدّاخليّ، ثمّ انتقل إلى الشّكل الخارجيّ، ووصل إلى الذّروة والهدف مع البيت الأخير، فكان نتيجة هذا الوصف حصوله عليها، وهي الفريدة في كلّ شيءٍ. ففي المشهد الوصفيّ إطارٌ زمكانيٌّ، وعلامات سكونٍ في الحركة، وحركةٌ في السّكون.

ويثير التّركيز على وصف السّكون والحركة اهتمام المتلقّي، فليس المهمّ في المقطع الإخبار عن المرأة بقدر الاهتمام بالوصف؛ لأنّه المركز الّذي تدور القصيدة حوله.

ويعدّ السّكون والحركة بؤرة الوصف، فيشدّ المتلقّي إلى ما سيحدث بعد الجمل السّاكنة من حركةٍ. فلا حضور للشّاعر إلّا في البيتين الأوّل، والأخير، وقوله في البيت الأخير: «واقسمت ما أنسى الوداع» يبدو عنصرًا من عناصر السّكون. فقد ورد القسم بثباته على

> **مع أنّ الوصف يتشعّب وينتشر، وتتعدّد الخاصيّات، والعناصر، وعمليّات التّعليق والتّرسيخ، لكنّ مكوّناته تظلّ مشدودةً بعضها إلى بعضٍ بفضل الموضوع الرّئيس، فهو يوحّدها، ويلمّ شتاتها، وهي تعود إليه.**

لقائها. ويتعيّن على ذلك أنّ القصيدة متعلّقةٌ بالشّاعر من جهة الإخبار وتأكيد ثبات الهدف، فيتساوى الشّاعر والمرأة في الخطاب الوصفيّ.

يريد المبدع في استقصائه الوصفيّ أن يكون الشّخصيّة المحوريّة في القصيدة، فنراه ينتقل معتمدًا على الحركة في البيت الأخير الّذي يبدا بالفعل «أقسمت»، فتتصارع الحركة والسّكون، وهي حركةٌ مضطربةٌ؛ لذلك أتت جملها قصيرةً، أفلحت في زعزعة السّكون، وكانّ كلّ عبارةٍ تمثّل جزءًا من مثالٍ لامرأة أنموذج ليس لها مثيلٌ، وباجتماع هذه الجمل الّتي تطغى الحركة والسّكون عليها يرتسم المشهد الوصفيّ، ويتصاعد إلى أن يبلغ نهاية السّكون، وعودة الحركة في نهاية القصيدة.

خطّة الوصف:

يوجّه الواصف كلامه إلى مخاطبين افتراضيّين، وهو الّذي يقدّم المعرفة الوصفيّة، فيظهر المتلقّي منتظرًا ما سيخبره الواصف به. ولا تتدخّل شخصيّته في خطّة الوصف، فهو لا يطلب المعرفة بل تقدّم له. لكنّه يمتلك سمةً دافعةً للحدث المعرفيّ المولّد للوصف، هي استيعاب الوصف، والإطالة فيه، وحسن الاستماع.

أمّا الواصف فهو المتخصّص بسلطة المعرفة، يقودها بحسب ثقافته ورغبته. وتبدو للواصف سلطةٌ، فلا أحد يراجع كلامه، ولا أحد يستوقفه. ويمكن أن نمثّل عمله بالشّكل الآتي:

- الرَّغْبَةُ في وَصْفِ المَرْأَةِ
- القُدْرَةُ على الوَصْفِ
- إتْقانُ فَنِّ الوَصْفِ.
- فِعْلُ التَّشْبِيبِ وَوَصْفُهُ

ويمكن القول إنّ الوصف في هذه القصيدة، وفي قصائد الدّيوان الثّماني موضوع الكلام؛ لأنّه استطاع أن يمتّع المتلقّي، ويحرّضه على فعل التّخيّل.

ويثير الاهتمام أنّ الشّاعر لم يضع عنوانًا لأيّة قصيدةٍ، ما يعني أنّ هذه القصائد جميعها ينتظمها خيطٌ شعوريٌّ واحدٌ، وخطّة وصفٍ واحدةٌ:

من شافعي في وصل من نظر الفؤاد لها فطار هركولةٌ، غضّ الشّبا بـ تخالها ظبي القفار سجيلةٌ، ربحلةٌ خودٌ زهت بالجلّنار وهنانةٌ، خمصانةٌ من هجرها في القلب نار

خَضَعَ الوَصْفُ في هَذِهِ القَصِيدَةِ إلى خُطَّةٍ مَدْروسَةٍ، فالبِدايَةُ مِن صُنْعِ الواصِفِ، وَهِيَ طُعْمٌ، فَقَدْ بَدأ بِمُخاطَبَةِ المُتَلَقِّي وَطَلَبِ شَفِيعٍ لَهُ عِنْدَها، وَهو أَمْرٌ لَمْ يأتِ عَنْ عَبَثٍ، بَلْ لَهُ وَظِيفَةٌ سَيَدْرُسُها البَحْثُ لاحِقًا.

خضع الوصف في هذه القصيدة إلى خطّةٍ مدروسةٍ، فالبداية من صنع الواصف، وهي طعمٌ، فقد بدأ بمخاطبة المتلقّي وطلب شفيعٍ له عندها، وهو أمرٌ لم يأت عن عبثٍ، بل له وظيفةٌ سيدرسها البحث لاحقًا.

ويمكن أن نلاحظ أنّ الذّاتيّة في الخطاب ملازمةٌ لخطاب الواصف، فقد جرت العادة في النّصّ الوصفيّ أن يكون الوسط المحيط بالموصوف هو البداية. لكنّ ثمّة مراوغةً من قبل المبدع؛ إذ يمكن أن نعدّ معلن بداية الوصف الجمل الوصفيّة المخصوصة بالشّاعر والمرأة معًا، ثمّ يبدأ الوصف من حيث يجب أن ينتهي بقوله «من سيكون شفيعًا له لكي يصل إلى تلك الآسرة بجمالها.

إنّ شخصيّة الواصف مندرجةٌ في الخطّة العامّة للوصف الّتي ضبطها الواصف. فقد مهّد لوجهة نظره بالوصف بمقصد الإيهام بالواقع، فاثبت معلنات بدايةٍ منها توجيه الحديث إلى المتلقّي العامّ، ووصف سبب الشّفاعة.

ونجد هذه المعلنات معلنات بدايةٍ مراوغةٍ؛ إذ يهيّئ الواصف المتلقّي المقصود لتلقّي ما حدث على ساحة الوصف، ثمّ يسترسل في وصفه، فيقدّم ما رأت عيناه من جمالٍ آسرٍ لا مثيل له، مركّزًا على سلّم القيم الجماليّة في التّراث العربيّ.

ونجد أنّ معلن بداية فكرةٍ يكون

معلن نهاية فكرةٍ سابقةٍ. فتتداخل الأفكار، ويمسك بعضها بيد بعضٍ، ما يعني أنّ القصيدة كلّها مشهدٌ واحدٌ على تعدّديّته. وتعدّده مرتبطٌ بحركة الواصف المدرك، وبتعدّد زوايا الإدراك.

يوجد معلن البداية مع صوت الشّاعر عمليّة إدراكٍ، ويكشف عن التّلازم في وجهة نظر الواصف بين المكوّنين الإدراكيّ والمعرفيّ. فالمخاطب مهيّأ لسماع تفاصيل التّشبيب، ويملك الكفاية اللّغويّة الضّروريّة للإدراك، ويأتي الشّاعر الّذي يصف، فينتفي الفرق بين الشّاعر بوصفه متكلّمًا والشّخصيّة بوصفها متلقّطًا مباشرًا؛ لأنّ المبدع إذا كان شخصيّةً لا يبئّر بل يبار. فالمبئّر يتكلّم بضمير الغائب.

ينتقل الواصف إلى التّفاصيل الصّغيرة بعد الإجمال، فثمّة عمليّاتٌ وصفيّةٌ وفّرت في المستوى الدّلاليّ التّعاقب الصّوريّ لكلّ مقطعٍ. وهو تنام مخبرٌ عنه. فقد أحالت التّفاصيل الوصفيّة الصّغيرة والأجزاء الصّغيرة التّجميعيّة إلى المرجع ذاته، سواءٌ أتعلّق الأمر بالموصوف الرّئيس (المرأة) أم الثّانويّ (التّفاصيل الصّغيرة)، وهو أمرٌ وفّرته العمليّات الوصفيّة على مستوى البناء.

إنّ ثمّة موصوفًا رئيسًا (المرأة) وموصوفاتٍ ثانويّةً حدّدت مظاهرها. وتحديد المظاهر هي «عمليّةٌ وصفيّةٌ تتمثّل في تفريع الموضوع، أو الموصوف إلى خاصيّاته وعناصره».

وقد فرّع الموصوف إلى عناصره أو مكوّناته، فقد أحال الشّاعر المتلقّي إلى المكان مع أنّه لم يحدّده، فموصوفاته مشتقّةٌ من الطّبيعة الصّحراويّة، وتفرّع الوصف إلى وصفٍ للطّبيعة السّاكنة والمتحرّكة، فكان هنالك علاقةٌ أقامها الواصف بين الموصوفات والزّمان والمكان عبر لغةٍ شعريّةٍ. وتدعى هذه العمليّة الوصفيّة بالتّعليق.

ثمّ يبدأ الواصف بترسيخ موضوعه الأساس. وقد رسّخه؛ لأنّه انطلق من الكلّ (في البيت الأوّل) إلى الأجزاء. فالكلّ يوصل إلى الأجزاء، والأجزاء تحيل إلى الكلّ. فالتّرسيخ «عمليّةٌ وصفيّةٌ تتمثّل في افتتاح المقطع الوصفيّ بذكر مرجعه، أو موضوعه الرّئيس».

ويمكن أن نجد أنّ مصطلح اللّوحة ذا صلةٍ بالوصف في هذه القصائد، فهي تقع في منطقةٍ وسطى بين السّرد والوصف، وهي شكلٌ من أشكال الوصف المبار، تسهم في رسم «الإيقاع الدّاخليّ للعمل، وتخلق علاقةً معيّنةً بين الأجزاء (الإيحاء بالتّتالي أو القطع)... وهي وحدةٌ بنيويّةٌ لها استقلاليّتها عمّا سبقها وما يعقبها، ووحدةٌ مكانيّةٌ لها حدودٌ مكانيّةٌ تضفي عليها استقلالًا عضويًّا شأنها في ذلك شأن اللّوحة في الرّسم الّتي يكون لها إطارها الخاصّ». ويأخذ الممثّلون في اللّوحة وضعيّة سكونٍ تذكّر بلوحاتٍ أو منحوتاتٍ معروفةٍ، وتوحي بالموقف المعبّر.

وثمّة مصطلحٌ جديدٌ يماثل مصطلح اللّوحة في النّقد الغربيّ الحديث هو وصف الأفعال أو الوصف عن طريق الفعل، يندرج فيه إلى جانب وصف مظاهر الطّبيعة وصف أجزاء المرأة، وتشبيهها بموجودات الطّبيعة الصّامتة، والمتحرّكة.

ويمكن أن نطلق على هذه اللّوحة الوصف المسرح أو المسرّد؛ إذ يعتمد على المسانيد العقليّة والبلاغيّة. ومن شأن هذه المسانيد أن تثبت الحياة في الشّيء الموصوف، وتكسبه الحركة.

واللّوحة في هذه القصائد حافلةٌ بالحركة بخلاف التّعريف السّابق. ويمكن أن نعدّ اللّوحة والمشهد في هذه القصائد بناءً داخليًّا، لا خارجيًّا.

ثمّة تشاكلٌ بين اللّوحة وقصيدة التّشبيب. فالتّشبيب فرعٌ من فنّ الغزل الشّعريّ، وهو فنٌّ خطّيٌّ يمثّل تتبّعًا آنيًّا للوصف، وتقدّم اللّوحة التّجربة تقديمًا مباشرًا. وفي كلتا الحالين تغدو وظيفة الفنّان أن يجعلنا نرى ما لا نعيه، وأن يوقظ لدينا إيحاءاتٍ ومعاني جديدةً.

إذا نظرنا إلى المقطع الوصفيّ على أنّه وحدةٌ أسلوبيّةٌ تتمتّع باستقلاليّةٍ، وقطعةٌ قابلةٌ للعزل، يمكن أن نرى في هذه القصيدة ثلاثة مقاطع وصفيّة: الأوّل هو البيت الأوّل، والثّاني الأبيات من الثّاني إلى الثّاني عشر، وهي الأبيات الّتي يعدّد فيها على نمطٍ واحدٍ صفات تلك المرأة، والمقطع الثّالث، وهو الّذي تزهر الحركة فيه بقوله:

جاءت، وقد صبغ الحيا منها الجبين المستنار
زارت قتيل غرامها والليل قد أرخى السّتار
ورشفت ريقًا صرت منـه كشاربٍ كأس العقار

وقد امتدّ المقطع الوصفيّ الثّاني بفضل ترسيخ الموصوف الرّئيس (المرأة)، والموصوفات الثّانويّة (أجزاؤها). وبناءً على ذلك نجد أنّ تحديد المظاهر أهمّ عمليّةٍ وصفيّةٍ، فقد حدّد الواصف موضوع وصفه، ثمّ حدّد

خصائصه وعناصره، فبدا مبئّرًا للمرأة المشبّب بها؛ لأنّه نفذ إلى تفاصيلها الصّغيرة، ومشاعرها.

وبذلك يكون الواصف أهمّ مكوّنٍ لخطّة الوصف. فقد أنبأ عن كلّ شيءٍ، فمرّ وصفه بمرحلتي التّعاقب والتّداخل. ففي التّعاقب انتقالٌ من العامّ (في المقطع الأوّل) إلى الخاصّ في المقطعين اللّاحقين، والواصف هو الإدراك نفسه في القصيدة كلّها، رؤيته خارجيّةٌ في البداية، ثمّ تتحوّل إلى داخليّةٍ. وتدلّ كلّيّة حضور الواصف على أنّ عمق منظوره لا حدّ له، وأنّ التّبئير من الدّرجة صفرٍ، فالواصف يعرف كلّ شيءٍ، وقد دخل إلى مشاعرها، واكتشف حياءها.

العمليّات الوصفيّة:

تتعدّد العمليّات الوصفيّة في هذه القصيدة محقّقةً متعة التّشويق الوصفيّ. فثمّة وصفٌ بسيطٌ، ووصفٌ معقّدٌ (تشجيريّ)، ووصفٌ انتشاريٌّ.

5- 1- الوصف البسيط:

يعطى عادةً بجملةٍ وصفيّةٍ قصيرةٍ تشتمل على تراكيب وصفيّةٍ صغرى. إذ «يمكن أن يحضر الوصف في شكل دليلٍ مركّبٍ في شكل كلمةٍ أو جملةٍ أو متتاليةٍ من الجمل».

«هركولة، غضّ الشباب، تخالها ظبي القفار...» ففي هذا الوصف البسيط تتعدد الصفات لموصوف واحد.

5- 2- الوصف المركّب:

وهو الوصف الّذي يعتمد على التّفريع المعقّد، إذ تتكثّف داخل المقطع الوصفيّ أكثر من وحدةٍ وصفيّةٍ قابلةٍ لأن تستقلّ في ذاتها بسبب اكتمال مكوّنات الوصف المتوافرة في تلك الوحدة الخاصّة بها، والثّاني هو بعد الصّفات فيها عن موضوع الوصف المركزيّ الأوّل الّذي كان سببًا لها.

فموضوع الوصف وصف المرأة والتّشبيب بها، لكنّنا نجد أنّه قد بدا يفرّع الموصوف إلى وحداتٍ يتفرّع كلٌّ منها من سابقه، فهي ضخمة الأوراك، تفرّع عن ذلك أنّها ضخمةٌ، وتشبه الدّلو الضّخمة وتفرّع عن ذلك تأكيد ضخامتها، وهي خود ناعمةٌ، تفرّع عن ذلك أنّها تشبه زهر الرّمّان، وهي حييّةٌ، لكنّها زارت قتيل غرامها، واستتبع ذلك استمتاعه بريقها.

فالعنصر المتولّد من موضوع الوصف يضحي موضوعًا وصفيًّا تتفرّع عنه عناصر، وصفاتٌ قابلةٌ للتّفرّع، إذ ينزع الوصف نحو الشّموليّة؛ لأنّه يمعن في تجزيء الصّفات، ويصدر ذلك عن منطقٍ، لا اعتباطًا، ويضفي تشعّب حركة الوصف حركةً على الحدث الوصفيّ، لكنّ ذلك لا يعني انعدام رغبة الواصف في تنظيم وصفه. فحرصه على الإيهام بالواقع يدفعه إلى تعيين الصّفات، وضبط العناصر؛ ليرسم صورةً أشدّ ما يكون قربها للواقع. فالواصف لا ينقل الموصوفات، بل يعيد تشكيلها على وفق معرفته المرتبطة برؤيته. فلا يهمّ ما يراه بقدر ما يهمّ معرفته بما يراه، وكيف يجب أن يراه.

5- 3- الوصف الانتشاريّ:

إذا كان الوصف المركّب منصبًّا على الموصوف شريطة أن يكون معقّدًا بفضل الانتقال من الموصوف إلى أجزائه، فإنّ الوصف الانتشاريّ هو الّذي يراكب الأشياء، والمشاهد، واللّوحات بطريقةٍ تسمح له بإعلان نفسه محورًا مهيمنًا يخضع لمشيئته محور نظم القصيدة.

ويمكن أن ننظر إلى القصيدة من بدايتها إلى نهايتها على أنّها تراكبٌ للمشاهد الوصفيّة، واللّوحات الّتي سبق ذكرها. وبناءً على ذلك يتعيّن أنّ الوصف طاغٍ على هذه القصيدة، والقصائد الثّماني في الدّيوان.

ومع أنّ الوصف يتشعّب وينتشر، وتتعدّد الخاصيّات، والعناصر، وعمليّات التّعليق والتّرسيخ، لكنّ مكوّناته تظلّ مشدودةً بعضها إلى بعضٍ بفضل الموضوع الرّئيس، فهو يوحّدها، ويلمّ شتاتها، وهي تعود إليه. ولكنّ هذه القدرة على التّوحيد لا تلغي العمليّة المخالفة ضمن الوصف الانتشاريّ، وهي التّجزئة. فالوصف يوحّد، ويجزّئ في الآن نفسه. فموضوع الوصف ما إن يظهر حتّى يختفي، فتنوب عنه عناصره الجزئيّة، وعلاقاته بغيره عن طريق التّشاكل الدّلاليّ، والانزياح، فيقيم علاقاتٍ مخصوصةً بين الموصوفات داخل النّصّ.

لكن لا توجد في العمليّة الوصفيّة أشياء ثانويّةٌ. فالشّيء الّذي يبدو ثانويًّا يأخذ حظّه الكامل من الاهتمام الوصفيّ: «زارت قتيل غرامها... ورشفت ريقًا ...كشاربٍ كاس العقار».

خاتمةٌ ونتائج

بيّنت هذه الدّراسة أهمّيّة النّظام اللّغويّ في صياغة الوصف، وبنائه؛ إذ يتعدّى كونه مجرّد تسميةٍ للموصوفات. كما بيّنت أهمّيّة النّظم المعرفيّة والدّلاليّة في بنائه، وترتيبه. وأهمّيّة

العبارة الوصفيّة الّتي تندمج مع غيرها؛ لتشكّل خطابًا وصفيًّا له بنيةٌ قارّةٌ في النّصّ الأدبيّ.

وقد ظهر الخطاب الوصفيّ في مطالع الشّيخ سلطان بن صقرٍ القاسميّ متلازمًا مع الخطاب الحجاجيّ، وهو طريقةٌ لجعل المتلقّي يتبنّى أطروحةً ما، معتمدًا على حججٍ معيّنةٍ.

وثمّة تكثيفٌ وصفيٌّ في هذه النّصوص الشّعريّة يلائم الخطاب الإعلاميّ، وهو تكثيفٌ أجناسيٌّ؛ لأنّ جنس الشّعر يقتضيه.

وتبيّن لنا أنّ الخطاب الوصفيّ هو خطاب معرفةٍ، لا خطاب رؤيةٍ بصريّةٍ. وقد أتى مشبّعًا بذاتيّة الواصف الشّاعر، ولا يقتصر الواصف على الرّؤية البصريّة، بل يتعدّاها إلى الحواسّ الأخرى؛ لأنّه تشكيلٌ فنّيٌّ، أساسه الرّؤية البصريّة. وتأتي الحواسّ الأخرى رديفًا له. وبما أنّه خطاب معرفةٍ تأتي أهمّيّته من الجانب المعرفيّ الإخباريّ لا الفنّيّ الجماليّ فقط. فالوصف يخبر بطريقةٍ مجازيّةٍ، فيجمع بين الجمال في التّعبير، والإخبار..

أخيرًا: الوصف في النّقد الحديث حدثٌ يملك شخصيّةً مميّزةً قادرةً على إبراز رؤية الواصف، وأفكاره.

لقد تبيّن لنا بعد هذه الرّحلة في الوصف أنّ اللّغة لا تكتفي بأن تقول، إنّها تتوهّج حين تصف.

أهم المصادر والمراجع

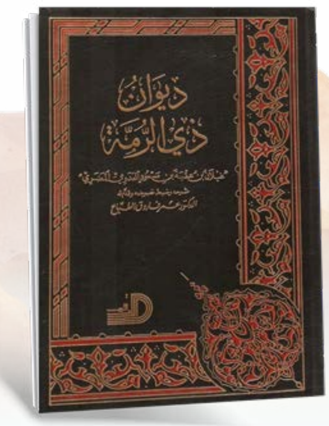
- ابن منظور، لسان العرب.
- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية.
الأزهري، تهذيب اللغة.
- الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، الطيب في التشبيب، جمع وتحقيق: د. سلطان بن محمد القاسمي، منشورات القاسمي، الشارقة، 2018.
- عبد الفتاح الحجمري، الكحل والمرود: تحليل الوصف في الرواية العربية، ط1، دار الحرف، المغرب، 2008.
- عبد اللطيف محفوظ، وظيفة الوصف في الرواية.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر.
- محمد نجيب العمامي، في الوصف بين النظرية والنص السردي، دار محمد علي الحامي، تونس، 2005.
- محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردي: وجهة النظر والبعد الحجاجي.
- ماري إلياس وحنان قصاب حسن، المعجم المسرحي (مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض).
- نجوى القسنطيني الرياحي، في نظرية الوصف الروائي.
- جيفري ميرز، اللوحة والرواية.
- Philippe Hamon, Du descriptif, Hachette Livre, Paris

حِـكَـمٌ وَآدَابٌ

يقـولُ الشّـافعي:

تَغَرَّبْ عن الأوطانِ في طلبِ العُلا ... وسافِرْ فَفي الأَسْفارِ خَمْسُ فَوائدِ

تَفريجُ همٍّ واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآدابٌ وصُحبـةُ ماجـدِ



الـصّــحْـــرَاءُ
فِي شِـعْرِ ذِي الـرُّمَّـةِ

د. محمد المصطفى
عضو اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين

لا يصدُقُ في غَيْلان ذي الرُّمّةِ وصفٌ مناسبٌ ما صدقَ فيه وصْفُه لنفسِه بأنّه «أخو تنائف»، لقد عرَف الرّجلُ نفسَه وعرّفها بهذا التّعبيرِ الدّقيق.

إنَّ القارئَ لديوانِ ذي الرُّمّة ليتعثّرُ بمُعجم الصّحراءِ في كلِّ قطعةٍ وقصيدةٍ منه، وتُرافقُه البيئةُ الصّحراويّةُ بتضاريسِها وأنوائِها وأرواحِها وأشجارِها ووحوشِها على امتدادِ صفحاتِ الدّيوان.

وإذا كان الشّاعرُ ابنَ بيئتِه ومُحيطه تنضحُ ذاكرتُه بقضاياها وهمومِها وتُسجّلُ كلماتُه وتصفُ ما يدورُ على مَسرحِها من أحداثٍ وتقلُّباتٍ، فإنَّ شاعرَنا هو صَنيعةُ الصّحراء وابنُها الوفيُّ، فَتح عينَيْه بين أحضانِها.. إليها ينظرُ حيثما سارَ، وعلى رمالِها يعيشُ آمالَه وآلامَه، وبأشجارِها وأعشابِها وأمواهِها تنعمُ أنعامُه التي هي ملاكُ حياتِه وحياةِ قومه، لذلك كان لها نصيبٌ متقدّمٌ من اهتمامِه، ونتيجةً للارتباطِ العُضويِّ بها انعكست طبيعتُها القاسيةُ وشظَفُ عيشِها على بناتِ خاطرِه، قوّةً في تناوُلِ المعاني، وجزالةً في الألفاظِ، وغرابةً في المُعجم أهّلَته ليكونَ في طليعةِ شُعراءِ العربِ الذين امتلأتِ المعاجمُ بشواهدِهم، كما نرى آثارَ ذلك عندما نفتحُ دفّتَيِ الدّيوان.

الحقولُ الدّلاليّةُ لمُفرداتِ الصّحراء:

تتكاثفُ في شِعْر شُعراء الباديةِ الخُلَّصِ – كما هو شأنُ صاحبِنا – دلالاتُ المكانِ الحسّيّةُ التي يجدُ الشّاعرُ فيها مجالاً مُنفسحًا للتّعويض عن نمطيّةِ الزّمانِ ومَحدوديّةِ الأفقِ الفكريّ التي تَفرضُها الصّحراءُ على البدْوِ في نطاقِهم المُغلقِ، وفي أَثْناءِ هذا الدّيوانِ لا تزالُ تتنقّلُ بين النّجادِ والوِهادِ في رحلةِ حياةِ الشّاعرِ وتقلُّباتِها، ففضلاً عن ربوعِه المُفضّلةِ التي أصبحت أسماؤها لازمةً من لوازم شِعْره: وَهبين، يَبْرين، الزّرق، الدّهناء، حزوَى، جَرعاءُ مالك، تُطالعُك آلافُ المُفردات التي تصفُ الصّحراء على اختلافِ مظاهرِها الطّبيعيّة وخصائصِها الجيولوجيّة ممّا يُمكنُ تصنيفُه ضمْنَ الحقولِ الآتية:

– ما يُحيل إلى الانبساط والاتّساع: واصية، دويةٌ، داويَّة، دوّ، فيف، فَيفاء، سُبروت، خَبْت، سائفة، قَرْقَر، أماليس، سَخاويّ، رَهاء، بسبس، سبسب.

– ما يدلُّ على الوحشة والخوف: بيداء، تيْهاء، يَهْماء، هيْماء، طامسة، مهْمه، طامس الأعلام، دَيامِيم، مَرَوْرَاة، بَلاقع، هَوْجَل.

– ما يَعني الصّعوبةَ والقسوةَ: قُفّ، مهاوٍ، رِعان، مخارم، غَوْل، نازح،

تتكاثفُ في شِعْرِ شُعراء البادية الخُلَّص دلالاتُ المكانِ الحسّيةُ التي يجدُ الشّاعرُ فيها مجالاً مُنفسحًا للتّعويض عن نمطيّةِ الزّمانِ ومَحدوديّةِ الأفقِ الفكريّ.

مَجاهل، غُفْل، حَوْمان، جَماهير، حِزّان، أُروم، عانك، وعْث.

– ما يصفُ القحْطَ والجدْبَ: جرداء، جدّاء، قاحلة، عاقر، قِفار، مُحُول، ما بها مُتعلَّل، مَوْماة.

– ما يرتبطُ بالحرّ والعطَش: آل، عساقل، سَموم، مِهياف، هَيْف، أُوَار، سُعَار، قَيْظ. (تركْتُ هذه المفرداتِ في صِيَغها التي وردت بها في الديوان تسهيلاً للبحث، وتراجعُ معانيها في المعاجم).

السّياقاتُ التي يَردُ فيها ذكرُ الصّحراء

يظلُّ صاحبُنا البدويُّ القُحُّ يَغرفُ من هذه المُفرداتِ التي لا تَنضبُ، ويَنحتُ من خياله الجامحِ قوافيَ للتّعبير عن أحاسيسه ومشاعرِه، متّخذًا منَ الصّحراء رمزًا وِجدانيًّا تدور حولَه أفكارُه، وسنقفُ بالقارئ هنا عند أكثرِ السّياقاتِ التي يُوظِّفُ فيها مُعجمَه الصّحراويَّ:

1- شجاعتُه وركوبُه الأهوالَ

لا يَفتَأ الشّاعرُ يصفُ مغامراتِه وركوبَه الأهوالَ والأخطار، وهو يمارسُ نوعًا منِ استعراضِ الشّجاعةِ والإقدامِ بما لتلك الخصالِ من قيمةٍ عند الإنسانِ العربيّ، وهو في ذلك يشاركُ القارئَ أدقَّ التّفاصيل، بريشةِ فنّانٍ عارفٍ بها مُوغلٍ في طواياها، ويُرسلُ في الوقت ذاتِه رسائلَ عن نفسه وقبيلتِه إلى مُناوئيهم وخصومِهم، فحْواها أنّه طلّاعُ أنجادٍ، مُخوّفُ الصّولة، مرهوبُ الجانب، فيقول:

ولستُ بمِحْيارٍ إذا ما تشَابهت
أماليس مخضرٌّ عليها ظلامُها
قد أعْسِفُ النّازحَ المجهولَ معسِفُه
في ظلِّ أغضفَ يدعو هامَه البومُ

ويقولُ في وصْفِ هذه الفَلاة التي لا يأخذُ مُجتازوها منَ الكلامِ إلّا بقدْرِ القُوت خوفًا من أهوالها، ويرقصُ السَّرابُ بجبالِها من شدّة الحرِّ:

وغبراءَ يقتاتُ الأحاديثَ ركبُها
وتَشْفي ذواتِ الضِّغْنِ من طائفِ الجهلِ
ترى قُورها يغرقنَ في الآلِ مرةً
وآونةً يخرجنَ من غامرٍ ضَحلِ
قطعتُ على مضبورةٍ أُخْرَياتُها
بعيدةِ ما بين الخشاشةِ والرَّحلِ

ولا يُهملُ الشّاعرُ في أيِّ مناسبةٍ ذكْرَ راحلتِه صهباءِ شَعْرِ اللّحيين التي صارت تشبهُ الفحْلَ من مُقاساة المفاوزِ المَخوفة التي تُغمضُ عيونَها على من يقتحِمُها:

ومجهولةٍ تيهاءَ تُغْضي عُيونُها
على البُعْد إغضاءَ الدّوَى غيرَ نائم
فلاةٍ مرَوْراةٍ تَرامى إذا مَرَتْ
بها الآلُ أيْدي المُصغيات الرّواسم
قطعتُ بصهباء العثانين أسْأرت
سُرى اللّيْلِ منها آلَ قَرمٍ ضُبارِمِ

وما يزالُ يتفنّنُ في أوصافِ البيداءِ التي تُشكّلُ سَدًّا يَحمي ما وراءه، ويتأمّلُ كيف يقتلُ حَرُّ هذه الأرض كِسفَ الغبار فتقعُ حَسْرى كأنّها عمائمُ فوق رؤوس الجبال:

وغبراءَ يَحمي دونها ما وراءها
ولا يخْتطيها الدهرَ إلا مُخاطرُ
سخاويَّ ماتت فوقها كلُّ هَبْوة
منَ القَيْظ واعتمَّت بهنَّ الحزاورُ
قطعتُ بخلْقاء الدُّفوف كأنّها
منَ الحقْبِ ملساءُ العجيزة ضامرُ

وأحيانًا يمتدُّ فخرُه باقتحام المجاهلِ إلى من يُرافقُه منَ الصِّحاب والرّحال، ويستطيعُ معه التّحمّلَ والصَّبر على تلك الأحوال:

وأشعثَ قد قايَسته عَرض هوْجلٍ
سواءٍ علينا صحوُه وغياهبُهْ

وعندما يقولُ:

ومخشيَّةِ العاثورِ يرمي بركبها
إلى مثله خِمْسٌ بعيدٌ مناهلُهْ

> **بكلمةٍ واحدة نستطيع أن نقول إنَّ صورةَ الصّحراء قد ملَكت على الشّاعر أخْيِلتَه وتحكّمت بأفكاره، حتى ترى شَغفَه بها لا يفتُر، وظمأَه إلى ذكرها لا يُنْقَعُ.**

قطعتُ بنهّاضٍ إلى صُعُداته
إذا شمَّرت عن ساقِ خِمْسٍ ذلاذِلُه

مقارنًا نفسَه بغيره ومعرِّضًا في الوقت ذاته بأوصافِ من ليس كذلك:

يهماء لا يجتازها المغوِّرُ
كأنما الأعلام فيها سُيَّرُ
بها يضِلُّ الخَوْتَعُ المشهَّرُ
والمسبطِرُّ اللاحب المُنيَّرُ

ومِن أبدعِ ما قال في ذلك وأعذبِه تصويرًا – ولعلّه لم يُسبق إليه – قولُه:

وسَاجرة السَّراب من الموامي
تَرقَّص في عساقلها الأُروم
يموت قطا الفلاة بها أواماً
ويهلِكُ في جوانبها النّسيم
بها غُدُرٌ وليس بها بِلال
وأشباحٌ تحولُ ولا تريم

2- وصْفُ السّير إلى المَمدوح والمحبوب

ويرصُد القارئُ في نصوصٍ كثيرةٍ للشّاعر لوناً آخر من وصْف الصّحراء، وذلك عندما يكونُ بين يدَيِ التّخلُّص إلى مدح ممْدوحِيه، فيتّخذُ من وصْف الصّحراء ومُقاساتِها والتّهويلِ من شأنها وسيلةً تمتاحُ عطفَ الممدوح وتستدرُّ نائلَه وتُسني للمادح المكافأةَ على مِقدار نصَبِه، من مثلِ قوْلِه يمدحُ ابنَ بِشر الأمويَّ:

إذا ما نضَونا جوزَ رملٍ علَت بنا
طريقةَ قُفٍّ مُبْرِحٍ بالرّواكع
ترى رَعْنه الأقصى كأنَّ قُموسَه
تحامُلُ أحوى يتبعُ الخيلَ ظالع

وقوله:

وكائنْ تخطَّت ناقتي من مَفازةٍ
إليك ومن أحواض ماء مسدَّم
جشَمْتُ إليك البُعدَ لا في خصومة
ولا مستجيراً من جريرة مُجرم

وفي مديحِه لعمرَ ابنِ هُبَيرة لا يفتأ يمنُّ عليه اجتيازَ عرْضِ الصّحراء وعبورَ نهر الفُرات كي يصلَ إلى بابه:

كم جُبتُ دونكَ من تيْهاء مظلمة
تيه إذا ما مُغنِّي جنِّها سمَرا
ومُزْبِدٍ مثْلِ عُرْضِ اللّيلِ لُجّتُه
يُهِلُّ شُكراً على شطَّيْه من عَبرا

ويتفنّن في سياقٍ استعطافيٍّ آخرَ، فيُفيضُ في وصْف أهوالِ الصحراء وقساوةِ المفاوزِ التي اخترقَها لوصالِ محبوبتِه مُدلًّا عليها بما يَلقاه في سبيل وصْلِها وأمَلِ زَوْرة منها:

زار الخيالُ لِمَيٍّ هاجعاً لعبت
به التّنائفُ والمهريّةُ النُّجُبُ
... ...
أخا تنائِفَ أغفى عند ساهمةٍ
بأخلقِ الدَّفِّ من تصديرها جُلَبُ

ويقولُ مخاطبًا محبوبتَه «صيداءَ» مُستعذِبًا لفْحَ الهواجر والسَّيرَ إليها بين عَزيف الفلَوات وأصواتِ الجنّ، وقد خاط الحرُّ سترًا من جانبِها إلى جانبها:

وهاجرةٍ غرّاءَ ساميْت حدَّها
إليك وجفنُ العينِ بالماء سافحُ
وتيه خبطْنا غولَها وارتمى بنا
أبو البُعد من أرجائه المُتطاوِحُ
فلاةٌ لصوت الجنِّ في مُنكراتِها
هزيزٌ وللأبوام فيها نوابح
تبطَّنتُها والقيظُ ما بين جَالها
إلى جالِها سِتراً من الآل ناصح

وعلى نفْس النّمط، وبتكثيفٍ زائدٍ من أجراسِ الخَوف والفَزع:

وداويّةٍ جرداء جدّاء خيَّمت
بها هبَواتُ الصَّيف من كلِّ جانب
سباريتَ يخلو سمعُ مجتازِ خَرقِها
من الصَّوت إلّا من ضُباح الثَّعالب

... ...
قطعتُ إذا هاب الضَّغابيسُ، مشْرِفاً
على كُورِ إحدى المُشرِفاتِ الغَوارب

3- وصْفُ أطلالِ الأحبّة

وبدرجـة أقلَّ مـن ذلك يتناول الشّـاعرُ الصّحراءَ واصفًـا أطلالَ الأحبّة، فيبدو لك منظرُهـا القاحـلُ المألـوفُ فـي الدّيوان وقدِ استنطقَه الشّـاعرُ، فدبَّت فيه معاني الحياةِ والحـبّ، يقول:

وقفْـتُ علـى ربـعٍ لميَّـةَ ناقتـي
فمـا زلـت أبكـي عنـده وأخاطبُـهْ
وأَسـقيه حتّـى كـاد ممـا أبُثُّـهْ
تكلِّمنـي أحجـارُه وملاعبُـهْ
بأجـرعَ مِقفـارٍ بعيـدٍ مـن القُـرى
فلاةٍ، وحفَّـت بالـفلاة جوانبُـهْ
ظعائـنُ لـم يحلُلـن إلا تَنوفـةً
عَـذاةً إذا مـا البـرد هبَّـت جنائِبُـهْ

وفـي مخاطبتِـه لرسْـم محبوبتِـه «خرقـاء»:

ألا أيُّهـا الرَّسـمُ الـذي غيَّـر البِلى
كأنَّـك لـم يعْهـد بـك الحـيَّ عاهـدُ
تَرَدَّيْـتَ مـن ألـوان نَـوْرٍ كأنَّـه
زرابـيُّ وانهلَّـت عليـك الرَّواعـدُ

وبكلمـةٍ واحـدة نسـتطيع أن نقول إنَّ صـورةَ الصّحـراء قد ملَكت على الشّـاعر أخْيلتَـه وتحكّمـت بأفـكاره، حتـى ترى شَـغفَه بهـا لا يفتـرُ، وظمأَه إلـى ذكرها لا يُنْقَـعُ، تتخلَّـلُ أغراضَـه فـي الغـزل والنّسـيب، ويُمهِّـدُ بها للهجـاء والمَديح، ويُسـلّي بأوصافِهـا وألوانهـا نفسَـه وصِحابَه عن مشـقّات الرّحيل ومُقاسـاة النّصَـب، حتى لَتـراه يجترحُ التّشـبيهاتِ الغريبـةَ المنحوتـةَ مـن أشـياءِ الصّحراء للأمـورِ التـي تُعجبُـه، فيُشـبّه الرّمـل بأعجازِ العَـذارَى:

ورمْـلٍ كأوْراك العـذارَى قطعتُـه
إذا جلَّلتـه المُظلمـاتُ الحنـادسُ
رُكامٍ تـرى أثباجَـه حيـن تلتقـي
لهـا حُبُـكٌ لا تخْتطِيـه الضَّغابـس

ثـمّ لا يلبـثُ أن يقلِبَ الصّورةَ بتشبيه أعجازِهـنّ بالعانكِ وهـو الرَّمـلُ المتعقّدُ المُشـرِفُ، مُشـبِّهًا مجـالَ أقراطِهـن بالنَّفْنَـف وهـو مـا بيـن أعلـى الجبـل وأسـفلِه:

لهـا كفَـلٌ كالعانـك استنَّ فوقَـه
أهاضيـبُ لبَّـدن الهذاليـل نُضَّـحُ
تـرى قُرطَها في واضح اللِّيت مُشرِفاً
علـى هُلُـك فـي نَفْنَـفٍ يترجَّـح

حِـكَـمٌ وَآدَابٌ

يقول زهير بن أبي سُلمى:

وَمَن يَجعَلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِه ... يَفِـرْهُ ومَـن لا يتَّـقِ الشَّـتْـمَ يُشْتَمِ
ومَن يكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِه ... على قَومِه يُسْتَغْنَ عَنْهُ ويُذْمَمِ
ومَنْ هابَ أَسْبابَ المَنيَّةِ يَلْقَها ... ولَو رامَ أَسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ



هِجَاءُ الكِبَارِ أَقْصَرُ الطُّرُقِ إِلَى الشُّهْرَةِ



د. سعيد بكّور
أستاذ الأدب العربي القديم
بجامعة ابن طُفَيْل - المغرب

يُعَدُّ الهِجاءُ أَحَدَ الأَغراضِ المَركَزيّةِ في الشِّعرِ العَرَبيِّ القَديم، يَسعَى فيهِ الشّاعِرُ إلى النَّيلِ مِنَ المَهجوِّ بِطَريقَةٍ تَضعُهُ وتُعَدِّدُ مَساوِئَهُ. والحَقُّ أَنَّ الهِجاءَ لَم يَكُن مَحض وَصْفٍ لِمَساوِئَ يُعمِلُ الشّاعِرُ السّاخِرُ أَوِ السّاخِطُ جُهدَهُ الفَنّيَّ لإبرازِها قَصدَ إِلباسِ مَن يَهجوهُ ثَوبَ العارِ، بَل كانَ أَيضًا وَسيلَةً لِلإِشهارِ السَّلبيِّ لِلمَهجوِّ لِيَصيرَ ذِكرُهُ سائِرًا على الأَلسُنِ، ونَستَحضِرُ هُنا ما حَصَلَ لِبَني نُميرٍ مَع جَريرِ بنِ عَطيَّةَ، فَقَد ذاعَ اسمُهُم إِلى دَرَجَةٍ أَنَّهُم صاروا يَنتَسِبونَ بِالبَصرَةِ إلى عامِرِ بنِ صَعصعَةَ، ويَتَجاوَزونَ أَباهُم نُمَيرًا إِلى أَبيهِ كما ذَكَرَ ابنُ رَشيقٍ، خَوفًا مِنَ التَّعييرِ وَالسُّخريَّةِ.

مِن ناحِيَةٍ أُخرى، حَرِصَ بَعضُ الشُّعَراءِ عَلى استِغلالِ الهِجاءِ لِيُحَقِّقوا شُهرَةً بَينَ النّاسِ، وَهُم بِذلِكَ يُحاوِلونَ حَرْقَ المَراحِلِ الطَّبيعيَّةِ في سَيرورَةِ التَّطَوُّرِ الإِبداعيِّ أَو يَسعَونَ إِلى تَعويضِ النَّقصِ الشِّعريِّ عَن طَريقِ التَّجَرُّؤِ على الفُحُولِ، وَكانَ هؤُلاءِ مِنَ المُبتَدِئينَ الَّذينَ يَتَلَمَّسونَ طَريقَ الفُحولَةِ، وَمِنَ المُتَوَسِّطينَ الَّذينَ يُحاوِلونَ جاهِدينَ استِدراجَ الكِبارِ عَن طَريقِ الاستِفزازِ، فَإِذا أَجابوهُم حَسِبوا أَنَّهُم تَساوَوا مَعَهُم وَصاروا أَندادًا لَهُم، ذلِكَ أَنَّ الرَّدَّ اعتِرافٌ ضِمنِيٌّ بِالتَّساوي في المَكانَةِ، وَهُم بِصَنيعِهِم هذا يَسلُكونَ أَقصَرَ الطُّرُقِ المُؤَدِّيَةِ إِلى الشُّهرَةِ السَّريعَةِ وَطَيِّ المَسافاتِ الشِّعريَّةِ المُتعِبَةِ، كَما أَنَّهُم في هِجائِهِم لا يَحتاجونَ إِلى مَوهِبَةٍ فَذَّةٍ بِقَدرِ ما يَلوذونَ بِجُرأَةٍ تَفتَقِدُ إِلى آدابِ تَقديرِ مَن هُم أَعلَى مِنهُم في الطَّبَقَةِ.

نَقِفُ في هذِهِ الأَسطُرِ عَلى قِصَصٍ تَمتَزِجُ فيها الطَّرافَةُ بِالظَّرْفِ لِشُعَراءَ هَجَوا الفُحُولَ لِيَكونَ لَهُم ذِكرٌ بَينَ النّاسِ؛ مِن ذلِكَ ما وَقَعَ لِجَريرٍ أَحَدِ فُحُولِ عَصرِ بَني أُمَيَّةَ، عِندَما هَجاهُ شاعِرٌ يُدعَى «البَرْدَخْت»، فَقالَ مُستَفسِراً: «ما البَرْدَخْتُ»؟ فَقيلَ لَه: هُوَ الفارِغُ الَّذي لا شُغلَ لَهُ بِالفارِسِيَّةِ، فَقالَ جَرير: «ما كُنتُ لِأَجعَلَ لَهُ شُغلاً»، فَتَغاضى عَنهُ وَلَم يُجبْهُ إِمعانًا في احتِقارِهِ.

لَقَد أَدْرَكَ جَريرٌ أَنَّ هذَا الشُّوَيْعِرَ الَّذي لَهُ مِنِ اسْمِهِ نَصيبٌ (فارِغٌ لا شُغْلَ لَهُ)، إِنَّما يُريدُ أَن يَرتَبِطَ اسمُهُ بِاسمِ شاعِرٍ كَبيرٍ لِيُعرَفَ ويُذكَرَ في اللّاحِقينَ، وإجابَةُ جَريرٍ السّاخِرَةُ تُخفي تَذمُّرًا



وسُـخريَةً فـي آنٍ؛ فَهُـوَ الَّـذي يُهاجي الفَـرزدَقَ والأخطَـلَ والرّاعـي، وَهُم مَن هُـم، كَيفَ لَـهُ أن يَنـزلَ إلـى الـدَّرْكِ الأسـفَلِ مِـنَ المَعَـارِكِ الهِجائيَّـةِ الَّتـي تَحُـطُّ مِن قِيمَتِـهِ. وإذا كانَـت مُهاجاتُهُ لِلفَـرزدَقِ تَشـريفًا يُضيفُ إلى سـيرَتِهِ الشِّـعرِيَّةِ، فَإنَّ مُبارَزَتَـهُ لِلصِّغارِ تَذهَبُ بِوَقـارِهِ الشِّـعريِّ الَّـذي يُعَدُّ جُـزءًا مِن شَـخصيَّتِهِ الشِّـعريَّةِ الكُلِّيَّـةِ، ومِن غَيرِ

> **أَدْرَكَ بَعضُ الشُّعَراءِ أَنَّ التَّعَرُّضَ لِلشّاعِرِ الكَبيرِ مَدخَلٌ إلى إذاعَةِ ذِكرِهِم بَينَ النّاسِ، فَأمامَ الفَشَلِ في إنتاجِ القَصائِدِ الجِيادِ يَلجَأُ الشُّوَيعِرُ إلى الحَلِّ السَّهلِ الَّذي يُعَدُّ أقصَرَ الطُّرُقِ إلى الشُّهرَةِ وَهوَ هِجاءُ شاعِرٍ فَحلٍ لِيَرتَبِطَ بِاسمِهِ**

الحِكمَـةِ هَـدرُ الجُهدِ الفَنِّيِّ فـي مَعارِكَ غَيرِ مُفيـدَةٍ. لِهَذا السَّـبَبِ وَجَدناهُ يَأْنَفُ مِـنَ الـرَّدِّ، ولَعَـلَّ دارِسَ الأدَبِ القَديمِ يُلاحِظُ أنَّ الذّاكِرَةَ الشِّـعْرِيَّةَ لَم تَحتَفِظْ لَنا بِشِـعرِ البَرْدَخْـتِ لِتَفاهَتِـهِ وغَثاثَتِهِ.

وَقَعَت لِجَريرٍ مَعَ شـاعِرٍ واحِدٍ اسـمُهُ بَشّـارُ بنُ بُـردٍ قِصَّةٌ تُشـبِهُ ما وَقَـعَ لَهُ مَعَ البَردَختِ؛ فعندما كانَ بَشّـارٌ شـابًّا يَتَلَمَّسُ طَريقَ الفُحولَـةِ اختارَ أن يَهجوَ جَريـرًا، وَهُوَ بِهـذا يَشـهَدُ بِتَقَدُّمِهِ على خَصْمَيـهِ، وَقَد حَفِظَـت لَنا كُتُـبُ الأدَبِ تَفضيلَـهُ لِجَريرٍ على خَصمَيـهِ الفَرزدَقِ وَالأخطَـلِ، وَلَكِـنَّ ما حَـدَثَ أنَّ شـاعِرَهُ المُفَضَّـلَ لَـم يَلتَفِـت إلَيـهِ البَتَّـةَ، فَـرَدَّ بَشّـارٌ مُتَحَسِّـرًا: «مـا هَجَوتُـهُ لِأغلِبَـهُ وَلَكِـن لِيُجيبَنـي فَأكونَ مِـن طَبَقَتِهِ».

لَقَـد أرادَ بَشّـارٌ أن يُكتَبَ في سِـجِلِّهِ الشِّـعريِّ أنَّ فَحلَ العَصرِ الأُمَوِيِّ هَجاهُ، وَطُموحُـهُ هَذا كانَ يُخفـي مَوهِبَةً كَبيرةً سُـرعانَ مـا أفـرَزَت لَنـا شـاعِرًا كَبيرًا لُقِّبَ بِأُسـتاذِ المُحدَثينَ.

وَقَـد وَقَـعَ لِلفَـرزدَقِ شَـيءٌ قَريـبٌ مِـن هَـذا مَعَ شـاعِرٍ جَمَـعَ بَينَ الشِّـعرِ وَالخطابَـةِ هُـوَ الطِّرِمّاحُ بـنُ حَكيمٍ، إذ حـاوَلَ اسـتِدراجَهُ بِأبياتٍ جَزْلَـةٍ يَقولُ فيها :

واسـألْ قُفَيْـرَةَ بالمَـرُّوتِ هـل شَـهِدَتْ
شَـوْطَ الحُطَيْئَةِ بينَ الكِسْرِ والنَّضَدِ
أو كانَ فـي غالـبٍ شِـعرٌ فَيُشـبِهه
شِـعرَ ابنِـهِ فينـالَ الشِّـعرَ مِـن صَدَدِ
جـاءَتْ بـه نطفـةٌ مِن شَـرِّ ماءِ صَرًى
سِـيقَتْ إلـى شَـرِّ وادٍ شُـقَّ فـي بلـدِ

يُلمِّـحُ الطِّرِمّـاحُ إلـى قِصَّـةِ نَسَـبِ الفَـرزدَقِ لِلحُطَيئَـةِ عَلى سَـبيلِ الهِجاءِ اللّاذِعِ، وَيُشـيرُ إلـى أنَّ أبـاهُ غالِبًـا لَـم يَكُـن شـاعِرًا لِكَـي يُمَـرِّرَ لَـهُ جيناتِ الشِّـعرِ، وَالطِّرِمّـاحُ بِهذِهِ التُّهَـمِ الثَّقيلَةِ إنَّما يُريدُ اسـتِفزازَ الفَرزدَقِ لِيَـرُدَّ عَلَيهِ فَيَكونَ لَـهُ نِدًّا، بَيـدَ أنَّ هَمّامَ بـنَ غالِبٍ اكتَفَـى بِبَيـتٍ واحِـدٍ تَشُـعُّ مِنـهُ رائِحَةُ الهَـزءِ وَضَـعَ بِـهِ الطِّرِمّـاحَ فـي مَكانِهِ المُستَحَقِّ :

إنَّ الطِّرِمّـاحَ يَهجُونـي لأرْفَعَـهُ
أَيهـاتَ أَيهـاتَ عِيلَـتْ دونَـهُ القُضُـبُ

لَقَد تَفَطَّنَ الفَـرَزدَقُ لِمَطمَعِ الطِّرِمّاحِ وَمَطمَحِـهِ، فَمـا كانَ مِنـهُ إلّا أن هَجـاهُ بِبَيـتٍ يَنالُ مِـن شـاعِريَّتِهِ وَيَحُـطُّ مِن قيمَتِـهِ وَيَنتَقِـصُ مِـن مَوهِبَتِـهِ، فَهُوَ – حَسَـبَ زَعمِـهِ – رُفِعَـت عَنـهُ القَصائِدُ، وَلا يَسـتَحِقُّ أن يَكـونَ نِدًّا.

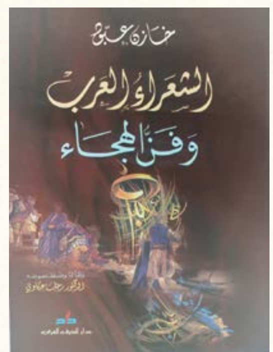
وَلَقَـد تَرَفَّـعَ الفَـرزدَقُ عَـن مُلاحـاةِ الطِّرِمّـاحِ رَغمَ أنَّهُ كانَ شـاعِرًا مُهِمًّا في عَصـرِهِ؛ لأنَّهُ لَيسَ مِـن طَبَقَتِهِ، وَالظّاهِرُ أنَّ ابـنَ حَكيـمٍ كانَ يَقصِـدُ إلـى إخراجِ الفَـرزدَقِ عَـن وَقارِهِ الشِّـعريِّ، لَكِنَّـهُ

> زَعَمَ الفَرَزدَقُ أن سَيَقتُلُ مَربَعًا
> أبشِر بِطولِ سَلامَةٍ يا مَربَعُ
>
> . جرير .

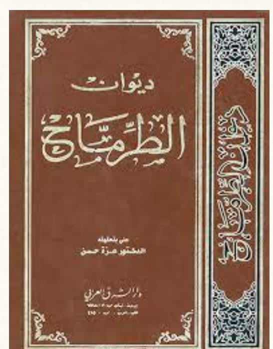
يَمشي وَعزرائيلُ مِن خَلفِهِ
مُشمِّرَ الأردانِ لِلقَبضِ

. بلبل الغرام الحاجري.

اختارَ أن يَتعالى عَنِ التّهاجي وَلَيس مِن عادَتِه ذلك، وَأحسَبُهُ تَرَكَ ما في جَعْبَتِهِ مِن شِعرٍ لِلمَعارِكِ الهِجائيَّةِ القَويَّةِ مُعاداةً لِجَريرٍ.



رأينا سابِقاً أَنَّ بَشّارَ بنَ بُردٍ سَعَى في وَقتٍ مُبكِّرٍ مِن حَياتِهِ الشِّعريَّةِ إلى مُهاجاةِ جَريرٍ الَّذي لَم يُعِرْهُ اهتمامًا، لَكِنَّهُ نَسِيَ الدَّرسَ الَّذي تَعَلَّمَهُ مِنهُ لَمّا صارَ شاعِرًا كَبيرًا، حَيثُ استَعَرَ بَينَهُ وَبَينَ شُوَيعرٍ يُدعَى حَمّادَ عَجْرَد هِجاءٌ مُستَطيرٌ، تَحَوَّلَ فيهِ بَشّارٌ إلى مَغلوبٍ، وَالسَّبَبُ أَنَّهُ جارَى شاعِرًا مَغمورًا استَطاعَ بِخُبثِهِ وَمَكرِهِ أن يَنالَ شُهرَةً واسِعَةً.



وَلَقَد وَقَعَ بَشّارٌ في فَخِّ الاستِفزازِ المُتَكَرِّرِ مِن حَمّادِ عَجْرَد، وَظَنَّ أَنَّهُ يُمكِنُ لَهُ أن يُلجِمَهُ وَيُفحِمَهُ كَما هُوَ دَيدَنُهُ مَعَ الجَميعِ، لَكِنَّ العَكسَ هُوَ الَّذي حَصَلَ، وَيُعَلِّقُ الجاحِظُ عَلى هذِهِ القِصَّةِ بِقَولِهِ: «ما كانَ لِبَشّارٍ أن يُجارِيَ حَمّادًا في الهِجاءِ؛ فَبَشّارٌ في العَيُّوقِ وَحَمّادٌ في الحَضيضِ»، وَرَغمَ أَنَّ بَشّارًا كانَ ذا لِسانٍ خَبيثٍ إلّا أَنَّ حَمّادَ عَجْرَد عَرَفَ كَيفَ يَنالُ مِنهُ لَمّا صَوَّرَهُ في صورَةِ قِردٍ أعمى في قَولِهِ:



ويا أقْبَحَ مِن قِرْدٍ
إذا ما عَمِيَ القِرْدُ

وَتُؤَكِّدُ الأَخبارُ أَنَّ المُرَعَّثَ بَكَى لَمّا سَمِعَ الهِجاءَ، فَلَمّا سُئِلَ عَن ذلِكَ قالَ: «يَرانِي فَيَصِفُني وَلا أَراهُ فَأَصِفَهُ».

نَعودُ إلى الفَرَزدَقِ الَّذي هَجاهُ شُوَيعِرٌ مِن قَبيلَةٍ تُدعى: «بَنو حَرام» لا يَذكُرُ الخَبَرُ اسمَهُ، والطَّريفُ أَنَّ أهلَ قَبيلَتِهِ خافوا لِسانَ الفَرَزدَقِ، فَما كانَ مِنهُم إلّا أن قَيَّدوهُ وَجاؤوا بِهِ إلَيهِ، وَقالوا: اِضرِب أَوِ احلِق، لا عَدوَى وَلا قِصاص، فَلَمّا رَأى الفَرَزدَقُ ذلِكَ مِنهُم أَحجَمَ عَن هِجائِهِم، وَقالَ:

فَمَنْ يَكُ خائفًا لأذاةِ شِعري
فَقَد أمِنَ الهِجاءَ بَنو حَرامِ
هُمُ قادوا سَفيهَهُمُ وَخافوا
قَلائِدَ مِثلَ أطواقِ الحَمامِ

يَسمَحُ لَنا المَوقِفُ بِالتَّعَرُّفِ عَلى شَخصِيَّةِ الفَرَزدَقِ الَّتي تَتَّسِمُ بِالأَنا المُتَضَخِّمَةِ وَالفَوقانِيَّةِ المُفرِطَةِ، فَقَد أَشبَعَ غُرورَهُ مَجيءُ القَبيلَةِ تَعتَذِرُ وَتَتَوَسَّلُ لِطَلَبِ العَفوِ خَوفًا أَن يَلتَصِقَ بِها هِجاءُ شاعِرٍ كَبيرٍ يَظَلُّ وَصمَةَ عارٍ تُلاحِقُها أَبَدَ الدَّهرِ، وَالظّاهِرُ أَنَّ هَذا الشُّوَيعِرَ الَّذي لا تَذكُرُ لَنا كُتُبُ الأَخبارِ اسمَهُ وَشِعرَهُ أَرادَ أَن يُعرَفَ بَينَ النّاسِ بِأَسرَعِ الطُّرُقِ، وَمِن سُوءِ حَظِّهِ أَنَّهُ تَعَرَّضَ لِشاعِرٍ يَتَحاشاهُ سائِرُ الشُّعَراءِ، وَالغَريبُ أَنَّ

هَـذا الشِّـعرَ الَّـذي هُجِـيَ بِهِ الفَـرَزدَقُ لَـم يُذكَـر، وَلَعَـلَّ عَـدمَ روايَتِـهِ يُؤَكِّـدُ رَداءَتَـهُ. وَيَنبَغـي أَلَّا نَغْفُـلَ مَوقِـفَ القَبيلَـةِ الَّتي قَيَّـدَت شُـوَيعِرَها وَجاءَت بِهِ إِلـى الفَـرَزدَقِ لِتُعلِـنَ تَبَرُّؤَهـا مِنهُ، حَيـثُ يَبـرُزُ لَنا خَوفُهـا مِـن أَن يَلتَصِقَ بِهـا هِجـاءٌ يَحُـطُّ مِـن قيمَتِها وَيَنشُـرُ سِـيرَتَها السَّـوداءَ بَينَ القَبائِـلِ الأُخرى، وَيَكفِي أَن نَسـتَحضِرَ هُنـا قِصَّةَ الرّاعِي النُّمَيـرِيِّ الَّـذي جَلَـبَ الشُّـؤمَ لِقَومِهِ.

وَلَعَـلَّ ما وَقَـعَ لِأَبـي تَمّام مَـعَ مُخَلَّدِ بـنِ بَـكّارٍ يَصُـبُّ في هَـذا البـابِ، جاءَ فـي أَخبـارِ أَبـي تَمّـامِ لِلصُّولـي: «قيلَ لِأَبـي تَمّـام: قَـد هَجـاكَ مُخَلَّـدٌ، فَلَـو هَجَوتَـهُ؟ قـالَ: الهِجاءُ يَرفَعُ مِنـهُ، قيلَ: أَلَيـسَ هُوَ شـاعِرًا؟ قالَ: لَو كانَ شـاعِرًا ما كانَ مِنَ المَوصِـلِ. يَعني أَنَّ المَوصِلَ لَـم تُخرِج شـاعِرًا». فَأَبو تَمّـامٍ بِإِجابَتِهِ السّـاخِرَةِ يُدرِكُ أَنَّ تَعَرُّضَ مَـن هُوَ أَقَلُّ مِنهُ في سُـلَّمِ الشّـاعِرِيَّةِ تُحَرِّكُـهُ دَوافِعُ الظُّهـورِ وَالشُّـهرَةِ، وَفي الوَقتِ نَفسِـهِ يُـدرِكُ أَنَّ التَّجاهُـلَ خَيـرُ رَدٍّ عَلـى مَـن لَيسَ مِـن طَبَقَتِـهِ، وَتَجدُرُ الإِشـارَةُ إِلى أَنَّ أَبا تَمّـام لَم يَكُن قَـوِيَّ الهِجاءِ، لِذَلِكَ آثَرَ السَّلامَـةَ بِالتَّجاهُلِ وَالسُّـخرِيَةِ.

لَقَد أَدرَكَ بَعضُ الشُّـعَراءِ أَنَّ التَّعَرُّضَ لِلشّـاعِرِ الكَبيرِ مَدخَلٌ إِلى إِذاعَةِ ذِكرِهِم بَيـنَ النّـاسِ، فَأَمـامَ الفَشَـلِ فـي إِنتاجِ القَصائِـدِ الجِيـادِ يَلجَـأُ الشُّـوَيعِرُ إِلـى الحَلِّ السَّـهلِ الَّـذي يُعَدُّ أَقصَـرَ الطُّرُقِ إِلـى الشُّـهرَةِ وَهـوَ هِجـاءُ شـاعِرٍ فَحلٍ لِيَرتَبِـطَ بِاسـمِهِ، وَمِـن ناحِيَـةٍ أُخـرى يَلجَـأُ المُبتَـدِئُ إِلـى مُبـارَزَةِ الكِبـارِ لِحَـرقِ المَراحِـلِ الشِّـعرِيَّةِ الضَّرورِيَّـةِ فـي سَـيرورَةِ التَّطَـوُّرِ الإِبداعِيِّ.

إِنَّ قيمَةَ شُـعْرورٍ كالبَرَدَخْتِ بَخْسَـةٌ فـي سُـوقِ الشِّـعرِ، فَلَيـسَ لَـهُ إِبـداعٌ يَعرِفُـهُ النّـاسُ بِـهِ، لِـذا تَصيـرُ الجُرأَةُ عَلـى مَـن هُـوَ أَكبَـرُ مِنـهُ الحَـلَّ الأَمثَلَ لِتَحقيـقِ الشُّـهرَةِ، وَاسـمُ البَرَدخـتِ ما هُـوَ إِلّا رَمـزٌ لِـكُلِّ صَغيرٍ يَتَطـاوَلُ عَلى الكِبـارِ، وَأَمثالُـهُ لا يَخلُـو مِنهُـم زَمانٌ وَمَـكانٌ، فَهُـم يَتَطاوَلونَ عَلـى الأَمواتِ وَالأَحيـاءِ عَلى حَدٍّ سَـواءٍ، وَلَعَلَّ أَحسَـنَ مـا يُجابَهُ بِـهِ هَـؤُلاءِ هُـوَ التَّجاهُلُ.

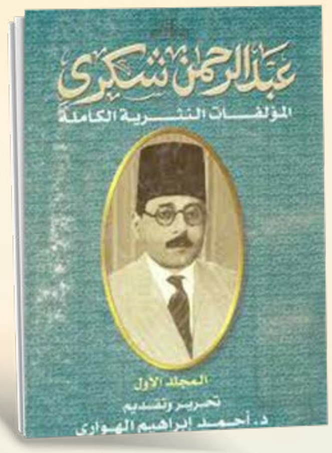
> **يُعَدُّ الهِجاءُ أَحَدَ الأَغراضِ المَركَزِيّةِ في الشِّعرِ العَرَبيِّ القَديمِ، يَسعَى فيهِ الشّاعِرُ إِلى النَّيلِ مِن المَهجوِّ بِطَريقَةٍ تَضعُهُ وتُعَدِّدُ مَساوِئَهُ.**

حِكَمٌ وَآدابٌ

يقول بشّار بن برد:

وما كُلُّ ذي رَأْيٍ بِمُؤتيكَ نُصْحهُ ... ولا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبيبِ

وَلَكِن إِذا ما اسْتَجمَعا عِنْدَ واحِدٍ ... فَحَقٌّ لهُ مِنْ طاعَةٍ بِنَصيبِ



(تَحِيّةٌ للشَّمْسِ عِنْدَ شُرُوقِهَا)

أنموذجٌ لخطابِ الطّبيعةِ في شِعْرِ عبدِ الرّحمن شُكري

أ.د.فرحان المطيري
الخبير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة

عبدُالرَّحْمَنِ شُكْرِي أَحَدُ الَّذِينَ «أَسَّسُوا المَدْرَسَةَ الحَدِيثَةَ فِي الشِّعْرِ»، وَهُوَ الَّذِي يَدِينُ فِي شَطْرٍ مِنْ تَكْوِينِهِ الفَنِّيِّ لِلشِّعْرِ الإِنْجِلِيزِيِّ، وَبِخَاصَّةٍ أَشْعَارُ الرُّومَانْسِيِّينَ. وَمِنْ ثَمَّ فَقَدِ اتَّشَحَ شِعْرُ شُكْرِي بِأَوْشِحَةٍ رَاقِيَةٍ مِنْ ذَلِكَ النَّسِيجِ الأُورُوبِّيِّ، إِضَافَةً إِلَى ثَقَافَتِهِ العَرَبِيَّةِ؛ إِذْ «لَمْ يَكُنْ شُكْرِي مُنْقَطِعًا عَنِ الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ الأَصِيلَةِ فِي مَنَابِعِهَا الثَّرِيَّةِ الخِصْبَةِ، فَقَدْ قَرَأَ أَبَا العَلَاءِ وَتَمَثَّلَهُ وَتَعَاطَفَ مَعَهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَظَرَاتِهِ إِلَى الحَيَاةِ وَالنَّاسِ». كَمَا كَانَ مِنْ بَوَاكِيرِ قِرَاءَاتِهِ «دَوَاوِينُ الشُّعَرَاءِ القُدَمَاءِ، وَفِي صَدْرِهِمُ ابْنُ الفَارِضِ وَالمُتَنَبِّي وَالشَّرِيفُ وَابْنُ الرُّومِيِّ، وَقَرَأَ لِلمُحْدَثِينَ وَفِي مُقَدِّمِهِمُ البَارُودِيّ».

وإنّ شعرَ الطبيعةِ يُعَدُّ -في رأيي- من أقربِ أنواعِ هذا الفنِّ إلى الوجدانِ، وأكْثرِ ما تجدُ فيهِ النفسُ الرقيقةُ راحةً وانشراحًا وتأمّلًا وانسجامًا. ولقد دارَ شعرُ أولئك المجددينَ عمومًا حول انفعالِهم الذاتيِّ بجمالِ الكونِ وما فيه من مظاهر، مثل وصفهم لمناظرِ الطبيعةِ الساحرةِ إلى درجةِ الاندماج فيها هربًا من قسوةِ الحياة، إذ كانوا ينظرون إليها كملجأٍ يفرّون إليه من المتاعب، فيجدون في ظلِّها الراحةَ والاطمئنانَ. وقد لفتَ نظرَ الكاتبِ، لدى مطالعتهِ ديوانَ عبدالرحمن شكري -أحدِ هؤلاء المجددين- الطّريقةُ الطّريفةُ السّكْرى بالإعجابِ والعشقِ الواضحِ في خطابِهِ للشمسِ في قصيدتِهِ «تحيّةٌ للشمسِ عند شروقِها».

ومن أجلِ إلقاءِ الضوءِ على البواعثِ والأسبابِ وراءَ الجمالِ والجاذبيةِ الفنيةِ، رأيتُ أن أقفَ، من خلالِ التحليلِ والتأويلِ، على جمالياتِ ذلك الخطابِ الشعريِّ في هذهِ القصيدة. ويعرضُ هذا المقالُ الخطابَ الشعريَّ في وجوه: الوجهُ الأولُ يتناولُ أطوارَ الخطابِ، وهيَ مراحلهُ الجمعيةُ، مع إيجازِ القولِ في البناءِ على الأفعالِ ومدلولاتها بصورةٍ مُجْمَلَةٍ؛ أما الوجهُ الثاني فيسردُ تفاصيلَ الخطابِ، حيثُ ينبسطُ التحليلُ ليشملَ أبياتَ القصيدةِ، للوقوفِ على المغزى الدلاليِّ للأفعالِ اللغويةِ في ارتباطِها بالتركيبِ الشعريِّ والإجابةِ عنِ التساؤلاتِ القائمةِ.

أَطْوارُ الخِطابِ

تَشَكَّلَ الخِطَابُ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ مِنْ أَطْوَارٍ ثَلَاثَةٍ، هِيَ بِمَنْزِلَةِ أَفْكَارٍ جُزْئِيَّةٍ يُسْلِمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ قِيَادَ التَّطَوُّرِ المَعْنَوِيِّ فِي القَصِيدَةِ، إِذْ «إِنَّ شِعْرَ شُكْرِي يَعْتَمِدُ عَلَى الفِكْرَةِ الجُزْئِيَّةِ المُتَعَانِقَةِ مَعَ فِكَرٍ أُخْرَى، وَالمُتَصَاعِدَةِ بِالعَمَلِ الفَنِّيِّ إِلَى ذُرْوَتِهِ». حَيْثُ تَتَرَاصُّ تِلْكَ الأَفْكَارُ وَالمَعَانِي هُنَا

بِتَرْتِيبِ وُرُودِهَا فِي مُخَيِّلَةِ الشَّاعِرِ، وَتَتَفَرَّعُ عَنْهَا –عِنْدَ التَّأَمُّلِ– المَقَاصِدُ الفَنِّيَّةُ وَالرُّؤَى النَّقْدِيَّةُ لِلتَّعَابِيرِ الدَّالَّةِ وَالتَّرَاكِيبِ المُسْتَخْدَمَةِ وَالصُّوَرِ المُوحِيَةِ. وَكُلُّ طَوْرٍ مِنْ هَذِهِ الأَطْوَارِ احْتَوَتْهُ فَقْرَةٌ شِعْرِيَّةٌ تَكَوَّنَتْ فِي عِدَّةِ أَبْيَاتٍ. وَأَوَّلُ هَذِهِ الفَقَرَاتِ حَدَّدْنَا لَهُ وَسْمًا هُوَ (طَوْرُ الرَّجَاءِ وَالثَّنَاءِ)، وَيَشْغَلُ الأَبْيَاتَ الأَحَدَ عَشَرَ الأُولَى مِنَ القَصِيدَةِ. وَيَلْتَمِسُ الشَّاعِرُ فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ الإِشْرَاقَ وَإِرْسَالَ الضَّوْءِ إِلَى الأَرْضِ بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الحَيَاةِ وَالأَحْيَاءِ، فِي خِطَابٍ شِعْرِيٍّ آسِرٍ، وَفِي رَجَاءٍ مُمتَدٍّ مَلِيءٍ بِالحُبِّ، وَثَنَاءٍ عَرِيضٍ عَلَى الشَّمْسِ لِمَا تَمْنَحُهُ لِلكَائِنَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا مِنْ طَاقَةٍ هِيَ أَبْرَزُ لَوَازِمِ حَرَكَةِ حَيَاتِهَا وَبَوَاعِثِ نُمُوِّهَا.

والطورُ الثاني هو (طورُ الدوافع)، ويشغلُ الأبياتَ الستّةَ المُتَتاليةَ من البيتِ الثاني عشرَ حتى البيتِ السابعَ عشرَ. وفيه يفسحُ الشاعرُ المجالَ لسردِ الدوافعِ التي دَعَتْهُ إلى ذلكَ الرجاءِ والثناءِ من قبلُ، وهي كثيرةٌ ذَكَرَ منها شيئًا في صدرِ القصيدةِ. لكن غرضَهُ هنا اختلفَ، حيث جمعَ تِلْكُم الدوافعَ كلَّها في واحدٍ فقط، لعلَه يمثلها جميعًا. وتُفضي النظرةُ التحليليةُ لهذهِ الأبياتِ الستةِ إلى تأويلَيْنِ اثنين، أحدهما: المسحةُ الإنسانيةُ العامةُ، وثانيهما: الحاجةُ الشخصيةُ الماسّةُ! ... أما التأويلُ الأولُ للمغزى في تلكم الأبياتِ السّتةِ التي يبدأها بقوله:

وَابْعَثِي أَبْنَاءَكِ الغُرْ
رَ إِلَى بَيْتِ العَلِيل
سَهِرَ اللَّيْلَ وَلَا مُسْـ
ـعِدَ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيل

فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ ذَوِي العِلَلِ وَالمَرْضَى مِنْ بَنِي البَشَرِ الَّذِينَ يُعَانُونَ طَوَالَ اللَّيْلِ، وَتُمَثِّلُ الشَّمْسُ لَهُمْ مَصْدَرَ العَافِيَةِ وَوَسِيلَةَ العِلَاجِ الطَّبِيعِيَّةَ. وَهَذَا القَصْدُ هُوَ مَا دَعَوْنَاهُ بِالمَسْحَةِ الإِنْسَانِيَّةِ لَدَى الشَّاعِرِ، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى مَنْحَى العَطْفِ وَالشَّفَقَةِ فِي نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الفِئَةِ الضَّعِيفَةِ مِنَ النَّاسِ.

وَالتَّأْوِيلُ الثَّانِي لِهَذَا المَقْطَعِ الشِّعْرِيِّ هُوَ أَنَّ الشَّاعِرَ هُنَا لَا يَقْصِدُ الوَجْهَ العَامَّ لِلصُّورَةِ – كُلُّ إِنْسَانٍ يُعَانِي المَرَضَ العُضْوِيَّ – بَلْ إِنَّهُ يَقْصِدُ نَفْسَهُ العَلِيلَةَ بِالهَوَى وَالعِشْقِ، تَسْهَرُ اللَّيْلَ الطَّوِيلَ يُعَذِّبُهَا الشَّوْقُ، وَإِنَّ هَذِهِ الشَّمْسَ إِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ نِهَايَةِ مَرْحَلَةِ العَذَابِ بِذِهَابِ اللَّيْلِ لَدَيْهِ. وَهَذَا مَا دَعَوْنَاهُ بِالحَاجَةِ الشَّخْصِيَّةِ المَاسَّةِ. وَقَدْ يَرَى البَعْضُ هُنَا أَنَّ المَسْأَلَةَ رَمْزِيَّةٌ بِشَكْلٍ جُزْئِيٍّ، وَأَنَّ الشَّمْسَ هِيَ المَحْبُوبَةُ المُسَبِّبَةُ لِهَذَا الدَّاءِ، وَأَنَّ حُضُورَهَا يَشْفِي الشَّاعِرَ مِنَ الوَجْدِ بِهَا. وَهُوَ تَفْسِيرٌ – وَإِنْ تَكُنْ لَهُ وَجَاهَتُهُ لَدَى شُعَرَاءَ آخَرِينَ وَقَصَائِدَ أُخْرَى – فَإِنَّا هُنَا لَا نَمِيلُ إِلَيْهِ، لِأَسْبَابٍ قَدْ نَأْتِي عَلَى ذِكْرِهَا عِنْدَ المُعَالَجَةِ الجُزْئِيَّةِ.

وَالطَّوْرُ الثَّالِثُ/الأَخِيرُ مِنَ الأَطْوَارِ الفِكْرِيَّةِ لِلقَصِيدَةِ يَشْغَلُ الأَبْيَاتَ مِنَ الثَّامِنَ عَشَرَ حَتَّى الرَّابِعِ وَالعِشْرِينَ آخِرِ أَبْيَاتِهَا. وَسَمَّيْنَاهُ بِـ (طَوْرِ الاسْتِجَابَةِ). فَفِيهِ يَصِفُ الشَّاعِرُ حُضُورَ الشَّمْسِ المَهِيبِ الجَلِيلِ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ اسْتِجَابَةٌ مُبَاشِرَةٌ مِنْهَا لِرَجَائِهِ وَاسْتِدْعَائِهِ إِيَّاهَا. وَلَعَلَّ هَذِهِ الفَقْرَةَ هِيَ أَكْثَرُ مَوَاطِنِ القَصِيدَةِ تَمْثِيلًا لِمَذْهَبِ الشَّاعِرِ وَجَمَاعَتِهِ فِي صَبْغِ الطَّبِيعَةِ بِمَشَاعِرِهِمْ، أَوْ وَصْفِ عَنَاصِرِهَا مِنْ



عبد الرحمن شكري (1886 – 1958م)

- شاعر مصري، من أوائل روّاد مدرسة الديوان الأدبية مع العقاد والمازني.
- وُلد في بورسعيد، وتخرّج في مدرسة المعلمين العليا.
- درس الأدب الإنجليزي وتأثر بالشعراء الرومانسيين الغربيين.
- جمع بين ثقافة عربية أصيلة واطّلاع واسع على التراث الأوروبي.
- من أبرز دواوينه: ضوء الفجر (1909)، لآلئ الأفكار (1910)، أزهار الخريف (1916).
- من أوائل من أدخلوا شعر الطبيعة والتأمل إلى التجربة الشعرية الحديثة في مصر.
- عُرف بدقّة التعبير وعمق الفكر وحرصه على الصياغة الفنية.

خِلَالِ أَنْفُسِهِمْ وَبَاطِنِهِمُ المَشْحُونِ بِالعَوَاطِفِ الإِنْسَانِيَّةِ.

الإطارُ العامُّ والبناءُ على الأفعال

يَلحَظُ المُتَلَقِّي تَنَاسُبًا وَاضِحًا بَيْنَ مَضْمُونِ كُلِّ طَوْرٍ مِنَ الأَطْوَارِ الثَّلَاثَةِ، وَمَا يَسْتَخْدِمُهُ الشَّاعِرُ فِيهَا مِنَ الأَفْعَالِ النَّحْوِيَّةِ. فَهُوَ يَبْنِي تَعْبِيرَهُ الشِّعْرِيَّ عَلَى الأَفْعَالِ فِي كُلِّ فَقْرَةٍ بِنَاءً مُتَسَاوِقًا مَعَ المَغْزَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي عُنْوَانِ كُلٍّ مِنْهَا. فَفِي الطَّوْرِ الأَوَّلِ – طَوْرُ الرَّجَاءِ – تَجِدُهُ يَتَخَيَّرُ أَفْعَالَ الأَمْرِ الدَّالَّةَ عَلَى ذَلِكَ الطَّلَبِ وَالرَّجَاءِ فِي خِطَابِهِ لِلشَّمْسِ: (أَشْرِقِي - أَنِيرِي - غَازِلِي - امسحي - سَلِي - اذْمُمِي - تَمَشَّيْ). هَكَذَا حَتَّى تَسْتَغْرِقَ تِلْكَ الأَفْعَالُ جَمِيعَ أَبْيَاتِ الفَقْرَةِ، بَل تَفِيضُ عَنْهَا قَلِيلًا – فِعْلًا وَاحِدًا – بِالفَقْرَةِ التَّالِيَةِ لَهَا.

وَلَدَى التَّبَصُّرِ بِالدَّلَالَةِ الفَنِّيَّةِ لِهَذَا البِنَاءِ الشِّعْرِيِّ عَلَى الجِهَةِ المَوْصُوفَةِ نُدْرِكُ أَنَّهَا غَالِبًا تَكْمُنُ فِي تَأْكِيدِ أُمُورٍ مِنْهَا :

1- تَعَدُّدُ مَنَاحِي العَطَاءِ الَّذِي تَفِيضُ بِهِ الشَّمْسُ عَلَى الكَائِنَاتِ جَمِيعًا.

2- الرَّغْبَةُ العَارِمَةُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ طَقْسِ الاحْتِفَالِ بِحُلُولِهَا، وَالابْتِهَاجِ بِحُضُورِهَا.

3- الامْتِلَاءُ بِالطُّمُوحِ وَالأَمَلِ فِي التَّغْيِيرِ المُنْتَظَرِ أَنْ تُحْدِثَهُ أَشِعَّتُهَا فِي الحَيَاةِ وَالأَحْيَاءِ شَكْلًا فِي التَّزْيِينِ وَالتَّلْوِينِ، وَمَضْمُونًا فِي شِفَاءِ العَلِيلِ وَإِنْضَاجِ الثَّمَرِ وَإِسْعَادِ النَّاسِ.

وَيَخْتَلِفُ الأَمْرُ بِطَبِيعَةِ الحَالِ فِي الفَقْرَةِ الثَّانِيَةِ عَمَّا كَانَ فِي الأُولَى؛ لِاخْتِلَافِ المَضْمُونِ. فَالطَّوْرُ الثَّانِي هُوَ (طَوْرُ الدَّوَافِعِ)، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى أَنَّهُ اخْتَصَّ بِدَوَافِعِ ذَلِكَ الرَّجَاءِ وَتِلْكَ الحَاجَةِ إِلَى الشَّمْسِ. وَمِنْ هُنَا تَجِدُ الشَّاعِرَ يَبْنِي تَعْبِيرَهُ الشِّعْرِيَّ خِلَالَ هَذَا الطَّوْرِ عَلَى مَوَاضِعِ الأَفْعَالِ: (سَهِرَ - خَلَسَت - خَانَه - رَاعَه) مَا خَلَا فِعْلًا وَاحِدًا مُضَارِعًا هُوَ (تُودِي). وَذَلِكَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ وَاقِعِ الهُمُومِ الَّتِي حَدَثَتْ وَانْتَهَتْ وَحَلَّتْ بِالفِعْلِ بِالإِنْسَانِ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ تَعْلِيلًا مَقْبُولًا لِطَابِعِ الرَّجَاءِ الَّذِي سَبَقَ فِي الطَّوْرِ الأَوَّلِ. فَالمَرِيضُ سَهِرَ، وَالنَّظْرَةُ خَلَسَتِ البِشْرَ وَاقْتَنَصَتْهُ (وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ سُرْعَةِ فِعْلِ الشَّمْسِ المُتَوَقَّعِ). وَاللَّيْلُ خَانَهُ الرَّحِيلُ فَلَمْ يَبْرَحْ!، فَالحَالَةُ قَاسِيَةٌ وَحُضُورُكِ أَيَّتُهَا الشَّمْسُ تَخْفِيفٌ لِهَذَا العَنَتِ.

وَلِأَنَّ الطَّوْرَ الثَّالِثَ دَارَ عَلَى فِكْرَةِ (الاسْتِجَابَةِ)، فَهُوَ –مِنْ ثَمَّ– طَورُ تَحَقُّقِ الرَّجَاءِ وَاقِعًا فِعْلِيًّا؛ وَلِذَلِكَ تَجِدُهُ يُبْنَى حِينًا عَلَى الأَفْعَالِ المُضَارِعَةِ وَ حِينًا آخَرَ عَلَى المَاضِيَةِ. وَذَلِكَ بَدِيهِيٌّ؛ لِأَنَّ الاسْتِجَابَةَ حَصَلَتْ وَلَمَّا تَزَلْ تَحْصُلُ! ... فَالأَفْعَالُ المُضَارِعَةُ: (تُجْلَى - تَسْعَى - يَفْعَلُ - يَعْقُبُ) تُشِيرُ إِلَى الحُصُولِ وَالتَّحَقُّقِ الآنِيِّ الجَارِي – كَمَا أَسْلَفْنَا – وَهُوَ ذَاتُهُ أَحَدُ مَعَانِي (الاسْتِجَابَةِ).

وَيَبْقَى الفِعْلَانِ المَاضِيَانِ لِيُعَبِّرَا عَنِ الوَجْهِ الآخَرِ لِلنَّتِيجَةِ الحَاصِلَةِ، وَهُوَ مَا وَقَعَ بِالفِعْلِ. وَهُمَا: (أَقْبَلَت - لَبِسَ). وَعِنْدَ التَّأَمُّلِ نَلحَظُ أَنَّ الأَوَّلَ مِنْهُمَا يَأْتِي مُصَاحَبًا بِمُسَاعِدِهِ التَّعْبِيرِيِّ المُضَارِعِ، هَكَذَا: (أَقْبَلَت تَسْعَى). وَلَعَلَّ فِي الثَّانِي (لَبِسَ) إِشَارَةً خَفِيَّةً إِلَى سُرْعَةِ الضَّوْءِ، وَهِيَ حَقِيقَةٌ عِلمِيَّةٌ مُسْتَقِرَّةٌ.

تَفَاصِيلُ الخِطَابِ

يقول عبدُ الرّحمن شُكري مخاطبًا الشّمسَ:

أَشرقي يا طَلعَةَ الشَّمْـ
ـسِ عَلَيْنَا وَأَنِيرِي
أَنْتِ لِلغَرْسِ حَيَاةٌ
وَحُلَى الرَّوْضِ النَّضِيرِ
كَيْفَ لَا تَرْتَاحُ نَفْسٌ
لِلبَهَاءِ المُسْتَنِيرِ

الخِطَابُ هُنَا مُتَوَجِّهٌ إِلَى عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ، وَجِرْمٍ مِنْ أَجْرَامِ الكَوْنِ، هَائِلٍ ذِي تَأْثِيرٍ كَبِيرٍ! يُخَاطِبُهُ وَيَسْتَدْعِيهِ وَيُثْنِي عَلَى تَأْثِيرِهِ المَلمُوسِ فِي المَخْلُوقَاتِ، وَإِنَّ هَذَا لَيَتَمَاشَى مَعَ خَوْضِ مَذْهَبِ التَّجْدِيدِيِّينَ الشِّعْرِيِّ «فِي مَجَالَاتٍ رَحْبَةٍ وواسِعَةٍ، مِنَ العَوَاطِفِ الإِنْسَانِيَّةِ العَامَّةِ، وَالتَّأَمُّلِ فِي الكَوْنِ وَالحَيَاةِ البَشَرِيَّةِ تَأَمُّلًا فِيهِ شَرَهٌ عَقْلِيٌّ شَدِيدٌ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي كُلِّ فِكْرٍ، وَالإِحْسَاسِ بِكُلِّ إِحْسَاسٍ»، كَمَا أَنَّ هَذَا المَطْلَعَ بِمَا انطوى عَلَيْهِ مِنْ تَشْبِيهٍ «يَعْكِسُ أَثَرَ عِبَارَاتِهِ السَّهْلَةِ ذَاتِ الدَّلَالَةِ الجَمَالِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ.

وَعِنْدَمَا نُرِيثُ النَّظَرَ فِي مُفْرَدَاتِ الخِطَابِ تَقِفُ لَفْظَتَا (أَشْرِقِي - أَنِيرِي) شَاهِدَتَيْنِ عَلَى اسْتِدْعَاءِ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ مِنَ الشَّمْسِ! وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ يُخَاطِبُ شَمْسًا طَالِعَةً مُشْرِقَةً بِالفِعْلِ أَوْ بِسَبِيلِهَا لِاكْتِمَالِ الإِشْرَاقِ، فَمَا جَدْوَى أَنْ يَلتَمِسَ شَيْئًا مُتَحَقِّقًا طَبِيعِيًّا، الآنَ أَوْ بَعْدَ قَلِيلٍ؟! ... إِنَّ فِي اسْتِدْعَاءِ هَذَا الأَمْرِ وَاسْتِعْجَالِهِ تَأْكِيدَ أَمْرَيْنِ، الأَوَّلُ: الانْفِعَالُ بِالبَهْجَةِ وَالمَسَرَّةِ وَالارْتِيَاحِ الَّذِي تَصْنَعُهُ تِلْكَ الطَّلعَةُ البَهِيَّةُ. وَالثَّانِي: تَأْكِيدُ عِظَمِ الجَدْوَى مِنْ وُجُودِهَا وَأَهَمِّيَّتِهَا –كَمَا سَبَقَ القَوْلُ–



ممّا اقْتَضَى تلقائيًّا سَرْدَ فَوائِدِها في الأَبْياتِ التَّالِيَةِ لِهَذَا.

وَتَسْتَقْطِبُ صِيغَةُ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ (عَلَيْنَا) الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا فِعْلُ الأَمْرِ السَّابِقُ (أشرقي) بِمَا تُوحِي بِهِ مِنْ جَماعِيَّةٍ كامِنَةٍ فِي (نا) الدَّالَّةِ عَلَى المُتَأَثِّرِينَ بِهالَةِ الإِشْرَاقِ وَشَلَّالِ الضِّياءِ المَحْسُوسِ بَعْدُ، أَطْيَافَ البَشَرِ وَالحَجَرِ،وَ الكَائِنَاتِ المَخْلوقَةَ كافَّةً مِنْ إِنْسانٍ ونَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ ... وَقَدْ عَدَّدَ الشَّاعِرُ أَنْمَاطَهُمْ وَأَصْنَافَ بَعْضِهِمْ فِي الأَبْيَاتِ المُتَتالِيَةِ؛ ابْتِغاءَ لِلشُّمولِ، هَكَذَا :

- النَّبَات = الغَرْس، الرَّوْض.
- المِيَاه = الغَدِير.
- الإِنْسَانُ السَّوِيّ = نَفْس.
- الإِنْسَانُ الجَاهِلُ قَلِيلُ الخِبْرَة = غِرّ.
- الإِنْسَانُ الجَمِيلُ = الغِيد.
- الإِنْسَانُ الشِّرِّيرُ = مُرِيب.
- الإِنْسَانُ الخَيِّر = بَشِير.
- الإِنْسَانُ المُعْتَدِي المَهِيب = المُسْتَغِير.
- الإِنْسَانُ الشَّهْم = الحُرّ.
- الإِنْسَانُ المَرِيض = العَلِيل.

أَنْتِ لِلغَرْسِ حَيَاةٌ وَحُلَى الرَّوْضِ النَّضِير

إِنَّ هَذِهِ العِبَارَةَ (أَنْتِ لِلغَرْسِ حَيَاةٌ) مَعَ مُبَاشَرَتِهَا وَتَلقائِيَّتِهَا الوَاضِحَةِ، تُجَسِّدُ طَابَعَ الفِكْرِ المَمْزُوجِ بِالعَاطِفَةِ، وَهُوَ سِمَةُ مَذْهَبِ الذِّهْنِيِّينَ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الجَانِبَ الفِكْرِيَّ عِنْدَ التَّصْوِيرِ، وَلَا يَتْرُكُونَ العَاطِفَةَ وَحْدَهَا؛ وَذَلِكَ لِإِشَارَةِ تِلْكَ العِبَارَةِ –وَلَوْ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ– إِلَى أَهَمِّيَّةِ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي نُمُوِّ النَّبَاتِ. وَيَلفِتُ البَيْتُ بِتَمَامِهِ النَّظَرَ إِلَى مَظْهَرَيْنِ تُسْبِغُهُمَا الشَّمْسُ عَلَى أَلْوَانِ النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، أَوَّلُهُمَا: الحَيَاةُ، وَالثَّانِي: الزِّينَةُ. فَالأَشِعَّةُ المُنْسَدِلَةُ عَلَى وَجْهِ الرِّيَاضِ تُضْفِي إِشْرَاقًا وَبَهاءً يُمَثِّلُ حِلْيَةً تَتَحَلَّى بِهَا تِلكَ البَسَاتِينُ وَتَزْدَهِي فِي وُجُودِهَا. وَالحَيَاةُ: النُّمُوُّ، وَالإِزْهَارُ وَالإِثْمَارُ وَالاخْضِرَارُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ لَا يَكُونُ دُونَهَا أَيْضًا!

وَيَصْنَعُ وُجُودُ الاسْتِفْهَامِ الاسْتِنْكَارِيِّ فِي وَسْطِ هَذَا المَطْلَعِ الشِّعْرِيِّ انْفِعَالًا عَاطِفِيًّا وَإِعْجَابًا وَاضِحًا بِمَشْهَدِ الشُّرُوقِ الرَّائِعِ، حَيْثُ يُوحِي التَّنْكِيرُ فِي كَلِمَةِ (نَفْس) بِالشُّمُولِ الَّذِي لَا اسْتِثْنَاءَ بِهِ بَيْنَ الأَسْوِيَاءِ مِنَ النَّاسِ.

كَيْفَ لَا تَرْتَاحُ نَفْسٌ لِلبَهَاءِ المُسْتَنِيرِ؟!

وَإِذَا كَانَتْ غَايَةُ هَذَا الاسْتِفْهَامِ هِيَ نَفْيَ وُجُودِ نَفْسٍ بَشَرِيَّةٍ سَوِيَّةٍ لَا تُشْرِقُ بِالبَهْجَةِ لِمَنْظَرِ الشَّمْسِ الجَمِيلِ، فَقَدِ اكْتَمَلَ الانْفِعَالُ الشِّعْرِيُّ وَأَدَّى دَوْرَهُ تَمَامًا فِي إِيصالِ المَغْزَى. وَلِهَذَا يَرْتَبِطُ هَذَا البَيْتُ بِالَّذِي يَلِيهِ بِعَلَاقَةٍ فِكْرِيَّةٍ وَثِيقَةٍ قِوَامُهَا التَّفْسِيرُ وَالتَّفْصِيلُ، وَرُبَّمَا الاسْتِدْرَاكُ أَيْضًا! إِذْ يَفْطَنُ الشَّاعِرُ إِلَى نَوْعِ الإِنْسَانِ الَّذِي لَا يُؤَثِّرُ هَذَا المَشْهَدُ فِي نَفْسِهِ، وَيَقِفُ عَلَى أَنَّهُ الإِنْسَانُ الجَاهِلُ قَلِيلُ التَّجْرِبَةِ (غَيْرُ السَّوِيِّ). وَمِنْ ثَمَّ يَظَلُّ الشُّمُولُ المُنَوَّهُ بِهِ آنِفًا بِلا اسْتِثْنَاءٍ بَيْنَ البَشَرِ الأَسْوِيَاءِ، وَيَقُومُ بَيْنَ البَشَرِ عُمُومًا

فَيَنْعَزِلُ فُصَحَـاءُ القُلُوبِ وَالمَشَـاعِرِ عَنْ غَيْرِهِمْ...:

مَا رَأَى ضَــوْءَكِ غِـرٌّ

بِسِوَى الطَّرْفِ الحَسِيرِ

وَالحَسِــيرُ الكَلِيلُ المُجْهَدُ مِــنْ كَثْرَةِ النَّظَرِ وَالتَّطَلُّعِ. وَالغِـــرُّ مِنَ النَّاسِ يَرَى ضِيَاءَ الشَّمْسِ وَإِشْــرَاقَهَا، لَكِنَّهُ لَا يَرُوقُهُ وَلَا يَنْفَعِـــلُ بِهِ إِعْجَابًا! لَيْــسَ لِعَيْبٍ فِي ذَاكَ الضِّيَاءِ البَاهِــرِ، وَلَكِنَّمَا لِعَيْبٍ فِي نَظَرِ ذَاكَ الصِّنْفِ مِنَ البَشَــرِ!

وَمِنَ البَيْتِ الخَامِسِ تُسْـتَأْنَفُ أَفْعَالُ الأَمْـرِ، بَعْـدَ تَجَاوُزِهَا فِي الأَبْيَـاتِ الثَّلَاثَةِ السَّـابِقَةِ. وَهِـيَ كَمَـا قُلْنَـا عِبَـارَةٌ عَـنْ رَجَـاءٍ وَالْتِمَاسٍ يَتَقَـدَّمُ بِهِ الشَّـاعِرُ إِلَى الشَّـمْسِ، وَلَيْسَ أَمْرًا بِالمَعْنَى الحَقِيقِيِّ، إِذْ هُـوَ لَا يَمْلِـكُ ذَلِـكَ! إِلَّا عَلَـى سَـبِيلِ الخَيَالِ. وَلَكِنَّ سِـيَاقَ الاسْتِعْطَافِ وَالحُبِّ الَّذِي يُسَـيْطِرُ عَلَى الشَّـاعِرِ فِـي خِطَابِهِ لِلشَّـمْسِ يَدْعَـمُ مَنْطِقَ الرَّجَـاءِ المُنَوَّهِ بِهِ ... يَقُـولُ عَبْدُالرَّحْمَنِ شُـكْرِي:

غَازِلِي الغُصْــنَ بِــرِفْقٍ

وَامْسَحِي وَجْهَ الغَدِيرِ

وَالغَـزَلُ فِـي العَـادَةِ يَتَوَجَّهُ بِـهِ الذَّكَرُ إِلَـى الأُنْثَـى، أَمَّا العَكْسُ فَلَيْسَ بِمُعْتَادٍ وَلَا بِشَـائِعٍ، لَكِنَّـهُ مُحْتَمَـلٌ، وَإِنَّـهُ حِيـنَ يَحْـدُثُ يَكُـونُ المُتَغَـزَّلُ بِـهِ عَلَـى قَـدْرٍ هَائِلٍ مِنَ السِّـحْرِ وَالفِتْنَـةِ وَالأَخْذِ بِأَلْبَابِ النِّسَـاءِ! وَحِينَئِذٍ تُصْبِحُ الحِكَايَـةُ أُمْثُولَةً جَمِيلَـةً يَتَدَاوَلُهَا النَّـاسُ وَيَعْجَبُونَ مِنْهَا. وَلَعَـلَّ هَـذَا هُوَ مَـا تُشِـيرُ إِلَيْـهِ الصُّورَةُ فِـي هَـذَا البَيْـتِ: الشَّـاعِرُ يَطْلُـبُ إِلَـى الشَّـمْسِ مُغَازَلَـةَ الغُصْـنِ. لَيْـسَ هَـذَا فَحَسْـبُ، بَـلْ أَنْ تَتَرَفَّـقَ فِي ذَلِـكَ. وَمَعَ أَنَّ الصُّـورَةَ خَيَالِيَّـةٌ إِلَـى حَـدٍّ بَعِيـدٍ، لَكِنَّهَـا تُعَبِّرُ عَـنِ العَلَاقَـةِ الجَمِيلَـةِ بَيْنَ أَشِـعَّةِ الشَّـمْسِ الذَّهَبِيَّةِ وَأَغْصَانِ الشَّجَرِ اليَانِعَةِ، يَرْسُـمُهَا شُـكْرِي مِنْ خِلَالِ ذَاتِهِ عَلَاقَـةَ صَفَـاءٍ وَغَـزَلٍ وَمَحَبَّةٍ وَرِفْـقٍ، ثُمَّ عَطَـاءٍ تُقَدِّمُـهُ الأُمُّ الـرَّؤُومُ لِأَبْنَائِهَـا عَلَى الأَرْضِ!! وَيُكْمِـلُ الشَّـطْرُ الثَّانِي الصُّورَةَ هَكَذَا:

وَامْسَحِي وَجْهَ الغَدِيـرِ

حَيْـثُ يَذْكُرُ بَعْدَ الغَزَلِ وَالرِّفْقِ المَسْـحَ عَلَـى الوَجْهِ، وَهُـوَ مَلمَحٌ عَاطِفِيٌّ مُفْعَمٌ بِالشَّـفَقَةِ وَالرَّحْمَـةِ وَالـوُدِّ. وَهُـوَ فِعْـلُ الشَّـمْسِ بِصَفْحَـةِ المَـاءِ، فَإِنَّ أَشِـعَّتَهَا تُظْهِرُ صَفَاءَهُ وَجَمَالَـهُ كَأَنَّهَا كَفٌّ حَانِيَةٌ تَمْسَـحُ وَجْهَ طِفْـلٍ بَـرِيءٍ. وَيُلَاحَظُ فِي هَذَا البَيْتِ اجْتِمَاعُ ثَلَاثَـةِ عَنَاصِرَ طَبِيعِيَّةٍ مُهِمَّةٍ تَصْنَعُ شَـكْلًا جَمَالِيًّا بَدِيعًا: أَشِـعَّةُ الشَّـمْسِ المُتَعَامِدَةُ عَلَى أَغْصَانِ الشَّجَرِ، المُلَاعِبَـةُ لِغَدِيرِ المَاءِ.

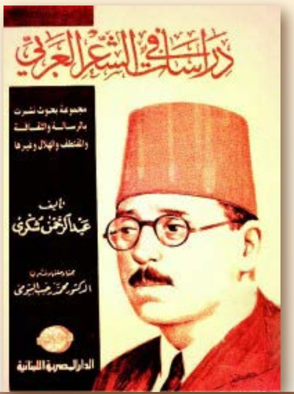
وَسَلِي الغِيدَ ابْتِسامًا

مِنْ أَقَـاحِيِّ الثُّغُـورِ

عَلَـى الرَّغْـمِ مِـنْ مَجِـيءِ هَـذَا البَيْتِ بِنَائِيًّـا عَلَـى غِـرَارِ مَا قَبْلَـهُ، فَـإِنَّ مَعْنَاهُ يَسْـتَوْقِفُ كُلَّ مُتَأَمِّلٍ حَرِيـصٍ عَلَى إِدْرَاكِ مَرَامِـي الشُّـعَرَاءِ وَمَزَالِقِهِـمْ. فِـي هَـذَا البَيْـتِ مِـنَ التَّصْوِيـرِ التَّقْلِيـدِيِّ المَأْثُورِ الصُّـورَةُ المِثَالِيَّـةُ لِجَمَـالِ ثَغْـرِ المَـرْأَةِ لَـدَى العَـرَبِ، وَأَنَّـهُ يُشَـبَّهُ فِي شِـعْرِهِمْ بِالأُقْحُـوَانِ وَهُوَ نَبَـاتٌ طَيِّـبُ الرَّائِحَةِ لَهُ نَـوْرٌ أَبْيَـضُ وَوَسَـطُهُ أَصْفَـرُ، وَهُـوَ مَا يُعْـرَفُ بِالبَابُونَـجِ. وَقَـدْ وُصِـفَ الثَّغْـرُ فِـي جَمَالِـهِ بِالأُقْحُـوَانِ كَثِيرًا فِي شِـعْرِ العَـرَبِ. لَكِـنَّ الَّـذِي يُشْـغِلُنَا هُنَـا هُـوَ الشَّـطْرُ الأَوَّلُ مِنَ البَيْتِ، وَمَا يَسْـعَى إِلَيْهِ مِنْ مَعْنًى شِعْرِيٍّ:

وَسَلِي الغِيدَ ابْتِسامًا

فَالمَعْهُـودُ مِـنَ الشُّـعَرَاءِ أَنْ يَجْعَلُـوا المُحِـبَّ يَنْفَعِلُ مِـنْ تِلْقَاءِ نَفْسِـهِ بِجَمَالِ المَحْبُـوبِ، وَلَيْسَ أَنْ يَطْلُبَ المَحْبُوبُ إِلَيْهِ ذَلِكَ. هَـذَا إِذَا جَعَلْنَا الشَّـمْسَ وَالغِيدَ فِي مَقَامٍ كَهَذَا: الشَّـمْسُ مَعْشُـوقَةٌ وَالغَادَاتُ هُـنَّ عُشَّـاقُهَا. أَوْ بِمِثَـالٍ آخَـرَ: أَنَّ رَوْعَةَ الشَّـيْءِ فِي أَنْ يَأْسِرَكَ وَيَسْـحَرَكَ بِذَاتِهِ، وَلَيْـسَ أَنْ يَـرَاهُ أَحَدٌ غَيْـرُكَ فَيَسْـأَلَكَ أَنْ تُعْجَـبَ بِهِ! ... لَكِنَّ الشَّـاعِرَ هُنَا لَمْ يَفْعَلِ المُعْتَادَ، بَلْ طَلَبَ إِلَى الشَّـمْسِ أَنْ تَسْـأَلَ الغِيدَ الابْتِسَـامَ! ... وَرُبَّ قَائِـلٍ يَقُولُ: إِنَّهُ لَوْ قَـالَ مَثَلًا:



وَامْلَئِي الغِيدَ ابْتِسَامًا

مِـنْ أَقَاحِـيِّ الثُّغُـورِ

لَـكَانَ أَلْيَـقَ بِتَصْوِيرِ سِـحْرِ الشَّـمْسِ الطَّبِيعِـيِّ دُونَ اسْـتِجْدَاءٍ! ... وَوَاقِـعُ الرُّؤْيَـةِ لِلْمُتَأَمِّـلِ يُشِـيرُ إِلَى غَيْـرِ ذَلِكَ.. تُشِـيرُ إِلَـى أَنَّ الشَّـاعِرَ يَلْتَمِـسُ مِـنَ الشَّـمْسِ أَنْ تَنْشُـرَ بَهْجَتَهَـا عَلَى الأَرْضِ فَتَفْعَلَ كُلَّ تِلْـكَ الأَفَاعِيلِ بِصُورَةٍ تِلْقَائِيَّةٍ، كَمَـا هُـوَ المَعْهُودُ مِنْهَـا كُلَّ يَـوْمٍ. وَقَوْلُهُ (سَـلِي الغِيدَ) لَا أَرَاهُ عَلَى الحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا المَقْصُـودُ أَنْ تُرْسِـلَ أَشِـعَّتَهَا الذَّهَبِيَّـةَ

الَّتي تَسْحَرُ الجَميعَ وَتُفيدُهُمْ، و هُمُ الغَـرْسُ وَالـرَّوضُ وَالغُصْـنُ وَالغَديرُ وَالغيـدُ. وَكُلُّهُـمْ يَتَأَثَّـرُ بِهَا –كَمَا سَـبَقَ بَيَانُـهُ– وَهَـذِهِ الأَخِيرَةُ –الغَـادَةُ– كَذَلِكَ تَتَأَثَّرُ مُبَاشَـرَةً كَغَيْرِهَا بِجَمَالِ الشُّـرُوقِ فَتَسْـرِي إِلَـى رُوحِهَـا البَهْجَـةُ وَالتَّفَاؤُلُ فَيَفْتَـرُّ ثَغْرُهَا الجَمِيلُ ابْتِسَـامًا رَائِعًا! ... أَوْ كَأَنَّمَا دَارَ حِوَارُ العُشَّـاقِ بَيْنَ الشَّـمْسِ وَالغَادَاتِ العَابِرَاتِ، وَالشَّـمْسُ لِحُسْـنِهَا البَدِيـعِ تَرَكَـتْ أَثَرَهَـا فـي ثُغُـورِ الغِيدِ النَّضِيـدَةِ الشَّـبِيهَةِ بِالأَقَاحِي بَسَـمَاتٍ فَاتِنَـةً، وَلِلمَـوَدَّةِ المُتَبَادَلَـةِ بَيْنَهُمَا يَظُنُّ المَـرْءُ أَنَّ الشَّـمْسَ سَـأَلَتِ الغِيـدَ –وَقَـدْ عَلِمَـتْ بِجَمَالِ ابْتِسَـامِهِنَّ– أَنْ يَكْشِـفْنَ لَهَـا عَنْهُ.

وَقَـدْ يَتَوَهَّـمُ المُتَلَقِّـي أَنَّ أَفْعَـالَ الأَمْرِ –فِي هَـذِهِ الأَبْيَاتِ جَمِيعًـا– تَحْمِلُ دَلَالَةَ الحُـدُوثِ الأَوَّلِ! أَي أَنَّ أُمُـورًا جَدِيدَةً عَلَى الشَّـمْسِ تُطْلَبُ مِنْهَا: غَازِلِي – امْسَـحِي – سَـلِي – تَمَشَّـيْ ... وَغَيْرُهَـا. لَكِنَّ هَذَا خِلَافُ الحَقِيقَـةِ، الَّتِـي تُبَيِّـنُ أَنَّ خِطَابَ الشَّـاعِرِ لِلشَّـمْسِ ذُو مُحْتَوًى تِكْـرَارِيٍّ. إِنَّ مَـا يَطْلُبُهُ مِنَ الشَّـمْسِ هُـوَ أَنْ تُكَرِّرَ أَفْعَالَهَـا الَّتِـي أَدَّتْهَـا قَبْـلَ ذَلِـكَ مَـرَّاتٍ عَدِيـدَةً يَعْجَـزُ عَنْهَـا الإِحْصَـاءُ. إِنَّ الأَمْرَ لَا يَعْـدُو كَوْنَـهُ اسْـتِعَادَةً لِأُمُـورٍ عَظِيمَةٍ سَـبَقَتْ مَلَاييـنَ المَـرَّاتِ، وَتَرَاكَمَـتِ الخِبْـرَاتُ بِهَـا فِـي وَعْـيِ الإِنْسَـانِ. وَمَا طَلَبَهَـا سِـوَى يَقِيـنٍ بِأَهَمِّيَّتِهَـا الدَّائِمَـةِ وَإِعْجَـابٍ بِجَمَالِهَـا البَاهِـرِ. فَهِـيَ كَمَـا أَشْـرَقَتْ عَلَى الحَيَـاةِ وَالأَحْيَاءِ شَـجَرًا أَوْ بَشَـرًا أَوْ حَجَـرًا، وَعَلَـى جَمِيعِ مَـا تَصِلُ إِلَيْـهِ مِـنْ مُفْـرَدَاتِ الطَّبِيعَةِ!

إِذَنْ مَـا الفَـارِقُ الَّـذِي يُقَدِّمُـهُ لَنَـا شُـكْرِي فِـي قَصِيدَتِـهِ تِلْـكَ؟!!

إِنَّ الفَـارِقَ الوَاضِـحَ أَنَّهُ يَرَى الشَّـمْسَ –بِأَشِـعَّتِهَا الحَانِيَـةِ البَدِيعَةِ الشَّـافِيَةِ– مِنْ خِلَالِ ذَاتِهِ. إِنَّ وَعْيَهُ الشِّـعْرِيَّ لَا يَرَى الشَّـمْسَ تَسْـطَعُ عَلَى الغُصْنِ فَحَسْـبُ، بَـلْ يَرَاهَا تُغَازِلُهُ، وَلَا يَجِدُهَا تُشْـرِقُ عَلَى صَفْحَةِ الغَدِيـرِ فَقَطْ، بَلْ يَجِدُهَا تَمْسَـحُ بِعَطْـفٍ حَانٍ عَلَى وَجْهِهِ! ... إِنَّ شُـعُورَهُ العَالِـي بِهَـا يَمْنَحُهَـا –وَهِـيَ قَادِمَةٌ فِي الأُفُـقِ مُهَيْمِنَـةٌ عَلَـى الفَضَـاءِ– هَيْئَـةَ المُغِيرِ المُسَـيْطِرِ الرَّهِيبِ يَتَمَشَّـى بِعَظَمَةٍ فِـي جَـوِّ السَّـمَاءِ! وَيُبْصِـرُ فِيهَـا وَهِيَ تَتَهَـادَى فِي الأُفُقِ شَـخْصًا جَلِيلاً شَـهْمًا يُعَلِّقُ النَّـاسُ عَلَيْهِ آمَالَهُـمْ وَرَجَاءَهُمْ فِي إِدْرَاكِ المَعَالِي وَحَسْـمِ القَضَايَا الخَطِيرَةِ المُرْتَبِطَةِ بِحَيَاتِهِمْ وَعَيْشِـهِمْ فِي بِلَادِهِمْ:

وَتَمَشَّيْ فِي فَضَاءِ اللَّـ
ـهِ مَشْيَ المُسْتَغِـيرِ
مِشْيَةَ الحُرِّ المُرَجَّى
لِعَظِيمَـاتِ الأُمُـورِ

وَلَا تَنَاقُـضَ بَيْـنَ الأَمْرَيْـنِ فَالشَّـمْسُ فِيهَـا المَـوْتُ وَالحَيَـاةُ مَعًا، بِهَـا اللَّهِيبُ القَاتِـلُ، وَبِهَا الأَشِـعَّـةُ النَّافِعَـةُ لِلكَائِنَاتِ. فَلَا غَـرْوَ أَنْ يَتَصَوَّرَهَـا فِـي هَيْئَةِ إِقْبَالِهَـا عِنْـدَ الشُّـرُوقِ تَـارَةً كَالمُغِيرِ وَتَـارَةً كَالأَمِيـرِ ... هَكَـذَا يَرَاهَـا مِـنْ خِلَالِ ذَاتِـهِ، وَتِلْـكَ سِـيمَاءُ مَدْرَسَـتِهِ الشِّـعْرِيَّةِ الَّتِـي تُصَوِّرُ عَنَاصِـرَ الطَّبِيعَةِ صُـورًا تَخْتَلِـطُ بِالـذَّاتِ وَتَصْـدُرُ عَنْهَا، «فَالمَعَانِي الشِّـعْرِيَّةُ، هِـيَ خَوَاطِرُ المَرْءِ وَآرَاؤُهُ وَتَجَارِبُهُ، وَأَحْوَالُ نَفْسِـهِ وَعِبَارَاتُ عَوَاطِفِـهِ» كَمَـا يَقُولُ الشَّـاعِرُ نَفْسُـهُ... وَيَقُـولُ فِـي القَصِيـدَةِ مُوَالِيًـا خِطَابَـهُ الشَّـمْسَ:

واذْمُمِي وَجْهَ مُرِيبِ
واحْمَدِي وَجْهَ بَشِيرِ

> تَشَكَّلَ الخِطَابُ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ مِنْ أَطْوَارٍ ثَلَاثَةٍ، هِيَ بِمَنْزِلَةِ أَفْكَارٍ جُزْئِيَّةٍ يُسْلِمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ قِيَادَ التَّطَوُّرِ المَعْنَوِيِّ فِي القَصِيدَةِ.

> يَلْحَظُ المُتَلَقِّي تَنَاسُبًا وَاضِحًا بَيْنَ مَضْمُونِ كُلِّ طَوْرٍ مِنَ الأَطْوَارِ الثَّلَاثَةِ، وَمَا يَسْتَخْدِمُهُ الشَّاعِرُ فِيهَا مِنَ الأَفْعَالِ النَّحْوِيَّةِ.

> وَالغَزَلُ فِي العَادَةِ يَتَوَجَّهُ بِهِ الذَّكَرُ إِلَى الأُنْثَى، أَمَّا العَكْسُ فَلَيْسَ بِمُعْتَادٍ وَلَا بِشَائِعٍ، لَكِنَّهُ مُحْتَمَلٌ.

وَسَلِي المُقْلَةَ أَنْ تُشْـ

ـرِقَ بِالدَّمْـعِ الغزيـرِ

إنَّ في الدَّمْعِ إذا اسْتَغْـ

ـزَرَ إعـلانَ السُّـرُورِ

وَجْـهُ المُرِيـبِ الذَّمِيمِ هُوَ دَالَّـةٌ مُطْلَقَةٌ غَيْـرُ مُحَـدَّدَةٍ، أَعْنِـي أَنَّ المَطْلُـوبَ ذَمُّ الشِّـرِّيرِ بِوَجْـهٍ عَـامٍّ، وَلَيْسَ شَـخْصًا مُحَـدَّدًا. وَكَذَلِـكَ رَجُـلُ الخَيْـرِ تَمْنَحُـهُ مَـا يُنَاسِـبُ فِعْلَهُ مِـنَ الشُّـكْرِ (وَاحْمَدِي وَجْـهَ بَشِـيرٍ). وَالمَعْنَى أَن تَسْـرِي رُوحُ التَّفَاؤُلِ وَالمَسَـرَّةِ عَلَى الأَرْضِ وَيَنْسَـحِقَ مَا عَدَاهَا بِسَـرَيَانِ أَشِـعَّةِ الشَّـمْسِ عَلَى النَّاسِ.

أَمَّـا سُـؤَالُ الدُّمُـوعِ فَهُـوَ مَـا يَحْتَاجُ إِلَـى تَأْوِيـلٍ مَقْبُـولٍ! إِذْ كَيْـفَ – فِي جَوِّ البَهْجَـةِ هَـذَا – أَنْ نَسْـتَذْكِرَ الدَّمْعَ، وَهُوَ عَلَامَـةُ الأَسَـى فِي الغَالِـبِ؟ إِنَّ الشَّـاعِرَ يُحَـدِّدُ بِإِشَـارَاتِهِ أَنَّ الدَّمْـعَ الَّـذِي يُثِيرُهُ جَمَـالُ الشَّـمْسِ فِـي العُيُـونِ هُـوَ دَمْعُ الفَرْحَـةِ وَالابْتِهَـاجِ بِهَـا. وَلَكِـنَّ الأَمْـرَ لَا يَتَطَلَّـبُ مُجَـرَّدَ ذِكْرِ الكَلِمَـةِ مَهْمَا اخْتَلَفَ القَصْـدُ! ... وَيَذْهَـبُ العَقْلُ فِي التَّفْسِـيرِ إِلَى السَّحَابِ الـمِدْرَارِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ لَا يَدْعَمُـهُ السِّـيَاقُ، فَـإِنَّ الشَّـاعِرَ فِـي القَصِيـدَةِ لَا يَسْـلُكُ سُـلُوكَ الرَّمْـزِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ.

وَثَمَّ عِبَارَةٌ يَسُـوقُهَا عَلَى أَنَّهَا مُسَـلَّمَةٌ، وَلَكِنَّهَـا لَيْسَـتْ بِطَبِيعَـةِ الحَـالِ كَذَلِـكَ، وَهِـيَ قَوْلُهُ:

إنَّ فِي الدَّمْعِ إِذَا اسْتَغْـ

ـزَرَ إِعْـلَانَ السُّـرُورِ

فَهَـلْ حَقًّـا تَـدُلُّ غَـزَارَةُ الدَّمْـعِ عَلَـى إِظْهَـارِ الفَرَحِ دَائِمًـا، أَمِ العَكْسُ؟! ... أَلَا تَدُلُّ غَـزَارَةُ الدَّمْعِ عَلَى مَرَارَةِ الأَسَـى فِي كَثِيـرِ الأَحْيَـانِ؟! ... أَمْ أَنَّ لِلشَّـاعِرِ رُؤْيَةً مُغَايِـرَةً تَنْصَرِفُ إِلَى مَسْـأَلَةِ التَّطَهُّرِ مِنْ أَشْـجَانِ الذَّاتِ وَهُمُومِهَا بِسَـفْحِ الدُّمُوعِ الغَزِيرَةِ؟! ... المَوْقِفُ الشِّعْرِيُّ لَا يَسْتَثِيرُ ذَلِـكَ بَدَاهَةً، وَمَسْـأَلَةُ التَّطَهُّرِ هَـذِهِ رُبَّمَا لَيْسَـتْ فِي رِكَابِ المَسَرَّةِ!

وَمِـنْ جِهَـةٍ أُخْـرَى فَإِنَّنَـا لَا نَخَـالُ شَـاعِرًا فِـي قَامَةِ عَبْـدِ الرَّحْمَنِ شُـكْرِي تَضْطَـرُّهُ القَافِيَـةُ إِلَـى رُكْنٍ كَهَـذَا!! فَمَا الأَمْـرُ إِذَنْ؟ هَل أَخْطَأَ الشَّـاعِرُ؟ ... الَّذِي يَبْـدُو لَنَـا أَنَّ نَفْسَ الشَّـاعِرِ المُنْفَعِلَـةَ سُرُورًا وَابْتِهَاجًا بِمَشْـهَدِ الشُّرُوقِ البَدِيعِ وَصُورَةِ الطَّبِيعَـةِ الخَلَّابَةِ مِـنْ خِلَالِهِ قَدْ تَصَـوَّرَتْ مَا تَـرَاهُ خَلِيقًـا بِهَـذَا المَنْظَرِ الرَّائِـعِ، وَأَنَّ مَـا يَنْبَغِـي أَنْ يَحْـدُثَ فِـي تِلْـكَ الحَالَـةِ لَيْسَ أَقَـلَّ مِنْ أَنْ تَغْـرَوْرِقَ العُيُـونُ بِدُمُوعِ الفَرْحَـةِ غَزِيـرَةً مِدْرارًا إِزَاءَ ذَلِكَ المَشْـهَدِ السَّـاحِرِ. وَالمَعْنَى فِي هَذَيْـنِ البَيْتَيْـنِ خَاصَّةً، يَأْتِي فِي سِـيَاقِ مَـا يَلِيـقُ، وَلَيْـسَ فِـي سِـيَاقِ مَـا يَقَـعُ بِالفِعْـلِ. وَهِـيَ فِـي النِّهَايَـةِ رُؤْيَـةٌ فَنِّيَّةٌ خَاصَّـةٌ بِالشَّـاعِرِ.

وَابْعَثِي أَبْنَاءَكِ الغُرْ

رَ إِلَى بَيْـتِ العَلِيـلِ

سَهِـرَ اللَّيْـلَ وَلَا مُسْـ

ـعِدَ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ

هِـيَ حُجَّـةٌ مِـنْ حُجَـجِ الشَّـاعِرِ فِـي اسْـتِقْدَامِ الشَّـمْسِ، مُـدَاوَاةُ المَرْضَـى بِأَشِـعَّتِهَا السِّـحْرِيَّةِ. وَالبَعْثُ/ الإِرْسَـالُ مُطْلَقًـا مُقْتَضَـاهُ أَنْ يَظَـلَّ البَاعِـثُ فِـي مَكَانِهِ، وَيُرْسِـلَ الـمَبْعُوثَ إِلَـى مُهِمَّتِهِ. وَهَكَـذَا الشَّـمْسُ هُنَـا مُعَلَّقَـةٌ فِـي جَـوِّ السَّـمَاءِ مُرْسِـلَةٌ أَشِـعَّتَهَا إِلَـى الأَرْضِ. وَالمَطْلُـوبُ أَنْ تَصِـلَ تِلْـكَ الأَشِـعَّةُ الشَّـافِيَةُ إِلَـى بَيْـتِ المَرِيـضِ. وَيُؤْخَـذُ مِن اسْـتِعْمَالِهِ لَفْظَةُ (بَيْـت) – وَلَمْ يَقُل: إِلَى ذَاكَ العَلِيـلِ، أَوْ: إِلَى صَدْرِ العَلِيلِ، أَوْ مَـا شَـابَهَ – المَعْنَى المُتَبَـادِرَ إِلَى الذِّهْنِ فِي الوَعْـيِ الصِّحِّيِّ، مِـنْ تَطْهِيرِ أَشِـعَّةِ الشَّـمْسِ لِلأَمَاكِـنِ الَّتِـي تَصِلُهَـا. فَبَعْثَةُ الأَشِـعَّةِ بِمَنْزِلَةِ سِـفَارَةٍ صِحِّيَّةٍ، أَوْ قَافِلَةِ أَضْـوَاءٍ طِبِّيَّةٍ تُرْسَـلُ يَوْمِيًّا إِلَـى الأَرْضِ.

سَـهِرَ اللَّيْلَ، وَالطَّبِيعِـيُّ أَنْ يَنَامَ، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ رَصْدٌ مُبَاشِـرٌ لِـمُعَانَاةٍ تَسْتَحِقُّ الرَّحْمَـةَ وَالإِشْـفَاقَ. اللَّيْـلُ الطَّوِيـلُ وَالطُّـولُ مَـعَ مُعَانَـاةِ السَّـهَرِ وَالمَرَضِ، مُعَانَـاةٌ ثَالِثَـةٌ مُضَافَـةٌ إِلَـى حَـالِ ذَلِـكَ العَلِيـلِ. نَظْرَةٌ مِنْـكِ تَعْبِيرٌ يَحْمِـلُ الفَأْلَ الحَسَـنَ وَالبُشْـرَى فِـي اقْتِرَانِهَـا بِعَجُزِ البَيْـتِ خَلَسْـتِ بِشْـرَ الرَّسُـولِ. نَظْـرَةٌ غَـرَّاءُ، نَظْـرَةُ حَنَانٍ وَحُبٍّ وَوَصْـلٍ تُذْهِبُ وَجَعَ الـدَّاءِ! فَهِيَ نَظْـرَةُ عِنَايَـةٍ وَرِعَايَةٍ. وَكَأَنَّ اللَّيْـلَ تَكْرِيرٌ ثَالِـثٌ لِلكَلِمَةِ فِي هَذِهِ الفِقْـرَةِ، إِذِ اللَّيْلُ وِعَاءُ الأَحْـدَاثِ وَالحَرَكَةِ الحَـذِرَةِ وَالخَجْلَـى وَالمُغْرِضَـةِ أَيْضًـا. وَسَـيَأْتِي تَأْوِيـلُ ذِكْـرِ اللَّيْلِ تَالِيًـا بَعْدَ.

وَابْعَثِي أَبْنَاءَكِ الغُرْ

رَ إِلَى بَيْـتِ العَلِيـلِ

سَهِـرَ اللَّيْـلَ وَلَا مُسْـ

ـعِدَ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ

بَيْـنَ البَيْتِ الأَوَّلِ هُنَا، وَخَمْسَـةِ الأَبْيَاتِ التَّالِيَـةِ لَهُ عِلَاقَـةٌ وَثِيقَةٌ. فَالبَيْـتُ الثَّانِي: (وَابْعَثِي...) يَأْتِي تَرْقِيقًا لِقَلْبِ الشَّـمْسِ، وَإِثَـارَةً لِعَاطِفَةِ الشَّـفَقَةِ وَالرَّأْفَـةِ لَدَيْهَا؛ بِالكَشْـفِ عَـنْ مُعَانَاةِ ذَلِـكَ العَلِيـلِ مِنَ السَّـهَرِ وَفَقْـدِ الأَنِيـسِ. ثُـمَّ يَمْتَـدُّ تَيَّـارُ الاسْـتِرْحَامِ عَلَى مَـدَى الفِقْرَةِ الشِّـعْرِيَّةِ حَتَّى آخِـرِ أَبْيَاتِهَا...



نَظْرَةٌ مِنْكِ إِلَيْهِ
خَلَسَتْ بِشْرَ الرَّسُولِ
نَظْرَةٌ غَرَّاءُ تُودِي
بِجَوَى الدَّاءِ الدَّخِيلِ
وَكَأَنَّ اللَّيْلَ لَمَّا
خَانَهُ وَقْتُ الرَّحِيلِ
ضَامِنٌ قَلْبَ مُحِبٍّ
رَاعَهُ قَوْلُ عَذُولِ

لَكَأَنَّ عَاشِقًا أَزْعَجَتْهُ أَقَاوِيلُ لَائِمِيهِ فِي الهَوَى فَارْتَاع؛ فَأَثَارَ عَطْفَ اللَّيْلِ عَلَيْهِ فَأَجَّلَ اللَّيْلُ رَحِيلَهُ قَلِيلاً رَيْثَمَا يَهْدَأُ هَذَا العَاشِقُ وَتَصْفُو نَفْسُهُ. إِنَّ ثَبَاتَ اللَّيْلِ وَتَطَاوُلَهُ وَبُطْءَ ذَهَابِهِ عَنِ المُعْتَادِ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ كَفَالَتِهِ وَرِعَايَتِهِ لِهَذَا المُحِبِّ المُلْتَاعِ الَّذِي أَرَّقَهُ قَوْلُ العَاذِلِ اللَّوَّام. وَيَخْتَلِفُ تَفْسِيرُنَا هَذَا عَمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ مَنْدُور عِنْدَمَا رَأَى فِي هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ غُمُوضًا مِنْ جِهَةِ خَفَاءِ «وَجْهِ الشَّبَهِ بَيْنَ اللَّيْلِ البَطِيءِ المُتَرَاخِي وَبَيْنَ مَنْ ضَمِنَ قَلبَ مُحِبٍّ رَاعَهُ قَوْلُ عَذُولٍ». لَكِنَّهَا فِي رَأْيِنَا صُورَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ بَلِيغَةٌ لِطُولِ اللَّيْلِ الَّذِي ذُكِرَ قَبْلَ بَيْتَيْنِ مِنْ هَذَيْنِ. وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ -تَطَاوُلُ اللَّيْلِ- عَرِيقَةٌ فِي شِعْرِ العَرَبِ مُنْذُ امْرِئِ القَيْسِ، الَّذِي فَسَّرَهَا عَلَى نَحْوٍ آخَرَ بِاسْتِخْدَامِ (كَأَنَّ) التَّشْبِيهِيَّةِ أَيْضًا عِنْدَمَا قَالَ...

فَيَالَكَ من لَيْلٍ كأنَّ نُجُومَهُ
بِكُلِّ مُغَارِ الفتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

لَكِنَّ الرِّقَّةَ وَالرَّهَافَةَ وَالشَّفَقَةَ الَّتِي اسْتَوْلَتْ عَلَى قَلبِ اللَّيْلِ فِي الصُّورَةِ الَّتِي رَسَمَهَا شُكْرِي لَا نَجِدُهَا فِي بَيْتِ أَمِيرِ شُعَرَاءِ الجَاهِلِيَّةِ، الَّذِي عَبَّرَ عَنْ تَطَاوُلِ اللَّيْلِ وَبُطْءِ رَحِيلِهِ بِتَصَوُّرِ نُجُومِهِ مَرْبُوطَةً إِلَى جَبَلِ (يَذْبُل) بِحَبْلٍ قَوِيٍّ شَدِيدِ الفِتْلِ، وَذَلِكَ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا قَدْ يَبْدُو لَدَى شُكْرِي فِي التَّرْكِيبِ الشِّعْرِي (ضَامِنٌ قَلْبَ مُحِبٍّ رَاعَهُ قَوْلُ عَذُولِ) مِنْ مَآخِذَ مِنْ حَيْثُ افْتِقَارُهُ إِلَى جَوْدَةِ الصِّيَاغَةِ.

أهم المصادر والمراجع

- ابن منظور، لسان العرب.
- الأزهري، تهذيب اللغة، .
- أنس داود، عبدالرحمن شكري: نظرات في شعره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م.
- شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة.
- عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، 1420هـ/2000م.
- عبدالرحمن شكري، ديوان عبدالرحمن شكري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014م.
- عبدالفتاح الشطي، عبدالرحمن شكري ناقدًا وشاعرًا، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1999م.
- عبد المنعم خفاجي، مدارس الشعر الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية، 1991م.
- سعاد محمد جعفر، التجديد في الشعر والنقد عند جماعة الديوان، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1973م.
- ضيف عبدالمنعم الفرجاني، شعر المقطعات عند عبدالرحمن شكري وخصائصه الموضوعية والفنية (ضوء الفجر أنموذجًا)، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، ع 36، يونيو 2021م.
مكتبة نهضة مصر، الشعر المصري بعد شوقي، د.ت.

امرَأةٌ مِنَ الطَّباشِيرِ، لِسَنِيّة صالح

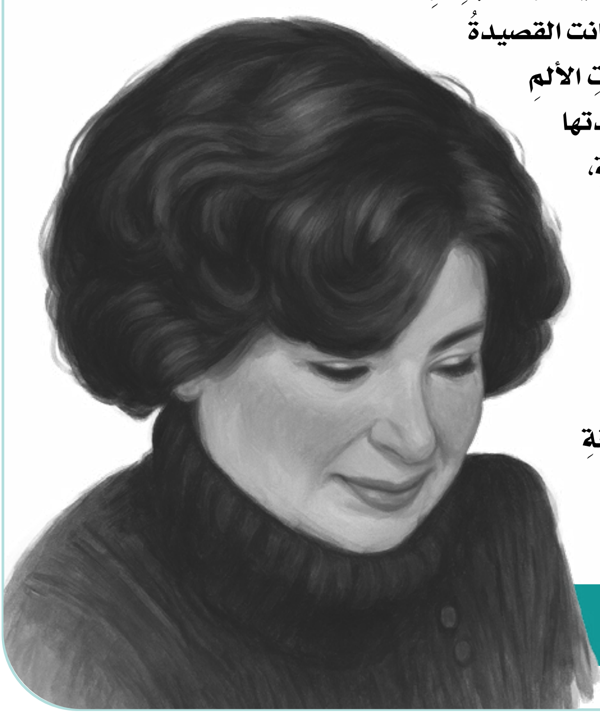
(1935 – 1985)

(التَّدَاخُلَاتُ بيْنَ الشِّعْرِ والمَعْرِفَةِ العِلْمِيَّةِ)



ضُحى شبلي كشور
باحثةٌ أكاديميّة في الأدب العربيّ الحديث

باتتِ القصيدةُ في العصرِ الحديثِ -مع الانْثيالِ المعرفيِّ، والتّراكُمِ العلميِّ- مطواعةً لاحتواءِ ما ينفثُ الشّاعرُ في صلصالِها من رُوحِه المُعذّبة؛ تارةً بأنّاتِ الجوَى والاغترابِ والمعاناةِ، وتارةً أخرى بأنّاتِ المرضِ وما ينتجُ عنهُ من حالٍ جسديةٍ ونفسيةٍ تجعلُ منَ الكلمةِ الشّعريةِ ملاذًا، ومن موسيقاها مُتنفَّسًا، ومنَ المساحةِ التي توفّرُها في التّصويرِ الفنّيِّ فراشًا وثيرًا يبسطُ عليهِ الشّاعرُ حالَهُ مع المرضِ الذي ألمَّ به كما فعلت سنيّة صالح؛ إذ قاسَت تلكَ الشّاعرةُ والأديبةُ السّوريّةُ التي غطّاها لقبُ زوجِ الماغوطِ عذاباتٍ كثيرةً: ظاهرةً، وخفيّةً وأمّا الأخيرة فنجدُها في بطونِ السِّيَرِ، والمَرويّاتِ من مثلِ ما يَذكرُ عيسى الماغوط أخو زوجها من أنّها أجهضتْ طفلَها بعد مُشادّة جسديّةٍ مع أخيه وهي في شهرها التّاسع، وإن كنّا لسْنا بصددِ الكلامِ على مُعاناتها وصبرِها في حياتِها الزّوجيّة، غير أنّ معاناتَها الظّاهرةَ والكُبرى كانت مع مرضِ السّرطانِ الذي استبدَّ بها، و تخطّفَها، وأنهى حياتَها أمًّا وزوجةً؛ لتخلِّفَ ثلاثةَ أيتامٍ - الماغوط، و طفلتَيْها شام وسلافة -، ولمّا كانت القصيدةُ برشامةَ الشّاعرِ في التّعاملِ مع مرضِه، فقد قارعت سنيَّةُ مرضَها بشعرِها؛ يُثبِتُ ذلكَ ديوانُها الأخيرُ - ذكر الورد - الذي ينزُّ ألمًا، ولمّا كانتِ القصيدةُ كذلك معجونةً بالتّصاويرِ والرّؤى وعرقِ المرضِ، صادحةً بأنّاتِ الألمِ وزَفراتِه، فقدِ امتزجتِ الصّورةُ الشّعريّةُ لدى الصّالح في قصيدتها -امرأة من الطّباشير- بالمعرفةِ العلميّةِ ولاسيما الطّبيّة، والجديرُ ذكرُهُ أنّ الأدبَ التّكامُليَّ الذي يُزاوجُ بينَ الأدبِ شعرًا و نثرًا والعلومِ المختلفةِ وأثرِها فيه باتَ يحتلُّ بمنطقيّتِه حيِّزًا كبيرًا منَ المشهدِ المعرفيِّ اليومَ؛ لذا دأبَ هذا البحثُ على تجليةِ ما بينَ قصيدةِ (امرأة منَ الطّباشير) بشاعريتِها والرّؤى المعرفيّة الطّبّيّة من تواشجاتٍ كثيرة، فيبدأُ بعلاقةِ الطّباشيرِ بشاعريّةِ القصيدةِ، وينتقلُ إلى تجلّياتِ المعرفةِ الطّبيّةِ في مفاصلِ القصيدةِ، وينتهي إلى الخاتمةِ.



سنيّـة صـالـح

أوّلاً: الطّباشيرُ وعلاقتُها بالقصيدة وشاعريّتِها:

لا يخفَى أنّ الطّباشيرَ: مادّةٌ حَجريةٌ كلسيةٌ تكوّنت منَ الكالست في ظروفٍ مناخيّةٍ ملائمةٍ، وقد مرّت جيولوجيَا الأرض بأحقابٍ منها: العصرُ الطباشيريُّ؛ وفيه كانت الطّبقةُ العلويّةُ منَ الأرض غنيّةً بالإيريديوم، وأصولُها تعودُ إلى فوهةِ شيكشولوب التي يُعتقدُ أنّها سببٌ في انقراضِ الدّيناصورات، وهي مادّة تنطوي على خصائصَ كيميائيةٍ؛ فقد يرسمُ الطّفلُ خطًّا منَ الطّبشورِ يكونُ سببًا في ابتعادِ النّملِ؛ وما ذاكَ إلّا نتيجةَ فيرمونات المادّة الطّبشوريّة الغباريّة، ولها خواصُّها المؤثّرةُ في الحقولِ المختلفة، وأمّا في حقلِ الطّبِّ فقد أفادَ العُرفُ الطّبيُّ ممّا لها من خواصَّ في مُسمّياتٍ كثيرٍ منَ العوارضِ؛ فكسورُ الطّباشيرِ مثلاً تُطلقُ على كسور العظامِ الطّويلة؛ تشبُّهًا بطولِ الطّبشور، أو على كسور الأطفال؛ تشبّهًا بطراوة الطّبشور، وكذلك فقد استثمرَ كثيرٌ منَ الشّعراءِ لفظةَ الطّباشيرِ، وخصائصَها الدّلاليّةَ في شِعرهِم؛ للتّعبيرِ عنِ الانفعالات النّفسيّةِ وليسَ من نافلةِ القولِ أن نُشيرَ إلى أنّ نزار قبّاني قد أوردها مُستثمرًا خصائصَها في غيرِ سياقٍ كقولهِ في قصيدةِ الحاكمِ والعصفور:

أَتَقيّأُ أَحْزَاني
وَأَدُوسُ جَمِيعَ شِعَارَاتِ الطَّبْشُور
وَأَظَلُّ عَلَى بَابِ بِلادِي مَرْمِيًا
كَالقَدَحِ المَكْسُور

مِن قبّاني الجريح إلى الصّالح المريضةِ حملَ الطّبشورُ لواءَ التّعبيرِ عنِ الألم، فحينَ تجعلُ الشّاعرةُ العتبةَ الأولى لقصيدتها حاملةً التّعريفَ بأنّها امرأةٌ منَ الطّباشيرِ، والعنوانُ بسبْكِهِ حاصلُ امتزاجِ النّكرةِ والمعرفةِ فلم تقل: امرأةٌ من طباشير في مساواةِ بينها وبين المادّة المصنوعة، إنّما قالت: منَ الطّباشير، وفي هذا قوّةُ شكيمةٍ، وإصرارٍ على حصْرِ المادّة. وفي الوقتِ نفسِهِ تتكلّمُ بلسانِ خلايَا جسدِها وتُفتّتُها غُبارًا كالمادّةِ الأوّليّةِ للطّباشيرِ، وهنا فإنَّ ثمّةَ تكاملاً بين الشّعرِ والمعرفة أنتجَ القصيدةَ، وأعانَ في التّعبيرِ عن الألمِ بآلياتٍ مختلفة، تجلّت بوتيرةٍ متدرّجةٍ في مقاطعِ القصيدةِ، وأسهمت فيه مُستويات التّعبيرِ مُتضافرَةً في القصيدةِ على النّحوِ الآتي:

- التّواشُجُ بين أصولِ الطّباشيرِ ومقاومةِ الخلايا:

تفتتحُ الصّالحُ قصيدتَها بالكلامِ على خلايا جسدِها بعد أنّ جسّدتها بشكلِ طباشير، و المعلومُ أنَّ الطّبشورةَ تعيشُ عُمرَ الغبارِ، وتُفني جسدَها؛ فتتحلّلُ أجزاؤها عند احتكاكِها؛ إذ تقولُ:

يَنْبُشُونَ المُسْتَقْبَلَ مِنْ أَحْشَاءِ الرَّمِلِ
يَنْقَلِبُونَ فِي السِّنِّ
وَفِي المِزَاجِ.
لِيَرَوا أَيْنَ يَذْهَبُ الزَّمَنُ الذِي يُحِبُّونَ.
أَوْ يَرْحَلُونَ فِي النَّارِ.
وَأَلْسِنَتُهَا تَرْوِي الغَرَائِبَ.
أَمَامَ سَلُوقِيٍّ وَحِيدٍ.



باتتِ القصيدةُ في العصرِ الحديثِ مطواعةً لاحتواءِ ما ينفثُ الشّاعرُ في صلصالِها من رُوحهِ المُعذّبةِ.

إنَّهُ الطَّقسُ اليَوْميُّ لِتَحْريرِ الخَلايَا.

وهنا نلحظُ انزياحًا واضحًا في استعمالِ دلالة الفعلِ «نَبَشَ»؛ فإنَّ النّبشَ يكونُ للماضي، وهي جعلتْها تنبشُ في المستقبلِ من أحشاءِ الرّملِ في دلالةٍ قويّةٍ على انهيارِ الخلايا مستقبلاً كما ينهارُ الطّبشورُ. تتابعُ وينقلبونَ في السّنِّ والمزاجِ في إشارةٍ علميّةٍ إلى أنّ عمرَ الخلايا حينَ تنقسمُ يكونُ مُتفاوتًا؛ تُردفُ بلام التّعليلِ (ليروا أين ذهبَ الزّمن الذي يُحِبّونَ)، وتضعُ احتمالاً آخرَ لابدَّ أنَّ فيه إشارةً إلى الجُرعاتِ الكيماويّةِ التي لا يتناولها مريضٌ إلّا يصفُ كيَّها، غيرَ أنَّ وصفَ سنيَّةَ الصالح لها قد يخطفُكَ إلى صورةٍ شِعريةٍ عربيّةٍ، حينَ تُوقدُ النّارُ لاستقبالِ الضّيفِ، وألسنتُها تروي العجائبَ أمامَ سَلوقيٍّ؛ أي كلبٍ، وهذا من تقاليدِ العربِ، فإنَّ لهم ثلاث عشرة نارًا منها نارُ القِرى، وكانوا يُوقِدونها ليلاً ليهتدي الأضيافُ إليهم مُعتمدينَ إمّا على نارها، أو على صوتِ السّلوقيِّ، وَ هُنا ظلالٌ لمصطلحٍ طبيٍّ خفيٍّ وهو «مُسْتَقْبِلُ المرضِ» أو «مُضيفُ المرضِ»، ولعلَّ في المشهديّة القائمةِ المقطعِ الشّعريّ إشارةً إلى استضافتِها للمرضِ، ولاسيما أنّها تابعت أنّ هذا هو الطقسُ اليوميُّ لتحريرِ الخلايا، وينتجُ عنه – لا مناصَ – آلامٌ لها تجلّياتُها في بِنيةِ القصيدة.

- آلامُ المقاومةِ الخَلويّةِ وضريبتُها:

تُنتجُ مقاومةُ الخلايا انقسامَها آلامًا كبيرةً عند مريضِ السّرطانِ، تجعلهُ يشعرُ بما يدورُ في جسدِهِ، وإن كانَ



من نِعمَ الخالقِ أنَّ الإنسانَ أصمُّ عن سماعِ انقساماتِهِ الخلويّة، وضرباتِ قلبهِ، وجريانِ دمهِ، نتيجةَ وجودِ عتبةٍ في السّمع تحجبُ عنهُ سماعَ الأصواتِ المتناهيةِ الضّعفِ، والقوّة، وحتى أصواتِ ما يدورُ في الفضاء، غيرَ أنَّ المريضَ قد يسمعُ الألمَ بواخرَ وعواصفَ في جسدِهِ، وهذا ما يتبدّى جليًّا بعد تقديمِ تكرّرُ فيه «الصّالحُ» أنّها امرأةٌ منَ الطّباشيرِ، وتجنحُ نحو التّصالحِ مع المرضِ؛ فهي تحتضنُ حالتَها من دون فواتيرِ الخسائرِ، و إيصالاتِ الألمِ، تقولُ :

امرَأةٌ مِنَ الطَّباشِيرِ.

تُعانِقُ عُشّاقًا مِنَ الرِّمَالِ.

دُونَ أَنْ تَطْلُبَ فَوَاتِيرَ الخَسَائِرِ.

وَلَا إيصالاتٍ بِالآلامِ وَالأَحْزَانِ.

تَعْبُرُ العَوَاصِفُ

تَدْخُلُ القَاطِرَاتُ المُسْرِعَةُ

تَخُوضُ جَوْفَ الرَّغْبَةِ

بِصَلابَةِ المَقْهُورِينَ وَجَشَعِ المَحْرُومِينَ

وَلُهَاثُهَا يَنْطَلِقُ كَالدُّخَانِ

مِنَ الشّرايينِ وَالأَزِقَّةِ.

وَمِثْلَ لُصُوصٍ مَذْعُورِينَ.

تُفرغُ حُمُولَتَهَا مِنَ الأَحْلامِ وَالرَّغَبَاتِ.

ولابدَّ أن تلحظَ مورفولوجيا صِيَغ الجمع: (فواتير – إيصالات – القاطرات) وفي المقابل تستقبلُها (بصلابةِ المقهورين، وجشعِ المحرومين) ولهاثُ تلك القاطرات ينطلقُ منَ الشّرايين والأزقّة كلُّ هذا الحشدِ لصِيَغِ الجمع إنّما هو من وحْيِ تكاثُرِ الخلايا تكاثُرًا غيرَ طبيعيٍّ ما يُشكِّلُ في أساسه مرضَ السّرطان الذي تُعانيه، ولابدَّ أنّ يُخلِّفَ هذا حالاً نفسيّةً مأزومةً تتأرجحُ بينَ التّصالحِ واليأسِ والخيبة ممّا يُشْرِعُ الأبوابَ للسّؤالِ الشّعري المُثقَلِ بالحسرات.

- مشروعيّة التّساؤل وشاعريته بين الألم الجسديّ والنّفسيّ:

ينتجي التّساؤلُ عندها نحوًا من استعمالِ أداةِ السّؤالِ عن الحالِ (كيف)، غير أنّه لا يقفُ عند الصّحة إنّما يلمسُ الأنوثةَ بأعلى تبعاتِها (الرّبيع) وما تحملهُ اللّفظةُ من دلالاتٍ على الفُتوّةِ والشّبابِ والنّضارةِ المفقودةِ مع المرضِ، فضلًا عن انعدامِ القابليّة للكلام؛ ما طرحَ التّساؤلَ المنطقيَّ عن إمكانيةِ استئصالِ الكلمةِ منَ الفم المُطبَقِ، وكلُّ هذا ماثلٌ في قولها :

كَيفَ يَدْخُلُ الرَّبِيْعُ وَالحُبُّ

إلى جَسَدٍ تَحْكُمُهُ الخَسَارَةُ؟

كَيفَ تُستَأصَلُ الكَلِمَةُ مِنَ الفَمِ المُطْبَقِ؟

ويُتبَعُ السّؤالُ لديها بالمحظوراتِ التي تُعيقُ من تحقّقِ الإجابة، وعلى رأسِ هرمِها صعوبةُ الشّفاءِ وضريبتُه، فالشّفاءُ رصاصٌ في الجسدِ مَبعثُه شُخوصٌ وهميّون؛ إذ تقولُ :

وَالشِّفَاءُ رَصَاصٌ يُطْلِقُهُ شُخُوصٌ وَهْمِيّونَ

يُدَاعِبُونَ القَلْبَ بِضَراوَةٍ

تَتْبَعُهُمْ إلى المَغَاوِرِ.

والطَّبَاشِيرُ يَتَسَاقَطُ مِنْهَا.

فَتَطْلُعُ غَابَاتُ الأَشْوَاكِ.

وَتُسْقِطُ نِقَابَهَا البَلابِلُ.

نلحظُ مدَى تأكيدِ سنيّة الصّالح صورةَ الطّباشيرِ وهي المُعادِلُ الموضوعيُّ لخلاياها وحالتِها مع السّرطان، وهي إذ تستردفُ من وِجدانها مزيدًا منَ الصّورِ بشأنِ عقابيلِ انهيارِ الخلايا يدفع الأخيرُ إليها بصورةِ غاباتِ الأشواكِ، وسقوطِ نقابِ البلابلِ، وتعاودُ جعلَ الخلايا أطفالًا لا حولَ لهم ولا قوّةَ، سراويلُهم قصيرةٌ، متقلّبين في السّن والمزاجِ، يصرخونَ خارجَ اكتواءِ نارِ العلاجِ، خارجَ أفراحِ النّارِ، وجنونِ الرّيحِ.

يَنْطَلِقُ الأَطْفَالُ بِسَرَاوِيلِهِم القَصِيرَةِ.

خَارِجِينَ مِنَ الطُّفُولَةِ.

يَنْقَلِبُونَ في السِّنِّ وَفي المِزَاجِ.

يَصْرُخُونَ.

قَلْبٌ مِنْ هُنَاكَ قَلْبٌ من هُنَا

تَحْمِلُهُمُ القِطَارَاتُ

خَارِجَ جُنُونِ الرِّيحِ.

خَارِجَ أَفْرَاحِ النَّارِ.

تختتمُ الصّالحُ (المرأةُ من الطباشيرِ) قصيدتَها بمفارقةٍ سَرديّةٍ مكثّفةٍ؛ إذ تصدمُكَ أنَّ كلَّ هذي التّداعيَات لمرضها، ومَقدرتِها على المعالجةِ الشّعريّة لحالتِها على نحوٍ تمتزجُ فيه المعرفةُ العلميّةُ الطّبيّة، وتُجنحهُ الشّاعريةُ في التصويرِ، والمقدرةُ على التّنويعِ في الأساليبِ، فتختتمُ بقولها :

كَانَ ذَلِكَ فِيمَا مَضَى

لَكِنَّ الشِّفَاهَ صَدِئَتْ

صَدِئَ الكَلامُ.

وَجَفَّ حِبْرُ الرَّوائِعِ.

وهي بهذا تُثبتُ أنّها حاربت مرضَها بسلاحِ التّعبيرِ الشّعريّ فيما مضى، لكنّ الشّفاهَ صدئت، وهنا وإلى آخرِ رمَقٍ ثمّةَ إصرارٌ على توظيفِ المعلومةِ العلميّةِ بصورةٍ شاعريّةٍ وبآليةِ التّوريةِ فإنّ الصّدأ يكونُ للحديدِ بعد أن يتقادمَ عهدُه مع الظّروفِ الجويّةِ، ويكونُ الصّدى بمعنى الجفافِ وشدّةِ العطَش، وفي كلا التّعبيرَين تعيشُ شفاهُ مريضِ السّرطانِ جافّةً ومع جفافِها يجفُّ حِبرُ القصيدة.

الخاتمة:

إن كان منَ النّادرِ أن تجدَ مريضًا لا يُحيطُ خُبْرًا بمرضِه وكيفَ ينتشرُ في جسدِه، غيرَ أنَّ صياغةَ المرضِ على صورةِ قصيدةٍ ناضحةٍ بالمعلوماتِ العلميّةِ الطّبيّةِ، غنيّةٍ بالأساليبِ الفنيّةِ، وصدقِ التّصويرِ النّاتجِ عن مرارةِ التّجربةِ يجعلُ من هَذهِ القصيدةِ مِزقةً من ألمٍ، ونفْثةَ مريضةٍ مصدورةٍ تُثبِتُ فيها مدَى طَواعيَةِ الشّعرِ العربيّ لاحتواءِ كلِّ ما يمرُّ به الإنسان.

أهم المصادر والمراجع

(1) صالح. سنية. ديوان ذَكَرالورد. دار رياض الرّيس للكتب والنّشر. 1998.ص39.

(2) صالح. سنية. ديوان ذَكَرالورد. دار رياض الرّيس للكتب والنّشر. 1998.ص39.

(3) صالح. سنية. ديوان ذَكَرالورد. دار رياض الرّيس للكتب والنّشر. 1998.ص40.

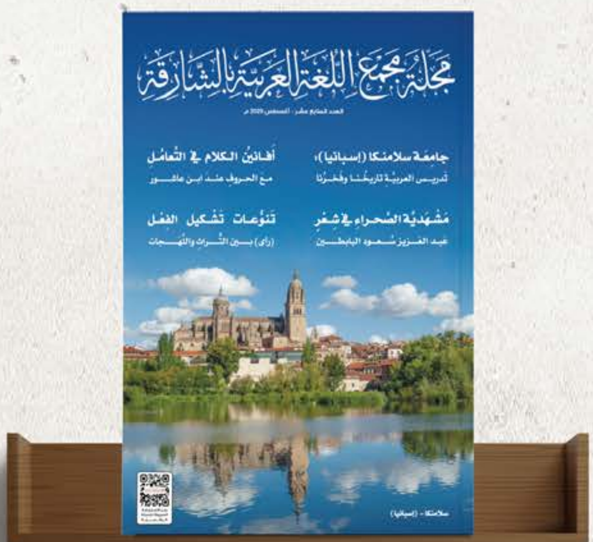
(4) السابق نفسه.

(5) صالح. سنية. ديوان ذَكَرالورد. دار رياض الرّيس للكتب والنّشر. 1998.ص40.

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع اللغة العربية بالشارقة
ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

إصدارات

مجلّة مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة



العدد السابق

امسح الرّمز لقراءة العدد السّابع عشر



Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

معرض الشارقة الدولي للكتاب

SHARJAH INTERNATIONAL BOOK FAIR



انتظرونا في معرض الشّارقة الدّوليّ للكتاب في نسخته «44»